Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

الصديق الوهمي

محاولة ما قبل السقوط النهائي

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

ياسر رافع

إخراج وتصميم الغلاف :
فريدة أبوستيت

المدقق اللغوى :
مصطفى صقر

إهداء

إلى زوجتي الغالية

ابني عمّار

ابني عليّ

مقدمة

«إحنا جيل مظلوم».. عبارةٌ سمعتها كثيرًا منذ نعومة أظفارى، من أجيال مختلفة الأعمار والمشارب الثقافية والاجتماعية، ولم أدر أننى سأكررها يومًا ما، وكأنها قدرٌ محتومٌ على الشخصية المصرية، التى تعانى تهميشًا متعمدًا، ووسمًا كوسم العبودية يُعرف به كلُّ المهمشين عمدًا، من قِبل كل الأنظمة السياسية التى تعاقبت على حكم هذا البلد المكلوم، وبالأخص منذ بداية عصر مصر الحديثة، الذى يزيد عمره قليلًا على المائتى عام.

وقد أراد هؤلاء المهمشون أن يتفاعلوا ويشاركوا فى صُنع المستقبل، فوجدوا من يقف حائط صد، ضد طموحاتهم وتصوراتهم الثورية.

شبابٌ يريد المستقبل، وقادر على الوفاء بمتطلباته، استُعملت كلُّ الأساليب، لكبح جماحه على مدار عشرات السنين، حتى أضحت أجيالٌ بكاملها، تُشبه دفاتر أحوال متراصة على أرفف التاريخ يعلوها التراب، ولا تجد من ينفض عنها تراب الظلم والقهر، ولو حتى لتجميل البيت.

وجيلى ليس استثناءً، من تلك الأجيال التى سبقتنا، والتى أضحت أثرًا تفوح الروائح من بعض جنباته المبدعة، لكنها لا تستطيع مقاومة رائحة التراب المتراكم فوق دفاتر أحوال وطن، تلك الدفاتر التي تحوى سخرية القدر عن شباب يمثل أجيالا بكاملها، مات حُلمها، وتحولت هذه الأجيال إلى مجرد أرقام وعناوين، وأضحى أقصى حُلمها أن تقف في طوابير طويلة؛ للبحث عن لقمة عيش، كقطيع ضلَّ الطريق، وأصبح مرشده الوحيد طابور الخبز، أو أيا ما كان اسمه.

كانت بداية تفتُّح الوعى لدىَّ فى منتصف ثمانينيات القرن العشرين، وأنا على مشارف تجاوز المرحلة الإعدادية، حيث كان الجو المحيط بى ينبئ عن عملية حراك مجتمعى، يقوده تيار مقاوم، يريد المستقبل، تيار مُحمَّل بآمال كبيرة للتغيير مشفوعة بتجربة كبيرة فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وتجربة مختلفة عنها قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

أى أننا نتكلم عن حراك اشتراكى قومى وتيار ليبرالى رأسمالى جرىء، تم استدعاؤه من على الأرفف، ليقوم بدور المحلل الشرعى للمرحلة الجديدة، ولشرعية حكم جديد.

وقد شاهدت بأمِّ عينى- بل وشاركت جلوسًا وأنا صَبِيٌّ- الندوات والمؤتمرات السياسية الكبيرة، التى كانت تُعقد بين الحين والآخر فى قريتى، فكانت تُلهب حماسى، وأنا أرى المنظمين والمشاركين والمتحدثين على منصات المؤتمرات حينئذ، كانوا ذَوي قيمة كبيرة، أمثال المرحوم إبراهيم شكرى، مؤسس حزب العمل الاشتراكى، الذى يمثل علامة فارقة فى تاريخ مصر السياسى، والأستاذ خالد محيى الدين، زعيم ومؤسس حزب التجمع، وممثل اليسار بعامة فى تلك الفترة.

ووسط كل هذا، كان هناك صعودٌ لا يخفى على أحد لتيار الإسلام السياسى، الذى كان يتوارى خلف حماس جيل، أرادت له السلطة أن يصعد كما غيره من أجيال، وأن يتحول إلى دفتر أحوال الوطن على أرفف أرشيف التاريخ.

أرادت الدولة وقتئذ أن تأخذ مَنْحَى جديدًا يعبر عن توجهاتها الجديدة، منحى يبتعد عن المسار الوطنى الذي يدافع عنه جيل، يزأر فى الشوارع.. وكانت الدولة أيضاً لا تريد منهجًا ليبراليًا يُعيد فكرة تداول السلطة مرة أخرى.. لهذا اختارت التحالف مع تيار الإسلام السياسى الذى تكفَّل معها فى إزاحة ما تبقى من أجيال تريد مستقبلا مختلفا عن تصوراتهم.

لكن سرعان ما تبدد وَهْم هذا التحالف، وتحول إلى صدام مسلح فى بداية التسعينيات، وكنت وقتها أتلمس خطواتى

الأولى فى التعليم الجامعى، الذى لم أجد فيه المتعة الحقيقية إلا خارج الأسوار، حيث إن الجدران كانت تحوى تماهيًا قميئًا بين السلطة والتيار الإسلامى وبعدًا إقصائيًا لكل التيارات الفكرية الأخرى.

ومع ارتفاع وتيرة العمليات العسكرية والإرهابية بين الدولة والتيار الإسلامي، بات واضحًا أن عملية اكتمال صعود أجيال شهدت فورتها قد تمت بنجاح، وأخذت مكانها على الأرفف، ولم أجد حولى من يساعدنى على تجاوز تلك المرحلة الصعبة، التى أصبحت أتحسس رأسى، وما تحويه؛ خوفًا من سلطة لا تريدنى، وجو عام يُخاصم المستقبل.

« أين ذهب الجميعُ «.. عبارةٌ أقلقت نومى طويلاً؛ باحثًا لها عن إجابة، فقد أصبحت فى وضع جديد تمامًا، انتهت دراستى الجامعية وانتهت معها فترة الصدام بين الدولة والتيار الإسلامى، بانتصار الدولة عسكريًا وأمنيًا، وعلى الرغم من الزج بأنصار هذا التيار فى السجون، فإن هذا لم يكن كفيلاً بعودة أنصار الأجيال السابقة، فقد آثر معظمهم أن يتوارى عن المشهد؛ مُؤثرًا أرفف التاريخ، وأقْبية الزمن؛ حماية لما تبقى له من مستقبل يحمله أبناؤه؛ وحماية لهم من بطش السلطة، وقلة تماهت مع السلطة، أملاً فى مكاسب ربما حصلت عليها فيما بعد، وآخرون آثروا الرحيل بحثًا عن أمل فى مكان آخر.

لذلك لم أجد حولى- وجيلى- من يقف بجانبي، تركونا على قارعة الطريق، تنهشنا سلطةٌ تريد جيلًا بمواصفات معينة، وتيار عائد بقوة للمشهد مرة أخرى وهو التيار الإسلامى بصيغة تحالف جديدة مع السلطة فى ظلال رأسمالية جديدة تُغير الدولة فيها جلدها بالكامل وتتملص به من حقبة كاملة تقصف ما تبقى لدينا من موروث ورثناه من أجيال سبقتنا.. كل هذا وسط تراجع مزرٍ للمنظومة التعليمية والثقافية.

لذلك لا عجب أن أرى نفسى أسيرًا لعالمى الخاص معَ الكتب، محاولاً التحصُّن فى خندق يحمينى؛ أقاوم فيه إلى أن يأتى يوم الانتصار وفى الوقت نفسه مُتماهيًا بالعمل مع عالم رأسمالى جديد، يختلف عن موروث أجيال تعلمنا منها نمطا اقتصاديًا مختلفًا؛ من أجل لقمة العيش، و كلما أتوجه يمينًا ويسارًا، لا أجد من يُخبرنى أين ذهب الجميع؟ ولكن الدولة دائمًا ما كنت تهمس فى أذنى أن أستعد للحاق بمن سبقوك إلى أرفف التاريخ، وأقبية الزمن وأنا على مشارف الأربعين من العمر.

ومع تفاقم مأزق الرأسمالية الجديدة فى مصر وارتفاع وتيرة السخط الشعبى؛ الناتج عن السياسات الاقتصادية المتخبطة، وارتفاع معدلات البطالة التى عندها بدأت الأزمة فى مصر تأخذ منحنى جديدًا، بات واضحًا أن نُذر سُحب التغيير قد لاحت فى الأفق، وهو ما حدث يوم ٢٥ يناير ٢٠١١، الذى سطّر تاريخًا جديدًا فى تاريخ مصر المعاصر، بأحرف من نور، معلنًا ميلاد جيل جديد، جيل هادر أزاح سلطة جاثمة على صدر وطن جعلته يلهث، جيل جديد يعانى أزمة مفاصلة تاريخية مع ما قبله فى سابقة ليس لها مثيل فى التاريخ، وهذا بفعل سياسات التعليم، والممارسات الأمنية لنظام مبارك، جيل يريد المستقبل ولا يعرف له قائدًا، يحمل جموحًا للمعرفة ولا يعرف إلى أين يتوجه؟؟

هنا أصبح لزامًا أن يبحث هؤلاء الشباب عن قيادة تأخذ بأيديهم وتعلمهم وترشدهم، فكان لزامًا عليهم أن يبحثوا فى أقبية الزمن وفى دفتر أحوال الوطن، عن كاريزما تعوضهم عن قصور أجيال، تركتهم لسلطة تنهشهم، فكسروا الأرفف ووقعت الدفاتر وصار هناك غبار كثيف يغطى مساحة ركام تاريخى كبيرة، لم يجن منها الشباب بعد انقشاع الغبار إلا قيادات آلت إليها ثورتهم، لا تُناسب لا المكان ولا الزمان، بل وليسوا هم أولى بتلك اللحظة التاريخية.

وعندما طُلب من الأستاذ الكبير الراحل « محمد حسنين هيكل « النصيحة لزمن قادم فوصف نفسه وجيله بـــ» الكراكيب» التى يجب ألا يقف عندها الشباب؛ ليستقى منها خبرة لزمن قادم.

ولكن مازال دفتر أحوال الوطن يحمل فى طيات أوراقه الصفراء أُناسًا ساعدوا هؤلاء الشباب، وما زالوا يمارسون فعل مقاومة السقوط.. وشرعوا في مشروع لتواصل الأجيال، وتكوين لُحمة تاريخية مطلوبة فى هذا الوضع التاريخى الحرج.

وفى خضم وضخامة حدث الثورة، الذى حمل كمية هائلة من الأحداث، التى أوجدت أسئلة كثيرة لدى شباب، وجد نفسه قد فعل إعجازًا تاريخيًا، لكنه يجهل ملامحه، وقسمات المستقبل فيه، لذلك تلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن إجابات تُريحه، وتُسلمه إلى مسار تاريخى، يُحافظ فيه ومن خلاله على مكتسباته.. وفى خضم هذا الحدث، وجدتُ نفسى منساقًا كغيرى فى حوارات مع الشباب، تفاجأ كلانا بوجود الآخر، جيل فقد دوره؛ بفعل التيه؛ الذى اصطدم به وتحلّق حول عالمه الخاص الملىء بالكتب والندوات المتناثرة هنا وهناك؛ مكتفيًا بالمشاهدة التاريخية، فى معظم الأحوال نظرًا لطبيعة وجبروت السلطة الحاكمة، وجيل يبحث عن إجابات متسلحًا بتعليم نظامى مُتدنٍ يفتقر للمستويات المطلوبة لشباب، يريد اللحاق بالمستقبل، ناهيك عن قيادة تحولات كبيرة كثورة ٢٥ يناير.

تفاعلت وشاركت مُؤثرًا التراجع خطوة خلف هؤلاء الشباب، لأنهم الأحق بصدارة المشهد مِنّى ومن غيرى؛ لأنهم أصحابه، وأصبح اللقاء يوميًا نقاشات وحوارات وأصوات تعلو أحيانًا وتخبو أحيانًا.

بمرور الأيام وتصاعد الأحداث وسيولتها، تسلل إلىَّ إحساسٌ غريبٌ بأن هناك شكا متصاعدًا بين الشباب وأجيال سابقة؛ الشباب يرون أن هناك من يحاول أن يسرقهم ويسلبهم حقهم فى الانتصار، وجيلٌ يرى أنه إذا لم يكن هو من أسقط النظام، إلا أنه الأحق بالانتصار بدعوى أنه هو الذى مهَّد الطريق للثورة، وهو طبعًا ليس محقًا فى كامل تصوراته.

هنا وفى خضم عالم صاخب لم يعد أحد يسمع الآخر وصولاً لأحداث ٣٠ يونيو، التى تلت الخروج الثانى أو الموجة الثانية لثورة ٢٥ يناير، وجدتُ من يهمس فى أذنى بنصيحة، أنه لا داعى لاستهلاك ما تبقى من مقاومة فى محاولة- اعتبرها هامسى محاولة فاشلة- تصويب اتجاهات الشباب، الذين يرى معظمهم أنهم الأحق والأجدر، وأن غيرهم لا يفهم شيئًا، وأنه يجب تغيير نمط المقاومة، من الاتصال المباشر إلى استخدام فعل الكتابة، مستعينًا بوسائل الاتصال الإلكترونية؛ لمحاولة توصيل الفكرة وتصحيح المفاهيم؛ بعيدًا عن رواد مقاهٍ لا يرغبون من وراء نقاشاتهم البيزنطية إلا فى إظهار الفحولة، التى تريد الانتصار لرأى بغض النظر عن معقوليته.

وعلى الرغم من أن النصيحة جاءت متسلسلة وعلى فترات، إلا أنها كانت صيحةً للاستفاقة من عوالم الوَهم التى انتابتنى وانتابت أجيالا أسبق مِنّى، وأن الثورة كانت وما زالت هى المحاولة الأخيرة، لمن يُريد أن يثبت أنه قادرٌ على أن يلحق بالمستقبل، أو يساعد على لحاق غيره بالمستقبل، لذلك كان تطبيق النصيحة هو القيامُ بفعل الكتابة، واستغلال وسائل الاتصال الإلكترونى.

وكان أول مقال لى- أعتبره أصعب مقال كتبته فى حياتى- هو حوار مع هذا الصديق القادم من وراء عوالم الوهم، التى كنت أتيه فيها، بعنوان « صديقى الوهمى » وكان على هيئة حوار قصير، وقُوبل المقال بحفاوة مُشجعة على المضى قدمًا إلى أبعد من ذلك.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا أُدبج المقالات؛ حتى فُوجئت فى يوم من الأيام بصديقى الشاب الصغير» سِراج أبوستيت» يبعث لى بروفة لصفحة جريدة يعمل بها محررًا فنيًا، وبها مفاجأة من العيار الثقيل، حيث نَشر أحد مقالاتى بالجريدة؛ وهو حدثٌ لا يناله أحدٌ بسهولة، مع وعد من رئيس تحرير الجريدة ومدير تحريرها بمواصلة الكتابة، بالمستوى نفسه، وبالخصوصية نفسها، بالجريدة نفسها.

وهكذا وجدت نفسى أتجاوز مراحل كثيرة، وتعددت المقالات التى تناولت فيها قضايا الشباب والوضع الداخلى والخارجى، والانتخابات الرئاسية، وقضايا تهم الشأن العربى والدولى.. وفى تلك الفترة كانت هناك جسورٌ أخرى، تمتد

إلى مساحات جديدة للكتابة فعلى مواقع إلكترونية مثل موقع « الغلاف «، وجدت الصحفى الشاب « **محمد حلمى** « شابًا آخر يمد يده؛ ليساعد على جسر الهوة بين الأجيال، ويوفر لى منصة وإطلالة جديدة للحوار مع الشباب، وكذلك الصحفى النابه المحترف « أيمن الشحات « مدير التحرير ورئيس التحرير للعديد من الصحف والمواقع الإلكترونية، الذى لم ألتق به، حتى كتابة تلك السطور، لكن كان له فضلٌ كبيرٌ فى اتصالى المباشر مع الشباب.

ويبدو أن الرياحَ دائمًا تأتى بما لا تشتهى السفن، فقد طالت الأزمة الاقتصادية الجميع وأصبحت مسألة الانتظام فى الكتابة محاولة صعوبة إلى حد ما ، لذا كان التفكير في عمل آخر؛ يحول دون القطع مع ما سبق، وهو ما كان من نتيجته إنشاء مدونة إلكترونية خاصة تحمل اسمى «مدونة ياسر رافع»؛ لتكون منصةً لا تطولها الأزمة الاقتصادية، وتكون معينًا لى؛ فى حال رفض أو اعتذار بلطف ممن لا يريد النشر لى، وهذا لم يحدث إلا فى حالات تُعد على أصابع اليد الواحدة.

وانطلقتُ من تلك المنصة إلى عوالم أختبر فيها نفسى وقدراتى، وأختبر فيها فعل مقاومة السقوط، الذى بدأت السلطة الجديدة تُمارسه فى إعادة لعقارب الساعة مرة أخرى، فكان ممارسة فعل الكتابة فى التراجم والسير الخاصة، بأناس أعرفهم وعاشرتهم، وصولاً للاختبار الحقيقى من وجهة نظرى، وهو فعل النقد الأدبى لأعمال أدبية بعينها رأيت فيها عملا يستحق التعرض لها لأهميتها.

والآن.. حانت اللحظةُ التى قررت فيها أن أجمعَ كل المقالات التى كتبتها خلال العامين الأولين، وأُصدرها فى كتاب منفصل؛ يحتفظ به من يريد الاحتفاظ به؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى توثيق لفعل تاريخى، وإجابة تاريخية عن سؤالٍ أزلى وهو: هل نحن فعلاً جيلٌ مظلومٌ؟

بعد ما مارست فعل الكتابة، والاختلاط بالشباب أستطيع أن أجيبَ عن هذا السؤال، بأننا لسنا جيلًا مظلومًا، بل جيلًا ظلم نفسه؛ كغيره ممن سبقوه، حيث لم يمارسوا فعل المقاومة إلى النهاية، وآثروا الركون لتهديد سلطة غاشمة؛ ولم يستخدموا قدراتهم الذاتية المتعددة، وأهمها فعل الكتابة، واستخدام أدوات المستقبل للتواصل مع ساكنى المستقبل من الشباب الحائر، الباحث عمن يرشده ويأخذ بيده.

وفي النهاية.. أرجو أن تكون هذه المقالات، فيها من القدر الكافى، للتواصل مع الشباب والمستقبل، على قدر استطاعتى، وإيمانى بأننى إذا لم يتوافر لى الوقت الكافى، لكى يكون لى مكانٌ فى الماضى، ولن يكون هناك وقت كافٍ للحاق بالمستقبل.. فعلى الأقل يكون لى صوتٌ مسموعٌ يجد صدى، وآذانًا صاغية؛ لعل وعسى، تجسر ولو جزءًا بسيطًا من الهوة بين الأجيال.

ياسر رافع

طحانوب – شبين القناطر – القليوبية
١٥ فبراير ٢٠١٧
الساعة السابعة صباحًا

الفصل الأول

ثورات مصر

الثورة يرحمكم الله للشعب

فى مشهد جنائزى مهيب، شُيع جثمان الراحل محمد السادس، ملك المغرب، اختلطت الأجواء الإيمانية، بطقوس تقديس شخص الملك، ووصلت إلى الحد الذى دفع أحد المشيعين للاعتراض والصياح فى جموع المشيعين قائلًا: «الجنازة يرحمكم الله لرجل».

لذا كتب الملك الحسن، ابنه، فى مذكراته « ذاكرة ملك « واصفًا هذا الموقف، كدرس له فى بداية حكمة قائلًا: « إن هذا درسٌ له، فمهما كانت مشاعر الناس وأحزانهم أو أفراحهم، ومهما كانت أبهة المُلك والمّلك، فإن الختام فى النهاية جنازة، وجنازة لرجل، وهذا ما يتبقى من أى حياة، الرجل الإنسان، ما يفعله الإنسان والأثر الذى يتركه بعد أن يستوفى عمره ويحل موعد الرحيل».

لا أدرى وأنا أسترجع قراءة هذا المشهد الجنائزى، وكذلك موقف الملك الحسن، أرانى وقد تشابهت أمامى المشاهد وتباعدت المواقف وأنا أنظر إلى الحالة المصرية الراهنة، التى أرى فيها مشهداً احتفالياً ممتداً من ٣٠ يونيو، وحتى الآن، يصوره الكثيرون على أنه انتصار، متجاوزين كل الحدود العقلية فى تصوير المشهد ككل، وصولًا إلى حد اعتبار خصومهم السياسيين خونة وجب اجتثاثهم، الأمر الذى جعل الأجواء فى مصر مشحونة بكل مركبات النقص، ووصل الأمر إلى إيجاد نوع من التقديس والإفراط فى إلصاق صيغة الأفضل على كل الصفات التى يصفون إياها المشير السيسى.. وهو ما يجعل التنبؤ بعواقف المشير السيسى المستقبلية، فى حالة تقلده مقاليد السلطة فى مصر أمرًا مشحونًا بالتوتر والقلق على مستقبل هذا البلد، فسقف التوقعات والطموحات التى علقتها الجماهير فى عنق المشير السيسى تجاوزت حدود المعقول لأن الشحن الإعلامى قد أوصل الجماهير إلى الحد أن السيسى، هوالبطل الأسطورى طارق بن زياد فاتح الأندلس، متناسيين أن الزمن تغير، وأن السيسى ليس أمامه الأندلس ولا وراءه بحر ماء.. بل أمامه مستقبل مجهول ووراءه بحر متلاطم من البشر، لن يقبل التأخير فى تحقيق مطالبه.. والتى انتظر طويلًا لتحقيقها.

فحنانيكم على الرجل، وعلى أنفسكم قبله، فالرجل ليست فى يديه عصا موسى، فهو رجل نجاحه يعنى نجاحكم أنتم، وفشله يعنى فشلكم أنتم، لذلك تذكروا دائمًا أن الثورة يرحمكم الله للشعب وليست لرجل يحكمنا.

لأن السير فى الطريق الذى نسير فيه، من التهليل والتبجيل والرقص والغناء، سيوصلنا حتما

إلى طريق مسدود، وإعادة لأوضاع ثورنا عليها قبلا من أجل مستقبل أفضل

ولكم أن تعلموا أن الملك الحسن، الراحل، الذى رفعه مشيعو جنازة والده إلى مرتبة الملك أمير المؤمنين، الذى كانت تحدوه الآمال لنهضة بلده، قد قال فى أحد رسائله للرئيس الفرنسى السابق شيراك « لا شىء سوف يتغير، و كله باقٍ على حاله».

أفيقوا يرحمكم الله، واختاروا ما شئتم، ولكن تذكروا دائمًا، أن الثورة- يرحمكم الله- للشعب.

تساؤلٌ يبحثُ عن إجابة

مع إذاعة البيان الأول لثورة يوليو ١٩٥٢، فإنه قد بات واضحًا للجميع أن شهادة وفاة قد صدرت للنظام السياسى الملكى، الذى سقط إلى غير رجعة بدءًا من رأس النظام، وهو الملك إلى بقية النظام السياسى، الممثل فى الأحزاب السياسية سواء المحسوبة على النظام، أو المستقلة.

وهذا تكرار معتاد للسلوك السياسى بعد قيام الثورات، الذى يتمثل فى إنكار الثوار الجُدد كل ما يتصل بالنظام السياسى السابق، وصولًا لإلغائه بالكامل، فى محاولة هدم كل ما يتصل بالقديم بصلة تحت دعاوى كثيرة، من نهاية لعصور العبودية إلى القضاء على الفساد، وصولًا لحلم بمستقبل، لم تتحدد ملامحه آنذاك.

ومع الزخم الناشئ، الذى صاحب قيام الثورة وكذلك التأييد الكاسح لها من الشعب، لم يسأل أحدٌ وقتها: ما شكل النظام السياسى القادم، الذى سيحكم فى المستقبل، ويكون فى الوقت ذاته حلقة الوصل بين الحكام الجدد والشعب، من أجل تحقيق مصالحة ومصالح الوطن، لأن حزب الوفد كان قبل الثورة هو صاحب الشعبية الكبيرة والممثل الأبرز لكتلة المال، الإقطاع، وممثل نظام سياسى، قد تم إرساؤه طوال مائة عام سابقة، وها هو يتم إلغاؤه مع بقية الأحزاب الأخرى.

وأصبحت الساحة السياسية فارغة فى انتظار من يملأ الفراغ الناشئ، مع حالة ثورية جديدة وقودها الشباب مؤيدة من الشعب على جميع أطيافه.

ومع استقرار الأوضاع ووضع دستور جديد للبلاد، سُرعان ما أصبحت مسألة وجود نظام سياسى جديد، مسألة ملحة لا تقبل التأخير، من أجل البدء فى البناء للمستقبل، فتم الإعلان عن نظام اشتراكى يقوم مقام النظام السياسى السابق من أجل إيجاد شكل سياسى دائم للمجتمع ومعبر عن توجهاته الجديدة، وصولًا إلى التخلص من بقايا النظام السياسى السابق.

وقد ظهرت مشكلة كبيرة ومهمة ألا وهى، أن هناك شبابًا ساند الثورة، وشارك فى إنجاحها والحفاظ عليها، رافضًا النظام السابق وحالمًا بمستقبل أفضل، لم يشترك فى العملية السياسية الجديدة، وقد بدا واضحًا للوهلة الأولى أنهم غير مؤطرين سياسيًا ولكن لديهم أمل فى التغيير

وهنا ظهرت فكرة لدى النظام السياسى الجديد، ألا وهى إنشاء تنظيم جديد يضم هؤلاء الشباب وتنظيم جهودهم من أجل الحفاظ على الثورة وكذلك الاستفادة من طاقات الشباب وتحديث قدراتهم وإعادة إدماجهم فى العملية السياسية، والنظام السياسى الجديد.

ومن هنا يبرز التساؤل: إذا كان هذا هو سلوك نظام يوليو ١٩٥٢ فى التعامل مع الشباب، فما سلوك نظام ما بعد ٣٠ يونيو؟؟ فى التعامل مع الشباب، أيضًا، الذى خرج بثورة أملًا فى

مستقبل أفضل؟.

إنى أكاد ألمح إجابة متسرعة، مفادها أن المقارنة هنا غير موجودة بالأساس، لأننا فى هذه اللحظة لدينا أحزاب سياسية موجودة، وتعمل وفق الدستور الجديد، فى بيئة سياسية مختلفة عما سبقها.

وهنا تكمُن خطورة الإجابة المتسرعة عن التساؤل، وذلك أن غالبية شباب مصر والذين شاركوا فى الثورة غير منضوين تحت راية الأحزاب السياسية، بل فاقدين فيها الأمل، لأنها لم تقدم لهم ما يشبع رغبتهم فى التغيير قبل أو بعد الثورة.

وهم لديهم توجسات تصل إلى حد الريبة والشك فى نظام سياسى لم تتحدد ملامحه النهائية بعد، وذلك من الصعود الغريب وغير المفهوم لرموز الحزب الوطنى المنحل، الذين خرجوا لإسقاطه أملًا فى التغيير المنشود، الأمر الذى دفعهم إلى التشكك فى سير العملية السياسية بأكملها، لأن التغيير لم يحقق لهم الحد الأدنى من التطهير لبقايا النظام السابق، وهو ما يضع النظام القادم فى مأزق التعامل مع الشباب، ككتلة حرجة لا يمكن التحكم فى سلوكها، وتصبح خطرًا على شكل المستقبل القادم.

إن الشباب ينتظر من النظام الجديد أن يكون جادًا فى الإصلاح وجادًا فى الاعتماد على الشباب بعيدًا عن كل الفاسدين من بقايا النظام السابق الذين نهبوا البلاد والعباد.

وإذا كانت مقولة الزعيم الثورى»روبسبير«: إن الثورة لا تحقق مطلبها إلا إذا شنقت آخر قسيس بأمعاء آخر أمير.. فإن الشباب على استعداد للمشاركة فى خارطة المستقبل بشرط أن يتم شنق آخر فاسد بأمعاء آخر عضو فاسد فى الحزب الوطنى المنحل، وذلك بإبعادهم إلى مزبلة التاريخ غير مأسوف عليهم.

فهل يستجيب النظام الجديد لمطالب الشباب، من أجل بناء سياسى جديد يكونوا هم عماده.. والتبرؤ من كل الفاسدين من الحزب الوطنى المنحل قبل الطوفان؟.. مرحليًا أشك.

ثورة إخناتون

على ما يبدو أننا سنظلُّ أسرى التاريخ، وستظل مقولة إن التاريخ يعيد نفسه هى الحاكمة لطريقة تفكيرنا، طالما أننا لم نطور أفكارنا ونطلق للعقل حرية التفكير، ففى الاحتفال بيوم المولد النبوى الشريف، قال الرئيس السيسى فى كلمته: «نحتاج إلى ثورة دينية على ما نحن فيه تقوم على الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله – ص– «.

هنا وجدت أننا نستدعى من الذاكرة مشاهد من القرون الوسطى فى وقت أزمة، ربما يُشعلها ولا يُصلحها، ذلك أن مصطلح الثورة فى السياق الدينى هومصطلح سيئ السمعة فى نطاق التفكير الشرقى، الذى يقدس الموروث من النصوص والمعتقدات، لذلك يجب ألا نغتر بإعجاب المتدينين، بما فعله مارتن لوثر فى أوروبا من ثورة ضد سيطرة الكنيسة دينياً، فسر إعجابهم ينطلق من أن ذلك يدعم حُججهم بأنهم هم الأصوب والأجدر على وضع المؤمنين على طريق الجنة، وأن غيرهم سلكوا الطريق الإيمانى الخطأ، وفى المقابل هم يرفضوا أن يقلد أتباعهم مسلك مارتن لوثر الإصلاحى الثورى، ودائمًا يحاربون كل من ينادى بالثورة، لأن الثورة هى خروج عن النص الإلهى يورث صاحبه عقوبة قطع الرقاب فى الدنيا، والنار ذات السعير فى الآخرة، وبقدر ما ستكون هناك مقاومة من أصحاب مقدسى النصوص، إلا أن هناك تساؤلات يجب أن تجيب عنها تلك الثورة المنشودة والقائمون عليها:– ماذا ستفعل مع اختلاف المذاهب؟ وهل ستتعامل معه على نطاق الساحة المصرية أم على عموم الساحة العربية والإسلامية؟ وماذا ستفعل مع مجاورة السنة والشيعة فى المجتمع الواحد؟ وهل تضمن الثورة من مقاوميها ألا تطال هجماتهم أتباع الديانات الأخرى داخل المجتمع؟ أسئلة كثيرة أعتقد أن الإجابة عنها ستكون عسيرة، ولكن يبدو أن من يبارك تلك الثورة من مؤيدى المصطلح يدفعون المجتمع نحو الصدام، وقد شعروا بذلك، وكانوا هم الأجدر على فهم التخوفات التى ستطال الدعوة إلى تلك الثورة، فسارعوا إلى تخفيف حدة المصطلح، وأبدلوها بمصطلح التجديد الدينى، وتناسوا أن كل دعوات التجديد تم وأدها فى مهدها، وترك دعاتها فى العراء، وانضموا هم إلى موكب السلطة، التى رأت أن من مصلحتها ألا تعادى المؤسسة الدينية بشقيها الرسمى وغير الرسمى.

لذلك يجب أن نتجنب مزالق التاريخ القديم وندخل إلى عصر جديد، لأننى أكاد ألمح بعثًا جديدًا للملك إخناتون، ذلك الملك الذى أراد أن يقضى على فوضى تعدد الآلهة القديمة، وجعلها فى إله واحد يُعبد، والقضاء على سيطرة كهنة معبد آمون. وعلى الرغم من نجاحه الجزئى فى ذلك، إلا أن انشغاله بفلسفته وإصلاحاته الدينية قد انصرفت به عن متابعة شئون إمبراطوريته،

الأمر الذى أدى إلى خروج نصف مملكته تقريبًا من تحت سيطرته، بل والقضاء على دعوته فيما بعد من قبل كهنة معبد آمون.

ولم تجنِ مصر من وراء دعوة إخناتون إلا فقد نصف مملكتها، وعودة كهنة آمون مرة أخرى وتدهور الأحوال الاقتصادية للمصريين لذلك يا سيادة الرئيس، نحن لسنا فى حاجة إلى ثورة، أوتجديد موروث فى الوقت الحالى، بل نريد ثورة إنتاجية تعليمية ثقافية، تدعو إلى العمل، وعندها ستتكفل نهضة المجتمع بكل دعاوى التخلف والإرهاب.

نحن لا نريد أن ندخل أنفسنا فى اشتباكات لا لزوم لها مع التاريخ، اترك التاريخ واصنع واقعًا جديدًا دون صدام مع أشباح– تعلم ونعلم جميعا– أنها لن تموت. وتذكر أن صناعة المجد لا تكون بالسباحة ضد التيار، ولكن بالنظر إلى المستقبل، نحن لا نريد ثورة إخناتون التى دخلت فى صراع مع الجميع خارجيًا وداخليًا، ثُم هُزمت أمام تيار عاتٍ لم تستطع أن تدحره؛ لأنها لم توجد علاقات عمل وبناء جديدة، قادرة على توطيد سلطتها على الأرض، وفى عيون مؤيديها.

ولتعلم أن الفقراء يقفون فى طوابير طويلة، ليس لدخول المساجد ولا الكنائس، بل للحصول على احتياجاتهم الضرورية.. إنهم بحاجة إلى ثورة تُطعمهم وتسقيهم!! فهل من مُسمع لهم..وهل مِن مُجيب؟؟

ويْحُكم إنها الثورة

إذا كانت النبوة ظاهرة ربانية، فإنها تمثل رسالة ثورية لكل معتنقيها، ذلك بأنها ثورة ضد الظلم والجبروت وضد الفساد، ناسفة كل الأسس التى وضعها تحالف الحكام والكهنوت من أجل استعباد الناس ووضعهم تحت السيطرة لاستغلالهم واستلاب حقوقهم المشروعة فى تحد صارخ للمشيئة الإلهية.

وقد كان الكاتب محمد باقر الصدر فى كتابه صورة من اقتصاد المجتمع الإسلامى محقًا عندما أخبرنا « بأنه لن تكون عملية الاستبدال الثورى على يد الأنبياء كما استبدال الإقطاعى بالرأسمالى، أو الرأسمالى بالبروليتاريا، أى مجرد تغيير مواقع وإنما تصفية نهائية للاستغلال ولكل ألوان الظلم البشرى، ذلك لأن صراع الأنبياء مع الظلم لم يتخذ طابعًا طبقيًا، وإنما جاء لتحويل الإنسان إلى ثائر نبوى قادر على التغيير بنفسة من خلال تغيير السلوك الفردى وصولًا للتغيير المجتمعى ككل، وهو ما عرف بالجهاد الأكبر، وذلك من خلال سعيه الحثيث نحو الله واستيعابه كل ما يعنيه هذا السعى من قيم إنسانية، ويشن حربًا لا هوادة فيها على الاستغلال باعتباره هدرًا لتلك القيم.

والنبوة كرسالة ثورية شأنها كشأن الحركات الإصلاحية فى سعيها نحو نشر قيمها الإنسانية دائمًا ما تصطدم بتحالف السلطة والمال، الذى يرفض التنازل عن مكتسباته للشعوب لذلك وهو فى سعيه إلى وقف انتشار الأفكار الثورية يستخدم كل الأساليب القذرة للحيلولة دون سقوطه المحتوم أمام جحافل الثوار.

وتعتبر بعثة النبى محمد– صلى الله عليه وسلم–رسالة ثورية جاءت لتحرر الإنسان وتحوله إلى إنسان ثورى نبوى، وضد تحالف سادة قريش وتجارها الذين مارسوا أبشع الوسائل للحيلولة دون انتصار الثوار حتى لا يفقدوا مكاسبهم وسلطانهم، ولكن ذلك يعتبر تحديًا للقوانين الإلهية، فسرعان ما انتصر النبى ودخل مكة فاتحا، ومعه الآلاف من الثوار النبويون من عتقاء الظلم والجاهلية.

وعند دخوله مكة ذهب إليه أبو سفيان بن حرب أحد سادة قريش الذين لم يؤمنوا بالنبوة كرسالة ثورية إيمانية وظنها وسيلة لبلوغ النبى مراتب الملك وأراد أن يثنيه عن دخول مكة، فدعاه النبى لدخول الإسلام ولكنه أبى، فأراد النبى أن يريه أن الرسالة النبوية قد انتصرت، فأمر عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان ليريه رايات الرسالة المحمدية، فوقف أبا سفيان مشدوها وهو يرى القبائل تمر أمامه براياتها الواحدة تلو الأخرى عندها قال للعباس « يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك عظيما »، فرد عليه العباس قائلا « ويحك إنها النبوة ».

هكذا هو حال كل من يقف ضد الرسالة الثورية يظنها ملك وتداول سلطة وليس بشارات

لزمن جديد تعلى فيه القيم الإنسانية، من أجل مجتمع يسوده العدل والمساواة، بعيدا عن الظلم والجبروت.

ولكن يأبى المؤلفة قلوبهم والذين أمنوا مكرهين إلا أن يتحينوا الفرصة للانقضاض على النبوة كرسالة ثورية ليحولوها إلى ملك عضوض، ففى حضور الخليفة عثمان بن عفان قام أبو سفيان مخاطبا قومه من بنى أمية بعد ظنه أن الخليفة قد أصبح ملكا من قومة قائلا « يا معشر بنى أمية إن الخلافة صارت فى تيم وعدى حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم....» فصاح فيه الخليفة المؤتمن على الرسالة قائلا « قم عنى فعل الله بك وفعل «.

ولكن يبدو أن صيحة الخليفة قد جاءت متأخرة، فقد استطاع تحالف السلطة والتجار القدامى أن يحولوا الرسالة الثورية النبوية إلى ملك عضوض، عبر نشر الفتن وتشكيك الناس واستقطابهم نحو قيم جديدة.

هكذا حال الثورة المصرية بعد مرور ثلاث سنوات، تلك الثورة التى بشرت بثائر نبوى يحمل قيم العدالة الاجتماعية وقيم الحرية، فهاهم مدعو السلطة ورجال الأعمال وخدم الأنظمة والذين أمنوا بالثورة على طريقة المؤلفة قلوبهم يحاولون السطو على الثورة، ووأد الحلم بالتغيير والانتقال إلى زمن جديد، عبر محاولة إيقاف عجلة الاقتصاد، ومحاولة السيطرة على العملية السياسية الجديدة، فى ظن واهم منهم أن الثورة المصرية هى إحلال سلطة مكان أخرى.

ونحن نقول لهم ويحكم إنها الثورة، ولا يغرنكم هدوء العاصفة فجيوش النور من الشباب الثائرين لن تهدأ حتى تعيد الثورة إلى أبنائها.. « التعقيب لسلطة الحكم الجديدة «

المُزوِّرون

وسط خضم الأحداث وتسارعها بعد انفجار الطوفان الشعبى المؤيد للشباب فى ثورة ٢٥ يناير، وجدت نفسى كما حدث مع غيرى، وهم قليلون، فى حالة حوار دائم مع شباب صغير السن حديث العهد بالسياسة فى معظمه ولكنه قادر وفاعل، تخطى كل العوائق والتابوهات التى صنعها لنا من هم أكبر سنًا تحت دعاوى كثيرة محصلتها « أن الجُبن سيد الأخلاق » و « من خاف سلم » وأن التغيير فى مواجهة السلطة وأذنابها غير قابل للتحقق وأن التغيير المتاح هو تغيير بالقلب وهو « أضعف الإيمان » حتى يأذن الله بالتغيير.

هكذا تم تثبيط همم أجيال كثيرة ومتعاقبة، حتى جاء وعد الله وأزاح السلطة وأذنابها عن طريق جيل جديد من شباب لا يخاف، عبر كل الحواجز والعقبات كطوفان نوح، مبشرًا بميلاد جديد للبشرية.

ومع امتداد الحوارات على طول الشهور التالية التى أعقبت ثورة ٢٥ يناير، فقد تبين لنا أن الانطباع الأولى عن الشباب أنهم قليلو الثقافة قد بدأ يتوارى شيئًا فشيئًا أمام قلة من الشباب الذين نجحوا إلى حد كبير فى تغيير صورة ذهنية عن شباب كالطوفان الهادر، قادر على إزاحة الظلم والتابوهات المعلبة، يملأ الفضاء ضجيجًا دون حلول جديدة تعادل حجم الطوفان والآمال المتعلقة بالميلاد الثورى الجديد، ومن هؤلاء الشباب الكاتب الشاب « الفاروق عمر بان » الذى أهدانى كتابه الأول المعنون « المزورون ».

كان انطباعى الأول عنه بعد قراءة سريعة له - حيث لا يتعدى ١٠٠ صفحة - أنه ليس أكثر من بحث كما ذكر هو، وأن الأحداث الثورية قد تجاوزت ما جاء بالكتاب وأن الزمن الجديد جاء مبشرا بخلاف ما حذر منه الكاتب الشاب.

وهكذا تركت الكتاب على أرفف المكتبة، وشغلتنى الأحداث المتتالية وصولا لأحداث ٣٠ يونيو وما تلاها من أحداث، حتى أيام قليلة خلت، ووسط حالة من اليأس وعدم اليقين ومراجعة فعلية للانسحاب من العمل العام وجدت نفسى ذات يوم أسير لمشاهدة فيلم باسم « المزورون » وهو فيلم رائع يحكى قصة مزور يهودى كان يلقب « بملك المزورين » فى الثلاثينيات ولكن بعد صعود النازية قبضت عليه السلطة الجديدة التى أرادت مجتمعًا جديدًا ومبشرة بزمن جديد، ولكن مع توالى الأحداث وحدوث انتكاسات كبيرة للسلطة النازية على كل الجبهات الحربية، رأت السلطة التى أرادت زمنًا جديداً لم تقدر عليه أن تستعين بالمزور اليهودى المعتقل لديها بالسجون للقيام بعملية كبيرة لتزوير العملة بكميات ضخمة وذلك بهدف تدمير الاقتصاد البريطانى

والأمريكى وكذلك تمويل الاقتصاد الوطنى الذى أصبح يعانى، ويستمر العرض إلى نهايته، ومع نهاية أحداث الفيلم، وجدتنى أتذكر كتاب « المزورون « الذى يحمل اسم الفيلم نفسه.

قمت بإعادة قراءته ثانية، ولكن بطريقة وفى ظروف مختلفة رأيت فيها الكتاب أصبح مناسبًا لمجريات الأحداث الحالية ومفرزاتها حيث يصدمنا الكاتب بعنوان فرعى قائلا « مرحبا بك فى نادى أعوان الظلمة « بل يعنون لمقر النادى « ١ ش قعر جهنم «، عنوان تهكمى يظن قارئه أنه على أعتاب قراءة هزلية لمشهد سياسى مهترئ، ولكن الكاتب يأخذك إلى مساحة جدية وشرعية عبر دمج كل النصوص الشرعية التى تحرم شهادة الزور وكذلك عواقب تلك الشهادة على سلامة المجتمع وصولًا للتحذير من المزورين لأنهم يساعدون على سرقة مال الشعب ونهبها، وأنهم « يقبعون خلف موائد الطغاة يلتمسون مواطن الفتات وأماكن سقوطها، يتفنون فى تزيين الظلم وتلبيسه ثوب الحق ويدافعون عن الظلم ويفلسفون اعتداءاته الدورية والدائمة على حقوق الناس ويقفون حائط صد بينهم وبينه «.

وصولا لتقريره حقيقة رأها ليست بالجديدة وهى أن المزورين ليسوا نبتا شيطانيا بل هم نتاج اجتماعى قائلا « إن الأغلفة الاجتماعية التى يمنحها المجتمع مجانا للمزورين هى التى تصنع الشخصية المجرمة فى حق نفسها ومجتمعها والتى تجرم فى حق مجتمعنا بتزوير إرادته وتسليم مفاتيح بلده لظالمه والفتك به على طبق من فضة..»

ومابين فيلم و كتاب يحملان الاسم نفسه وجدت نفسى أسأل أسئلة ليست لها إجابات محددة

لماذا رجع المزورون لواجهة المشهد العام مرة أخرى ؟ يزوِّرون التاريخ ويشوهون الشباب لصالح سلطة لم تحدد وجهتها بعد؟

لماذا تركت السلطة الجديدة المزورين يمرحون بحرية ؟ أتراها تعانى؟

لماذا صدق الناس المزورين وخونوا من قام بثورة من أجلهم؟ أم تراهم خائفين؟

لماذا وصلنا إلى الحالة التى أصبح يزور فيها المزورون التاريخ علنا؟ والكل صامت

هل هذا ما كنا نطمح إليه بعد كل هذه السنوات؟ أم تراها مجرد كبوة جواد سرعان ما سينتفض.

لماذا توارى الشباب وخاصة المبدعين منهم أمام المزورين؟

أسئلة كثيرة ستظل معلقة فى الهواء سيطول بها الزمن للإجابة عنها.. ولكن ما أراه مؤ كدًا أن المزورين يحولون دون الانتقال إلى زمن جديد، يحاربون كل من يطالب بالتغيير، ناعتين الشباب بالجاسوسية والتآمر، والله يشهد أنهم هم المزورون أصحاب نادى أعوان الظلمة « ١ ش قعر جهنم « وساءت مصيرًا.

حان وقتُ التغير . حُلم بوطن جديد

تتشابه الإرهاصات الثورية بين جميع الثورات ضد الحكومات والحكام الظلمة.. فالجميع تحكمه أنظمة فاشية قمعية، أدوات حكمها الجهل والفقر والمرض.. والتى لا تعطى أى تنازلات لصالح الجماهير التى هى أساس الحكم.. وتمارس التسويف كطريقة مُثلى للتعامل مع الجماهير.

فما إن تطلب الجماهير العدل حتى تسارع الأنظمة بسلب الحرية.. وإن طالبت بالحرية فجل ما تحصل عليه برلمانًا، بل سيركًا سياسياً برلمانياً هزيلاً.. هنا تثور الشعوب تحت وطأة الظروف معلنة ألا حكم للفاسدين.. هذا هو ما حدث قبل ثورة ٢٥ يناير المجيدة.. التى قامت ضد نظام فاشى قمعى، وضد حكم أذل الناس وأفقر المجتمع وجرف الحياة الثقافية والاجتماعية.. حتى بات الشعب يبحث عن هُوية وسط عالم متسارع يبحث فيه الجميع عن موطئ قدم فى المستقبل، إلا هو يبحث عن لقمة عيش وكأنه شعب من القرون البدائية، لذلك لم يتفاعل الشعب مع خطاب مبارك الأخير قبل التنحى الذى وعد فيه بمزيد من الحرية، لأنه كما قال «أرنست همنجواى» أثناء الثورة الإسبانية: «إن وعدًا بالحرية من ديكتاتور هو شيكٌ بلا رصيد» هنا يتفاعل الفعل الثورى ويتواصل على امتداد مصر من أقصاها إلى أقصاها، معلنًا اكتمال الحلم بالتغيير، مزيلًا النظام الحاكم معلنًا انتصار الشباب على عواجيز النظام، مبشرين بزمن جديد، وأملًا فى مستقبل جديد، رغم دماء شهداء الحرية من الشباب على أرض ميادين الحرية، ورغم آلام وصرخات الأمهات الثكلى على أرواح أولادهن.

ويواصل الحلم طريقه مبشرًا بأمل للشباب فى تقلد المناصب وتغيير المجتمع، ومفجرًا لمواهب وقدرات للشباب لا تعد ولا تحصى.. كما حصل فى الثورة الإسبانية والتى مثلت حلم التغيير للشباب والمهمشين حتى نستطيع أن نرصد كتابًا عظامًا كـــ»أرنست هيمنجواى» و»أندرية مالرو» والشاعر الثائر»لوركا» كل هؤلاء كانوا شبابًا آمنوا بالثورة، وأعطوا أملًا بالتغيير، وكذلك خطيبة الثورة الإسبانية «الباسيونارا» تلك المرأة المهمشة البائعة المتجولة، التى تفجرت مواهبها مع انقشاع الظلم لتتحول إلى أشهر خطباء الثورة بل ودخلت البرلمان مع أول انتخابات بعد الثورة.

ولكن كما حدث مع الثورة الإسبانية، حدث مع الثورة المصرية.. فبعد الانتصار وإسقاط النظام، بدا أن المشهد السياسى لم يتعلم بعد معنى الديمقراطية وتصارعت الكتل السياسية، متجاهلة المطالب الشعبية، والتى عبرت عنها بالوقفات الاحتجاجية والمطالب الفئوية.. الأمر الذى أدى فى النهاية إلى خروج الناس مرة أخرى معلنة، أن هذه الكتل السياسية لا تعبر عن المطالب الشعبية والشبابية فيها.. وقد استبشر الشباب خيرا فى التغيير الجديد الحادث بعد ٦/٣٠.. وأصبح

مقبلًا على المشاركة فى الحياة السياسية، أملا فى إزاحة ما تبقى من أزلام النظام القديم.. وتولى مقاليد الأمور.

ولكن يبدو أن الشباب كان مفرطًا فى الأمل يدفعهم إلى ذلك أوهام القدرة وإحداث التغيير دون دفع تكاليفه.. هنا شهدت الساحة السياسية صعودًا لافتًا لأزلام نظام مبارك من لاعقى أحذية الأنظمة.. الذين ألهبوا ظهور الناس بسياط الفقر والجهل والمرض.. الذين نهبوا المال العام.. وأورثوا البلاد ديونا ثقيلة أحنت الظهور.. يساندهم من استكثروا على الشباب فعلهم الثورى من مُدعى الوطنية فى الإعلام والصحافة.. الذين خضعوا سابقا لسلطة النظام الفاشى.. والذين يريدون أن يكون لهم دور فى مستقبل لم يصنعونه.. هنا ومع بداية الاستحقاق الثالث والخاص بالانتخابات البرلمانية.. بعد انتهاء الاستحقاقين الدستورى والرئاسى.. كان لزامًا علينا أن نكون- نحن الشباب- مشاركين فى تلك العملية وذلك الاستحقاق الذى يجب ألا نتركه لسارقى الشعب من أزلام الحزب الوطنى.. ومدعى الوطنية من بائعى الضمير.. مؤمنين بأن تلك المعركة الانتخابية ليست معركتنا فقط، ولا معركة كبار السن من الشرفاء، ولكنها معركة كل مواطن على أرض مصر يريد أن يعيش فى سلام، أملاً فى إنهاء زمن طويل من العبودية.. بعيدًا عن الفاسدين والمفسدين وأزلامهم.

إنها التزام الضمير والمسئولية.. إننا كشباب ندعوكم يا أهالينا إلى مهمة لها أولوية قصوى.. إلى بناء الدولة، دولة الديمقراطية، دولة الحق والقانون، دولة المؤسسات الديمقراطية، دولة تتوافر فيها للإنسان الفرد والإنسان الجماعة كافة حقوقه. ذلك لأن فى حياة الأمم والشعوب لحظات يتعين فيها أن تقف وتدرك اللحظة التى تعيشها.. واللحظة التى نعيشها هى لحظة فارقة بين أن نستمر بنضال شبابنا للوصول للمستقبل وبين أن نرجع للوراء، تاركين الساحة للحزب الوطنى وأزلامه.

وإننا نصارحكم القول بكل صدق إننا اتخذنا قرار الترشح للانتخابات البرلمانية، مترفعين عن المناصب متسامين فوق كل صور التعصب، آملين فى مجتمع متسامح يدرك قيمة شبابه. بعيدًا عن التعصب لفريق دون فريق، وأملاً فى مستقبل يدرك القيمة الحقيقية لمصر وشبابها.. لذلك يا آباءنا بشروا أبناءكم، بأن ما مضى لن يعود.. وأننا له بالمرصاد، ولن يعود النظام القديم مرة أخرى.. وأن هناك مكانًا يتسع للجميع فى المستقبل، فقط آمنوا بنا وبفعلنا.. وبقدرتنا على الفعل.. ويا أيتها الأم الثكلى التى سال دم فلذة كبدها فى سبيل الحرية، ويا أيتها الزوجة التى فقدت زوجها وهو يدافع عن حق أولاده فى المستقبل، ويا أيها الابن الذى فقد أخاه وصديقه وهما يدًا بيد فى ميادين الحرية.. ندعوكم جميعًا أن تملأوا صدوركم وقلوبكم بأمل التغيير والإيمان بأن هناك مستقبلًا جديدًا، اجعلوا الحرية أنشودة وحقيقة تعيش وتثمر.. اجعلوا الأمل فى قدرتنا على

التغيير بمثابة الحلم بوطن جديد.. يقوم على العدل والمساواة.. وطن قوامه الشباب وقدرتهم على التغيير للأفضل.. وتذكروا يا كل ضحايا الظلم والجبروت من أهالينا.. أن إرادتكم فى التغيير إذا أردتم إنما هى إرادة الله.. مصداقًا لقول الحق تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..». فنحن نعرض أنفسنا عليكم كشباب لزمن جديد.. قفوا معنا.. من أجل التغيير.. ومن أجل عدم عودة الفاسدين والظالمين.. وضد المال السياسى الذى أصبحت رائحته العفنة تزكم الأنوف.. الاختيار أمامكم إما المستقبل.. وإما الماضى بكل فساده وجبروته.. ولن ينفعكم صمتكم وإعراضكم عن المشاركة كوسيلة لوقف الظلم.. فالسلبية لا تنهى الظلم بل تزيده.. شاركوا وقفوا وراء ظهورنا تدفعونا لزمن جديد لنا ولأبنائكم عاشت مصر حرة بأبنائها وبشبابها الأبرار.. ويسقط كل خائن يقف حائلا دون المستقبل.

سجِّل أنا شاب

لقد استحوذت الثورة الفرنسية– ذلك الحلم الجميل الذى أسرنى طيلة حياتى الماضية– على مساحة ليست بالقليلة من اهتمامى الثقافى وأصبحت بمرور الوقت بشعاراتها الجميلة عن الحرية والإخاء والمساواة مثار إعجاب لا مُتناهٍ بتلك الثورة التى أثرت ليس فقط فى فرنسا ولكن فى بقية دول العالم المتعطش للحرية والانعتاق من ظلم الحكام وجبروت الطبقة الحاكمة.

وقد كنت أحلم دوما وأسأل نفسى هل يأتى اليوم الذى تتحقق أحلامى وتقوم ثورة عظيمة تحررنا من الظلم والجبروت وتنقذنا من الهوة السحيقة التى وقعنا فيها من التخلف على كافة الأصعدة.

ويبدو أن القدر كان رحيما معى وأعطانى ما كنت أحلم به، فمع تباشير يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ قامت أعظم ثورة فى العصر المصرى الحديث على يد شباب أخضر لا يعرف للخوف مكانا متصدرا الصفوف لا يهاب الموت أمام إله القمع الرهيب، وسالت دماؤه الذكية فى الشوارع، حتى انتهى حكم مبارك العتيد الذى جثم على صدور المصريين وأورثهم الفقر والتخلف.

ولقد كانت سعادتى لا توصف عندما وجدتنى مدفوعا بأمل التغيير لمساعدة الشباب على تحقيق حلم التغيير من أجل مستقبل أفضل، ولكن بعد أربع سنوات من قيام الثورة العظيمة يبدو أن أحلام التغيير قد أصابتها شروخ عظيمة، وأصيب الشباب بالإحباط والكفر بالحاضر والمستقبل، لما تم وصفهم بالعمالة والخيانة، وعندما رجع أنصار النظام القديم إلى مراكزهم القديمة متقمصين أدوار الشباب وارتدوا ثياب الحملان، وزج بالشباب نفسه للسجون، وأصبح دعاة التغيير هم الفاسدون القدامى وكذلك لاعقو أحذية السلطة من الفشلة من مدعى الثقافة الذين كل ما فعلوه طوال حكم مبارك أنهم كانوا يتمنون أن ينعم عليهم بمنصب أو حتى مكافأة مالية نظير أعمال دناءة وخسة قاموا بها.

وعندها أصبح الشباب فى مهب الريح لا يقدرون على فعل أى شىء وأصبحوا مثل الزرع الأخضر الذى انتظرت مصر طويلا حتى يتم حصاده ولكن أبى جراد السلطة السابقة أن يقوم هذا البلد قائمة، حتى كفر الشباب ببلده وأصبح حلم الهروب من مصر هو الحلم الأسمى بعد أن كان حلم امتلاكه بلده قاب قوسين أو أدنى.

إن الثورة المصرية أمامها كثير حتى يتمكن دعاتها من مقاليد الحكم والتغيير، ويبدو أننا ما زلنا فى المرحلة الأولى من الثورة الفرنسية التى ذبح فيها على مقصلة الحرية من قام بها، بل طالت تلك المذابح كل شىء فى البلد حتى طالت الكفاءات من رجالاتها، ولعل قضية العالم الكيميائى

الشهير أنطوان لافوازييه الذى اتهم فى قضية تافهة عبارة عن اتهامه بتهمة ترطيب تبغ الجيش وحكم عليه القاضى الثورى بالإعدام ورغم محاولات أحد أصدقائه الذى خاطب القاضى قائلا « إن قطع رقبة لافوازييه لا يستغرق دقيقة ولكن مائة سنة لا تكفى لتعوضنا عن واحد مثله »، لكن القاضى الثورى رد قائلا « الجمهورية ليست بحاجة إلى علماء بل بحاجة إلى عدالة ».

نعم هم ليسوا بحاجة إلى علماء ولا دعاة تغيير ولا شرفاء، إنهم كالجراد انتشروا فى كل مكان يريدون رقاب كل الشباب وكل الشرفاء من أجل تحقيق عدالتهم، ولكن هل تكون النتيجة هى الانسحاب والانزواء ويكونان هما النتيجة الحتمية والطبيعية لما وصلنا إليه، لا والله فتلك الطامة الكبرى، لن أنسحب وأترك أحلامى ورائى وسأحمل رايتى وفأسى معلنا أننى لن أتركها للفاسدين والغاصبين ممتلئاً بعشقى لحرية بلادى لذلك أرانى أقتبس محمود درويش وأقول:

سجل
برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس، ولا أسطو على أحد
ولكني... إذا ما جعت، آكل لحم مغتصبي
حذار... حذار... من جوعي ومن غضبي
أنا شاب

الشباب اللامنتمى

تعتبر الثورات محطات أو مفاصل تاريخية بين عالمين مختلفين، فى مفاصلة تاريخية بين أنظمة سقطت وأنظمة تحل بديلا عنها.

ولما كانت الثورات تعتبر فرصة تاريخية للتغيير نحو عالم أفضل فإن الحديث عن ظهور مؤشرات أو ظواهر تنبئ عن تراجع تلك الثورات عن تحقيق أهدافها، يعد انتكاسة حقيقية وتراجعا نفسيا حادا لكل من قام بالثورة أو من شارك فيها وخاصة الشباب الذى تصبح مشكلته بعد ذلك هى مشكلة الانتماء لهذا الوطن.

وهذا ما نلحظه على الشباب بعد ثورة ٢٥ يناير وما تلاها، فنحن نرى أن ذلك الشباب الجرىء إلى درجة محرجة والرومانسى الحالم بالتغير إلى درجة الفطرة، لم يجد بعد مرور ثلاث سنوات من مؤشرات حقيقية على التغيير وتلك المفاصلة التاريخية التى يتمناها وخرج من أجلها، فأصبحوا يعيشون أزمة حقيقية لأنهم ليسوا منتمين إلى إطار محدد، لأن مشكلتهم فى أساسها مشكلة الحرية بشقيها السياسى والروحى، وهم يرون أن الاضطراب والفوضوية هى أعمق تجذرًا من النظام العام الذى يؤمن به غيرهم من أجل تغيير ينشدونه.

وقد عبر الكاتب، كولن ولسون فى كتابه «اللامنتمى» عن الحالة النفسية للامنتمى، بأنه الإنسان الذى لا ينتمى إلى حزب أو عقيدة ويجر ظله فى طريقة المظلمة مستسلما حينا ومتمردا حينا آخر، وهو شخص نشيط نفسيا وذهنيا خامل اجتماعيا له عالمه الخاص والذى يراه مختلفا عن المجتمع، ومن هنا يحدث التصادم بينة وبين المجتمع.

ولما كانت هذه هى حالة الشباب بعد الثورة والتى لم يجدوا فيها مفاصلة تاريخية بين عالمين، والذين استيقظوا على حقيقة إنهم لم يعودوا على الحالة التى كانوا يحسبون أنفسهم عليها من التغيير المنشود، ذلك لأنهم شعروا بشىء يفتح الطريق أمامهم لاحتمالات جديدة لم يروا منها أى شىء قد تحقق حتى الآن، فتقوقعوا على ذاتهم وأوجدوا مفاصلة بينهم وبين مجتمعهم فى تحد ينذر بعواقب ليس من السهولة بمكان التنبؤ بمجريات أحداثها وما ستسفر عنها.

وقد تؤدي محاولة الالتفاف حول مطالب الشباب بالتغيير وعدم إشراكهم فى عملية بناء عالم جديد، بعيدا عن رواسب الماضى، وإخراجهم من حالة اللامنتمى المفاصل لمجتمعه سياسيا وعقائديا– إلى حرائق اجتماعية وسياسية قد تمتد إلى نسيج المجتمع منذرة بعدم استقرار قد يمتد إلى عقود قادمة.

لذلك وعند إعادة بناء النظام السياسى يجب أن يراعى القائمون على إعادة البناء أن يكون

الشباب هم العماد الأساسى لذلك البناء، ويجب إعطاؤه الفرصة كاملة لإخراجه من حالة اللامنتمى سياسيا ومجتمعيا

إلى حالة ما بعد اللامنتمى والتي يستطيع فيها أن يعطى طاقته الإيجابية لبناء المجتمع.

والحذر كل الحذر من محاولة إعادة النظام السابق لأن ذلك سيفجر الأوضاع، وسيجعل الشباب في مواجهة مباشرة مرة أخرى مع الدولة الجديدة.. وربما مع المجتمع كله بثوابته التى ستكون عندها محل شك عند الشباب.. فهل من عقلاء فى هذا المجتمع؟

جورباتشوف مصر

إن التغيرات والأحداث الكبيرة التى تحدث تحولات كبرى فى مجرى التاريخ، لا تحدث بطريقة الفجأة أو الانقضاض من أعلى، بل هى تراكم كمى على مدار سنوات سابقة محدثة تغيرات عميقة وجذرية على مجمل أحداث التاريخ اللاحقة، مؤثرة على شكل العلاقات فى المستقبل، بل ومحددة لها.

ولذلك فإن الوقوف فى وجه تلك المتغيرات، وغض البصر عن حقائق الأشياء ومجريات الأحداث فى محاولة يائسة للإصلاح، فإن ذلك قد يخلق أوضاعا يصعب التنبؤ بها وكذلك الآثار المترتبة عليها.

وقد يكون الرئيس السوفييتى السابق جورباتشوف نموذجا صارخا يمكن القياس عليه، فقد تقلد مقاليد السلطة فى أواخر سنوات ما قبل سقوط وتفكك الاتحاد السوفييتى، وقد أدرك قبل غيره أن عوامل سقوط الدولة قد أصبحت لا تخطئها العين المجردة، وأن محاولات الإصلاح قد تكون محفوفة بالمخاطر، ومع ذلك فإنه قد اختار الوقوف فى وجة الحقائق وأطلق سياسته المعروفة باسم البره سترويكا، التى تعنى إعادة البناء، والجلاسنوست والتى تعنى الكلام بصوت عالٍ من أجل مصارحة النفس والآخرين بخطورة ما وصلنا إليه.

ولكن قد فات الأوان فقطار الأحداث كان سريعا مدفوعا بقوة الحقائق على الأرض فلم يعطِ فرصة للبناء ولا حتى لصوت المصارحة، فقد شلت الأيادى وصمت الآذان على وقع زلزال سقوط الدولة.

لذلك ونحن مقبلون على استحقاق رئاسى عبر صناديق الانتخابات بعد ثلاث سنوات من التغيرات الكبيرة والتحولات الكبرى فى تاريخ مصر الحديث، يجب أن ندرك جميعا أن الدولة قد أصابها الوهن الشديد إقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، لذلك على الرئيس القادم أن يصارح شعبه بحقائق الأمور، وأن يضع الجميع فى موقع المسئولية وأن يعمل على بناء منظومة سليمة للإصلاح الشامل الذى يحقق العدالة الاجتماعية.

وعليه وهو فى سبيله إلى الإصلاح أن يدرك أن الأحلام والأمانى لا تحدثان تغييرات تذكر على الأرض ما لم يدعمها واقع وحقائق ملموسة وعمل متواصل فى بيئة صحية بعيدة عن الفساد.

فجورباتشوف كان حالما بإصلاح بلاده وأطلق سياسة جديدة مستوحاة من تجارب أخرى، فى حين أن الحقائق على الأرض كانت لا تقبل التغيير، وهنا أدرك أن التغيير يجب أن يقوم على

شخوص جديدة وأن محاولة الإصلاح من الداخل بنفس القائمين على النظام، هو محاولة فاشلة حتى وإن كانت كل النظريات الإصلاحية صحيحة إلى أقصى مدى.

لذلك يجب على الرئيس القادم أيا كان أن يدرك أن محاولة الإصلاح القائمة على بناء قديم فاسد بنفس شخوصه وآلياته، هو إنكار تام للحقائق على الأرض.. وأن ما يجرى الآن من محاولة الإيحاء بأن ما حدث فى الثورة المصرية هو مؤامرة لهدم الدولة، ومحاولة صنع هواجس من الخوف لدى الناس من المستقبل هو عبثٌ بمستقبل هذا البلد، لأن الهواجس لا تصنع زمنا جديدا.

لذلك أيها الرئيس إما أن تكون جورباتشوف المدرك لحقائق الأشياء المتطلع إلى مستقبل لعالم جديد، وإما أن تكون جورباتشوف الذى وقف ضد حركة التاريخ وحقائقها، وعندها سيصبح المستقبل مجهولا

المهرولون

تُعرف الانتهازية طبقا للموسوعة العالمية، بأنها السياسة والممارسة الواعية للاستفادة الأنانية من الظروف، مع الاهتمام الضئيل بالمبادئ أو العواقب التى ستعود على الآخرين.

وفى ظنى أن هذا التعريف قد يعطى تفسيرا واضحا لسلوك المنتفعين بالنظام السياسى المصرى خلال فترة ما بعد ثورة يوليو وحتى بعد مرور ثلاث سنوات من عمر ثورة ٢٥ يناير، فها هم الانتهازيون قد سارعوا إلى الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى بعد ثورة يوليو لاعنين النظام الملكى، فى محاولة لتحقيق أكبر المكاسب، تحت دعاوى ثورية براقة، وهم الذين ساعدوا على تكميم الأفواه وتبرير كل الأخطاء حتى رحيل عبد الناصر.

وعندما جاء السادات وعمل على إحلال التعددية السياسية بديلا عن نظام الحزب الواحد، فاختار حزبا يمثله وهو حزب مصر، والذى سارع كل الانتهازيين من أعضاء الاتحاد الاشتراكى الملغى إلى الانضمام إلى الحزب الوليد، وسرعان ما قام السادات بإنشاء حزب جديد باسم قديم وهو الحزب الوطنى، وعندها تحول جميع أعضاء حزب مصر إلى الحزب الوطنى الجديد، وهو ما دفع الكاتب الكبير مصطفى أمين إلى وصفهم بالمهرولين بمقولته الرائعة: «لقد هرولوا».. وهو ما أغضب الرئيس السادات.

وتمر السنون ويصبح مصطلح الهرولة طى النسيان، حتى يظهر مجددا على المستوى العربى، بعد أن أصبح فسادا بواحا فى مصر وذلك من خلال المؤتمر الاقتصادى عام ١٩٩٥ فى الأردن، والذى يقف فيه وزير الخارجية المصرى آنذاك، عمرو موسى منتقدا موقف الدول العربية من التطبيع مع إسرائيل قائلا: علينا أن نتفاعل مع التطورات وأن يكون تفاعلنا بكل عقل وثقة وحكمة وليس مظاهره ولا هرولة».

وكما غضب السادات سابقا، غضب الملك حسين وقام بالرد قائلا « والله نحن لم نفعل إلا هرولة وراء مصر ولا أكثر ولا أقل، فإذا كان التوجه نحو السلام هرولة، فقد سبقتنا الشقيقة الكبرى فى الهرولة».

وقد أصاب الملك حسين فيما قال إلى حد كبير.. فقد اتصف عهد مبارك كله بالهرولة سواء خارجيا، أو من الداخل من قبل الانتهازيين والفاسدين من أجل تحقيق مكاسب، والاستفادة قدر الإمكان من منظومة فساد الحكم. وبعد ٣٠ يونيو ومع اقتراب الانتخابات الرئاسية، فإنه قد بات واضحا أن المهرولين من كل الاتجاهات، خاصة من رجال الحزب الوطنى ورموزه، قد ظهروا على سطح الأحداث بقوة عارضين خدماتهم على حملة المشير السيسى غير عابئين باحتجاجات الناس

وتذمرهم من ظهورهم الانتهازى، بقيادة عراب الهرولة عمرو موسى. ولما بات من المتعارف عليه بين الناس، أن المشير السيسى هو الرئيس القادم، فإننا ننصحه بأن ينصت إلى صيحات الشعب التى تطالبه بالوقوف ضد محاولات المهرولين الفاسدين الانتهازيين، أصحاب المصالح الشخصية، الذين هم القدرة على أن يكون هم ألف وجه ووجه، الذين زينوا لمبارك فساده وظلمه، والذين هم الآن يحاولون النيل من الشباب الوطنى الحر، الذى أخد على عاتقه مهمة تحرير مصر من الظلم والطغيان، وذلك من خلال الالتصاق به، والتحدث باسمه فى كل مكان.

أيها الرئيس القادم، إذا كنت تريد إصلاحا حقيقيا، فحاذر من هؤلاء المهرولين، فإنهم أعداء هذا الشعب، وسيجعلون منك فرعونا جديدا، حتى إذا ما غيبك بحر الثورة عليك، فتأكد أنهم سيلحقون بموكب موسى، فى طريقهم إلى فرعون جديد.. وليس بمبارك ببعيد.

ثورة بانجو

«حرام عليكم يا أستاذ ياسر؛ بسبب الثورة بتاعتكم الحشيش بقى غال ومش موجود».. بهذه الكلمات التى أثارت فى نفسى شجونا وأسى لما وصل إليه حال الشباب بعد ثورة عظيمة أثارت الحمية والطاقة المتفجرة، لإحداث تغيير طال انتظاره طويلا، ولكن يبدو أنها لم تترك أثرا كبيرا، لديه القدرة على تحرير عقول الشباب من آثار ما علق بها من سياسات بغيضة أسلمته، إلى المخدر كوسيلة للهروب من الواقع المؤلم الذى كانت تعيشه مصر من ظلم وجبروت طال به الزمن. والسؤال المطروح حاليا: لماذا ثار إذًا الشباب ومن ورائهم جموع الشعب؟ ألم يكن الشعب المصرى بكامله أسيرا لمقولة ابن خلدون « ثمة بلدان لا يعرف القلق منها سبيلا إلى قلب السلطان لندرة الثورات فيها، ففى مصر مثلا لا نجد غير السيد المطاع والرعية المطيعة «

فما الذى حدث إذن، لكى تتغير المعادلة المصرية ليتعلم الشعب من خلالها الثورة على الحاكم، ألم يكن من الأجدر به أن يوفر عليه مشقة الخروج والدماء التى سالت، طالما أنه غير قادر على الشفاء من المخدرات التى تطير مع الدخان والتى أسلمته إلى أوهام القدرة على التغيير، دون وعى كامل وإرادة كاملة وثبات كبير حتى يتم التغيير إلى حيث يريد.

وفى وسط الحيرة والهواجس والخيالات الناتجة عن أدخنة تسللت إلى أنفى نتيجة تدخين بعض الشباب بجوارى لمخدر البانجو باحثا عن إجابة لهذا لأسئلة، لم أجد لها إجابة واضحة لطبيعة هذا الشعب، وجدتنى فجأة متقمصا دور سنقر وحماره « بانجو» فى رواية يوسف معاطى «بانجو».

تلك الرواية الهزلية التى طفت فيها أرجاء مصر المحروسة فى فترة من أحلك فترات التاريخ المصرى، وهى أواخر الفترة التى كان الحكم فيها للمماليك الذين أذاقوا الناس مرارة العيش والظلم والجور، ناهيك عن التناحر فيما بينهم بالسلاح على كرسى الحكم، والنتيجة دماء الشعب تسيل فى الشوارع دون داع ولا دية تدفع لأهل القتيل، وكيف تدفع وأن كل الناس رعايا عند السلطان؟، هنا دفعنى « سنقر» معه لركوب حماره « بانجو» للهروب من هذا الواقع الأليم الذى لم نقدر على تغييره، وبعد أن ابتعدنا عن أعين الناس وعلى مشارف الحقول نزلنا، وإذا بالحمار « بانجو» يسرع ويلتهم من النباتات الموجودة بشراهة غير معتادة، ووجدت «سنقر» وقد أخرج من جعبته شيشة وأشعل النار وراح يرص النبات على حجر الشيشة ثم يشد الأنفاس تلو الأخرى، ورأيته يقول لى اشرب يا أستاذ هنا ستعيش فى عالم تانى، وما هى إلا دقائق حتى رأيت « سنقر» وقد تحول إلى ثائر كبير متهما الجميع بالفساد والسلطان بالظلم والجبروت، والشرطة بالمحسوبية والرشوة.

ودخل في حوار كامل مع حماره، حتى ظننت أن به مَسًا من جنون مطلق حتى راح في نوم عميق، وبعد أن صحا من نومه كأن شيئًا لم يحدث، وتوالت زيارتنا إلى الحقل الذى به تلك النباتات المخدرة والتى أطلق عليها « سنقر» اسم حمارة «بانجو» تيمنا وعرفانا بجميله، حتى وجدت أن خبر البانجو قد شاع في المدينة كلها، وأصبح الحقل مزارا يوميا للناس ليثوروا فيه على السلطان الغاشم، طالما أنهم باتوا غير قادرين على تغيير واقعهم والمخدر أصبح موجودا ومتوافرا ورخيصا، ويعطيهم آمالا من الوهم على التغيير مع بعض النشاط الوهمى إلى أن تفرغ طاقتهم ويرجعوا إلى بيوتهم وقد انتصروا على السلطان، لذلك لم يحصل « سنقر» على شىء في النهاية غير مطاردة شرطة السلطان له، بل وسجنه في نهاية المطاف، ليس لثورته الوهمية ولكن لأن السلطان أراد منه أن يطلق زوجته ليتزوجها هو.

وبعد ٣٠ يونيو تحديدا أرى جموعا من الشباب تذهب إلى حقل البانجو للهروب من الواقع، الذى ما إن يدخل فية الشاب حتى يتحول إلى طوفان ثورى عارم، تاركا المدينة تئن تحت وطأة من ثار عليهم.

أيها الشباب، اتركوا الحقل اللعين وانزلوا المدينة، ولا تتركوا الساحة حتى نفاجأ بإعادة انتخاب الرجال الذين زرعوا لنا نبات البانجو.. إنها ليست ثورة بانجو إنها ثورة شعب حقيقية، وتذكروا أن البانجو اسم لحمار.

العِشقُ الثَّورى

العشق هو فرط الحب، لذلك هو الحالة التى يتوحَّد فيها المحب مع المحبوب، فى علاقة إنسانية فريدة، ومكررة على مدار الوجود الإنسانى، ولكن تبقى علاقة العاشق للثورة محبوبته الأثيرة، علاقة إنسانية لا تقارن حيث يتوحد الفرد فى المجموع ذائبًا فى حالة من الوجد الإنسانى متفانيًا فى الفضاء الاجتماعى مهمومًا به، ومدافعًا عن أحلامه المشروعة مؤمنًا بقضاياه العادلة، حالمًا بمجتمع مثالى تسوده العدالة والمساواة. وقد شغل العشق الثورى مساحة واسعة فى الوجود الإنسانى على مدار التاريخ، معبرًا عن نفسه فى نقاء الثائرين والانتماء إلى الفقراء والمغلوبين على أمرهم فى مواجهة الحكام الفاسدين.

وتتعدد مظاهر العشق الثورى على امتداد الوعى الجمعى للثائرين، ولعل مشهد ذبح الإمام الحسين فى كربلاء وما تلا هذا المشهد الرهيب من تحول الحسين إلى أيقونة ثورية ضد الظلم قد أوجد مظهرًا ثوريًا موصولًا بكربلاء، بغض النظر عن الاختلاف المذهبى بين الشيعة والسنة، موحدًا الجميع ضد كل الظالمين من الحكام، ومن يعاونهم من فقهاء السلطة، الذين ينكرون على العاشقين ثورتهم عشقهم ويلومونهم على فعلهم، فكانوا مثل من أنكر على الإمام الحسين ومريديه عشقهم. إنهم مثل دريد بن الصمة، الشاعر الجاهلى فارس قبيلة هوازن، أطول الفرسان شعر وغزوًا وأبعدهم أثرًا، ومع ذلك وقف ضد عشاق الثورة ضد ظلام الجاهلية، حتى آخر رمق فى حياته. وقف ضد مشاعل النور ضد جيش النبى «ص»، يوم غزوة حنين، فكان ختام حياته الطويلة الخزى والعار، ويبقى هذا حال كل من يقف أمام عشاق الثورة، جيوش النور.

وستظل ثورة ٢٥ يناير مثالًا فريدًا فى العصر الحديث للعشق الثورى، مثالًا فى ذوبان الشباب عشقًا لبلاده، أملاً فى مستقبل أفضل ضد الظلم والفساد، وصولاً لحياة يسود فيها العدل والمساواة. وكان قديمًا تأبى جحافل الظلام، أن تجعل الطريق لعاشقى الثورة وطليعة جيوش النور مفروشًا بالورود؛ مستخدمين كل أدوات الخسة والنذالة، من أجل الحيلولة دون التغيير الحقيقى المنشود؛ حتى يبقوا محافظين على مكاسبهم؛ ولوحتى على حساب الفقراء والمطحونين من الشعب.

إنهم من المحسوبين على كل الأنظمة، من الإعلاميين والمثقفين، وهم يعتبرون الجزء الظاهر من جيش الظلام، الذى يطعن ليلاً ونهارًا فى صدقية عشق الثائرين معشوقتهم، فى مشهد لا نقدر على وصفه، يتلونون على حسب رضا أوعدم رضا النظام عن الثائرين، وقد عبر عن أحدهم أحمد فؤاد نجم فى قصيدته الرائعة «الثورى النورى» قائلاً: يِتمركس بعض الأيام يتمسلم بعض الأيام ويصاحب كل الحكام وبسِتاشَر مِله يا حلولو لوشفته زمان مهموم بقضايا الإنسان بيتكتك لا

تقول بركان ولا بوتجاز ولا حله ومع انتهاء مراسم تسليم وتسلم السلطة إلى الرئيس السيسى، فإنه يتحتم عليه أن يحدد موقفه من جحافل الظلام، التى تريد أن تغتال العاشقين، طليعة جيش النور، أمل المستقبل ودعاة الإنسانية، وأن يكون باترًا لهم قبل أن تتحول جيوش النور إلى نار حارقة، ولا يغرنه دفنها تحت الرماد.

يا أيها العاشقون، لا تركنوا إلى الدعة والسكون، وتكاتفوا من أجل البناء، ولا تتركوا الساحة للظالمين، ولا تكونوا كمن ثار مع الحسين، ثم تركوه ذبيحًا ثم اتخذوا شج الرءوس تعبيرًا عن ندمهم لقطع رأس العاشقين للثورة، وتركوا جيش الظلام يمرح بطول البلاد وعرضها، يغذى فيهم روح الهزيمة، ويوفر لهم أدوات شج الرءوس فلا تفقدوا الأمل؛ فطريق العشق الثورى طويل؛ ومصر الثورة تناديكم للبناء؛ فلا تخذلوها.

الثورة بشروط

حالة من الإحباط وانعدام الوزن أراها وقد أصبحت سمة عامة لكل من دعا إلى الثورة ومن اقتنع بها ومن تبنى أفكارها، وقد ألمح من بعيد ظواهر تجعلنى أجزم بأن ما يفعله هؤلاء هو الصواب، سواء فى القول أو الفعل معبرين عن أزمة عميقة فى البناء النفسى والعقلى لهم، نتيجة عدم انتظام المسار الثورى، كما قرأوه وعاشوا فى يوتوبيا تحقيقه، ولكن الواقع صدمهم بقسوة وأفاقوا على أنه من الصعب تحقيق كل شيء دون تنازلات وهنا كانت المشكلة.

ولكن هذه الحالة ليست جديدة على أى ثائر، ولعل الثائر الأيقونة تشى جيفارا– مثال صارخ لهذه الحالة

فقد عاش ثائرًا ضد الظلم مناضلاً من أجل تحرر الشعوب، حتى أصبحت الثورة بالنسبة له حالة يجب أن يحياها طوال عمره، وما إن تتحقق الثورة فى مكان حتى يسارع إلى مكان آخر من العالم يعيش فيه حالة الثورة، دون التقيد أو الالتزام بأى قيود مجتمعية.

لأن مفهومه للثورة اصطدم دائمًا بحقائق الأشياء،

فها هو وقد كلف بمهمة الإشراف على التحول الاجتماعى بكوبا بعد الثورة، ظل يبحث عن أشخاص ثوريين مثله يقودون التحول ممثلين للثورة, وما أن وجدهم حتى اكتشف أنهم لا ينتمون إلى الحزب الثورى وإنما إلى الحزب الإدارى، وأحس بإحباط وشعر بأنه يعطى الانتهازية فرصتها للتمدد فى المجتمع الثورى

ومن هنا أصبح مشتتًا بين الثورة وضرورات الدولة، وعندها أيقن أن الثوريين لا يقومون بمهمة تصريف الأعمال بعد الثورة، إنما هم الفنيون والبيروقراطيون الذين هم ضد الثورة.

وقد كانت هذه أعظم أخطائه التى أودت بحياته فيما بعد، لأن البناء الذى يعقب أى فعل ثورى لا يقل أهمية عن الفعل الثورى ذاته، ولكن الإيمان المطلق بالفعل الثورى كان يقف حائلاً دائما بينه وبين فهم حقائق الأشياء وفعلها على الأرض.

وقد كان الرئيس عبدالناصر محقًا عندما قال له فى حوار بينهما:.

إن عملية الحماسة المطلقة تأتى فى المرحلة الرومانسية من الثورة، وأن يوم اندلاع الثورة هو يوم تحقيق أهداف الرومانسية، إنه ليلة الزفاف، ولكن عليك بعد الزفاف أن تجعل الزواج ناجحًا، عليك أن تكسب مالًا وأن تبنى بيتًا وتنجب أطفالًا، وهذا هو المقصود بالثورة.

وقال له أيضا، لن تستطيع إدراك النجاح ما لم تنشئ مصنعًا–

من هنا وهنا، فقط توجه إلى كل المتشائمين من الثوار ودعاة الثورة، أن أفيقوا فأنتم من قام

بهذه الثورة، ولا تستمرئوا حالة التشاؤم حتى لا تتلبسكم حالة الوهم بالمثالية المطلقة، وتتركوا الساحة لمحترفى سرقة الثورات من الانتهازيين ولصوص المال العام.

وتذكروا أن الجماهير لن تقف طويلا فى انتظار تحقيق أحلامها، فى انتظار أن يخرج الثوار، التى ساندتهم من هذه الحالة التى قد تطول.

فالثورة فى نظر الجماهير فعل طارئ يجب أن يعقبة تغيير سريع وملموس لواقعهم

لذلك أفيقوا لوجه هذا الوطن واعلموا أن الثورة ليست بشروط متى تحققت، تحقق الفعل الثورى

لأن الفعل الثورى شأنه كشأن أى فعل بشرى فى صعود وهبوط وانكسار، ولكنه فى النهاية فعل متصل.

إننا فى أشد الاحتياج الآن إلى الاستفاقة من حالة التشاؤم والخروج موحدين ضد من يحاولون سرقة الوطن، وهم كثر.

هذا الحديث موجه لكل من تعصب لوطنه فقط، دون التعصب لأى شىء آخر.. المتلونون يمتنعون.

الثائر المجهول

في كل عام وعلى إيقاع الموسيقى الجنائزية واصطفاف الجنود على الجانبين، يتقدم قادة الدول محملين بأكاليل الورود ليضعوا تلك الورود على قبر الجندي المجهول الذي ضحى بنفسه فداء لوطنه على أرض المعركة، ولم يتسنَ التعرف على جثته التي تحولت إلى أشلاء معلنا أن الشرف ليس في تخليد الاسم والجسد، ولكن في خلود الوطن وتنعمه بالحرية والعزة والكرامة.

ويبقى هذا هو التقليد المتبع، في جميع الدول بلا استثناء متفقين على ذلك المشهد الجنائزي، والذي رأوه متكررا ومتسقا مع كفاح تلك الشعوب، ولكنهم اختلفوا على تكريم الثائر المجهول الذي ضحى بدمه وروحه في ميادين الحرية ضد الطواغيت من الحكام ومن والأهم من الخونة سارقي الأوطان، ولم يهتم بأن يتذكره أحد أو أن يبنى له نصبا تذكاريا يخلد كفاحه ونضاله، ذلك بأن أنظمة تلك الدول تخاف على مكاسبها وعروشها من مجرد تخليد ذكرى الثوار حتى يضمنوا استمرارية الحكم لمدة طويلة حتى وإن كانت تلك الانظمة تالية لحقبة ثورية تجسد نضال الشعوب.

ولعل المهدي بن بركة الثائر المغربي الكبير يظل بحق مثالا للثائر المجهول الذي ضحى بحياته من أجل وطنه حتى تحرر، وظن أن النضال انتهى ضد المستعمر وتولى الملك محمد الخامس الحكم، وظل يجيش الشباب بعد التحرر من أجل التنمية والمشاركة السياسية الفعالة من أجل بناء مغرب جديد يسود العدل والمساواة.

ولكنه اصطدم بجبروت سلطة ظن هو وغيره من الشباب أنها جاءت لتجدد أمل الشباب في المستقبل وصنفته على أنه خطر على عرش أمير المؤمنين الملك الحسن الثاني، في تكرار بغيض لتصنيف الاستعمار الفرنسي له على أنه أخطر أعداء الحماية الفرنسية، ولكنه وقف ضد التيار الذي أراد أن يرجع البلاد إلى زمن ولى، وكافح حتى أصبح أكبر معارض اشتراكي وهو لم يزل دون الأربعين عاما، ولكن أجبره جبروت السلطة على أن يخرج من بلاده يبحث عن مجال جديد ليناضل ضد من اغتصبوا حلم الشباب في عالم جديد.

ولكن صدر القرار الأزلي لقوة غاشمة لا تعرف غيرة، وهو قرار تصفية بن بركة، ويالا سخرية القدر، فلقد اتحد على هذا الثائر المستعمر الفرنسي وسلطة بلده الوطنية وقاموا بإذابته بالحامض في بانيو بعد قتله في إحدى ضواحي باريس في مشهد يندى له جبين البشرية، وهم بذلك قد ظنوا أنهم بقتله فقد قتلوا روح الثورة، ولكن تأبى روحه الذكية أن تنغص عليهم معيشتهم وتظل

روحه مصدر إلهام لكل الشباب على امتداد المعمورة كلها، ويموت أمير المؤمنين قاتله مشيعا من قبل أعداء العرب والاسلام من اليهود والصهاينة.

وستبقى الثورة المصرية عنوانا عريضا للثائر المجهول الذى ضحى فى ميادين الحرية فاتحا صدره للنار غير عابئ بما تحمله له المقادير من أجل حرية هذا الوطن، ولم يسأل أن يخلد اسمه أو أن يصنف كشهيد تدفع لأهله أموالا نظير موته، وكأنه قد أخذ أجرة عن عمل.

إن كل ما طلبه أن تحيا بلاده حرة عزيزة بين الأمم وأن يتمكن شباب هذا البلد من أخذ مكانهم تحت الشمس وأن يأخذوا زمام الأمور من أجيال عتيقة عطلت التقدم وقتلت الإبداع والإحساس بالانتماء لدى الشباب.

أيها الشباب أنتم لستم ظاهرة فيسبوكية كما يحلو لمن ظنوا أنهم هزموكم، أنتم الأطهار الذين أوقدوا جذوة الثورة والحياة فى شرايين هذه الأمة، فلا تتركوا الساحة وأقبلوا على صنع المستقبل وشاركوا فى صنعه ولكم فى المهدى بن بركة مثل وقدوة، ولا تخشوا من أى شىء وشاركوا فى العملية السياسية بقوة حتى لا يصنع المستقبل وأنتم خارجه، واصنعوا بداخلكم نصبًا تذكاريًا يجسد الثائر المجهول ليذكركم بأن من ضحى بحياته فى ميادين الحرية يناديكم بأن لا تتركوا الساحة مرة أخرى، حتى تهدأ روحه الطاهرة.

جمهورية مصر

العلاقة بين القديم والجديد هى علاقة جدلية مستمرة منذ بدء التاريخ الإنسانى وستظل مستمرة حتى النهاية المحتومة للبشرية، وتأتى استمرارية هذه العلاقة من الطبيعة الإنسانية التى تميل إلى وجود مقياس دائم يصوب حركتها واتجاهها، فتظل حاكمة على كل جديد بما قد حصل قديما، وهو ديالكيتك بشرى يراد منه التقدم الإنسانى كنتاج طبيعى لتلك العلاقة.

وفى إطار تلك الجدلية الأزلية انتهى حُواران لي مع صديقين أثيرين إلى قلبى، ولكن المسافة الزمنية بين الحوارين لا تقل عن عام، ولكنهما وعلى الرغم من البداية الواحدة إلا أنهما إنتهيا إلى نهايتين مختلفتين، الأولى تركن إلى أنه لا جديد بعد ثورة ٢٥ يناير وما تلاها وكان من رأيى أن الأمل لدى الناس وأنهم قادرون على التغيير فكان الرد « هوا فيه ناس؟؟ »، فصدمت لتعدد الشواهد أمامى.

أما الحوار الثانى فكان متفائلا واضعا معيار التغيير أمامه وفق معطيات عصرية تلغى التمايز والجدلية بين الحكم المدنى والعسكرى، فقال « مش ممكن ندخل ما يدرس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ضمن مناهج الكليات العسكرية حتى نجسر الهوة الحادثة الآن فى مصر بين إشكالية الحكم المدنى والحكم العسكرى، ويصبح معيار الكفاءة هو الحل للخروج بالبلاد إلى مستقبل أفضل؟.

صراحة وبعد أن انتهت المحادثة الثانية وما أن تذكرت المحادثة الأولى، حتى وجدتنى أسيرا « لحوارات أفلاطون « الشهيرة والتى تعرف « بجمهورية أفلاطون « لعلنى أجد مخرجا يوازن بين تشاؤم مدفوع بميراث القديم وتداعياته، وبين جديد يعترف بأن المستقبل لن يكون إلا بالموازنة بين ما هو حادث وبين ما هو آت.

ففى معرض بحث أفلاطون عن جمهوريته الفاضلة وفى إطار اختياره لمعايير تلك الجمهورية فقد اقترح أن يحكم الفلاسفة تلك الجمهورية قائلا « ما لم يتول الفلاسفة الحكم فى الدول أو أن يتحول من نسميهم ملوكا وحكاما إلى فلاسفة حقيقيين، وما لم نر القوة السياسية تتحد بالفلاسفة وما لم تسن قوانين دقيقة تبعد من لم يجمعوا هاتين القوتين فلن تنتهى الشرور من الدول بل من الجنس البشرى »، وهو يعنى بالفلسفة محبة الحكمة والمعرفة، والسعى إلى الحقيقة التى لا تقف عند الظواهر المحسوسة التى تداعب الأبصار ولكن الحقيقة التى تدرك المعرفة اليقينية القائمة على العلم.

لذلك فإن مسئولية الفيلسوف – المثقف– لن تكون سهلة لأن طرف المعادلة الآخر، وهو الشعب الذى يرفل فى الذل والعبودية يجب أن يكون مشاركا وفاعلا، وأفلاطون يوضح أن تلك المرحلة هى الأصعب من خلال حوار بين « سقراط ـغلوكون « والذى صور فيه عامة الناس مسجونين فى كهف مظلم منذ الصغر ولقد قيدوا فى هذا الكهف منذ ولادتهم وأداروا وجوههم إلى جدار الكهف والذى تنعكس عليه ظلال ما هو خارج الكهف من ضوء ينير عالما من الناس الذين يسيرون حاملين عرائس خشبية على أكتافهم.

ولما كان هؤلاء المسجونون لا يستطيعون أن يلتفتوا وراءهم فإنهم يظنون الظلال التى يرونها على جدار الكهف حقائق ويتوهمون ما يسمعونه خارج الكهف من أصوات أنها صادرة عن هذه الأشباح فإذا تمكن أحدهم من أن يخرج من الكهف ليرى الحقائق فى الخارج وعاد هذا الرجل ليخبرهم أنهم واهمون فيما يظنونه حقيقة يسخرون منه وينكلون به، وهكذا يكون حال الفيلسوف– المثقف– بين قومه لأنه يكشف للناس وهمهم.

ألهذا الحد تطابقت حوارات أفلاطون فى جمهوريته القديمة وبين حواراتنا بعد ثورة ٢٥ يناير والتى جاءت بعد ثلاثين عاما من المعاناة وبعد قرابة الست سنوات هى عمر ثورة ٢٥ يناير، والتى تبدو منطقية لأنها جاءت فى ظروف ثورية تكاد تكون مشابهة للثورة المصرية وكان أفلاطون وسقراط من دعاتها، أليس هذا فيه رد كافٍ على صديقى العزيزين ألم يؤكد أفلاطون ما قاله صديقى الأول « هو فيه ناس؟؟ «.

هؤلاء القابعون فى الكهف خائفون من النور والمستقبل واستمرأوا العبودية، وتماهى مع صديقى الثانى وأراد أن يجعل الحكم فلسفيا قائما على البحث عن الحقيقة التى تنتشل الناس من الكهف إلى عالم من غير ظلال وأصوات أشباح وبغير قيود أغلال تشل حركتهم، أليس هذا فيه صدى لما سمعناه مرارا و تكرارا من إستخدام مصطلح « الجمهورية الثالثة « والتى قامت من أجلها ثورة ٢٥ يناير على غرار ما يطلق على الحكومات الفرنسية المتعاقبة.

يبدو أن القديم يزاحم الجديد وبشراسة بعد ٢٥ يناير وما تلاها فى ٣٠ يونيو، ولا يريد أن يرحل بسهولة كما لم يرحل قديما وقتل سقراط بالسم بعد أن كان من دعاة من أوصلهم إلى الحكم، وأنه لا شواهد على حدوث ديالكتيك ينتج وضعا جديدا، وأن هناك تسارعا نحو الرجوع للكهف خوفا من النور والمستقبل من قبل الناس، لذلك فإنه يبدو أن حواراتنا لن تعدو غير تكرار لحوارات أفلاطون عن جمهوريتة الفاضلة التى لم تتحقق.

لذلك إذا أردنا أن ننشئ « جمهورية مصر» الجديدة القائمة على معطيات العصر والقادرة على العبور للمستقبل يجب أن يكون العلم معيارا للتقدم واضعين فى اعتبارنا المقاومة الشرسة من كل ما هو قديم، والذى يريد أن يستمرن وأدواته فى ذلك هى المحافظة على الناس داخل كهف خوفهم من التغيير و كل ما هو جديد، ولن تجدى نفعا محاولات السلطة إذا أرادت مستقبلا جديدا دون خروج الناس من كهف العبودية والذل اللذين عاشا فيهما عشرات السنين.. السلطة القائمة على العلم والبحث عن الحقيقة المطلقة وشعب قادر على تجاوز سنوات الكهف هو السبيل نحو « جمهورية مصر» التى نريدها .. غير ذلك هتبقى سلطوية.

إنه الاقتصاد يا غبى

فى أوائل تسعينيات القرن العشرين وبعد انتهاء حرب الخليج الثانية وتحرير الكويت والتى كانت من تداعياتها المباشرة تواجد أمريكى مباشر على الأرض العربية ونزوعه نحو فرض نموذجه الاقتصادى الرأسمالى الجديد – أو ما يعرف بالرأسمالية غير المقيدة –على الدول العربية و كانت مصر من الدول التى استجابت للضغوط الغربية الأمريكية عبر تحويل اقتصادها من الاتجاه الاشتراكى إلى الاتجاه الرأسمالى، وذلك عبر إجراء عملية صعبة وقاسية سميت بـــ «الخصخصة».. وسط حملة إعلامية قوية مدعومة من الدولة ورجال الأعمال والبنك الدولى لتغيير أفكار الشعب من أجل تقبل التغيير الذى سيفجر أنهار العسل تحت أرجل الشعب.

هذا فى الوقت الذى كنت أخطو خطواتى الأولى نحو دراسة التجارة والاقتصاد والتى فرض علينا فيها دراسة الخصخصة كإحدى المسلمات الجديدة التى يجب أن نؤمن بها من أجل الرخاء والتنمية، وفى إحدى المحاضرات وبينما الدكتور يشرح لنا الخصخصة وفوائدها، حتى تلقى سؤالا مفاجئا عن مصير العمال فى المصانع والشركات المخصخصة ؟؟ وهنا لم يتمالك الدكتور نفسه وكال السباب والشتائم للنظام الاشتراكى والعمال وللتجربة الناصرية برمتها، بل زاد وطلب اسم الطالب كى يعاقبه على سؤاله، ولم يتسن له ذلك لتعاطف الطلبة مع زميلهم.

فقام الدكتور بمعاقبة طلبة المدرج كله بالرسوب فى مادة الاقتصاد.. لم أفهم ساعتها مغزى انفعال الدكتور؟ ولا لماذا سب تجربة شعب بالكامل؟ حتى مرت الأيام والسنون والدولة ماضية فى عملية الخصخصة فيما عرف بروشتة البنك الدولى للنهوض بالاقتصاد، وهنا بدأت أسئلتى تلقى الإجابات عليها، فالدكتور من أنصار ما يعرف بــ» مدرسة شيكاغو « الاقتصادية التى أسسها « ميلتون فريدمان « والتى أحكمت قبضتها على عملية التحول الاقتصادى فى مصر، عبر تطبيق الثالوث الجهنمى القائم على خصخصة الشركات والمصانع وإزالة العوائق أمام المستثمرين، وثالثة الأسافى الحد من الإنفاق الحكومى ورفع الدعم بالكامل، كل ذلك مصحوبا بمسحة ديمقراطية تغطى الوجه القبيح للثالوث الرأسمالى وهو ما تبدى فى تغير ملحوظ فى الاقتصاد وحدوث طفرة واضحة فى الحركة، لكن ذلك كان على حساب تصفية الشركات والمصانع وطرد العمال إلى الشوارع، وزيادة معدلات البطالة فى المجتمع ككل وزيادة معدلات التضخم نتيجة زيادة الأسعار ورفع الدعم الحكومى وتحرير سعر العملة المحلية، كل هذا زاد من حالة الاحتقان السياسى والاجتماعى

والذى قوبل من نظام مبارك بالشدة وتخويف وإرهاب الشعب عبر تمرير قراراته الاقتصادية تحت دعاوى مقاومة الإرهاب وقانون الطوارئ الذى تم من خلاله إسكات كل معارضة تقاوم ثالوث الشر الرأسمالى الذى حول مصر إلى منتجع لصوص وحرامية من طبقة رجال الأعمال والسياسة التى أثرت فى حساب الشعب فى واحدة من أكبر عمليات الإفساد فى العالم.

ولكن لم ينفع مبارك وآلتة المسلحة أن يبقى الشعب صامتا بعد أكبر عملية إفقار تمت له، واختفاء الطبقة المتوسطة أو تكاد، وهنا ثار الشعب وخلع نظام مبارك السياسى لكنه يبدو بعد ثورة ٢٥ يناير وما تبعها من ٣٠ يونيو أنه لم يفلح فى القضاء على أنصار « مدرسة شيكاغو» التى ما زالت تلهب ظهور الشعب بالسياط عبر أسلوب « المعالجة بالصدمة الاقتصادية « وذلك عبر افتعال أزمات فى المجتمع لتمرير سياسات وقرارات اقتصادية بعينها ويصبح الشعب عندها غير قادر على التفكير مستغلين مبدأ « أن الشعوب بعد أى أزمة أو محنة أو ثورة يكونون أكثر استجابة لتقبل أى تغيير خوفا من العودة لسابق ما عاشوه « وهو ما ينطبق على الحالة المصرية بالضبط.

أيها النظام نحن نريد اقتصادا قويا قائما على المشاركة المجتمعية يعيد لمصر صناعتها وزراعتها وسياحتها يعيد الريادة، بعيدا عن اقتصاد السوق الاستهلاكية التى تريدنا عبيدا عند طبقة اللصوص من السياسيين ورجال المال.

وتذكر أن «بيل كلينتون» فاز بالانتخابات على «جورج بوش» من أنصار مدرسة شيكاغو، لأن برنامجه رفع شعار» إنه الاقتصاد يا غبى « ليذكره بمطالب الشعب فى الرعاية الصحية وتوفير فرص العمل بعيدًا عن رأسمالية الكوارث.

ونحن نعيد التذكير بهذا الشعار» إنه الاقتصاد يا غبى « لنعلنها صراحة أننا نريد اقتصادا يحافظ على كرامتنا ويحافظ على استقلالنا الوطنى والقضاء على الفساد وتوفير فرص عمل وتوفير الدعم المالى والسلعى والصحى للمستحقين.. نحن لسنا عبيدا لتجارب الرأسمالية غير المنضبطة.

وتذكر أن أول ثورة جياع فى التاريخ كانت مصرية خالصة فى عهد الملك « بيبى الثانى « كما جاء فى بردية « إيبوير» وكان ضمن ما فيها

انظر؟ هناك أشياء حدثت لم تحدث منذ زمن بعيد الملك تم خلعه بواسطة حشد من الناس

انظر؟ هذا الذى كان يدفن كصقر (ملك) دفن دون نعش وما أخفته الأهرام أصبح خالياً.

البحر _ ثنائية البطالة والقهر

يقول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا.. النساء: ٩٧ - ٩٨

هكذا حسم الله تعالى جدلية الحوار العقيم الدائر بين الشباب الحالم بمستقبل يريده ويتطلع إليه، حتى وإن بلغ به الجموح ركوب البحر والغرق فيه أملا للوصول لبر الأمان، وهربا من وطن ضاق بأحلامه وبمستقبله فهان عليه الوطن، وبين عجائز الوطن الذين صدعونا صخبا وضجيجا بأنشودة الوطن وكأنها مسلمات لا يجوز القفز عليها مهما حدث ومتهمين الشباب بعدم الوطنية وعدم الأهلية للانتماء لهذا الوطن متناسين ان الرسول الكريم محمد (ص) قام بفعل الهجرة من الوطن، عندما ضاق الوطن بحلمه ومستقبله وأصبح من يحكمونه عقبة ضد التقدم وعنوانا عريضا للعبودية والاستغلال.

الشباب لم يبادر للهجرة طواعية بل عندما شاعت البطالة وقلت الأرزاق وضاقت الأرض بما رحبت عليهم، ولم يعد هناك مجال للحلم بمستقبل جديد فى الوطن، فكانت أمواج البحر تنادى عليه « تعال هناك ورائى حلم بعالم جديد ووطن جديد « فقفز بين أحضانها المهلكة غير مبال بالموت تحتها بعدما ذاق مرارة التهميش والقهر والإهمال.

إنكم يا دعاة الوطنية من أسلمتم هؤلاء الشباب لهذا المصير، عندما بررتم للحكام احتكار الوطنية ووزعتم صكوكها على أحبابكم ووصمتم الشباب بعبيد قريش الآبقين، ولكنكم تناسيتم أنهم خير منكم وكل من خارت قواة وعجز عن الحلم، إنهم عبيد هذا الوطن الذى كسر قيود الوهم بعد أن تملكه الحلم بمستقبل جديد، إنهم الفقراء الغرباء فى وطنهم وحلموا أن يكونوا أسيادا بمال وفير فى مكان آخر، إنهم الذين اختاروا أن يقفوا أمام الله ليعلنوا أنهم تمردوا على الاستضعاف الذى مورس عليهم جيلا وراء جيل من سلطة قهرتهم وأسلمتهم إلى الأوهام، وعلموا أن الأرض لله وأنها تتسع للجميع وأنها تضيق وتتسع بمقدار الحلم بزمن جديد.

يا من تهاجمون الشباب باسم الوطنية لأنهم قفزوا فى البحر بحثا عن عمل، وتدعون أن العمل بالوطن كثير ووفير على طريقة اللعب بالنسب المئوية الحكومية، أين هو هذا العمل؟ وكيف الوصول إليه ؟؟ إنكم يا سادة لستم أكثر من « جلابين العبيد « القدامى الذين يريدون أن يبقى الشباب عبيدا فى عزبة السيد بدون حلم، لذلك ما رأيكم فى طوابير بالآلاف عند كل مكان فيه

توظيف ؟ أليس هؤلاء هم شباب؟ إنكم كرهتم الشباب فى وطنيتكم البائسة كما قال الرسول محمد (ص) عندما هاجر من مكة « أما والله لأخرج منك، وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت «.

إنكم الذين أجبرتم الرسول (ص) قديما على الهجرة والشباب حديثا على الكفر بالوطن، إنكم أزلام كل أصحاب المال والسلطة الذين يريدون خدما وعبيدا فى مزارعهم ومصانعهم، إنكم كهنة معبد آلهة القهر والظلم، إنكم من جعلتم البحر بأمواجه المتلاطمة أحن من حضن الوطن ودفئه.

الوطن لا يعنى أرضا ولا سماء ولا بحرا، الوطن بشر تؤمن بمصير واحد وبحلم واحد يسود فيه العدل والمساواة، وطن لا يطغى فيه الغنى على حق الفقير، ولا سلطة تغير على أمل وطن فى المستقبل.. هنا فقط نقول إن هذا المكان وطن غير ذلك توهمات لا قبيل لها إلا المتاحف اللفظية الجامدة.

كفروا عن أخطائكم وتذكروا أن الرسول (ص) عاد إلى وطنه منتصرا بشبابه على أجدادكم، لذلك أرجو منكم أن تتلافوا أخطاء الماضى، وترفعوا ولو لمرة واحدة صوتكم مع الشباب فى مواجهة السلطة « عاوزين نشتغل يا كبير « لعل وعسى يغفر لكم الشباب خطاياكم فى حق الوطن وللقضاء على ثنائية البطالة والقهر التى أرهقت هذا الوطن.

لا تتصورا أن شبابا عبر للمستقبل من بوابة الموت وغيره منتظر، ستكونون قادرين على مقاومته، إنه تعلم من البحر التقلب والتعبير عما بداخله، وصولا لطوفان سيقتلع الجميع.

أنا حُلمى . . أن يظل عندى وطن

المال فى الغربة وطن، والفقر فى الوطن غربة.. بهذه الحكمة الرائعة لخص الإمام على بن أبى طالب حال ونفسية المواطن فى وطنه عندما يفقد الإحساس بوطنه ليس نتيجة فقره فقط ولكن لتعمد إهماله وتهميشه بل وإذلاله وهو فى الوقت نفسه صاحب هذا الوطن.

ولعل جمال هذه الحكمة يكمن فى أن قائلها ليس شخصا عاديا بل هو الحاكم، ولكنه كان يحكم فى ظرف استثنائى ظروف ما بعد ثورة على سابقه، وكان يدرك أن هناك خللا أصاب مواطنى الدولة الجديدة، وأن الفقر والتهميش هما العاملان اللذان يفقدان توازن مواطنى الدولة ويجعلهم فى استعداد دائم للثورة لتغيير أوضاعهم المزرية والفتك بمن أوصلهم لهذا الحال.

ولقد ظلت علاقة المواطن بالسلطة علاقة يشوبها الحظر والترقب، حتى وإن غلب على طابعها سيطرة السلطة على المواطن بالأدوات الأمنية، ولكن ظلت أسباب ثورة المواطن على السلطة معلومة ومعروفة من الفقر والبطالة والظلم ولكنها فى أحيان كثيرة لا تؤدى إلى الثورة، فماذا إذا السبب الخفى الذى يدفع إلى الثورات ويكون هو العامل المحفز للأسباب السابقة حتى تقوم الثورة على الحكام ؟؟

إنه إحساس المواطن أن هذا الوطن ليس وطنه وأنه فيه بلا قيمة كما ذكر الكاتب الجزائرى «على رحاليه» فى كتابه « مواطن.. لا ابن كلب « قائلا « إننى اكتشفت أنى عشت على هذه الأرض وفى هذا البلد بالذات، عشت تلك السنوات كأى «كائن حى» تماما مثل النبات والحيوان، آكل ما توفر، أتنفس هواءً ملوثا أشرب ماء لا أعرف مدى صلاحيته وأنام فى بيت تلزمنى عقود من الزمن لدفع أقساطه، وهى عيشة لا فرق بينها وبين عيشة أى نبات أو حيوان.

لقد عشت كمجرد جَدى أو خروف فى وسط قطيع من الماعز والأغنام أو كمجرد جحش وسط قطيع من الحمير والبغال، باختصار لقد عشت تلك السنوات كأى دابة أو بهيمة.. «

ويمضى الكاتب فى مقارنة بين المواطن فى دولنا وبين المواطن فى أوروبا حيث يقرر بأن كافة المؤسسات فى أوروبا تعترف بالمواطن وأن الجميع مواطنون متساوون، ولكن فى بلادنا لا نعدو « مجرد أرقام وأعداد ونسب مئوية يستعملها النظام للتباهى والافتخار بإنجازاته الزائفة عندما يعلن عن عدد المشاركين فى الاقتراع ونسبة المشاركة فى الانتخابات».

إنه التهميش الذى يوصل المواطن بأنه غريب فى وطنه مهان لا يسمع صدى لصوته فما بالك

بمن يسمع شكواه، إنه الذى يردد شجنا أغنية « لطفى بوشناق « « أنا مواطن «، معلنا أنه ذاك المواطن الحائر الذى ينتظر من حكامه جواب ورد على ما حدث له من تهميش، ويعلن أن عنوانه معلوم لهم، فهو يسكن فى كل شارع وكل ركن متسلحا بصبره وصمته، وكل ثروته لا تعدو كوم تراب.. ولا يخاف الفقر فهذه سُنة الحياة ولكنه يخشى حالة الضباب وغياب الوعى والتقدير لدى حكامه ما يؤدى إلى تهميشه وغيابه عن تقرير مصيره.

ويعلن أن يا سادة الحكم فى البلاد، ها وقد حكمتم فإن حكمكم هو الصواب ولا اعتراض، حتى ثورتى أقدمها غنيمة لحضرتكم، فأنا لا يهمنى الدنيا وما فيها، فالدنيا أدوسها بمداسى ولا أبالى، ولكن ما اطلبه منكم « خلولى بلادى، خلولى بلادى «.. وأعلن أننى حر لا أساوم ولا يغرنكم صمتى فأنا لن أكون فى يوم منكم ظهيرا ضد وطنى وأشهد الله والزمن.

ولكن حلمى أن يظل عندى وطن بعيد عن الحروب والخراب والإرهاب والمصائب، خدوا كل المكاسب والمناصب لكن « خلولى الوطن «، أريد أن أشعر بأنى « مواطن.. لا ابن كلب « أحيا فى وطن يعرف قيمتى.. لا فقر لا عوز لا حروب ولا مصائب تضيع كرامة مواطن ووطن..

يا وطنى إنت حبيبى إنت عزى وتاج راسى، إنت يا فخر المواطن والمناضل والسياسى، أنت أجمل أنت أغلى أنت أعظم من الكراسى..

سؤال: هل ما يطلبه المواطن بعد ذلك كثير بعد ثورة عظيمة قام بها ؟ لا أنتظر إجابة سوى حلمى بوطن جديد..

الشعب عاوز ياكل

وسط المشهد الرأسى لميدان التحرير و كافة ميادين مصر كانت تقف ملايين الناس تهتف بسقوط نظام مبارك العتيد، رافعة شعار « عيش ـ حرية ـ عدالة اجتماعية »، شعار لخص حالة مجتمع وصل إلى حالة احتقان نتيجة شيوع الأزمة الاقتصادية التى أدت إلى صعوبة الحياة (العيش) والتفاوت الطبقى الحاد ونسب البطالة العالية بين الشباب فى مصر والتى نسفت مبدأ (العدالة الاجتماعية) ناهيك عن تكبيل واضح للحريات (الحرية).

ومع انتصار الشعب بسقوط نظام مبارك ومجىء نظام الإخوان المسلمين، إلا أن استعجال الشعب للوفاء بمتطلبات شعار المبادئ الذى رفعه، جعله يدخل فى صدام مع النظام الجديد مدعومًا بقوى سياسية والمؤسسة العسكرية، حتى تم إسقاط ذاك النظام وسط فرحة عارمة ظنا بأنه هو من كان يقف ضد تحقيق مبادئ الثورة الثلاثة.

لكن بنظرة بسيطة لتركيبة الشعار نجد أنه وعلى الرغم من دغدغته للشعور العام لدى الشعب مثل « العيش » الذى يمثل رمزية الحد الأدنى للحياة اليومية للمواطن المصرى، و» الحرية « التى تمثل يقينا حرية التعبير والتحرر من تسلط الآلة الأمنية التى أذلته، و» العدالة الاجتماعية « التى يقينا لم يرها طوال تاريخه القديم والحديث ولكنه يريدها على طريقة المساواة الاجتماعية المستحيلة، إلا أن الشعب لم يحدد آلية تحقيق ذلك الشعار ولا النظام السياسى والاقتصادى الذى يحقق له ما أراد.

بل ترك كل ذلك ورجع مستكينا لمخادع نومه..

ومع مرور أكثر من عامين على ٣٠ يونيو واستكمال خارطة الطريق الثلاثية « دستور ـ ورئاسة – وبرلمان » هل تحقق شيء من مبادئ الشعار؟ أم حدثت انتكاسة للمسار الذى أراده الشعب فى ٢٥ يناير؟

أعتقد أننا ما زلنا نراوح مكاننا، فتبنى الدولة الجديدة للنظام الاقتصادى الرأسمالى جعل الحياة الاقتصادية (العيش) صعبة على الرغم من تبنيها سياسة تموينية شبه مجانية للحيلولة دون تفاقم الأوضاع لدى قطاع واسع من الشعب، وسياسة أمنية وافق عليها الشعب لتكون موجهة لقوى الإرهاب الأسود لكن ممارسات الآلة الأمنية جعلت (الحرية) محل شك الأمر الذى يضع رأس النظام فى إحراج مع تصريحاته التى تتكلم عن كرامة المواطن.

ومع ازدياد معدلات البطالة عما كانت عليه وقت اندلاع الثورة وسياسة التدليل الواضحة للطبقة الأغنى جعل مبدأ (العدالة الاجتماعية) حلم تبدد على أعتاب القصور والمنتجعات بعد أن « سقط دعاة المساواة الاجتماعية من الاشتراكيين واليساريين مما أدى إلى تشويه مفهوم العدالة الاجتماعية وتقدمت فكرة شرعية عدم المساواة جزئيا «.

وأعتقد أن النظام يعانى أزمة الاضطرار إلى تبنى النظام الرأسمالى المفروض عليه خارجيا أملا فى تحقيق العدالة الاجتماعية التى تحقق العيش الكريم والحرية للشعب، ولكنه وقع أسيرا لتساؤل كبير كان مقدمة لكتاب « الرأسمالية أم الديمقراطية- خيار القرن الواحد والعشرين « للكاتب الفرنسى « مارك فلورباييه «.

وهو « فى الوقت الذى تبسط فيه الرأسمالية المظفرة سيطرتها على الأمم هل مازال باستطاعتنا الأمل والتصور لتطور اجتماعى حقيقى؟؟ «.

بعد قراءة الكتاب كاملا نجد أن الكاتب وضع حلا لهذا التساؤل قائلا:» يعتمد ذلك على الإمكانيات الاقتصادية والقانونية لتطور الديمقراطية بشكل خاص داخل المؤسسات وعلى التحرك الاجتماعى والسياسى الذى يستطيع العمل لصالح هذه الفكرة «.

أى أنه يسلم جدلا بأنه وإن كانت الرأسمالية حلا لا مناص منه، فإن الديمقراطية بأدواتها السياسية قادرة على كبح جماح الرأسمالية نتيجة نظام سياسى قوى وفاعل يجعل التغيير الجماهيرى يتم ضمن آلية محددة بعيدة عن التصورات الاشتراكية.

ولكنه لا يضمن فى المقابل تحقيق العدالة الاجتماعية بمنطق المساواة التى تنادى بها الأحزاب اليسارية، أى أننا سنكون مضطرين لتبنى إليه ما يعرف « الطريق الثالث « لإحداث ما يعرف بـــ» بالديمقراطية الاجتماعية «..

ولكن هل سينتظر الشعب حتى تتحقق للدولة كامل تصوراتها للتغيي؟ وإلى متى سيتحمل فاتورة الإصلاح الاقتصادى فى ظل نظام يتبى رؤي رأسمالية غير مكتملة؟.

أعتقد أن صبر الشعب قد قارب على النفاد، خاصة مع عدم احداث تغيير جذرى فى منظومة (العيش- الحرية- العدالة الاجتماعية).. ربما لأنه أخطأ عندما جعل حد الكفاف (العيش) هو أول مبادئه الثورية.. لكنى فى المقابل أرى أن عدم التقدم فى مفهوم (الحرية) و (العدالة

الاجتماعية) قد يعطى مبررا آخر للخروج للشوارع، ولن تجدى الأعذار بالحرب على الإرهاب والحرب على الحدود أمام جماهير تريد أن تأكل.

الشعب « عاوز ياكلٍ .. ولن يتنظر التجارب الرأسمالية فيه، ولا العدالة الاجتماعية التى ستأتى من ديمقراطية ولدت ميتة.

الفصل الثاني

أضواء حول السياسة المصرية

مرشح رئاسى مدهون بالعسل

ما أشبه الليلةَ بالبارحة، وعودٌ حميدٌ أيها الشعب العظيم، فها قد بدأت حملات انتخابات الرئاسة بضجيجها، وبالضوضاء المصاحبة لها، وكأنَّ الحياة لا تتحرك إلى الأمام منذ ثلاثة أعوام، هى عمر الخروج العظيم ضد الظلم والطغيان فى ثورة ٢٥ يناير.

وهاهم المرشحون المحتملون للرئاسة، يظهرون تباعًا، تصاحبهم الأضواء، وتتسابق عليهم كاميرات الميديا، ولكن يبقى إلى الآن الأكثر صخبًا والأعلى صوتًا بين كل من أعلن عزمه الترشح، هو السيسى وحمدين صباحى.

وإذا كانت المقارنة بين السيسى وحمدين، تصب فى مصلحة الأول بامتياز على شاشات الميديا وجدران الحوائط، والبيوت فى طول البلاد وعرضها، لكن يأبى حمدين إلا أن يكون مشاركًا فى هذه الضجة الإعلامية، فتارة بانتظاره إعلان السيسى برنامجه الانتخابى؛ حتى يُعلن ترشحه، وتارة بقوله: إن هناك معتقلين بالآلاف فى السجون منذ ٣٠ يونيو، ثم يُخفض العدد إلى المئات، ثم برنامج لم تتضح معالمه، وأكاد أجزم أنه البرنامج نفسه؛ الذى خاض به الانتخابات الماضية.
فأصبح حمدين مثار الحديث فى المنتديات والبرامج التليفزيونية على أنه كومبارس للسيسى فى الانتخابات، حتى يتم الشكل المدنى للعملية الانتخابية، فيما يتمسك مناصروه بأنه المرشح الوحيد للثورة المصرية والمعبر عنها، فى تحدٍ واضح لمجريات الأحداث المتعاقبة طوال الثلاث سنوات الماضية، والتى شهدت تذبذبًا فى المواقف، فها هو حمدين يتحالف مع الإخوان– وهو الناصرى– فى الانتخابات البرلمانية؛ من أجل الوجود، تحت قبة مجلس الشعب الملغاة نتائجه.
وفى مفارقة غريبة، على المشهد السياسى المصرى، قام حمدين بتقديم اعتذار للإخوان، عما قام به الرئيس جمال عبد الناصر من إجراءات ضدهم إبان فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، وصولًا لظهوره المتقطع غير المفهوم؛ منذ خروج الشعب فى ٣٠ يونيو ضد الإخوان، وحتى ظهوره بكثافة على الساحة السياسية مرة أخرى معلنًا خوض الانتخابات الرئاسية، الأمر الذى عزز فرضية خوضه الانتخابات الرئاسية، لتجميل العملية الانتخابية وإعطائها الشكل المدنى، وهذا غير صحيح بالمرة، فالأمر له أبعاد أخرى، أرجو أن لا تطول بنا السنون لنكتشفها.

كما أن ترشحه بهذا الشكل قد أثار هواجسى ضد ترشحه، وهو ما استدعى من ذاكرتى،

مشهد الملك الفرعونى بيبى الثانى، الذى كان يمنع الذباب من الاقتراب منه، وذلك بأن يبقى بجانبه مجموعة من الخدم، أجسامهم مدهونة بالعسل لتمنع الذباب من الوصول إليه وتضايقه، فتلتصق بالأجسام المدهونة بالعسل.

وهذا ما يجعلنى أوجه حديثى إلى حمدين، إذا كنت جادًا فى منافسة قوية تمنع الشكوك حول ترشحك، فعليك أن تطرح برنامجًا قويًا، وتبتعد عن لغة الخطاب التى بها تملق واضح للمؤسسة العسكرية، وتلتف حول القواعد الشعبية التى هى الأصل، والتى ستوصلك إلى كرسى الحكم

وحتى لا تكون مجرد محلل للرئاسة، مدهونًا بالعسل؛ تذبُّ الذباب عن وجه السيسى.

آه نسيت أقولك، امسح العسل بتاع الانتخابات اللى فاتت!!

نخبةٌ لا تقدر على العداوات

إن إطلالة واعية متفحصة للمشهد المصرى على امتداد الثلاث سنوات الماضية- هى عمر الثورة المصرية- نجد أن هناك أقنعة كثيرة قد سقطت عن كثيرين، كنا ننظر إليهم بعين الاحترام والإجلال، تعلمنا على أيديهم معانى الحرية وأهمية التحرر من أسر العبودية للحكام، وأن الثورة حياة، وإنها الجنة لكل الأحرار والمطحونين، وأن أعداءها هم الشياطين المردة عملاء الغرب والصهاينة.

إنهم نخبة هذا المجتمع الذين كنا ننتظر منهم عندما تقوم الثورة، أن يكونوا فى الصفوف الأولى ضد الظلم والطغيان.. ولكن هيهات، فما أن قامت الثورة، حتى أفقنا على نخبة لا تعرف إلا أن تتكلم على شاشات الفضائيات تاركة الشباب يروى بدمائه الميادين مسطرًا ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ الحديث، وهى متفرغة لملء أذننا بأوهام صنعوها وصدقوها بأنهم هم من أسسوا للثورة، وبشروا بها، فى ادعاء كاذب، يريدون أن يسلبوا طليعة هذا الشعب من الشباب إنجازه العظيم الذى غير وجه الحياة فى مصر.

إنهم دائمًا يقدمون أنفسهم طواعية خدمًا لكل الأنظمة على مدار عمر الثورة طارحين رؤيتهم للمستقبل فى سلوك نفعى واضح فى تقديم ولاءات لم يطلبها أسيادهم، فى محاولة لسرقة الحلم الثورى ونسبه إليهم لتحقيق مكاسب تجعلهم دائما يطفون على سطح المجتمع، تحت أضواء عدسات الكاميرات، وهم بذلك يكررون ما فعله ميكيافيللى ذلك المثقف الذى تبرع أن يقدم خدمات لم يطلبها الأمير لورنزو، فكانت بئس الخدمات، التى أنتجت أسوأ دستور لكل الطغاة وهو» كتاب الأمير» القائم على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

إنهم لم يتعلموا من، فولتير، الفيلسوف الثورى المتمرد معنى أن يقفوا فى وجه الظلم، حتى وإن سجنوا وعانوا مرارة التشرد خارج أوطانهم، وأن يكونوا صادقين مع أنفسهم ويرجعوا الحق لأهله.

ذلك الفيلسوف الذى وقف فى وجه الجميع ضد الحكام والكنيسة وأصحاب المصالح، لم يهادن ولم يتصالح على مبادئه.. ومن هنا كانت القطيعة بينه وبين الحكام الذين أرادوه أن يعيش سوطًا يجلد به الفقراء والمساكين.

ولاعجب أن تكرمه الجمعية الوطنية الفرنسية بعد مماته وتعتبره ملهم الثورة الفرنسية.. وتنقل رفاته بعد دفنه بسنوات إلى البانثيون.. مقبر العظماء فى فرنسا.

فأين النخبة المصرية من فولتير بعد الثورة، الذى عندما حضرته الوفاة طلبوا منه أن يتبرأ من الشيطان، لأنه كان يهاجم الكنيسة.. فرد عليهم» لا وقت لدى الآن لأكتسب المزيد من

العداوات».

هنا وهنا فقط نكتشف أننا أمام نخبة لا تريد، بل لم تتعلم معنى الاشتباك من أجل المبادئ، ولا تقدر على إثارة أى عداوات مع أى نظام قديم أو حديث والتضحية بمصالحها من أجل الوطن ومساعدة الشباب فى بناء المستقبل.

إنهم حفدة ميكيافيللى، الذين يزينون للحكام كيفية السيطرة على الشعوب، وإلهاء الأحرار عن المطالبة بالتغيير من أجل المستقبل.. لذلك لا عجب أن يكون فولتير بالنسبة لهم شيطانٌ رجيمٌ.

أيها الشباب، لا تعولوا عليهم، فإنهم بقايا أزمنة بالية، تسكنهم الأوهام والهواجس.

مماليك الجنرال

إن فى زيارة التاريخ مهمة تكاد تكون شاقة خاصة عندما تكون الزيارة، محاولة للبحث عن أجوبة لتساؤلات حائرة لما نعانيه فى الوقت الحاضر.

وهى زيارة ليست لتأكيد نظرية المؤامرة، بل للتأكيد على أنه وإن تشابهت الحوادث، فذلك راجع إلى أن الفعل البشرى هو فعل متصل يسهل التنبؤ بأفعاله وتصرفاته لو دققنا النظر، وأعطينا أنفسنا فرصة للتفكير المتأنى البعيد عن الهوى.

ولعل مشهد ثورة الشعب المصرى القاهرة الأولى والثانية، ضد الحملة الفرنسية بعد فترة قصيرة على احتلالها لمصر، قد أعطى تأكيدًا واضحًا على عظمة هذا الشعب وعدم خضوعه للمستعمر، حتى وإن جاء ملتحفًا ببريق دينى يريد به تدجين هذا الشعب، مما جعل الجنرال نابليون يوقن أنه لا فائدة من استمرار احتلاله لمصر، وفر هاربًا تحت جنح الظلام مرتديًا زى إمرأة فى مشهد مُخزٍ لقائد ظن أنه أذكى من الجميع.

ولكن لم تنتهِ هواجس نابليون عند حد الاستسلام والهروب، بل أراد أن يكون سحر الشرق حاضرًا أمامه كل لحظة، فأمر بتجهيز وتدريب عدد من المماليك الهاربين أو المتمردين على قادتهم والذين عادوا مع فلول الحملة الفرنسية إلى فرنسا، من أجل أن يكونوا خدمًا للإمبراطورية فى حروبها، ولكن لم ينسَ أن يستخدمهم فى مواكبه الرسمية وهم يمشون بجانب عربته بكامل أزيائهم الشرقية الجذابة وسيوفهم اللامعة، فى مشهد يوحى لسكان باريس بأن إمبراطورهم بات يملك العالم بدليل هؤلاء المماليك، وهو لذلك أطلق عليهم لقب مماليك الجمهورية.

ومع تشابه الحوادث، وإن لم تتطابق، فها هو الشعب المصرى يقوم ثائرًا فى لحظة تاريخية معلنًا نهاية الظلم والفساد، ويجبر مبارك على أن يتنحى تحت جنح الليل، ويتوارى خلف القضبان، ولكن أين مماليك مبارك ؟

هنا وهنا فقط تكمن أزمة الثورة المصرية التى يرى الكثيرون أنها لم تحقق أهدافها لتحكم هؤلاء المماليك فى مفاصل الدولة حتى الآن، والذين يختلفون عن أجدادهم مماليك الجمهورية، فهم تعلموا الدرس جيدًا، وأيقنوا أن تزيين مواكب الحاكم ليس مناسبًا لهم، وأن عليهم صنع واقع لا يتغير مهما تغير الحاكم.

ومع اقتراب انتخابات الرئاسة والتى قد بات واضحًا للعيان أن المشير السيسى هو الأقرب إلى كرسى الحكم، هنا نلحظ أن مماليك الحاكم القديم، مبارك قد أعلنوا عن أنفسهم علانية فى

تحد سافر للشعب والثوار، مقدمين ولاءاتهم إلى الجنرال السيسى، وهنا بدأت الهواجس تتحول إلى يقين باستحالة التغيير.

فهل يفعلها الجنرال السيسى ويعلن نجاح ثورة هذا الشعب عبر انتخابات رئاسية نزيهة، ويغلق الباب أمام خدم السلطان مماليك هذا العصر وكل العصور، أم يتخذهم مماليك له ليحارب بهم كل من ثار على الظلم، متزينًا بهم بملابسهم العتيقة وسيوفهم اللامعة، فى استدعاء لمشهد تاريخى، للإيحاء بانتصار زائف على شعب كل جريمته أنه ثار من أجل حريته.

مُرسى ومراكز القوى

لا يزال البحث فى أضابير التاريخ ينبئنا بالكثير عما نبحث عنه من إجابات فى محاولة لفهم الواقع واستشراف المستقبل، وقد كان ابن خلدون محقًا عندما قال:» إن التاريخ فى ظاهره لا يزيد عن الأخبار، ولكن فى باطنه نظر وتحقيق».. وفى محاولة لتفسير خبر عزل الرئيس محمد مرسى من الحكم تاريخيًا، فقد كان لزامًا أن نغوص فى باطن الأحداث لننظر ونحقق: هل للتاريخ وحوداثه آثار وندوب على ما حدث يوم ٣ يوليو؟

فبعد وفاة الرئيس عبد الناصرمباشرة، ثار سؤال من يحكم مصر بعد عبد الناصر؟ ولما كان الوقت ضيقًا وحاكماً فى الوقت نفسه، اختارت مجموعة الحكم النائب أنور السادات رئيسًا لضعف شخصيته وسهولة اللعب به، ثم التخلص منه فى أقرب فرصة. هكذا تم ترتيب الأمور، ومع إحتدام صراع الإرادات ين مراكز القوى المتحكمة فى مقاليد الدولة، ورئيس ليس لديه حليف أو نصير.. فقد كان لا بد من حسم الصراع، وهنا اتبع الرئيس السادات تكتيك الرئيس الضعيف، الذى لم يجد غير الشعب الملاذ والحامى، ضد كل أعدائه المتربصين به، وجاءت الفرصة السانحة، ففى عيد العمال ١٩٧١ بمدينة المحلة، أراد خصومه إحراجه وإظهاره أمام الشعب بمظهر الضعيف وبحضور آلاف العمال الذين يحملون صور عبد الناصر، هنا أدرك السادات النهاية الشعبية لحكم لم يدم شهورًا، ولكنه لم يستسلم وانطلق:» إن فى مصر بعد عبدالناصر ٣٤ مليون عبد الناصر، وإن الشعب صاحب هذا البلد، وليس من حق أى فرد أو جماعة أن تدعى لنفسها موقفًا تستطيع به أن تفرض وصياتها على الشعب، أو أن تشكل مراكز قوة، بعد أن أسقط هذا الشعب مع جمال، كل مراكز القوى ليبقى الشعب وحده سيد مصيره « وقد كان له ما أراد فبعد المؤتمر مالت الكفة لصالحه واستمال الشعب لصالحه، وكانت بداية النهاية لصراعه مع مراكز القوى وترسخت شعبيته التى ساندتها القوات المسلحة، وانتصر السادات فى أكبر تحدٍ يهدد شرعيته.

وها هى الأحداث تتشابه مع الرئيس مرسى، مع اختلاف الحوادث والولاءات، فى صراعه مع منافسيه الذين ظنهم أعداءه، من كل القوى السياسية مرورًا بالقوات المسلحة، حيث استخدم فيه تكتيك الرجل القوى مسلحًا بخلاف مع ثورة يوليو، الستينيات، وتأييدًا مطلقًا من جماعة الإخوان وحلفائها، حتى وصلت الأحداث إلى يوم المؤتمر الشهير بقاعة المؤتمرات يوم ٢٧ يونيو ٢٠١٤.

قبل العزل بأيام.. فإذ بالرئيس يهاجم الجميع مهددا ومتوعدًا، حتى بات واضحًا لكل ذى

عقل أن الطريق لحل الأزمة السياسية قد بات بعيد المنال على يديه، وبعدها بأيام كانت النتيجة، الشعب يخرج بملايينه معلنا نهاية فترة حكمه التى أكملت عاما يوم عزله، مع تأييد القوات المسلحة للشعب.

هنا يكمُن الفارق بين الرجلين، مرسى والسادات، بين من جاء إلى الحكم غير مُهيئ للحكم، مخاصمًا للتاريخ وبين رجل خبر السياسة وعمل من خلال آلياتها وتعلم من دروس التاريخ الطويلة.

وهنا تكمن أهمية التاريخ كعنصر حاكم فى البحث عن إجابات لأسئلة تمس الحاضر والمستقبل.

ومن لم يتعلم من دروس التاريخ جيدًا، فليعلم أن عقوبة الجهل هنا قطار سريع من الحقائق ستدهسه دون رحمة، وتطيح به خارج السياق الزمنى للأحداث.. وتلك نصيحة للوافد القادم على كرسى الحكم أيا كان.

لُصوص الدين والوطن

إن الحرية هى الأيقونة التى تتوق إليها الإنسانية فى سعيها نحو عالم أفضل، خالٍ من العبودية والاستغلال، ولكن الإنسانية فى سعيها نحو الحرية قد وجدت من يقف حائلًا دونها، من حلف غير مقدس من كهنة المعبد، رجال الدين، و كهنة السلطة.

ذلك الحلف الذى احتكر الحديث باسم اللهّ مبررًا للطواغيت استعباد الناس، سواء فى معابد الكهنة، رجال الدين، أو مزارع وبساتين السلطة

وقد كان الكاتب عبد الرزاق الجبران فى كتابه، لصوص الله فى إنقاذ اليوتوبيا الإسلامية، محقًا عندما وصل إلى أنه كى تكون مؤمنا بالله فعليك أن تكفر بالمعبد، لأن المعبد قد كفر بالبدء، عندما جعل كتاب الله و كتب الفقهاء سواءً بسواء، وجعل الفقيه مترجمًا لله.

لذلك يجب أن تعمل الإنسانية على التحرر من سيطرة كهنة المعبد، كى تصل إلى الله ثائرة متحررة من الأفكار الجامدة، التى تخدم الطغاة الذين استعبدوا الناس، وخالفوا شرع الله عندما عملوا ضد مصلحة الناس، التى إن وجدت فثم شرع الله.

والبشرية فى سعيها نحو التحرر يجب أن تكون مدركة أن الإيمان والإنسانية كلٌ لا يتجزأ، فعندما تكون مؤمنًا حقًا، فأنت إنسان حر تدرك ما عليك فعله تجاه الله والإنسانية، لذلك يجب أن تدرك أنه عندما يعلمك كهنة المعبد أن الآخر كافر، فهو بذلك يسرق إيمانك.

وعندما يعلمك أنه مباح فى دمه وعرضه وماله وأرضه فهو يسرق إنسانيتك.. لأن الحكام والفقهاء تلك شريعتهم لصوص ونصوص

ولا يجب أن تنخدع الناس، إذا جاءها ثائر من داخل المعبد، لأنه لا يعشق الحرية للإنسانية وإنما هدفه الخروج من المعبد القديم، إلى تأسيس معبد جديد بكهنة جدد.

وقد يكون، مارتن لوثر،عنوانًا لذلك الثائر فقد ثار على سطوة وجبروت المعبد القديم، حتى انتصر عليه بمساعدة الفقراء والمضطهدين، وما إن شعر الفقراء بقرب حلم التحرر نحو الإنسانية والانعتاق من العبودية، وثاروا ضد الإقطاعيين ورجال السلطة.؛هنا وقف مارتن لوثر، ثائر المعبد، ضدهم منتصرًا للحلف، غير المقدس بين المعبد والسلطة.

إننا لا نريد فقهًا أو فكرًا يجعلنا نعيش عبيدًا لفقهاء المعبد، وجبروت السلطة، حتى لا ينتزعوا منا إنسانيتنا وعزتنا وحريتنا، إنما نريد أن نعيش فى جمهورية النبى التى تعلى من كرامة الإنسان، الحر فى اختياره، الذى يعبد الله بعيدًا عن لصوص الدين الذين سرقوا الإنسانية، ولصوص السلطة الذين سرقوا الأوطان من أجل مجتمع الحرية الإنسانية.

فهل بعد ثورة عظيمة كثورة ٢٥ يناير والموجة الثانية لها في ٣٠ يونيو، ضد تحالف المعبد والسلطة، نستطيع أن نقول: إننا تحررنا من سطوة ذلك التحالف غير المقدس.. هذا ما ستُجيب عنه الأيام وقدرة الثورة على خلق أوضاع جديدة، تخدم قضية الإيمان والتحرر الإنساني.. فإلى قادم الأيام.

رئيس ونظام

في الفترات التى تعقب الثورات، وما يليها من تداعى وسقوط للأنظمة السياسية، يصبح الحديث عن إعادة ترتيب وبناء النظام السياسى الجديد الذى يتفق مع التوجهات الثورية للشعوب مهمة ليست باليسيرة، ونستطيع أن نقول إنها صعبة للغاية، وقد تكون الحالة المصرية بعد ٢٥ يناير و٣٠ يونيو خير مثال.

فبعد انحسار مياه الطوفان الثورى، والذى أزال نظامى مبارك العتيد والإخوان، نجد أن الركام المتخلف عن الطوفان قد أعطى مؤشرات غير جيدة عن شكل النظام السياسى لمصر المستقبل

فالحزب الوطنى والذى ظن الجميع أنه قد غرق تحت وطأة مياه الطوفان، نجد أنه قد استطاع أن يلملم نفسه سريعًا متخفيًا وراء مسميات عديدة تظن لنفسها الحق فى إدارة المستقبل وإعادة الماضى مرة أخرى.

وأحزاب التيار الاسلامى مجتمعة والتى تحت وطأة الطوفان قد إنفرط عقدها، وأصبحت مطالبة بإعادة ترتيب البيت من جديد، يبدو أنها قد لا تكون مؤثرة فى المشهد السياسى فى الأمد القصير وربما لفترة طويلة.

وأحزاب التيار اليسارى والليبرالى الهشة، التى توهمت أن لديها رصيدًا لدى الشباب نجدها وقد أصابها العطب وعدم القدرة على التفكير فيما هو قادم، وتراهن على سلطة الدولة فى جعلها تتبوأ مكانة فيما هو قادم.

ووراء كل هذا شباب ثائرُ ظن نفسه أنه يستطيع صناعة المستقبل دون قيادة واعية، وأدوات سياسية قادرة، ونستطيع أن نرى فيه حالة لا متناهية من التشرذم وعدم وضوح الرؤية لديه

وفى خضم هذه المؤشرات نجد أنفسنا مقبلين على انتخابات رئاسية يتسارع الجميع نحو إنجازها دون النظر وربما التفكير فى شكل المستقبل السياسى وما سيكون عليه فيما بعد، تاركين تلك المهمة للرئيس القادم.

فهل يقدر الرئيس القادم على ذلك؟ أظن أنه لن تكون مهمته سهلة لاعتبارات عديدة منها:

أن الاعتماد على قوى الحزب الوطنى القديم وقوى التيار السياسى الإسلامى– التى قد أصبح الشعب ينظر إليها على أنها قوى مخاصمة للتغير وتقف ضد التوجه العام للشعب المصرى، الذى ينشد التغيير – فيه مخاطرة محفوفة بالمخاطر.

وكذلك الاعتماد على بقية الأحزاب، التى يمثل الرهان عليها كالرهان على حصان خاسر لضآلة تأثيرهم على الجماهير.

ويبقى الرهان على الشباب الأغلبية الكاسحة وعلى قدرة النظام على تأثيره داخل منظومة سياسية قادرة وفاعلة تستوعبهم وتختار منهم العناصر الصالحة للقيادة، وتنظم جهودهم من أجل الوصول إلى المستقبل.

لذلك نحن أمام خيارين، لا ثالث لهم لبناء النظام السياسى الجديد، الخيار الأول وهو نظام الاتحاد الاشتراكى ذو الطابع الفردى الشمولى، والثانى هو النظام الديمقراطى وتداول السلطة، وكلا الخيارين مرهون بقدرة الرئيس القادم على إدارة الصراع السياسى بين جميع القوى السياسية والتى أراها قد حسمت أمرها ورهنت مستقبلها السياسى للرئيس القادم.. الذى بات واضحًا لها أنه المشير السيسى.

فهل يستطيع السيسى أن يعطينا نموذجًا جديدًا للديمقراطية وسط هذا الركام من بقايا الأنظمة السابقة، ويؤسس لنظام سياسى جديد؟ فى ظنى أن رايات الاتحاد الاشتراكى قد يجرى استخدامها مرة أخرى.

سَلِّموا تَسْلمُوا

الشباب أيقونة الحياة، وحيوية الروح فى الجسد ..لا شك أنهم يتعرضون هذه الأيام لحملة شرسة من بقايا الماضى، ممن احتكروا الحياة والحقيقة، وشاخوا وهرموا على مقاعد السلطة، سواء حكامًا أو مؤيدين لهم، الذين نصبوا أنفسهم سدًا منيعًا ضد التغيير وبث روح الحياة فى مصر الحديثة واقفين فى وجه مطالبات الشباب بالتغيير وضد الأغلبية الساحقة من الشعب.

وما إن انتفض الشباب وأزاح كراكيب المسنين هؤلاء الذين جثموا على الصدور طويلًا، وتصور الشباب ساعتها أنهم بذلك قد أراحوا البلاد والعباد من الظلم والجبروت والأفكار البالية التى تخاصم الزمن والحياة.

إلا أن كراكيب الزمن قد التقطوا أنفاسهم سريعًا بعد ما رأوا تباطؤاً فى حركة الإيقاع الثورى وانكساره الملحوظ، وظنًا منهم أن الشباب غير قادر على الفعل وذلك لحداثة السن والتجربة. مقدمين أنفسهم للنظام الجديد على أنهم مصلحون ودعاة تغيير.

معلنين أنهم قد انتصروا على الشباب الذين أزاحوهم من طريق تقدم هذه الأمة، وتناسوا أن الشباب هو الحياة وهو المستقبل ومهما حاولوا فلن يقدروا على مجاراة الزمن الذى ولى من بين أيديهم، فالتاريخ فى صف الشباب، فها هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يأمر بأن يتولى أسامة بن زيد، جيش المسلمين رغم أنه لم يبلغ بعد العشرين من العمر فاستكثر بعض المسلمين على أسامة كل هذا، وتكلموا في ذلك ولما علم النبى – صلى الله عليه وسلم– «صعد المنبر وحمد الله ثم أثنى عليه وقال: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة لجديرًا بها، ولما توفى الرسول أمر الخليفة أبوبكر بتنفيذ أوامر الرسول – صلى الله عليه وسلم– واعترض الأنصار الذين رأوا أن يكون قائد الجيش من كبار السن، هنا غضب الخليفة وقال «استعمله رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وتأمروننى أن أنزعه، والذى نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة».

هذا هو رسولكم – صلى الله عليه وسلم– وهذا خليفته ينتصرون للشباب، ينتصرون للمستقبل، فيا كراكيب المسنين سلموا راياتكم للشباب وأريحونا من عفنكم.. ولا تظنوا أن التاريخ سينصفكم وأنتم تحاولون وأد حلم الشباب.. سلموا تسلموا ولا تظنوا أنكم أفلتم من العقاب.. الفرصة أمامكم فلا تضيعوها.

مع . . وسط . . ضد

ما زلت أؤمن بأن التعاطى مع السياسة لا يتم من خلال اللونين الأبيض والأسود، كمحددين ثابتين يحددان شكل العلاقة السياسية داخل المجتمع، لأن السياسة بطبيعتها عامل اجتماعى متغير يخضع لتغيرات العامل البشرى بالأساس ولا يكفى اللون الأبيض «المثالى» للحكم على الأشياء، ولا اللون الأسود السيئ لضمان الاستمرارية الطويلة فى التحكم بالقوة.

لذلك فإن السياسة فى أحد تعريفاتها تقول: «إنها فن الممكن» أى أنها ببساطة هى المسافة الوسطى بين اللونين الأبيض والأسود، وهى المرحلة التى يتم فيها جميع الأساليب سواء كانت بيضاء أو سوداء من أجل الوصول لحلول سياسية دون التقيد بثوابت جامدة تحول دون التغيير المنشود داخل المجتمع.

وفى المقابل من ذلك الأخلاق، فهى حالة أحادية لا تقبل الحالة الرمادية الوسطى التى تتأرجح بين اللونين الأبيض والأسود، فالأخلاق كل لا يتجزأ من التكوين البشرى والتى من خلالها يتم الحكم على الفعل البشرى سواء بالخير أو بالشر، وهى مكون أساسى للتدين البشرى من بداية التاريخ وحتى نهايته.

لذلك يعتبر مصطلح «وسطية الدين» مصطلحًا غريبًا لا يستقيم مع المعنى الأساسى للبعث الربانى والذى أخبرنا فيه أن من يتمسك بالتعاليم الربانية سيكون هو الحكم بين اللونين الأبيض والأسود، وأنه سيكون الحالة الوسط الحاكمة على معيار التبليغ الإلهى ومقدار تأرجح البشر بين الأبيض والأسود مصداقا لقول الحق تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» سورة البقرة.

ولكن هل يمكن أن يتم دمج السياسة مع الأخلاق لخلق فعل وسط على الرغم من التباين فيما بينهما؟ فعلى الرغم من وجود أمثلة أخلاقية فى الكفاح السياسى مثال: «المهاتما غاندى إلا أنها ورغم نجاحها فى استنهاض المكنون البشرى النقى، إلا أنها لم يكتب لها الاستمرارية فى نهاية المطاف، وفى المقابل تعانى الأمثلة السياسية التى أرادت إنشاء أخلاق موازية بعيدًا عن السياق العام، فكلها باءت بالفشل على الرغم من النجاحات التى حققتها فى بداياتها الأولى.

ومع ذلك ما زلت أعتقد أنه يمكن دمجهما على الرغم من اختلافهما وذلك من خلال أجواء من الحرية والعدل والمساواة لأن الأخلاق السياسية لا تنمو فى مناخ من العنف والتطرف وغياب حقوق المواطنة والمشاركة المجتمعية، ولكن هذا يتطلب منا العمل الدءوب والمثابرة عليه وتحمل الآلام من أجل ربح المعركة فى الحقل الأخلاقى السياسى، حقل الترابط الإنسانى واللحمة

الوطنية، من أجل الوصول لمجتمع مترابط فى سياق ديمقراطى يكون فيه للجميع حقوق متساوية غير منتقصة تحت أى دعاوى سياسية تتنافى مع الواقع المنشود.

وبالنظر لواقعنا بعد ست سنوات من ثورة ٢٥ يناير، نجد أننا حيارى بين اللونين الأبيض والأسود، بين (مع) كل ما يتفق مع ما نعتقد أنه الصحيح، وبين (ضد) ما نرى أنه مخالف له، وبين حالة (وسط) عائمة مائعة لا تعطى أى إجابات واضحة لعدم استنادها لفعل ثابت على الأرض على الرغم من تغليفها ببريق دينى أخلاقى.

وهذا الواقع مغلف بحالة عدم يقين لدى جموع الشعب من جدوى ذلك كله، لإيجاد حالة من التغيير، تغير من واقعه الذى يزداد حرجا.

لذلك نجد أننا يجب علينا أن نكون سباقين للخروج من هذا المأزق، الذى يبدو أنه ليس له حلا فى الأفق القريب، وأن نحاول أن نجد حلا من «خارج الصندوق» وهو أن نوجد حالة جديدة نستطيع من خلالها أن نخرج من تلك الحلقة المفرغة أو المتاهة التى أوصلنا لها غيرنا، وأن نتمسك بالقاعدة الأخلاقية واللجوء إلى أساليب جديدة تنسجم مع أهداف ثورة ٢٥ يناير، وفى الوقت نفسه تحافظ على إنسانيتنا وتحصن بيوتنا من مظاهر تهددنا جميعا.

إننا يجب أن نخرج من الدائرة الجهنمية (مع.. وسط.. ضد) وأن نعمل على إيجاد مجتمع جديد متصالح مع نفسه، غير عابئ بالخلافات السياسية والمذهبية، مجتمع تعلى فيه قيم الحرية العدل والمساواة، مجتمع يكون فيه الدين مقدسًا ليس حكرًا على أحد، قيمًا على الجميع وفق مقتضيات العصر، ولكن هل يتحقق ذلك؟ أعتقد ذلك إذا أمن الجميع وخاصة شباب هذه الأمة بقدراته الخارقة، وأن وسائل النضال هى وسائل أخلاقية، وأنه يحمل بين طياته آمال وطن يحلم بمجتمع جديد.. فهل يسمعنى أحد؟؟.

إنى أسمع صوتًا من بعيد، ومن أين نبدأ الطريق؟ أقول له.. عندما تعى ما ذكرته ساعتها ستكون قد بدأت فعلا.. أيها الشباب عليكم بتكوين طريق جديد، خارج عن السياق القائم تراعى فيه المصالح الوطنية ومصالح المواطن الفقير، فى إطار سياسى أخلاقى جديد يتسق مع الفعل الإلهى.

ميكانيكية النظام السياسى

تتسم عملية صنع القرار السياسى فى أى نظام ديمقراطي مستقر بعدم العفوية أو العبثية، بل تأتى من خلال شكل منظم ومدروس، لذلك يجب أن نكون حذرين لأنه قد يتسبب فى الفوضى فى حال لم يؤسس على قواعد علمية وعملية سياسية قوية، لأنه فى الأساس يعبر عن انعكاس لفلسفة وأيديولوجية وأهداف النظام السياسى السائد فى البلاد، وذلك من خلال طرح البدائل والعمل على المفاضلة بينها، وأن تكون وفق أحكام القانون والدستور، وعملية صنع القرار السياسى تحكمها عوامل داخل المجتمع تعبر عن مجمل الظروف القائمة فى إطار الدولة، أى النظام السياسى والأحزاب وجماعات الضغط السياسى، لذلك تعتبر الأنظمة الديمقراطية الحقيقية نموذجًا جيدًا لصنع القرار السياسى لما تشهده من تقدم ملموس على أرض الواقع نتيجة توسيع دائرة المشاركة للأحزاب والمنظمات المجتمعية والصحافة والرأى العام من خلال الكثير من الإجراءات التى تتخذها الدولة من أجل معرفة رد الفعل حول القرار السياسى، وكلما مرت عملية صنع القرار من خلال قنوات يتوازن فيها التشريعى والتنفيذى وعدم التداخل فى الاختصاص، عكس ذلك حالة من الاستقرار والتعاطى فى موضوع الديمقراطية فى ظل توافق القوى السياسية تحت سقف يفترض أنه يمثل أو يعبر عن مدى تمثيل الشعب.

ومن خلال الحديث عن آلية صنع القرار السياسى السليم يتضح لنا أن نظام مبارك قد اتسم بفقدان مقومات صناعة القرار، حيث إنه لم يكن يعبر عن أى فلسفة حقيقية أو مرجعية أيديولوجية أو حتى مشاركة الأحزاب ومنظمات المجتمع المدنى أو الصحافة. حيث كان نظاما سلطويا غير ديمقراطي، لا يعبر عن السواد الأعظم من الشعب المصرى، معاديًا منطق المشاركة فى صنع القرار حتى أصبح النظام السياسى مثل السيارة العتيقة التى لا تسير إلا بمنطق قوة الدفع من الخلف، وإذا توقفت يتم استدعاء ميكانيكى لإعادة تشغيلها، وغابت تمامًا عن مشغلى النظام فكرة شراء سيارة جديدة تواكب متطلبات العصر.

وقد أثار سقوط النظام بعد ثورة ٢٥ يناير علامة استفهام كبيرة حيث فوجئت جميع القوى السياسية وهى تقوم بالبحث عن حل للأزمة السياسية الناشئة بعد الثورة، أن عملية صنع القرار فى عهد مبارك ليست لها آلية واضحة ومستقرة، وأنها كانت فى يد عدد محدود من الأشخاص، وبعد خروج هؤلاء الأشخاص من المشهد السياسى كان عليها أن تتفاوض مع مؤسسات أمنية فى الأساس، وهو ما أوجد حالة من عدم الاستقرار السياسى، مرورا بعهد الإخوان والذى لم يعمل على تأسيس آلية مستقرة لصنع القرار السياسى.

لذلك ونحن على أعتاب نهاية المرحلة الأولى من خارطة الطريق بعد ٣٠ يونيو، وهى الانتخابات الرئاسية وما سيعقبها من انتخابات برلمانية يجب على النظام القادم أن يعمل على إيجاد آلية مستقرة لصنع قرار سياسى يعبر عن الشعب المصرى من خلال تفعيل مشاركة الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدنى والرأى العام وذلك من خلال العمل على ترسيخ النظام الديمقراطي السليم والذى من أجله قامت الثورة.

وإذا لم يقم النظام القادم بالبدء فورًا فى إنشاء نظام ديمقراطي يؤسس لآلية واضحة لكيفية صنع القرار السياسى فى البلاد، فإننا قد نكون مضطرين لاستدعاء ميكانيكى سيارة نظام مبارك العتيقة، لإدارة العملية السياسية، فى زمن التحولات الكبرى.

عندها يصبح الحديث عن تهميش القوى السياسية ومنظمات المجتمع المدنى مقدمة لثورات وانتفاضات شعبية كبرى، ولن يجدى وقتها الحديث عن أن القرار السياسى يجب أن يحاط بقدر كبير من السرية لاعتبارات الأمن القومى، والتى اتضح أنها حجة واهية فى ظل تدهور الدور المصرى طيلة حكم نظام مبارك لذلك يجب أن تتكاتف كل القوى السياسية ومنظمات المجتمع المدنى من أجل عدم عودة ميكانيكية نظام مبارك، ترزية القوانين عباد السلطة المخاصمين كل جديد، الذين يصنعون الفرعون ويعبدونه.

عَامُ الحَسم

إن مصر تمر بمرحلة مهمة من تاريخها المعاصر، ليس فقط بسبب ما تواجهه من تحديات داخلية على كافة الأصعدة السياسية منها والاقتصادية، ولكن لما يمر به النظام العالمى من مرحلة تحول من نظام أحادى القطبية إلى نظام متعدد الأقطاب وما يتبعه ذلك من الخشونة فى التعامل بين الدول ومحاولة تقسيم العالم بين المتصارعين الجدد على ميراث النظام العالمى الجديد.

وتعتبر مصر فى بؤرة الصراع العالمى بسبب موقعها الوسط بين مناطق الصراع.

وقد مرت مصر بتلك المرحلة فى خمسينيات القرن العشرين مع مرحلة تغير النظام العالمى وانتقاله من قيادة بريطانيا العظمى وفرنسا، إلى قيادة جديدة ممثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى آنذاك، وما واكب ذلك من مرحلة التحرر الوطنى التى اجتاحت العالم الثالث كله ومن ضمنه مصر، التى استطاعت أن تنجح فى التخلص من الاستعمار البريطانى وتدخل فى مرحلة تنمية متسارعة سباقا مع الزمن قبل عملية اكتمال النظام العالمى الجديد، ظنا من القيادة المصرية أن ذلك سيجعلها فى منأى من السيطرة الأمريكية صاحبت اليد العليا فى النظام الجديد على المنطقة.

ولكن حدث أن أمريكا وجدت فى النظام المصرى ندا وخصما يقف حائلا ضد اكتمال عملية السيطرة على المنطقة.

وهنا حدث التآمر على مصر والنظام العربى فى يونيو ١٩٦٧، الذى انتهى بنكسة مروعة أصابت المجتمع المصرى كله بصدمة، وأسلمته إلى واقع مرير عليه التكيف معه، والذى بات محاصرا بين مطلب محاسبة المقصر والمتسبب فى الهزيمة وبين الالتفاف حول القيادة ومساعدتها من أجل الاستعداد للمعركة وصولا للنصر.

وقد استجابت القيادة لطلب الشعب وقامت بمحاكمات للقادة المتسببين فى الهزيمة عرفت آنذاك « بمحاكمات الطيران » وصدرت أحكام لم يرضى عنها الشعب وخرج فى تظاهرات عارمة فى مقدمتها الطلبة رفضا لتلك الأحكام والتى اعتبرها مخففة، لكنه كان صادقا فى الوقوف خلف قيادته السياسية والعسكرية حتى وفاة الرئيس عبد الناصر.

ومع تولى الرئيس السادات، الذى تولى المهمة فى وقت عصيب، استمرت الاستعدادات للحرب، وطالت فترة الاستعداد حتى اضطر السادات لتهدئة الشارع الذى يطالبه بالحرب إلى أن أعلن أن عام الحسم هو ١٩٧١ وبعدها أعلن أن ١٩٧٢ هو عام الضباب ولا يستطيع الحرب، هنا

عمت تظاهرات الطلبة جميع أنحاء مصر الذين رأوا أن القيادة تتقاعس عن الحرب، وكذلك خوفا من تباطؤ وطول فترة الاستعداد، حتى قامت حرب ١٩٧٣ وانتصرت فيها القيادة المصرية ومن ورائهم الشعب المصرى العظيم

ويبقى التساؤل هل كان الشعب محقا فى تظاهرات ما بعد النكسة، وتظاهرات عام الحسم ؟

نعم له كامل الحق فى التظاهرات، فمع إدراكه الكامل بعد نكسة ٦٧ حجم التحولات الدولية وتغير النظام العالمى وحجم التآمر الدولى إلا أنه لم يستطع أن يتقبل حجم التقصير الذى أفقده أرضه، وكذلك فى تظاهرات عام الحسم ١٩٧١ فقد رأها انفصالا للقيادة عن الشعب وعدم إخباره بحقيقة ما يجرى ولماذا لم تبدأ معركة التحرير التى ألزمت القيادة نفسها بميعاد لم يتحقق.

لكنه فى الحالتين لم يفقد الثقة فى قيادته التى أولاها ثقته.

ومع قيام ثورة ٢٥ يناير وما تبعها من ٣٠ يونيو، بدا واضحا أن هناك نظاما عالميا جديدا يتحول من القطب الأوحد إلى نظام متعدد الأقطاب ومصر كالعادة فى قلب التحولات الكبيرة، ولكن لم نستطع أن نأخذ المدة الكافية للتنمية كما السابق، بل دخلنا مباشرة إلى محاولة جرنا إلى نكسة أخرى عن طريق عدو قديم جديد وهو الإرهاب.

وكل يوم نسمع عن عمليات إرهابية تطال القوات المسلحة والشرطة والمجتمع ككل حتى قامت حادثة العريش والتى راح ضحيتها أكثر من ٣٠ ضحية، هنا أحس الشعب بالخطر الداهم وثارت التساؤلات لماذا؟ وكيف؟ ومن المسئول؟ وصولا للمطالبة بالخروج فى تظاهرات ضد الإرهاب ومحاولة الاستيضاح من القيادة عن جدوى التصريحات عن الجداول الزمنية التى أطلقتها بعض القيادات عن قرب القضاء على الإرهاب فى سيناء.. وصولا للحقيقة ودعما للقيادة فى حربها على الإرهاب فى زمن التحولات.

سيادة الرئيس، الشعب يدرك حجم التحولات الكبرى فى المنطقة ويريد أن يشارك قيادته فى الحرب على الإرهاب، بعيدا عن التظاهرات التى تربك المشهد العام وتعقده، وفى المقابل يريد أن يحاسب كل مقصر يتسبب فى شعوره بالخوف على مصير بلاده، وكذلك يجب أن تكون مصارحة الشعب بكل شفافية عن مجريات الأحداث هى العامل الأساسى للتقارب بين القيادة والشعب.

نحن لا نريد نكسة أخرى أو عاما آخر للضباب تطلق فيه الوعود والأمانى دون جدوى وتشعل الغضب الذى يعطل ويؤخر الانتصار، بل نريد عاما للحسم نقضى فيه على الإرهاب فى ملحمة تاريخية تعبر عن تلاحم الشعب مع قيادته.

صديق الوهمى

فى حواراتي مع شخص وهمى.. اتخذته صديقًا يبادلنى الرأى والافكار.. طيلة ثلاث سنوات هى عمر الثورة المصرية حتى الآن.. كثيرًا ما حدثنى صديقى عن الأمل المنشود والرؤية للمستقبل تحت دعاوى الاستقرار والاستثمار.

ومع الوقت أدركت أننى لا أسير إلا نحو سراب، يذكرنى دائما بمأساة قطاع غزة، آمال وطموحات عظيمة للحرية مع عدم القدرة. وعدو فاجر يذكر غزة دائما بأنها عاجزة ليس بالقوة فقط.. ولكن باختياره عناوين حملاته العسكرية.

وليس أدل من عملية الرصاص المصبوب..إلا نوع من التحدى الفوقى.

هكذا صارت حواراتى معه إلى أن قررت أن أقوم بعملية على غرار عملية الوهم المتبدد للمقاومة الفلسطينية، ليس المهم أن أصاب أو أقتل المهم أن أخرج من سيطرة صديقى الوهمى، وفى لحظة حقيقية لا تحدث كثيرًا. رأيت مشهدًا مخيفًا للمستقبل أقلقنى أكثر ما أسعدنى على الاقل المستقبل المنظور.. فقد رأيت الثورة وقد أفرزت أصنافا من البشر واضحة الملامح منهم من سيلحق بالمستقبل ومنهم من سيخرج إلى غير رجعة، ولكن شكل المستقبل يبقى مبهما.

فهناك على مدى الرؤية أستطيع أن أرى

صنفا ينادى بالثورة بداعى التغيير، تحت دعاوى أنه مفجرها والأحق بقيادتها.

وهذا وهم أعتقد أنه ناتج عن عدم القدرة على فهم الواقع بسبب سنوات من تراكم الأوهام

صنف يرى المستقبل بأدوات الماضى السحيق.

وقد فشل فى إدراك المستقبل صنفٌ يرى أنه الأحق والأجدر باللحاق بالمستقبل تحت دعاوى أنه الأعلم والخبرة المطلوبة للزمن القادم وهومستعد للتنازل إلى أبعد الحدود.. لكنه تناسى أنه استهلك فى مراحل سابقة ولا يصلح لدخول المستقبل لأن أدوات اللعبة قد تغيرت.

صنف وأظنه الغالب فى الصراع على المستقبل.. يرى أن خيوط اللعبة كلها فى يده (وهو محق فى ذلك فى غالب تصوراته) وله كامل الحق فى صنع المستقبل وليس قيادته فقط.. وهو يرى أنه ليس هناك عائق حقيقى أمامه.

صنف البارونات اللصوص «رجال الأعمال» وهم قادرون وفاعلون، وإن لم تكن حركتهم ظاهرية، وهم يساعدون بقوة على الدفع نحو صنع مستقبل يناسبهم.

شعبٌ كبيرٌ، كالبحر المتلاطم، أدمنَ حوارات صديقى الوهمى، والاستقرار من أجل المستقبل،

أدمن الحلول الجاهزة، فى انتظار عملية عبور جبارة نحو الجنة الموعودة.

حنانيك يا صديقى الوهمى فقد أجهدتنى، ولم أعد قادرا على مجاراتك، اتركنى أسير ما تبقى من حياتى كما كنت قبلها، أرى الحقيقة دون رتوش.

قوات التدخل المستعجل

فى أزمنة التحولات الكبرى عبر التاريخ تكون قدرة الدولة هى المحدد لطبيعة وشكل الدولة فيما هو قادم، بعد استقرار الأوضاع، بعد ما نتج عن تلك التحولات من أزمات كبرى خلال تلك الحقبة الزمنية.

لأن من خصائص القدرة، هى القدرة على التحول وهى تتطلب قدرا عاليا من الاتصال مع المحيط الجغرافى ومع الأفكار المستجدة والتفاعل والتداخل فيما بينها، لكى ينتج عن ذلك قدرات جديدة أكثر فاعلية تعطى ثقل إقليميا ودوليا فاعلا ومحركا أساسيا للسياسة الإقليمية وربما الدولية.

وقد تكون القدرة على استعمال القوة المسلحة أحد أدوات قدرة الدولة على حسم بعض المواقف التى تراها ضرورية لاستقرار الأوضاع، وإعلام الآخرين بقدوم عصر وزمن جديد.

لكن استعمال قوة السلاح للتعبير عن قدرة الدولة يجب أن تحكمه ضوابط كما عبر عنها المارشال مونتجمرى قائد معركة العالمين أثناء الحرب العالمية الثانية قائلا : إنه لابد فى إستعمال قوة السلاح من توافر عناصر مبدئية لتسويغ الحرب مؤداها، أن يكون لدى شعب أو أمة أو إمبراطورية هدف مطلوب سياسيا وممكن عمليا وجائز قانونيا ومبرر أخلاقيا «.

ولعل مشهد جثث أفراد الصاعقة المصرية المقتولين فى ليبيا، بعد عملية مشتركة ضد مجموعات من الإرهابيين على بشاعته قد أعطى انطباعا على قدرة الدولة المصرية على التفاعل والتداخل والتأثير فى المحيط الإقليمى. ولكنه ترك علامة استفهام كبيرة عن قدرة الدولة المصرية على المدى البعيد، حيث وإن كان هدف التدخل فى ليبيا مطلوبا سياسيا وممكن عمليا وجائز قانونيا ومبرر أخلاقيا، فإن ذلك يظل مرهونا بثبات الأوضاع الداخلية، وقدرة الاقتصاد على تحمل تبعات قوة السلاح، وكذلك قوة التماسك الاجتماعى، والذى أعتقد إنه قد شابه نوع من عدم الاستقرار طوال الفترة الماضية، حتى لا يتكرر مشهد تدخل قوات الصاعقة المصرية فى مطار لارنكا الدولى فى قبرص عام ١٩٧٨ لتحرير رهائن من يد من قتلوا وزير الثقافة المصرى يوسف السباعى، والتى انتهت نهاية مأسوية للقوات المشاركة وفشل العملية بالكامل، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص حتى وفاة الرئيس السادات.

لذلك وإنه قد تم إنشاء قوات للتدخل السريع، للإعلان عن قدرة الدولة فى الحفاظ على أمنها القومى ومصالحها عبر كامل الإقليم المحيط بها، وسط ما يشهده العالم من تحولات كبرى تنبئ عن تشكل نظام عالمى جديد، فيجب أن تحدد الدولة أهدافها وقدراتها بدقة، حتى لاتكون

قوات التدخل السريع، قوة للاستعجال لهدف لم تدرس أبعاده وتأثيراته الإقليمية والدولية، ويصبح مشهد جثث جنودنا، مشهدًا مألوفا على شاشات الفضائيات، لأن ذلك قد يفقد الدولة القدرة على إدارة الصراع فى الإقليم والمنطقة بأكملها.

فأيها الرئيس القادم إلى كرسى الحكم، يجب أن تعلم أن الحديث عن تحول مصر إلى قوة كبرى مؤثرة فى محيطها وعالمها المعاصر، يجب أن يمر عبر قوة اقتصادية حقيقية، وقوة تماسك مجتمع متصالح مع ذاته، من أجل الوصول إلى هدف قومى تتلاقى عليه جموع الشعب، ساعتها يصبح الحديث عن القوة العسكرية المسلحة وإمكانيات الفعل لديها مثار إجماع حقيقى لهدف استراتيجى، وليس لهدف مؤقت.

حصالة النظام

إن الثورة الشعبية تدمر ولا تفكر، ولوفرضنا أن الثورة نجحت فإنها لن تجد الشعب الذى يحسن الاستفادة منها، وقد نرضى عن الثورة التى تدمر إذا جنينا من ورائها خيرا، ولكن الثورة التى لا يستفاد منها لا تكون إلا شرا محضا، ذلك كان توصيف الأديب الكبير محمد فريد أبو حديد فى رائعته الأدبية، «أنا الشعب» دقيقاً، والذى أراه يلخص ويشرح أزمة الشعب المصرى بعد ثورة ٢٥ يناير، فثورته الشعبية الهادرة قد دمرت فى طريقها النظام السياسى ولم تفكر فى كيفية ومدى استطاعتها صناعة نظام آخر.

ولم تستطع أن تحل وتفك عرى اتحاد أصحاب السلطة وتجار الأعراض ووسطاء الخيانة وناهبى المال العام ورجال الأعمال، ولم يحصل الشعب على ما خرج من أجله وهو وقف نزيف نهب المال العام واسترداد المال المنهوب من أيدى سارقيه من أصحاب السلطة ورجال الأعمال الذين كانوا حصالة النظام التى تم فيها مداراة الأموال المنهوبة عن أعين الشعب والرقابة، فى مسرحية عبثية من مسرح اللامعقول.

وأصبحت الثورة شرًا محضًا فى نظر قطاع كبير، وفى محاولة لاسترداد تلك الأموال ظهرت نغمة التصالح مع رجال الأعمال من أجل تهدئة الشارع الغاضب بعد الثورة مباشرة وصولا لعهد الإخوان، من أجل إعادة ما سرقوه نظير عودتهم إلى العمل وعدم توجيه وإسقاط التهم عنهم، وكانت المحصلة مخيبة للآمال ولم ترجع الأموال حتى نهاية عهد الإخوان.

وبعد ٣٠ يونيو، ونحن على بعد أيام من الاستحقاق الرئاسى، هاهى الأخبار تطالعنا بأن المرشح الرئاسى الأوفر حظا المشير عبد الفتاح السيسى قد اجتمع مع رجال الأعمال وطلب منهم أن يدعموا الاقتصاد من خلال صندوق مقداره ١٠٠ مليار جنيه، نظير فتح صفحة جديدة فى العلاقة بين الشعب ورجال الأعمال.

هنا يجب أن نقف وقفة ونقول بصوت عال، إن هذا المال هو فى الأصل مال عام وهو ما كان مخصصا لمصلحة عموم الناس ومنافعهم وقد تم الاستيلاء عليه فى عهد مبارك ، ولا يجب أبدا أن يطلب منهم المساعدة لأنه يمثل إهانة لهذا الشعب، لأنه يصوره على أنه يتزلف لمن سرقوه أن يساعدوه، وإنما يجب على المشير عبد الفتاح السيسى أن يسترد تلك الأموال وأن يوضح لنا ما الملابسات والظروف التى سوف يتم من خلالها استرداد تلك الأموال وكيفية إدارة تلك الأموال، وليعلم أنه ممثل الشعب وليس مالكه وأن انتخابه رئيسا للدولة لا يعنى أن يقسم الأموال دون الرجوع للشعب كما أخبرنا ابن تيمية « ليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما

يقسم المالك ملكه فإنهم أمناء ونواب وو كلاء».

وليعلم أن الثورة الفرنسية استمرت ١٠ سنوات ولم تستقر حتى تم الاستقرار على نظام اقتصادى يراعى حقوق الشعب بعيدا عن الفساد، وأن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ المال، وأن أى خيانة للمال العام تعتبر ظلما واعتداء على المسلمين جميعا.

ونحن فى المقابل لا نريد أن تسيل دماء رجال الأعمال، ولكن لا خلاف بين الفقهاء فى أن من أتلف شيئا من بيت المال بغير حق كان ضامنا لما أتلفه، وأن من أخذ منه شيئًا بغير حق لزمه رده وإن اختلفوا فى قطع يد السارق من بيت المال.

سيادة المشير إذا كنت تعلم أن رجال الأعمال هم حصالة نظام مبارك المالية وتريد أن ترجعها عن طريق ضخها فى شرايين الاقتصاد مرة أخرى فنحن معك، ولكن تذكر أن هناك فرقا بين الحصالة بفتح الحاء، والحصالة بضم الحاء، وهو الفرق بين المال المنهوب وبين الحثالة والكناسة من سارقيه.

فنحن نريد أموالنا التى سرقت ولكن حذار أن ترجع معها الحثالة من ثلة السارقين الذين أذلونا وعاثوا فى الأرض فسادا، حتى نطمئن إلى نوايا النظام القادم مع الشعب ومع مصالحه.

اجعل أمامك دائما قول الرسول «ص» إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة.

جيوش الطين

إذا كانت الديانةُ هي تعبيرٌ عن فكر الإنسان الديني والسياسي والاجتماعي، فإن الموت والبعث يقعان في صلب الاعتقاد الديني، بل هما الحقيقتان اللتان لا تقبلان الشك أو التأويل.

ونظرًا لأهميتهما، فقد عبرت الحضارات القديمة عنهما بمظاهر شتى، وإن تباينت الآراء وتعددت الآلهة، وقد كان المصرى القديم هو أول من جسد مراحل ما بعد الموت على جدران المعابد؛ إيمانًا منه بحقيقة الخلود في مرحلة البعث والحساب بعدها.

وقد انتقلت حقيقة البعث من الإطار الديني الملامس للروح والجسد إلى الإطار السياسي مبكرًا جدًا، حيث اتخذها فراعنة مصر القدامى وسيلة ناجعة لتبرير الألوهية، واستعباد المصريين، حيث احتكر الفرعون صك الغفران لنفسه؛ يمنحه لمن يشاء يمينًا إلى الجنة ويسارًا إلى النار، حيث إنه الإله في الدنيا والقاضي في الآخرة بعد البعث.

ولم تتوقف حقيقة البعث ومظاهره السياسية عند حدود المصريين القدماء فقط، بل تكاد تكون سمة عامة في الحضارات القديمة، فها نحن نرى الإمبراطور الصينى» كين شيهوانج» وهو في سبيله لتدجين الشعب واستعباده وتصوير نفسه على أنه الآمر في الدنيا وفي الآخرة.. فقد أمر ببناء جيش من الطين، يتم دفنه معه عندما يموت؛ ليساعده في بناء إمبراطورية في الآخرة، وكذلك حمايته، في واقعة تاريخية فجة، تمثل تعديًا صارخًا من الطواغيت على حُلم الفقراء والمعدومين والأحرار في جنة رحبة، بعد البعث بعيدًا عن الظلم والقهر والاستعباد في الدنيا. ومع تطور البشرية صعودًا متواصلاً، تطورت حقيقة البعث السياسية، وأصبحت الشعوب لا تريد الانتظار لنيل جنة ما بعد البعث في ظل حكام طواغيت، بل أخذت فكرة الثورة كوسيلة تعبر بها عن البعث الدنيوى، في الانتقال من العبودية السياسية، والاقتصادية إلى رحابة الحرية والانعتاق.

وقد مثلت الثورة المصرية في ٢٥ يناير وما بعدها بعثًا ثوريًا جديدا للمصريين، ضد حاكم حاول أن يؤجل أحلامهم إلى ما بعد البعث، في الآخرة، وقد كان الشباب هم طليعة هذا البعث، الذى جاء بأمل في الحرية، ومستقبل واعد لأمة امتُهنت كرامتُها على مدار عقود طويلة، وهم في سعيهم لاستكمال بعثهم الثورى كانوا في حاجة لمن يستعينون به لإبراز طلباتهم في إطار ما يعتقدون أنه الأنسب لهم ولمستقبلهم ومستقبل البلاد. لذلك ظهر لهم من الأجيال الماضية الأكبر سنًا من يدافع عنهم، ويقف بجانبهم، فتوسموا فيهم الخير وظنوا فيهم حسن النية، ومع مرور الأيام ظهر جليًا أن هؤلاء الناس والذين استدعاهم الشباب من الماضى قد أصبحوا نجومًا على شاشات الفضائيات، مدعين أنهم أصحاب الثورة الحقيقيون، وأن كفاحهم ونضالهم الوهمى هو

الذى أدى إلى اندلاع الثورة. بل وصل بهم الأمر أن بدأوا فى إزاحة الشباب على أمل أن يرثوا المستقبل، تحت دعاوى الوهم النضالى، وأدرك الشباب عندها أنهم قد استدعوا فى مشهد البعث الثورى جيش الطين، للإمبراطور الصينى؛ من أجل أن يحارب معهم معركة المستقبل؛ من أجل عودة مجد الإمبراطور الطاغية مرة أخرى.

أيها الشباب؛ تمسكوا بالمستقبل؛ لأنه ليس هناك من يستطيع أن يتعلم ويشارك فى صُنعه إلا أنتم، واصرخوا فى وجه جيوش الطين من المناضلين على شاشات الفضائيات، وأرجعوهم إلى قبورهم، مُدججين بنياشين وهمية، لمجد لم ينالوه، وأعلنوها مدوية أنه لا بعث دنيوياً للإمبراطور الطاغية، وجيش الطين خاصته.

البارونات اللصوص

سحابة سوداء من الخوف تسيطر على جموع الشعب من الفقراء، من مستقبل مبهم.. لا توجد ظواهر بعد ثورة ٢٥ يناير وحتى الآن إلا الاصطفاف فى طوابير طويلة أمام لجان الانتخابات والاستفتاءات، على أمل– وربما وَهم– أن يحدث تغيير جذرى ينشلهم من هوة الفقر السحيقة.

فلقد بدا لهم أن الثورة على نظام مبارك تحت شعار عيش حرية عدالة اجتماعية، فيه بارقة أمل نحو تغيير حقيقى قادم فى المستقبل وإنصافهم ممن نهبوا أقواتهم وسرقوا أحلامهم من رجال الأعمال ولصوص المال العام.

ولكن تضاءلت آمالهم وتراجع تفاؤلهم بالمستقبل، لأنهم بعد مضى أكثر من ثلاثة أعوام على ثورة ٢٥ يناير لم يحدث أى تغيير.

فهاهى الرأسمالية الوطنية كذبًا والتى تحالفت مع السلطة فى رباط غير مقدس، لا تزال تمرح دون حساب، وبدا واضحًا أن تدفق مياه التغيير فى نهر الثورة ليست بقوة التدفق التى تستطيع أن تحل هذا الرباط المقدس.

وقد حذر الرئيس الأمريكى أيزنهاور فى نهاية ولايته من أن الرباط المقدس بين السلطة والمال المجمع الصناعى العسكرى فيه خطورة كبيرة على الحكم.. وقد أسماهم البارونات اللصوص، استلهامًا من البنائين الأوائل لأمريكا، الذين بدأوا حياتهم لصوصًا وقطاع طرق فى شبابهم، ثم بنائين كبار عند ذروة الحياة، وبارونات مع نهاية العمر وكأنهم ينشدون الغفران.

وقد نلمح تشابهاً للحالة الأمريكية عندنا على مدار السنوات الثلاثين الماضية، فهاهم البارونات المصريون قد بدأوا لصوصا أو مهربين أو تجار مخدرات فى فترة السبعينيات، ثم وكلاء للشركات الأجنبية، ثم رجال أعمال فى تسعينيات القرن الماضى وحتى نهاية عهد مبارك.

وقد تحالفوا مع السلطة لاستنزاف ثروات هذا الشعب فى أكبر عملية سرقة منظمة لوطن، حتى أصبحوا طبقة بذاتها لاتعدو ١٠: من الشعب تستحوذ على أكثر من ٣٠: من الدخل القومى للبلاد.

وعاثوا فى الأرض فسادا.. لا يقف أمامهم أى شىء ولا يردعهم أى شىء.. حتى تجبروا فى

الأرض تحت حماية السلطة التى رأت فى فسادهم، سندا لها فى السيطرة على هذا الشعب.. حتى ثار هذا الشعب الذى تحمل الكثير من ظلم هذا التحالف غير المقدس.

وبعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على ثورتة المجيدة،

يقف فقراء هذا الوطن فى انتظار القصاص ممن سفهوا أحلامهم وسرقوا أقواتهم، ولكن يبدو أنهم سينتظرون طويلا فى ظل شعارات التصالح وأن الأمل فى تشجيع المستثمرين من البارونات اللصوص، وكأن الدولة تعطيهم صكوك غفران على ما اقترفوه فى حق هذا الوطن.

أيها الجلسون على كراسى الحكم إياكم ثم إياكم من محاولة إسدال ستائر من ذهب على ماضى هؤلاء اللصوص، دون حسابهم وإرجاع أموال هذا الشعب التى سرقت منه..

لأن محاولة إعطائهم صكوك غفران دون حساب لإدماجهم فى مستقبل هذا الشعب بعد الثورة، سيعتبر محاولة أخرى لإعادة إنتاج نظام مبارك لتدجين هذا الشعب، وساعتها أبشركم بثورة لا تبقى ولا تذر، لأن الفقراء لم يعد لديهم ما يخسرونه.

عرّاب النظام الجديد

لا أدرى لماذا وأنا أستمتع بوصلة رقص شرقي – ذكرتنى برقص العوالم – تذكرت نصيحة الأستاذ محمد التابعى – عميد الصحافة المصرية– للأستاذ هيكل بأن السياسة تُصنع في القصور؟؟.

هذه النصيحة جعلها هيكل عنواناً لحياته المهنية, الأمر الذى جعله مميزًا فى العهد الملكى وحاكمًا فى العصر الجمهورى، حتى إننا نستطيع– وبكل ثقة– أن نصفه بعراب النظام الناصرى وصوته العالى.

ولكن هيكل ليس هو العراب الوحيد فى الزمن الجمهورى، بل صار على نهجه كثير من الصحفيين بدرجة أو بأخرى، نجح منهم القليل « موسى صبرى ومكرم محمد أحمد « وفشل أكثرهم.
وقد كانت السمة الغالبة على هؤلاء العرابين هى الولاء المطلق للقصر الجمهورى ودائرة الحكم
حتى قامت ثورة ٢٥ يناير ومن بعدها ٣٠ يونيو.
وفى محاولة لاستكشاف عراب النظام الجديد نجد أنه فى وسط الركام الذى خلفته الثورتان نستطيع أن نلمح ظاهرة فريدة ألا وهى أنه ليس هناك «عراب جاهز» حتى اللحظة لاحتلال مكانة سابقيه، بل نلمح
عرابا قديما– هيكل– جاء ممتطيًا– جواد الماضى وبخبرة العراب المخضرم، راح يعطى نصائحه للنظام الجديد، ولاعجب أن يكون أول الواصلين للمشهد، فهو بخبرة السنين يعلم الوقت المناسب للظهور، ولكن عامل الزمن يقف حائلاً أمامه لظهور طويل الأمد.
وهناك عراب محتمل –أحمد المسلمانى– لم يعرف عنه تميز صحفى أو إعلامى.. غير أنه كان مقدماً لبرنامج لايصلح إلا لربات البيوت، وكان مستشارا إعلاميا للدكتور زويل.
ولكن فجأة بعد الثورة أصبح مستشارا إعلاميا لرئيس الجمهورية المؤقت، لكن طموحة الجامح غير المستند على خبرة حقيقية، يقف حائلا أمامه.
عراب محتمل آخر، ياسر رزق، وقد ذاع صيته فى أواخر عهد مبارك، من خلال عمله كرئيس لمجلة التليفزيون والتصاقه بجمال مبارك الوريث المحتمل.
وبعد الثورة، ظن الجميع أنه انتهى،

وإذا به يظهر كنجم ويكافأ برئاسة مؤسسة الأخبار، وهو يقدم نفسه كعراب جاهز الاستخدام، استنادًا لتوصية من هيكل العراب العجوز

وقد نلمح أن هناك صراعا مكتوما.. بين الاثنين على احتلال موقع عراب النظام الجديد.

فهل ينتهى هذا الصراع إلى انتصار أحدهما وإزاحة الآخر ليصبح عراب المستقبل، خاصة أن الصحافة المصرية قد تم تجريفها حتى لم تفرز غيرهم.

فإلى قادم الأيام لنتعرف على عراب النظام الجديد..

دراما سقوط طائرة.. أم سقوط وطن ؟

المشهد الأول

بكائية عامة على حادثة سقوط طائرة هليكوبتر عسكرية بصاروخ على يد الإرهابيين فى سيناء، وسط عواصف من القصف الإعلامى على رءوسنا، يتخللها تسجيل صوتى يسجل أصوات شهداء الطائرة فى اللحظات الأخيرة وهم يتلون الشهادة، وكأن المقصود بكائية لا أكثر ولا أقل تنافس بكائية الخنساء على أخيها صخر.. يعقبها عرض أمريكى بالمساعدة ضد الحرب على الارهاب يقابل بالرفض.. ثم تهدأ العاصفة الإعلامية على صمت رهيب يثير الدهشة.

المشهد الثانى «فلاش باك»

أحمد عرابى زعيم الثورة العرابية يقف أمام الخديو توفيق المستبد المتحصن بالإنجليز، مطالبًا بإصلاح الجيش وإعادته إلى حضن الوطن بعد أن سيطر عليه الأجانب، ثم تطور الأمر إلى المطالبة بإصلاحات عامة تصب فى مصلحة الأمة كلها.. مستمدًا شرعيته من تأييد الجيش وجميع طوائف المجتمع على رأسهم الأزهر والكنيسة واليهود، وحتى بعض أمراء الأسرة الحاكمة.. حتى تطور الأمر أن استجاب الخديو للضغوط وتشكلت وزارة من الوطنيين الشرفاء برئاسة محمود سامى البارودى، فى تحد صارخ لإرادة الحكم وانتصار للثورة على أعداء الحرية عبيد إحسانات الخديوِ.

وقد ظن عرابى والثوار أن الخديو وأذنابه سيقفون يتفرجون طويلا، حتى ظهرت حادثة شجار عادية، قُتل فيها رجل مصرى أعقبها اضطرابات نتج عنها إنذار بريطانى بالتدخل لحماية الأجانب.. وهذه كانت بداية للاحتلال البريطانى لمصر بعد هزيمة عرابى وجيشه لعدم إدراكهم الواقع المصرى الداخلى المتناقض والواقع.. الدولى المسيطر عليه الإنجليز.

المشهد الثالث «فلاش باك»

حالة من الاستنفار داخل الكونجرس الأمريكى، بعد تقارير مخابراتية تفيد بقيام الثوار الفيتناميين الشماليين بمهاجمة مدمرتين أمريكيتين بقوارب طوربيد فى خليج تونكن ثبت فيما بعد كذب

التقارير.

وأعقبها صدور قرار من الكونجرس سمى بقرار خليج تونكن.. أعقبته على الفور ضربات أمريكية وحشية على الثوار بقيادة هو تشية منه.. الذين أرادوا توحيد بلدهم المنقسم إلى شمال وجنوب والوقوف ضد وحشية الرأسمالية الأمريكية التى أرادت وراثتهم من المستعمر الرأسمالى الفرنسى السابق.

المشهد الرابع

الشعب يصطف فى طوابير الخبز والبنزين حتى طوابير الانتخابات والاستفتاءات يحاول أن يجد حلا لأزمته الاقتصادية والسياسية، فى حالة من عدم اليقين فى مستقبل أفضل فى القريب العاجل.. فاقدا الأمل فى كل من يتصدر المشهد من السياسيين لعدم قدرتهم على قيادة البلاد.

عاقدًا الأمل على المؤسسة العسكرية لإنقاذه من الأحوال المتردية على كل الأصعدة فى استدعاء لمشهد عرابى التاريخى، دون الاستعداد لفهم ضرورات المرحلة على كل مستوياته وصولا لنخبة المجتمع التى أراها قد اهترأت حتى أصبحت ركام وجب إزالته، وهو ما يفتح المستقبل على سيناريوهات مفتوحة على كل احتمالات الخطر.

المشهد الختامى «زرقاء اليمامة»

أرى جيوشًا مدججة بالسلاح مدعومة بمجتمع ممزق لا يستطيع أن يرى تحت قدميه، فمابالك بالمستقبل.. ومدعومة أيضا بمن يمهدون الأرض من خونة الاوطان الذين تعلوا مصالحهم الخاصة فوق مصلحة الوطن، تحاصرنا مطالبة بثأر الرجل المالطى القاتل وهجوم، خليج تونكن المبهمة حقائقه.

أفيقوا يا سادة فلم يعد أمامنا إلا القليل، لأن حالة اللاوعى التى استمرأنا العيش فيها، ستسلمنا عبيدًا جدداً لسادة العالم، ثم يتم نفى عرابى، وبعد سنوات عديدة نسمى ثورتنا هوجة عرابى.

لاهوت التحرير الإسلامى

لا شك أننا نعيش بعد ثورة ٢٥ يناير، أزمة حقيقية، أستطيع وبكل ثقة أن أصفها بأنها أزمة هوية مكتملة الأركان، أزمة جعلت المجتمع ينقسم على ذاته، يقف فيها الكل فى مواجهة الكل لإثبات أن الأفكار التى يعتنقها كل طرف هى التى يجب أن تكون معبرة عن هوية المجتمع ومعبرة عن ثوابته، بل وإنكار كل الأفكار الأخرى، دون الأخذ فى الاعتبار ما بهذه الأفكار من جوانب إيجابية يمكن بل يجب الأخذ بها للعبور إلى المستقبل، وهذا ناتج عن تجربة مريرة عاشتها كل الكتل السياسية المصرية المعبرة عن الأفكار السائدة فى المجتمع من تيار الإسلام السياسى إلى التيار اليسارى وصولا إلى التيار الليبرالى.

وإذا استبعدنا التيار الليبرالى لعدم شعبيته وكذلك قبوله داخل المجتمع المصرى المحافظ، نجد أن الدولة قد وضعت كلا من تيار الإسلام السياسى والتيار اليسارى كلا فى مواجهة الآخر فى عملية صدام محسوبة تضمن بقاءهم خارج السلطة وتضمن استمرار آلية الحكم كما هى، وكذلك تضمن إنهاكهم فى حرب وهمية طويلة الأمد، وقد استمر هذا الوضع الذى لم يبرح مكانه حتى قامت ثورة ٢٥ يناير وانتهت سلطة الدولة– ولو شكليا– وعندها كان من المنطقى مع إزاحة هذه السلطة الغاشمة أن يحدث نوع من التعاون لإحداث تغيير نحو المستقبل، لكن بدا واضحًا لكل شاهد عيان أن كلا التيارين قد استمرآ فكرة الصراع الدائم بينهما.

حتى مع تجربة حكم تيار الإسلام السياسى ممثلا فى الإخوان ،القصيرة نسبيًا نجد أنه لم يستوعب من السياسة إلا مقولة أن لكل نظام جديد هناك عدوا تقليديا له يضمن بقاءه فى الحكم.
ومن ثم وجد فى اليسار مراده، فأخذ يستعرض عليه لكى يثبت من خلال تحطيمه أنه هو الأصوب والأجدر بحكم هذه البلاد.

وبعد التدافع للموجة الثورية الثانية فى ٣٠ يونيو وما نتج عنها من تراجع لتيار الإسلام السياسى وخروجه من دائرة الحكم فى مشهد دراماتيكى غريب، نجد أن اليسار اعتبر هذا انتصارًا كبيرًا لأفكاره، بغض النظر عن حجم تأثيره فى هذه الموجة الثورية.

من هنا وهنا فقط أذكر عقلاء كلا التيارين المتصارعين على وهم حسم المعركة، أن هذه المعركة

غير قابلة للحسم وإنه من الممكن أن تنتج المجتمعات يسارا دينيا يحتوى الثورات ويعمل على اتجاهها، و كذلك نشر الفكر اليسارى بمبادئه السياسية والاقتصادية دون المساس بالدين، عندها سيتم حشد فئات كثيرة من المجتمع تعنيها مسألة حل المشكلات الطبقية فى مصر،

وذلك استلهامًا لتجربة أمريكا اللاتينية فى التوفيق ما بين ما هو ثابت فى المعتقد العام، وبين متطلبات الشعب وحاجاته، فأمريكا اللاتينية تعتبر معقل الكاثوليكية فى العالم، ومع ذلك فإن بها أنجح التجارب اليسارية فيما عرف اصطلاحًا بلاهوت التحرير.

وهنا أحب أن أنوه إلى أن ما أطرحه ليس محاولة لتديين اليسار ولا علمنة الدين، ولكنها محاولة لتثوير المجتمع من أجل التوافق على أجندة وطنية قوامها إصلاح الوطن وتحريره من العبودية

فهل ما أطلبه كثير أن أرى نهاية لهذا الصراع الثنائى، والوصول إلى طريق ثالث يوصلنا إلى لاهوت تحرير إسلامى يحافظ على الوطن ويرى فى المستقبل الأمل، من أجل الأجيال القادمة.

هل ما أطالب به صعب ؟؟؟ ربما فإلى قادم الأيام.

الشعب فى الحظيرة

وسط الجموع الهادرة من ملايين البشر فى ميادين الحرية فى أرجاء مصر التى تطالب بلقمة العيش والانعتاق من ظلم النظام والمطالبة بالعدالة بين أبناء الوطن الواحد، صارخة « عيش، حرية، عدالة اجتماعية»، كان هناك من بين تلك الجموع من تشغله قضية أكبر، رأها هى السبب الأساسى لما وصلنا إليه من تردٍ على كافة الأصعدة، وهو إحساسه بضياع الاستقلال الوطنى نتيجة تبعية النظام السابق لسياسات الغرب سواء الاقتصادية منها أو السياسية، وهو ما دعاة لإطلاق صراخاته وصيحاته العالية مناديا الجماهير لجعل الاستقلال الوطنى هو المطلب الأساسى لأنه هو الحل السحرى لكل المشكلات التى فجرت الثورة.

وقد تجلت تلك الصيحات فى إشارات لم تخطئها العين آنذاك من رفع صور الرئيس عبد الناصر و اقتحام السفارة الإسرائيلية وصولا لحرق الأعلام الأمريكية وصور رئيسها فى الميادين العامة.

ولكن لم تدم تلك الصيحات لأنه كان هناك من يرصد ويحلل تلك الظاهرة وأثرها على جملة المميزات الطبقية والسياسية للطبقة الحاكمة الواصلة بنفوذها إلى خارج الحدود، وهو ما دفع تلك الطبقة إلى التحرك سريعا نحو الدفع إلى الاستقرار ودفع الجماهير إلى الرجوع مرة أخرى إلى منازلها فى محاولة للالتفاف حول مطالب الاستقلال الوطنى عبر تحالفات سياسية مع تيارات رأوها ستساعدهم على استقرار الأوضاع ولا تختلف فى سياستها الاقتصادية عنهم، وظهر البنك الدولى بنصائحه وروشتاته العلاجية كداعم لتيار التبعية من رجال الأعمال ووكلاء التجارة وتيار الطبقة الحاكمة، وهنا فقط وضح أن انتصار الفصيل المناهض للاستقلال الوطنى قد بات وشيكا.

ولكن كان هناك تيار آخر مناهض وإن اختلفت دوافعه المتأرجحة بين الوطنية وبين الحفاظ على مكتسبات رأها طبيعية لا يجوز الاقتراب منها، متحالفا مع تيار الاستقلال الوطنى والذى رأى فيه حصان طروادة للقفز نحو السلطة مرشحا نفسه مدافعا صلبا عن الاستقلال الوطنى فى وجه التبعية الغربية وسياسات البنك الدولى.. وهو ما تجلى فى ٣٠ يوينو، ولكن هل حقق ما تمناه تيار الاستقلال الوطنى؟

يبدو أن هذا بعيد المنال فى تلك اللحظة، فسياسات البنك الدولى وروشتاته العلاجية وسياسات التقشف قد دفعت نحو تدعيم التيار المناهض للاستقلال الوطنى من تابعى السياسة الغربية والأمريكية، من الطبقة التى امتصت مكتسبات الشعب الاقتصادية وحولتها إلى ثراء فاحش ألهب بسياطه ظهور الفقراء، والذين يدفعون النظام الحالى إلى تبنى سياسات تتيح لهم السيطرة كما السابق، وعدم الالتفات لمطالب الشعب عبر وسائلهم الواصلة إلى خارج الحدود، فلا غرو،

فهم وكلاء استعمار اقتصادى بغيض.

وفى المقابل النظام عاجز أمام سندان فقر الشعب وعدم استقرار جبهته الداخلية ومطرقة التبعية التى يدفع فى اتجاهها أنصارها رأس حربة النظام الغربى فى الخاصرة المصرية من رجال الأعمال وأتباع النظام القديم.

وهذا يذكرنى بحوار ممتد بين الرئيس عبد الناصر ووزير خارجية باكستان ذو الفقار على بوتو، الذى جاء يحذره من سياسات الغرب وأمريكا وقد وصل بالحديث أن وجه الرئيس عبد الناصر حديثة لمضيفه قائلا:

«نحن هنا نتعرض لضغوط سياسية واقتصادية ونفسية، ولكننا ثابتون ونعتقد أن هناك شرطين أساسيين للقدرة على مواجهة الضغوط، الشرط الأول جبهة داخلية قوية وموحدة، والشرط الثانى اقتصاد سليم، بتوفير هذين الشرطين نعتقد أننا وغيرنا فى نفس الظروف نستطيع أن نصمد لكلٍ أنواع الضغوط».

إذًا هناك شرطان أساسيان يدفعان فى اتجاه الاستقلال الوطنى بعيدًا عن السياسات الخارجية، وهما يتمثلان أولاً: فى جعل الجبهة الداخلية قوية وموحدة، ولكن هناك من يدفع فى عكس الاتجاه وجعل مصر فى حالة عدم استقرار دائم، وذلك عبر وضع العراقيل نحو إيجاد مصالحة سياسية ومجتمعية، وذلك لأسباب متعددة، ولكنها حتمًا هى ضد الشعب.

ثانيًا: اقتصاد سليم، وهو مطلب أساسى لإنهاء التبعية، ولكن ذلك لن يتأتى إلا بالقضاء على أذناب التبعية الغربية من رجال الأعمال والمتنفذين فى السلطة الحاكمة الذين يدفعون بقوة نحو تأكيد التبعية، تحت دعاوى أن الغرب هو الأقوى والأغنى وأن الوقوف فى وجهه بمثابة انتحار، وكذلك اتباع سياسات اقتصادية نابعة من تصور وطنى يراعى آمال وطموحات الشعب بعيدا عن سياسات البنك الدولى.

يا سادة الحكم، إذا كنتم حقًا مؤمنين بمبدأ السيادة الوطنية بعيدًا عن التبعية وسياساتها القديمة، والتى أورثتنا ميراثًا ثقيلًا من الذل والخراب الاقتصادى، فعليكم ألا تستمعوا لمن يحرض ويدفع فى اتجاه عدم المصالحة المجتمعية والسياسية والتى ستؤدى إلى انقسامات مجتمعية ستطال حتما الاستقرار. وكذلك عدم الاستماع والانجرار وراء سياسات البنك الدولى، والاستماع إلى التصورات الوطنية للنهوض الاقتصادى بعيدًا عن أذناب الاستعمار الاقتصادى الغربى.

وإننا لا نريدها قومية ولا اشتراكية ولا إخوانية ولا رأسمالية.. نريدها وطنية تراعى التنوع السياسى الذى يدفع فى اتجاه توفير الاحتياجات الأساسية للشعب، وصولا للتنمية الشاملة فى

كافة نواحى الحياة.

وتذكروا أن الشعب ليس حيوانا داجنا فى حظيرة يفرح بما يلقى له من فتات أثرياء الوطن وينظر بكل امتنان لما تتبعونه من سياسات، إنما هو نار تحت الرماد ستأكل من يقف فى وجهها. وساعتها سيصبح الحديث عن الاستقلال من التبعية من الماضى،لأنه ساعتها سيكون الوطن كله محتلا يكافح من أجل خروج المستعمر من على أرضه عسكريا واقتصادياً.

حَد سمعنى؟؟؟.

عبد الحليم قنديل . . فارس بلا جواد

عجيبة هى أحوال الذاكرة الإنسانية فهى على الرغم من كونها تحتفظ بالذاكرة الخاصة بالإنسان الفرد والإنسان المجموع، إلا أنها تحتفظ لنفسها بخاصية فريدة، فهى تحتفظ ببعد يصعب تفسيره فى تعاملها مع الأرشيف الإنسانى وهو البعد الإنسانى العاطفى الذى يجعل من عملية التذكر عملية مؤلمة أو سياحة عاطفية ممتعة وسط ذكريات مثلت ندوبا فى الذاكرة يصعب تجاهلها.

وهذا ما ينطبق على ما أحسست به عندما قرأت المقالين الأخيرين للكاتب الكبيرعبدالحليم قنديل وما تبع ذلك من هجوم غير مبررعليه، ظنا من مهاجميه أنهم قد ينالوا منه.. فقد تذكرت ذلك الشاب المفعم بالحيوية النحيف القصير الذى يرتدى نظارة سميكة الذى زارنا أواسط التسعينيات من القرن الماضى فى (وحدتنا الأساسية) التى كانت تشكل مع كل الوحدات على مستوى القرى المصرية الكيان الأساسى للحزب العربى الناصرى قبل انفصالى عنه.

ورأيته وهو يتكلم بطلاقة تشى بثقافة عالية يندر تكرارها وجرأة رأيتها فى تلك الأيام (جرأة تودى السجن) لكنها كانت تنسجم مع جرأة شبابى وإقبالى على المعرفة.

وتكرر ذلك فى لقاءين لم تندمل ندوبهما فى الذاكرة وظل عبدالحليم قنديل قدرا أبحث عنه ويبحث عنى.. فتابعته فى كل مكان كتب فيه سواء جريد أو مجلة أو حتى كتاب، فقد مثل لى ضمير فارس لا يتخلى عن مبادئه، ولم يخب ظنى فيه ورهانى عليه رغم أننى كبرت وبدا أنه إذا كان بيننا مشتركات إلا أن هناك مساحة اختلاف.. لكن أبدا لم يكبر داخلى عبدالحليم الشاب الثائر الباحث عن الحقيقة فهو لا كذب أحد أعمدة الثورة على نظام مبارك لم يكذب ولم يخن حتى إنه أصبح صداعا فى رأس النظام واتبعوا معه كل الأساليب القمعية وفشلوا فجربوا معه عقوبة مملوكية أصيلة هى عقوبة (التجريس) أو الفضيحة (بالبلدى) فاختطفوه وقاموا بضربه وتعريته وتركوه وسط الصحراء (علشان ميتكلمش على أسياده) ولكنهم لم يخبروه جيدا فهو كالعنقاء تقوم من وسط الرمضاء.

فمشى عاريا إلا من ملابس استعارها فى طريقة إلى عدسات الميديا ليعلن للنظام أنه غير قابل للانكسار، فلاحقوه فى رزقه ولكنه صمد حتى زال مبارك وزبانيته، كل هذا وسط كثير ممن خانوا وباعوا وتعروا لنظام مبارك طواعية، الذين تم تعيينهم فى وظائف ومنهم من أخذ المال ومنهم من فتحوا له طريقا ليتكسب فى الخارج.

وبزوال نظام مبارك بعد ثورة ٢٥ يناير فقد بدا عبدالحليم قنديل كشاب مفعم بالحيوية والنشاط،

تراه فى الميادين صارخا وعلى الفضائيات مبشرا بزمن جديد، وكاتبا عنيدا على صفحات الجرائد، يذكرنا برجال لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية الذين آمنوا بالإنسان وحريته ضد ظلم وجبروت الحكام.. ولكنه سرعان ما اشتبك مع النظام الجديد المتمثل فى الإخوان المسلمين وكان شرسا فى معارضته للنظام متقدما الصفوف فى وقت ظن كثيرون أن النظام الجديد هو زمن توزيع الغنائم.

ومع زوال حكم الإخوان السريع، وبعد أحداث ٦/٣٠ ومساندته لأحداثها وما تبعها من أحداث انتهت بدستور ورئيس جديد، وظن الجميع أن الفارس قد باع ضميره وينتظر المكافأة على ما فعله من تأييد التجربة الجديدة التى رأى فيها تكرارا لتجربة عشقها وهى التجربة الناصرية، ولكنهم فوجئوا بفارس لا يساوم على تجربته الذاتية ولا يساوم على كرامة الإنسان المصرى الذى آمن بحريته، وكتب منتقدا الأداء الرئاسى والحكومى الجديد الذى رأه لا يتناسب مع مقتضيات مرحلة ما بعد ثورة ٢٥ يناير المجيدة، وهو ما قوبل من مطبلاتية النظام السابق والجديد بهجوم شديد وضارٍ مس كل جوانب حياته العامة والشخصية، ولكنه قابل كل ذلك بتجاهل شديد؛ لأنهم لم يفهموا معنى أن تكون حرا ولك رأى حتى مع من تؤيد، إنها سلوكيات الفرسان.

فهنيئا لك فارسى المفضل بذاكرتى التى حجزت لك مكانا عليا بين من شكلوا الوعى لدى، بين فرسان الكلمة الذين لا يمتطون الجياد، إنهم فرسان الكلمة الجريئة.. فرسان بلا جواد.

جيش الإخوان يُبعث من جديد

هيروشيما وناجازاكى مدينتان أبيدتا بالقنبلة النووية، ذاك السلاح الأقوى فى العالم والأشد فتكا، والأخطر على حياة الإنسان والبشرية جمعاء، لكنها ليست السلاح الأمضى أثرا والأكثر فتكا بالبشرية، فهى لا تضارع القنبلة الدينية أثرا، تلك القنبلة التى أودت بحياة ملايين البشر على مر العصور وما زالت تحصد الأرواح إلى الآن.

وقد مارست كل الإمبراطوريات الكبيرة العبث بتلك القنبلة واستخدامها ضد أعدائها الخارجين بل والداخلين أحيانا كثيرة من أجل ضمان السيطرة والاستمرار بمقاليد السلطة بالداخل والخارج، وهى فى سبيلها إلى ذلك تتبع كل الأساليب القذرة التى لا تهتم بحياة البشر ولا استقرارهم.

مستخدمة الأساليب المباشرة كالحروب الصليبية قديما والأساليب غير المباشرة تحت مسمى مكافحة الإرهاب حديثا.. وذلك لضمان الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب المستهدفة..

ولعل أخطر استخدام للقنبلة الدينية هو ما استخدم ضد شعوب المنطقة العربية المسلمة حيث جرى استخدام الدين كسلاح ناجع للسيطرة على مقدرات هذه المنطقة من قبل الدول العظمى كبريطانيا وأمريكا.. عبر إثارة النعرات المذهبية تارة، وكذلك العمل على تكوين تجمعات دينية جديدة ترى فى نفسها أنها الوحيدة القادرة على حمل لواء الإصلاح والقادرة عليه تارة أخرى، وهو ما أثار خلافات كبيرة وعميقة بين المسلمين وسالت دماؤهم بأكثر مما سالت دماء ضحايا القنابل النووية.. والنتيجة سيطرة الغرب على مقدرات المنطقة.

ولعل ظهور تنظيم داعش الذى أثار الرعب فى نفوس المسلمين بأكثر مما أثار فى نفوس الغرب الاستعمارى هو عبث (قديم- جديد) فى القنبلة الدينية من أجل السيطرة الكاملة على المنطقة، وإعادة تشكيلها عبر سياسة غربية استعمارية جديدة لتشكيل العالم الجديد.. فداعش ليس التنظيم الذى ظهر فجأة وليس له مثيل فى تاريخ العبث بالقنبلة الدينية فى المنطقة العربية، فبريطانيا وهى بسبيلها للسيطرة على المنطقة العربية ومحاولة إرث الدولة العثمانية، مارست فعل العبث بالقنبلة الدينية عبر أسلوب ناعم وهو مساندة تيار ما عرف بالإسلام المعتدل الذى كانت مهمته التصدى والتخلص من الحكم التركى عبر الثورة العربية التى كانت فى ظاهرها التخلص من الحكم التركى المستبد ولكن باطنها كان تسهيل سيطرة الإنجليز على مقدرات المنطقة، وهو أسلوب مورس فى الدول الحضرية التى لا تملك ثروات كبيرة مثل مصر وسوريا.. أما الأسلوب الخشن فقد مورس عبر الدخول مباشرة فى عملية تقسيم مباشرة لمناطق الثروات وتكوين دول جديدة

مثل دول الخليج وهى بسبيلها إلى ذلك ساعدت الحكام الجدد بالمال والسلاح وغضت الطرف عن فظائع ارتكبها الحكام الجدد تحت دعاوى أنهم مجددون للإسلام وحملة لوائه، مثل تكوين الحكام السعوديين « لجيش الإخوان المسلمين « هكذا أطلقوا عليه، والذى أطلق له العنان للقتل والتنكيل بالمسلمين المعارضين للحكم الجديد تحت دعاوى أنهم كفرة، وقطعوا الرقاب ومثلوا بالجثث وباعوا الأطفال واسترقوا النساء، حتى وما إن استتب لهم الأمر فقد وجدوا فى «جيش الإخوان» عبئا عليهم وجب التخلص منه بعد أن أدى ما عليه بعد أن خرجوا عن السيطرة.. وكان لهم ما أرادوا بمساعدة الإنجليز.

وبعد مرور ما يربو على الثمانين عاما وبعد تسلم قيادة المنطقة من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد فشل الأنظمة العربية فى إيجاد صيغ تعاون واتحاد فيما بينها، يبدو أن أمريكا أرادت ممارسة الفعل البريطانى القديم فى العبث بالقنبلة الدينية عبر نفس الأساليب القديمة ما دامت تعطى نفس الأثر، فأمريكا بعد قيام ما عرف بثورات الربيع العربى اتبعت أسلوبين إنجليزيين قديمين، ولكن برؤية جديدة طبقا لمصالحها والتى تتناغم مع الاستراتيجية الجديدة لتشكيل العالم فى القرن الحالى.. الأسلوب الناعم وذلك عبر دعم ما عرف بتيار الإسلام السياسى المعتدل ولكنه اصطدم بعوائق كبيرة جعلته خيارا مكلفا لها فتراجعت عنه نسبيا ولكنها لم تهمله.. ربما تكتيكيا ولكن ليس استراتيجيا.

أما الأسلوب الخشن والذى جاء كدعم وإنشاء نسخة مكررة من «جيش الإخوان المسلمين» السعودى، ممثلا فى « تنظيم داعش « فقد مورس على نطاق واسع فى المنطقة روعى فيه أن يبتعد عن مناطق المصالح المباشرة فى الخليج وأن لا يتمدد إليها، ولكن اختلفت مهمته عن سابقه فهو هذه المرة يمارس أفعاله فى منطقة يراد لها التقسيم وتكوين دول على هيئة كانتونات صغيرة يسهل السيطرة عليها مستقبلا.

وبنفس الأسلوب الدموى الذى مارسه جيش الإخوان، يقوم داعش بنفس الأفعال وسط استنكار إسلامى لا يغنى ولا يسمن من جوع، وتستر أمريكى غربى مغلف بصخب إعلامى مكثف يبرز تعاطف الغرب المتسامح مع الشعوب العربية الإسلامية ضد البرابرة الجدد فى الوقت الذى يمدونهم بالعتاد والسلاح.

هكذا وببساطة يتم العبث بالقنبلة الدينية فى منطقتنا العربية الإسلامية من قبل أعدائنا أمام أعيننا

وأبصارنا ولا نستطيع أن نغير من الواقع الجديد شيئا كما فعلنا فى الماضى، لذلك لا تستغربوا كثيرا عندما ترون دولا جديدة فى المنطقة بمسميات جديدة، ويزداد تشتتنا وتشرذمنا ونصبح عبيدا جددا بعد أن تحررنا،

من صمت أمام فظائع « جيش الإخوان المسلمين « السعودى سابقا، ما زالت أمامه فرصة لتعويض خطئه القديم عبر الوقوف دون اكتمال المخطط الأمريكى بجيش «تنظيم داعش» حاليا.

دولة تهوى صُنع الآلهة والكهنة

« أنا ضد الاهتداء والإيمان برب سياسى من أى نوع، وأعتبر أنهما سلوك غير صالح للمثقف».. هكذا ما يجب أن يكون عليه المثقف الحقيقى، وهذا ما يتبناه الكاتب الكبير « إدوارد سعيد « فى كتابه « الآلهة التى تفشل دائمًا « والذى من خلاله يوضح ماهية المثقف داخل مجتمعه على لسان «جان جينيه» قائلاً: « كل مثقف مهنته إيضاح وتقديم أفكار ووجهات نظر وأيديولوجيات محددة، يطمح منطقيا إلى إنجاحها فى المجتمع، والمثقف الذى يدعى الكتابة فقط لذاته الخاصة أو لأجل المعرفة الخاصة أو العلم المجرد،يجب ألا يُصدق «.

وهو ينتقد بشدة المثقف، الذى عبد الأيديولوجيات ونصبها آلهةً تُعبد، وعاش كاهنا فى معبدها مدافعا عنها بشراسة لا يرى فيها أى عوار، ممتطيا جوادًا وشاهرًا سيفًا فى وجه من يعارض إلهه الجديد.

ويستغرب جدا- عندما يسقط هذا الإله « الأيديولوجية « ويصبح أثرا بعد عين- كيف أن المثقف بدلا من أن يفيق إلى رشده، نراه وقد التحق سريعًا بركب إله جديد، ذلك أنه مثقف غير قادر على الاشتباك والتحرر الفكرى، وفى المقابل يهوى الانبطاح وتلقى التعليمات، وجعل من ثقافته مصدرًا للارتزاق بديلا عن تحرير عقول الناس والأخذ بأيديهم إلى رحاب الحرية والإبداع.

وهو يعطى أمثلة لعُبَّاد آلهة أيديولوجيين تحولوا من الماركسية إلى الأيديولوجية الرأسمالية ثم الإسلامية، وهم فى كل الحالات مدافعون صناديد أشاوس شرسون عن الآلهة التى قرروا عبادتها.

إن « إدوارد سعيد « يريد أن يلقى حجرًا فى بئر راكدة عفنة هى البئر العربية التى أدمنت العفن، وأصبح المثقفون فيها هم من يساعدون على انتشار العفن مدعومين بقوى ظلامية حاكمة، تريد أن تظل شعوبها جاهلة مستكينة مسالمة غير قادرة على الفعل، وإنه لم يطلب من المثقف غير ترك عبادة الآلهة أيا كانت ويترك مساحة ولو قليلة فى تفكيرهم لتغيير الواقع ولو بالسخرية، قائلا « ما يستوقفنى كشىء ممتع أكثر هو كيفية الاحتفاظ بحيز فى العقل ينفتح للشك وجزء من السخرية الشكية «.

هكذا هو حال الغالبية الكاسحة من المثقفين العرب والمصريين، غير قادرين على الاشتباك، عُباد آلهة أيديولوجيون متحولون مهرة بين الآلهة المتعددة، إنهم من ساعدوا على « تصحير مصر» عبر عملية تجريف ممنهجة للعقل الجمعى المصرى،عبر ممالاة السلطة وتبنى أطروحاتها فى الحكم،

سواء أرادت آلهة اشتراكية أو آلهة رأسمالية أو آلهة إسلامية، هم جاهزون بلباس الكهنة وجاهزون بأقلامهم وألسنتهم التى تمهد للحاكم أن يقول «أنا ربكم الأعلى» فتكون النتيجة « فاستخف قومه فأطاعوه».

وهذا ما نراه واضحًا جليًا فى تلك الأيام الكئيبة حيث تجرى أكبر عملية تجريف و تصحير للعقل المصرى، وإبعاده عن معركته الأساسية وهى الحرية والعدل والمساواة، وذلك عبر خلط قيم شديدة المحافظة من الصحراء « السلفية « وخلطها بالشعبية الإسلامية «الصوفية».

أو بمعنى أدق محاولة إحياء آلهة فشلت قديما عبر إنعاش كهنتها ومساندتهم فى محاولة لإيجاد معارك وهمية داخل العقل المصرى، فى محاولة يائسة لتحجيم والقضاء على آلهة أخرى محاربة لها.

والسؤال: من القاتل ومن المُنظر ومن بُوق السلطة؟.. إنه المثقف، كاهن الآلهة الجاهز للاستخدام عبر كل العصور واختلاف الآلهة، إنه الذى يساعد الجلاد ويبارك ذبح الضحية، إنه من يغتال حلم الفقراء فى عالم جديد، إنه من يخيل لهم أن هناك حيات تسعى تريد أن تنال من استقرارهم الذى ينعمون فيه.. وأن عالمهم الذى يعيشون فيه الأفضل مهما حاولوا .

فإذا كانت الدولة راغبة حقًا فى التغيير الحقيقى للواقع المصرى بعد ثورة ٢٥ يناير المجيدة، فيجب عليها تغيير نمط التفكير السائد فى أدبيات الحكم القائم على استنساخ آلهة « أيديولوجيات « فشلت قديما فى محاولة للاستمرار طويلا فى الحكم.

ويجب عليها أيضا أن تبعد الكهنة الجاهزين للاستخدام من المثقفين المأجورين، حماة المعبد عن المشهد العام، مفسحة الطريق أمام حرية العقل، ولمثقفين جدد مشغولين بقضايا التغيير للأفضل غير مرتبطين بالمعبد القديم ولا كهنته.

مصر أصبحت لا تحتمل تجارب أو معارك جديدة بين الآلهة القديمة للسيطرة على العقل المصرى المهتزئ أصلًا بفعل التجريف الذى تم عبر عشرات السنين.. نحن لا نريد آلهة تعبد ولا كهنة يباركونها طمعًا فى النذور.. نحن نريد مصر جديدة حديثة تسع الجميع بعيدًا عن جدران المعبد.

لمصلحة من ؟ . . تُريدونها ديكتاتورية فرانكو

فى وسط هذه الحالة من عدم الاتزان السياسى التى تمر بها مصر .. وما يواكبها من ارتباك المشهد ككل.. يصبح صنع القرار السياسى المصرى محل جدل وعراكا سياسيا عقيما، وهنا تصبح الحاجة إلى نظام سياسى متماسك واضح المعالم هو المطلب الأساسى للخروج من الأزمة السياسية الحادثة فى مصر بعد ما يربو على أكثر من أربع سنوات هى عمر ثورة ٢٥ يناير..

هنا يثور التساؤل : من المتسبب فى حالة عدم الاتزان؟ ولمصلحة من؟

فاللإجابة عن هذا التساؤل، يصبح لزاما علينا أن نقوم بزيارة تاريخية ليست بالبعيدة، ولكنها زيارة مهمة لدلالاتها التاريخية والمستقبلية، وانعكاس ظلالها على المشهد السياسى المصرى

فها نحن نقف عند بداية تحول تاريخى فى إسبانيا، حيث قيام الثورة الإسبانية فى بداية ثلاثينيات القرن العشرين، تلك الثورة التى دشنت لما عرف اصطلاحا بـــ» الجمهورية الثانية» فى إسبانيا .. والتى شهدت صعودًا لافتًا لقوى التيارات اليسارية والشيوعية والبرجوازية الديمقراطية، والتى بشرت لزمن جديد رأى فية الإسبان بداية حقيقية لمستقبل أرادوه مبشرا، بعد ظلم وتحكم القوى الملكية وكبار ملاك الأراضى .. وقد أجريت انتخابات برلمانية فاز فيها تحالف اليسار وسط تجانس حزبى مشوه، أدى فيما أدى بعد ذلك إلى إختلاف فى آليات العمل وتضارب مصالح أدت إلى إضرابات مجتمعية ومطالب فئوية نتيجة إصرار الأحزاب اليسارية على تنفيذ أسلوبها الإصلاحى متجاهلة الظروف المجتمعية وحركة التاريخ .

هنا نشب الصراع الحزبى الذى شغل الجميع، وبات كل شىء فى إسبانيا على وشك الانفجار، هنا تدخل الجنرال فرانشيسكو فرانكو قائد حامية إسبانيا فى المغرب، معلنا حربا لإسقاط حكومة « الجمهورية الثانية « مدعوما من قطاعات كبيرة فى الجيش والأحزاب اليمينية .

وما أن تم إسقاط الحكومة الثورية حتى نشبت الحرب الأهلية التى راح ضحيتها قرابة المليون قتيل، منتهية بحكم ديكتاتورى للجنرال فرانكو دام قرابة الأربعين عاما.. واضعا خطا سياسيا جديدا بعيدا عن المشاركة السياسية الفاعلة، وعلى الرغم من سنوات حكمه الطويلة إلا أنها أسهمت فى صنع إسبانيا المعاصرة، وأعطتها استقرارا طويلا فى عالم متقلب ومتغير، مما سمح بعملية نمو اقتصادى مأمون، وأصبحت قضية الحرية مؤجلة لما بعد رحيل الجنرال فرانكو عن الحياة.

وعليه، فإذا كان فرانكو قد انتصر لمعسكر الثورة المضادة، إلا أنه قد أحدث تغييرا كبيرا فى التركيبة الطبقية للمجتمع، وذلك بالمضى فى التصنيع وتفكيك أواصر الملكية، وإحلال رجال

المال مكان رجال الإقطاع.

وبعد هذا العرض يبدو أن التشابه الحادث بين الثورتين الإسبانية والمصرية فى ٢٥ يناير، وتعاطى الأحزاب السياسية معهما، يثير الدهشة لتقاربهم لحد التطابق.. فبعد قيام الثورة وانهيار حكم مبارك العتيد، ومع إجراء الانتخابات البرلمانية التى شهدت صعودًا كبيرًا للتيارات اليمينية الدينية بمختلف أجنحتها، مع وجود جيوب حزبية ليبرالية ويسارية، ومع تشكيل أول حكومة فقد بدا أن التيارات الدينية تجاهلت حقائق تاريخية على الأرض وأرادت تطبيق نموذجها الإصلاحى دون المشاركة الحزبية الكاملة للمجتمع، وهو ما أدخل الحياة الحزبية فى صراع، سرعان ما احتدم وأصبح ينذر بانفجار وشيك، وسط مطالب شعبية فورية لتحقيق مطالبها الاقتصادية، والتى عبرت عنها بإضرابات عمالية ومطالب فئوية.

الأمر الذى أدى بالنهاية إلى خروج الشعب فى ٣٠ يونيو لإسقاط أول حكومة بعد الثورة فى أقل من عامين، مدعومًا بمساندة القوات المسلحة بقيادة الفريق السيسى.. وهو هنا يختلف عن الحالة الإسبانية فى التعاطى مع الأزمة السياسية.

وتم وضع خارطة طريق جديدة للخروج من الأزمة السياسية، وهو ما أدى إلى اختيار الفريق السيسى رئيسًا منتخبًا.. وسط غياب تأييد الأحزاب الدينية بطبيعة الحال، وبالمقابل تأييد بقية الأحزاب التى رأت أنها بمساندتها لخارطة الطريق الجديدة، فإنها بذلك ستنال نصيبا كبيرا فى المنظومة الجديدة، بعد خروج التيارات الدينية من العملية السياسية.

ولكن بعد انتهاء الاستحقاق الدستورى والاستحقاق الرئاسى .. ومع التعاطى مع بدايات الاستحقاق الانتخابى والأخير فى خارطة الطريق، فقد بدا أن الأحزاب السياسية، هى أحزاب كرتونية ليست لها قواعد شعبية كبيرة تؤهلها لدخول البرلمان ناهيك عن قيادة البلاد، والتى ملأت الدنيا ضجيجا بقدرتها على قيادة المرحلة الثورية، فإذا بها تسقط فى اختبار الشعبية، وأصبح كل ما يشغلها هو كيفية قيادة تحالفات حتى وإن كانت مع الحزب الوطنى الذى قامت بالثورة ضده.. أملا فى عدم الخروج من المشهد واستغلال الفراغ الناشئ عن تراجع التيار الدينى من الساحة السياسية.

وهو ما بدا فى فشل التحالف تلوا الآخر.. الأمر الذى أدى إلى ظهور كيانات حزبية جديدة وسرعان ما تختفى.. الأمر الذى يدفع فى اتجاه أزمة سياسية ودستورية، قد تقود البلاد إلى انفراد الرئيس السيسى بالسلطة، وهو عكس ما أرادت الثورة، ولايريده السيسى تصريحًا.

ولكن ما العمل وسط حالة التناحر الحزبى وعدم الاتفاق، الذى يعطل القرارالسياسى المصرى فى زمن مضطرب، يرجى فيه سرعة اتخاذ القرار، خاصة مع تردى الأحوال الإقليمية والدولية

أهذا ما تريدونه يا قادة الأحزاب مجرد ديكور فى كل الأزمنة، مجرد وردة على جاكيت الحاكم.. ولمصلحة من تريدون أن تحولوا الرئيس الجديد إلى ديكتاتور يُدارى عوراتكم وعدم إيمانكم بقضية الحرية.. وتعطيل مسيرة التنمية.. أنتم حجر عثرة فى طريق التقدم السياسى والاقتصادى.. لذلك لما تصرخون والرئيس يتخذ قرارات سياسية واقتصادية وأنتم على الهامش.. هذا لأنكم تريدونه ديكتاتورًا تتوارون وراءه، تصرخون وتزبدون منادين بالحرية وأنتم آخر من يتكلم عليها.

لذلك ليس لك أيها الشعب إلا نصيحة الزعيم الصينى «ماوتسى تونج» « تأملوا أحوال الدنيا حولكم .. ثم فكروا» .. لعلكم تطرحون بديلا خير من حزبية ضيقة أو ديكتاتورية ينادى بها البعض..

دار الندوة . . اغتيال الحُلم

في زمن الجاهلية وسيادة الظلام والظلم، ونظام اجتماعي بغيض قنن العبودية وجعل للزنا طقوسا، في هذه الأجواء بعث الله الرسول(ص) مؤذنا بانبلاج فجر جديد وسط الظلام، مبشرا بإرهاصات زمن جديد، بعيدا عن سيطرة شيوخ قريش الذين ظنوا أنهم احتكروا الموت والحياة ، فالتف حوله الشباب وآمنوا به وعزروه ونصروه في وجه جبروت شيوخ لم يرفضوا الدين كدين فقط بل زادوا عليه رفضهم أن يكون الشباب هم القادة، فما بالكم أن يكون بين الشباب من هم أقل منهم مقامًا من العبيد، حتى إنهم عرضوا على الرسول الكريم (ص) أن يكون ملكا عليهم نظير عدم التغيير، ولكن رسول الهداية (ص) بشير الأمل، قائد جيوش الشباب، رفض التخلي عن رسالته السماوية وتمكين الشباب على الأرض.

فما كان إلا أن اجتمع شيوخ الظلام في دار الندوة، ليتآمروا على الحلم ليقتلوه في مهده وتحالفوا مع الشيطان معلنين أنه لا تغيير سيحدث وأن الحلم بالتغيير لن يتحقق وستظل قواعد اللعبة كما هي، في ظن وهمي أنهم يقدرون على الوقوف في وجه القوانين الإلهية، وقُدر لصاحب الحلم والداعي له أن ينصره الله، وينجو وينتصر بسواعد الشباب الذين أبهروا العالم وكونوا أعظم إمبراطورية.

أيها الداعون إلى زمن دار الندوة، حنانيكم على الشباب، فلن تقدروا عليهم فهم المستقبل، وأنتم إلى زوال، فلا تقفوا في وجه القوانين الإلهية، ولا تلبسوا قناع شيخ نجد وتحته وجه شيطان مريد، فنحن في زمن جديد

فالمستقبل للشباب.. للشباب.. للشباب.. للشباب.

السلاح والمشروع
.. تعزيز قدرة أم مقدمة للصدام

س : متى أخطرتم واشنطن بنيتكم فى شراء أسلحة من روسيا؟
الرئيس: إننى أخطرت واشنطن فى شهر يوليو بأننى سأشترى أسلحة من روسيا إذا لم تزودنى أمريكا بالأسلحة، ولكنهم لم يكترثوا لذلك، إذ اعتقدوا أنها مجرد مناورة ولكننى لم أكن أناور، ولقد كنت أحتاج إلى الأسلحة، ولم يكن أمامى حل سوى أن أسلح بلادى من أى مكان.

سؤال وجواب من لقاء الرئيس عبد الناصر بجريدة « النيويورك تايمز » الأمريكية أكتوبر ١٩٥٥ بعد انتشار خبر صفقة الأسلحة التشيكية (الروسية) إلى مصر والتى تم الاتفاق عليها فى مؤتمر عدم الانحياز– باندونج فبراير ١٩٥٥ – والتى جاءت بعد مرور ثلاث سنوات كاملة هى عمر الثورة المصرية يوليو ١٩٥٢ آنذاك.

وهى الصفقة التى غيرت مجرى التاريخ فى المنطقة العربية بأكملها من حيث ضخامة كميات المورد من كافة أنواع الأسلحة الجوية والبرية والبحرية، والتى رفعت قدرات مصر العسكرية ولكنها جعلت مصر فى خط المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ورفعت حالة التوتر إلى أقصى حدودها مع العدو التقليدى إسرائيل التى كانت تخشى من تأثيرات الصفقة على زيادة قدرات العرب العسكرية مما يهدد وجودها فى الأراضى المحتلة.

فى الوقت الذى كانت تموج فيه المنطقة بتغيرات كبيرة وعظيمة من اتساع حركات التحرر الوطنى وقيام الثورات العربية ضد المستعمر، فى زمن ينبئ بتحولات كبرى فى المنظومة العالمية أفرزت عن زمن جديد فى منطق القيادة العالمية عبر إنشاء نظام القطبين بزعامة أمريكا فى مواجهة زعامة الاتحاد السوفييتى.

وهذا هو ما جعل القيادة المصرية الجديدة وفى مرحلة مبكرة من قيام ثورتها تحاول أن تتلمس طريقها لإيجاد طريق آمن لها وسط التغيرات العالمية الجديدة وفى محاولة لتأكيد سيادتها ورفع قدراتها العسكرية والاقتصادية، لذلك طلبت من الغرب الحليف التقليدى للمنطقة العربية أن يساعدها

في ذلك خاصة أنها كانت تعانى تدهورا كبيرا أمام القدرات المتنامية للعدو الإسرائيلى، وهو ما قوبل بتجاهل غربى وفتور كانت له دواعيه بسبب حالة السيولة التى كانت تمر بها المنطقة، مما دفع عبد الناصر لإبرام صفقة سرية برعاية رئيس وزراء الصين « شواين لاى « من أجل شراء سلاح سوفييتى وبكميات كبيرة تلبى الاحتياجات المصرية فى زمن جديد، وهو ما تم عن طريق دولة ثالثة وهى تشيكوسلوفاكيا حتى لا تغضب أمريكا،

ولكن لم تمر الصفقة مرور الكرام.

فبعد ما بدأ توريد السلاح رأت مصر أنها أصبحت تملك السلاح وأن الحالة الاقتصادية باتت هى الشاغل الأساسى لها، فكان التفكير فى إنشاء المشروعات العملاقة من أجل بداية التحديث فى مصر، فطلبت مصر مرة أخرى من الغرب تمويل مشروع السد العالى وهو ما قوبل بنفس الرفض على السلاح، فما كان إلا أن أممت مصر قناة السويس فى رد فعل على أزمة تمويل السد العالى، وهو ما استدعى قيام فرنسا وإنجلترا وإسرائيل بالعدوان الثلاثى ١٩٥٦ على مصر، وكلا له أسبابه فى العدوان، ولكن يبقى السبب الإسرائيلى هو الأهم حيث دخلت إسرائيل الحرب من أجل الحيلولة دون توريد السلاح وتعطيل إمكانية استيعابه من أجل التفوق المستمر لها وضمان الهيمنة، وهو ما أشار إليه عبدالناصر فى حوار الجريدة قائلا «أنا لا أفكر فى جيش إسرائيل اليوم ولكن أفكر فيما سيكون فى الغد».

وعلى الرغم من خروج مصر وسلاحها ومشروعها من معركة العدوان الثلاثى ١٩٥٦ منتصرة، وانطلاقها نحو المستقبل خاصة مع استقرار الأوضاع ووضوح الحدود الجديدة للمنطقة ضمن حدود النظام العالمى الجديد.. إلا أن القيادة الجديدة لم تقدر على قيادة نظام عربى موحد وفشلت فى إنشاء قيادة عسكرية مشتركة لحماية المنظومة العربية، ولم تع حدود القدرات التى يعطيها السلاح فى زمن متغير، وهو ما كان عاملا أساسيا فى العدوان الإسَرائيلى ١٩٦٧ والذى اعتبر نكسة ونهاية لحلم مصر ثورة يوليو.

وبعد ما يربو على الستين عاما من قيام ثورة ١٩٥٢ قامت الثورة المصرية المجيدة فى ٢٥ يناير ٢٠١١، ولسخرية الأقدار فبعد ثلاث سنوات من قيامها طلبت القيادة الجديدة من (روسيا) صفقات سلاح جديدة ومتطورة لمواجهة خطر وسيولة الأحداث التى تلت ثورات الربيع العربى – التى تحولت إلى كابوس مرعب ومحاولات تقسيم وإعادة ترسيم حدود الدول العربية من جديد– بعد ما رفضت دول غربية طلبات تسليح مصرية بل وإلغاء صفقات مبرمة ولم يتم تسليمها

من أجل مواجهة التفوق الإسرائيلى المتنامى وسط تراجع حاد للقوة العربية.

الأمر الذى سبب إزعاجا كبيرا للقوى الغربية التى رأت فى تلك الصفقات الجديدة محاولة من روسيا للتواجد مرة أخرى فى المنطقة العربية وهو ما لا يتفق مع الرؤية الاستراتيجية الأمريكية– الأوروبية الجديدة، وهو ما استدعى تلبية الطلبات المصرية من السلاح الغربى وخاصة الفرنسى وسرعة تلبية طلبات السلاح المتأخرة من السلاح الأمريكى.

كل هذا وسط حالة من الفوضى والتراجع الاقتصادى وهو ما استدعى من القيادة الجديدة أن تفكر فى مشاريع عملاقة تصبح قاطرة للاقتصاد، فكانت قناة السويس مرة أخرى، ولكن عبر إنشاء قناة موازية لها تسهل حركة الملاحة فى إطار مشروع اقتصادى ضخم، ولكن بموافقة غربية هذه المرة.

ويبقى التساؤل الكبير، هلى تستطيع القيادة المصرية الجديدة أن تتفادى صداما كبيرا جراء شراء تلك الأسلحة المتطورة وإكمال مشروعها الكبير واللذين سيطالان حتما من القدرات الإسرائيلية، وسط تلك الظروف الدولية وحالة السيولة فى المنطقة العربية والتى ستؤجل الصدام إلى فترة قادمة، ولكن لن تمنعه خاصة مع بوادر فشل كبيرة لمشروع القوة العربية المشتركة ؟.

لذلك فهل هناك من القيادة الجديدة من يعى التاريخ جيدا ويسير بدفة البلاد بعيدا عن انتكاسات تنهى مشروعا نهضويا نرى بواكيره، وأن تكون صفقات السلاح ومشروع القناة مقدمة للتقدم وتعزيز قدرات مصر والأمة العربية وليس مقدمة لصراع ينهى أمل الاستقلال الوطنى.. وننتظر ستين عاما أخرى من أجل إعادة النظر فى سياساتنا.

سيناء . . بين إدارة الدولة و إدارة التوحش

الملك المصرى القديم رأى رؤيا مزعجة تخبره بأن هناك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، ولما صحا من نومه فزعا لم يستطع من حولة أن يفتيه فى رؤياه، فتطوع أحد المحيطين به وذهب إلى نبى الله « يوسف « فى السجن وطلب منه تفسيرا لرؤيا الملك، ففسرها بأنه ستأتى سنوات سبع فيها رغد من العيش يعقبها سنوات سبع عجاف يكون فيهم الجفاف والقحط.

فعرف الملك وأخرج يوسف من السجن وطلب منه أن يجد له حلا للخروج من هذا المأزق قبل حدوثه، فأشار عليه يوسف أن تقوم الدولة بالزراعة والعمل الجاد لمدة سبع سنين ويقوموا بتخزين ما يساعدهم على تجاوز السنين العجاف حال حدوثها.

وهكذا تم تجاوز السبع العجاف، وتجاوزت مصر كلها خطر القحط والجفاف بفضل إدارة نبى الله يوسف الذى عينه الملك وزيره الأوحد

ولكن مما لاشك فيه أن زمن الملك ويوسف النبى وزمن المعجزات قد انتهى، ولم يتبق غير الإدارة الواعية الرشيدة القادرة على إدارة الدولة بعيدا عن الأهواء والتجارب الفاشلة التى تحمى الوطن من المزالق.

ولعل هذا ما تذكرته وأنا أشاهد على شاشات الفضائيات ذلك الهجوم الذى قامت به مجموعات إرهابية على الجيش المصرى فى سيناء، ولم أصدق ما يحدث أمامى و تصورت أن ذلك حلم كبير بل هى أضغاث أحلام، ومع البيان العسكرى وجدت أن ما كنت أشاهده حقيقة وعلى الرغم من التصدى الكامل للجيش لتلك المجموعات إلا أننى قد أصبحت متيقنا أننا على أعتاب سنين عجاف، أبت إلا ان تأتى فجأة دون سابق رؤيا، ووجدتنى أعيد قراءة كتاب « إدارة التوحش « لأبوبكر ناجى، الذى يعطى لنا تفسيرا لواقع الحال فى سيناء والمنطقة العربية كلها من خلال عرض وتحليل شيق لأسلوب عمل المجموعات الإرهابية وخاصة داعش، وهدفها من تلك العمليات الإرهابية، والتى يحدثنا من خلاله على أن الهدف الأساسى هو تهيئة المناخ لمرحلة ما قبل قيام الدولة الإسلامية الكبرى، وهى ما تعرف بمرحلة « إدارة التوحش» أو ما يعرف بمرحلة ما قبل قيام الدولة والتى تعنى انهيار قوة الدولة المستهدفة وتحول مناطق تلك الدولة بالفطرة إلى مناطق

وقطاعات والتى يكون فيها التنظيم مسيطرا على مساحات واسعة من الأرض يمارس فيها إدارته، وقد حدد دولا يسهل فيها إيجاد مناطق لإدارة التوحش وهى اليمن وبلاد الحرمين وبلاد المغرب ونيجيريا والأردن وباكستان.

وقد اختار تلك الدول لوجود مناطق بعيدة عن سيطرة الدولة ووجود تضاريس تسهل عمل التنظيم لضعف مركزية الدولة عليها، ووجود مد جهادى فى تلك الأطراف وانتشار السلاح بأيدى الناس كسلوك اعتيادى، وكذلك طبيعة الناس بها الذين لا يعولون على الدولة فى إدارة شئونهم.

هنا ينشط التنظيم الإرهابى فارضا سيطرته على تلك البقاع بأساليب الترهيب والقوة الغاشمة التى تسمح له بإنشاء كيان منفصل عن الدولة تحت مسمى إدارة التوحش مهمته تهيئة الناس لقيام الدولة الإسلامية المزعومة عبر نشر الأمن الداخلى وتوفير العلاج وتأمين مناطق التوحش من غارات « الأعداء» وإقامة القضاء الشرعى بين الناس ورفع المستوى الإيمانى والكفاءة القتالية واستكمال بناء جهاز الإستخبارات، وهم بذلك يستلهمون أسلوب إدارات « الدول القلاع» أيام الحروب الصليبية والتى قامت منفردة فى انتظار القائد المغوار الذى يوحد تلك الدول فى دولة كبيرة عظيمة تمهد لدولة الخلافة، هذا فى المناطق المرشحة لذلك التنظيم إضافة للعراق وسوريا، ولكن هل مصر تصلح لبيئة « إدارة التوحش « الإرهابية ؟.

بالطبع تتوافر عوامل كثيرة منها:

أن المنطقة المستهدفة « أطراف سيناء « بعيدة عن المركزية وانتشار السلاح امر مألوف بين الناس ناهيك عن إهمال الدولة لعقود طويلة للتنمية فى سيناء مما جعل الناس لا يعولون على الدولة فى تصريف أغلب شئونهم، وكذلك صعوبة التضاريس بها، وهو الأمر الذى أدى إلى توفير بيئة صالحة لظهور التنظيمات الإرهابية، ولكن على الرغم من توافر تلك الظروف إلا أن تلك التنظيمات تعانى فى إيجاد مناطق لإدارة التوحش بسيناء وذلك لعاملين حددهما الكاتب وهما قوة الجيش المركزى وقوة الشعب لذلك يلجأ التنظيم إلى خلق حالة فوضى تمكنه من السيطرة على مناطق وأراض كبيرة، وذلك عبر ما يسمى «مرحلة شوكة النكاية والإنهاك» والتى يلجأ فيها التنظيم الإرهابى إلى اتباع أساليب حددها لنفسه منها:

- إنهاك قوات «العدو» والأنظمة العميلة.

– جذب شباب جدد للعمل الجهادى.

– إخراج المناطق المختارة من سيطرة الأنظمة ومن ثم العمل على إدارة التوحش.

– الارتقاء بمجموعات النكاية بالتدريب والممارسة العملية ليكونوا مهيئين نفسيا لمرحلة إدارة التوحش.

وهذا يفسر حجم العملية الأخيرة فى سيناء ضد الجيش المصرى والذى تمت من أجل إيجاد مناطق يسهل التحكم فيها ومن ثم إضعاف الدولة المركزية، تحت وهم وزعم أن هذه « هى طرق إسقاط الحضارات الفاسدة وبناء الحضارة المثالية».

وبعد هذا التفسير الواضح الذى جاء على يد أحد مؤيدى داعش وليس على يد نبى مرسل، فى زمن أصبحت الحقائق لا تقبل التأويل، أين الدولة المصرية ؟؟ وما هى الآليات التى ستتخذها ضد وقف المد الإرهابى فى سيناء ؟؟ أستعتمد الحل الأمنى فقط وتترك كل عوامل نمو الإرهاب الأخرى دون علاج ؟؟

يبدو أن الدولة المصرية تدرك أهمية ما تقوم به فى سيناء، ولكن عليها أيضا أن تدرك أن زمن يوسف النبى قد ولّى ولم تعد السماء تؤيد إلا من يأخذ بالأسباب ويعمل، وأن الإدارة السليمة للخروج من مأزق السنوات العجاف « الإرهاب « تقتضى كما فى زمن النبى يوسف أن تتشارك الدولة مع الشعب ككتلة واحدة متماسكة من أجل الخروج من نفق السنوات العجاف بالعمل الجاد الدءوب التنموى فى كل ربوع مصر وخاصة فى سيناء البعيدة عن مركز الحكم.

وإلى أن يحدث هذا ستظل سيناء تراوح مكانها بين إدارة الدولة ومحاولة التنظيمات الإرهابية لإيجاد مناطق تمارس عليها إدارة توحشها، وفى الحالتين سيبقى المواطن المصرى فى سيناء بين شقى رحى الحرب على الإرهاب ومن الإرهاب فى انتظار نهاية السنوات العجاف « الإرهاب « وبداية السبع السمان التى تفيض خيرا وبركة بعيدا عن الإرهاب ومناظر الدماء والأشلاء المتناثرة..

لا للإرهاب.. عاشت مصر وعاش شعبها.

استحقاق أم محاق

المحاق هو النهاية الحتمية والشهرية لدورة القمر حول الشمس، حيث يتوارى كليا خلف الشمس، تاركا ليل الأرض فى ظلام دامس، ومعلنا فى نفس الوقت عن بدء دورة جديدة لنور قمر وليد، سرعان ما يكتمل لينير الأرض بنورة، هذا هو ما يفسر مشهد الاستحقاق الانتخابى الذى تجرى وقائعه هذه الأيام حيث كان ينظر إليه بعد أحداث ٣٠ يونيو على أنه المشهد الثالث والأخير فى تراتبية تنظيم شئون الحكم فيما بعد حكم الإخوان المسلمين، بعد الاستحقاق الدستورى والاستحقاق الرئاسى، وأنه المحاق الذى ينتهى عنده مشاكل الدولة ويبدأ من عنده نور قمر إصلاحى جديد يعيد الاستقرار ويفتح طاقة نور لزمن جديد.

ولكن ما بين سن قوانين لهذا الاستحقاق ثم الطعن عليها فقد طالت مدة انتظار هذا الاستحقاق والذى ولد عند جموع الشعب أن النظام الجديد غير راغب بالوفاء بوعده الانتخابى، كل هذا مع بروز كيانات وتحالفات انتخابية جديدة أثارت التخوفات من رجوع رموز فاسدة لواجهة المشهد السياسى مرة أخرى فى ظل انتشار واسع وواضح لتلك الرموز على مساحة خريطة الأحزاب السياسية المصرية، وكأنه لم تكن هناك ثورة حدثت فى ٢٥ يناير.

إنهم يتقافذون أمام الشعب فى استعراض واضح وفج معلنين أنهم أسياد هذا البلد وأن هذا البلد لن يتغير، واضعين النظام الجديد أمام خيارات سياسية صعبة، فهو لم يقدر أن يبنى كتلة سياسية جديدة، وربما هو غير راغب فى ذلك– وإن كنت أرجح أنه فى مرحلة بناء لكتلة جديدة – وبالتالى وجد نفسه أمام فراغ سياسى غير قادر على ملئه، خاصة مع خروج الإخوان المسلمين من المشهد السياسى ومع عدم اطمئنانه لصعود التيار السلفى محدود القدرات السياسية الذى يحد من قدرة النظام على الحركة، وكذلك التيار اليسارى بكل تنويعاته الاشتراكية واليسارية والقومية الذي سيدخلون معه بالتأكيد فى صدام سواء مكتوما أو سافرا خاصة مع تبنى النظام للتوجهات الاقتصادية الرأسمالية.

فى هذا الجو المشحون بالتوتر المملوء بالخوف من التداعيات السياسية إذا استمر التعاطى مع اكتمال الاستحقاق الانتخابى فى ظل تصدر رموز الحزب الوطنى الجديد للمشهد السياسى، ومع تراجع الأداء الاقتصادى، وتراجع فرص الشباب فى دخول المعترك السياسى، فيبدو أننا

على موعد جديد مع برلمان مشابه لبرلمان عام ٢٠١٠ الذى كان سببا فى زيادة الاحتقان ومن ثم ثورة ٢٥ يناير المجيدة، مع برلمان يضم بين طياته رموزا اتهمها الشعب بالفساد وكانت مثل الفئران التى كانت علامة على انهيار نظام مبارك، إنهم فئران السفينة أول من يعلم بغرقها، وأول اللاحقين بغيرها، إنهم من أكل الأخضر واليابس.

لذلك إذا كان النظام راغبا فى تهيئة الظروف المناسبة لمحاق استحقاق انتخابى يكون كوقفة قبل بداية جديدة، فعليه أن يحاكم الفساد والمفسدين ويضرب بيد من حديد، والاحتماء بالشعب هو وسيلته للقضاء على الفساد، أما إذا لم يقض على الفساد فى ظل استحقاق انتخابى فإن ذلك حتما سيوفر مظلة سياسية وقانونية للفساد، وبذلك سنظل فى مرحلة المحاق، مرحلة السواد الدامس، ولا أمل فى زمن جديد.

أيها النظام الجديد إذا كنت راغبا فى زمن جديد، فلتعلم أن الفئران الفاسدة تحمل فى أجسادها مرض « الطاعون السياسى والاقتصادى « الذى يعصف بجسد أى نظام ومن ثم انهياره، ومن ثم سيجعلون من الاستحقاق السياسى مجرد محاق يحجب كامل النور عن مصر، ومن ثم سيضع النظام بالكامل أمام خيارات شعبية حتما ستكون قاسية.. وليتذكر الجميع أنه عندما ظهرت الفئران، كان هذا إيذانا بانهيار سد مأرب القديم.

الأمن الفكرى ؟

هناك قصة رمزية مستمدة من الأدب الصيني وهي قصة «سيد القرود»: تحكى أن رجلاً عجوزاً احتجز عدداً كبيراً من القرود ووضعهم في حظيرة كبيرة وطلب من كبيرهم أن يقودهم في كل صباح ليقطفوا الفواكه من أشجار الغابة ويعطونه العشر، وكل من يخالف هذه القاعدة كان يتعرض لعقوبة الجلد.

الكل كان يعاني بصمت ولم يعترض أحد.. ذات يوم سأل قرد صغير بقية القرود: هل الرجل العجوز هو من زرع أشجار الفواكة هذه؟ أجابه القرود: إنها تنمو لوحدها بشكل طبيعي.. سأل الصغير: هل يمكننا أن نجني الفواكه من دون أن نأخذ إذن الرجل العجوز؟ أجابه القرود: نعم.

تابع القرد الصغير: إذاً لماذا يجب علينا الاعتماد على العجوز وخدمته؟
فجأة شعر القرود وكأنهم استيقظوا من نوم طويل! وفي نفس الليلة هجم القرود على سياج الحظيرة فحطموه وأخذوا من المخزن كل الفواكه التي جمعها منهم الرجل العجوز ثم انطلقوا إلى الغابة وتركوا العجوز لوحدة ليموت من الجوع
قصة موحية اتخذها البعض إبان الثورة المصرية فى ٢٥ يناير كمثال حى على تمرد الشعب المصرى وتحوله من ثقافة العبيد المطيعة إلى ثقافة الأحرار الذين ينشدون الحرية بمعانيها الكاملة، ولكنهم فى غمرة الفرحة بزوال نظام مبارك لم يلتفتوا إلى حوار « القرد الصغير « وأنه هو الذى بدأ الحوار مع من هم أكبر منه سنا اعتادوا العبودية، وهو الذى أقنعهم بالتمرد والهروب من قيد العبودية، فى إشارة واضحة لدور الشباب الواعى المثقف فى التمرد على القيود والأغلال التى تقيد حركة المجتمع نحو التطور والانتقال من طور العبودية إلى آفاق أكثر رحابة لا يوجد فيها سيد ولا عبد، فى إطار مجتمع حر يسع الجميع.

ولكن وبعد أكثر من أربع سنوات يبدو أن هناك من لا يريد آفاقا جديدة ويسير عكس توجهات الثورة المصرية، ونراه يريد تأطير شباب المجتمع ضمن منظومة تعليمية غريبة يراد بها صياغة المجتمع ككل وتوجيهه إلى حظيرة القرود مرة أخرى، فى الوقت الذى يتم الترويج فى وسائل الإعلام على توجه الدولة نحو تبنى سياسة الاقتصاد الحر، والذى يقتضى سياسة تعليم تعتمد ثقافة الحرية والإبداع، لا القيود والأطر العقيمة.

هذا فى الوقت الذى تعلن وزراة التربية والتعليم عن استراتيجية جديدة أطلقت عليها اسما غريبا وهو « الأمن الفكرى »، « معتبرة أنها ضرورة ملحة تفرضها علينا الظروف الراهنة وذلك للعمل على حماية أولادنا وصيانة فكرهم من كافة أنواع الغزو الثقافي الهدام الذي قد يتعرضون له من خلال وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي « و « مشيرة إلى أنها تسير على خطة تدريجية تبدأ بنشر ثقافة الأمن الفكري فى المدارس ومرورا بممارسة أنشطة من خلال نواد للأمن الفكري تدعم ذلك المشروع انتهاء بتضمين ذلك في المناهج في مرحلة لاحقة بصورة عامة دعما للمواطنة والانتماء واحترام القانون وحق الاختلاف فى جو من التفاهم المشترك «.
يالله.. إلى هذا الحد وصلنا بالتفكير بعد ثورة عظيمة كثورة ٢٥ يناير، «أمن فكرى» و « نواد للأمن الفكرى» من هذا الذى يريد بهذا المجتمع أن يصل إلى هذا المستوى من الانحدار الثقافى والفكرى وصولا لمجتمع من القرود، والتى يراد بتطبيقها على طلاب المدارس ما قبل المستوى الجامعى حيث « ترتبط بتنمية مكونات الأمن الفكري خلال المناهج الدراسية بعد ضمان بناء قدرات المعلمين وبناء الوعي العام داخل المدرسة وخارجها حول مفاهيم ومكونات الأمن الفكري «.

يا من فكرتم فى هذه الاستراتيجية يبدو أنكم قد قررتم أنكم مخاصمون للحرية والإبداع ومجتمع جديد يريد أن يتخلص من لغة الأطر الجاهزة، فالفكر الحر هو فعل مخاصم للغة الأمن بكل مفرداته ولا يجب التدخل فى حركته بعيدا عن لغة التلقين التى تذكرنا بالتجربة الستالينية فى روسيا.

نحن فى زمنا جديد حرا يحمل بين طياته آفاقا جديدة للحرية، ولا نريد العودة إلى الوراء عشرات السنين، وإذا أردتم حماية المجتمع من الأفكار الهدامة لصالح أفكار معتدلة وحرة، فالأفكار الحرة قادرة على دحر تلك الأفكار الهدامة مع توفير مناخ حر يضمن الحرية الشخصية والعامة، لذلك فقد خانكم التعبير والتوصيف فمصطلح « الأمن الفكرى « و « نوادي الأمن الفكرى « سيزيد الاحتقان حتى ولو نال قسطا من التوفيق فى التطبيق.
إنه مصطلح سيئ السمعة ويلتحق بمصطلح « الثورة الدينية « الذى جرى تغييره بـــ» تجديد الخطاب الدينى « بعدما أثار لغطا كبيرا لاحتوائه على آليات الصدام بين مكونات المجتمع ككل.. وهذا ما حذرنا منه سابقا، وها نحن نحذر مرة أخرى فمصطلح « استراتيجية الأمن الفكرى» مصطلح ملغوم وخطر، ناهيك عن تطبيقه.
إذا أردتم حماية أطفالنا وشبابنا من الأفكار الهدامة فالسبيل الوحيد هو الحرية، وتذكروا أن القرد الصغير لن يتوانى فى طلبه للحرية مهما طال الزمن.. الشباب يريد من يسمعه لا من يؤطرة.

حكاية . . سيدى الشهيد

« يا أهل مصر ساعدونا فى البحث عن صاحب الصورة، مش مهم الاسم المهم نلاقيه، غايب من يوم ٢٣ أكتوبر اللى فات «.. « وأقر على مسئوليتى أن السائق عبد الرحمن أو أيا كان اسمه قد منحنا شرفا أرجو أن نستحقه « هذه كانت صرخة مصر التى تبحث عن ولدها الشهيد المجهول فى نهاية فيلم « حكايات الغريب « الذى تاهت ذكراه فى زحمة البيروقراطية العقيمة التى لم تعطه حقه.

إنه الغريب فى وطنه الذى ضحى من أجل العرض والشرف، إنه الذى لم يطلب أن يخلد اسمه، فقد كان كل حلمه أن يعيش حرا بكرامة، فى وطن يعرف معنى ويقدر ما فعل، إنه الذى سطر بدمه تاريخا وشرفا لأجيال طال بها أمد « السلام « حتى خارت قواهم وأصبح الشرف فعلا نظريا يمارس فى أروقة الكتب المدرسية..

إنه «سيدى الشهيد» الذى لم ينكسر عندما تلقى نبأ هزيمة بلاده فى ١٩٦٧، وذهب يركض فاتحا صدره للرصاص لا يهاب الموت، غنى بالسمسمية على شط القناة لحنه الأخير، لحن الحرية، لحن كرامة وطن عاش ليثأر، رفع علم بلاده فى مواجهة العدوان، لم يأبه لحجم الرصاص الذى دخل جسده، ولا لجسده الذى تحول إلى أشلاء حولته إلى مجهول، لم يكن فى خاطره إلا روح بلاده التى انكسرت، والعرض والشرف.

إنه ابن مصر الطاهرة أبو بشرة سمرة، الذى ذهب إلى جوار ربه مبتسما فقد أدى ما عليه وأعطانا شرفا دعى ربه أن يتركه لمن يستحقه، لم يطلب مالا ولا عقارا، بل طلب شرفا لوطن يحمل بين جنباته رجال يصونوا العرض والأرض، لا مستسلمين ولا خانعين..

إنه الشيخ « الغريب « المغربى الذى لم يطلب تخليد اسمه، الذى جاء ملبيا نداء الواجب مدافعا عن وطن حاول اغتصابه وتدميره « القرامطة « دواعش العصور الوسطى، وهزمهم فى القلزم ـ السويس ـ ولكنه لبى نداء ربه وترك وراءه نصرا وشرفا دحر به قوى الظلام، فخلده أبناء السويس الأحرار وأصبح عنوانا للحرية والشرف ونكران الذات.

إنه معنى الشرف والحرية والدفاع عن العرض والمقدسات.

ولكن .. « مدد يا سيدى الغريب « « مدد يا سيدى الشهيد « هكذا تحولت ذكراهم، ذكرى الدم والملحمة، ذكرى الشرف والكرامة، إلى رقص وزيارات للقبور، لم يعد ما تمناه الشهيد

موجودا، لم تعد النخوة والرجولة، وأصبح العدو صديقا والأخ عدوا، والكل يرقص على القبر بأغانى لحن هستيرى.. وضاعت ألحان السمسمية على رصاص البندقية ولم يعد الرجال.

الوطن الكبير ضاع والوطن الصغير يفتت، وعدو « سيدى الشهيد « رجع تانى يضرب ويغتصب ويقتل فى أولادنا فى القدس، وعدو « سيدى الغريب « رجع تانى قرامطة العصر الحديث ـ الدواعش ـ .. الكل تحالف علينا، ولكن أين شهيدنا ؟؟ لقد تحول إلى ذكرى موالد وأضرحة، ورجال وطن بيدوروا حواليه دراويش يقترؤا ذكريات الماضى، دون نخوة وهمم شاخت، وتحالف الأخ مع العدو فى مواجهة أخيه .. اختفى معنى الشرف وحل محله معنى الخوف من العدو.

أى شرف هذا الذى تتكلمون عنه يا دراويش « الشهيد « و» الغريب « وأنتم تحتفلون بهما، أتطمعون فى نصيب من شرف لا تستحقونه، فى وطن تبكون فيه كالنساء خوفا من طوفان عدوكم، وطن لم تستطيعوا أن تدافعوا عنه كالرجال وتنتظرون من غيركم أن يمنحكم شرفا لا تستحقونه.

ساحات الوغى مفتوحة لمن أراد منكم ان ينال شرف الشهادة دفاعا عن الدين والعرض والوطن، وإنى لا أشك فى أنها فترة ضعف وستنتهى قريبا.. فزمن الرجال دائما موجود، ومواكب الشهداء دائما متصلة بجنة الرحمن إلى يوم القيامة.. ولن تكون أكتوبر آخر الحروب ولن يكون شهيدنا يوم ٢٣ أكتوبر آخر شهيد يسقط فى حرب « الشهيد والغريب «.

سلام عليك سيدى الشهيد، وسلم على الشهداء اللى معاك، سلم على كل اللى هناك، عمرك كان تمن الحرية لكن بلدك مش نسياك .. وشك متزوق بالضى.. وأمك صبرها إنك حى .. وحياتك فيه وراك إخواتك .. إرتاح انت وحقك جاى.

بانجو . . رمز الكشرى

تأخر ميعاد الغداء، وقرصنى الجوع جامد فقلت أروح أصبر نفسى بعلبة كشرى وصاية، ولما وصلت المحل لقيت المعلم وليد واقف على المنصة، فقلت له: علبه كشرى وصاية وكتر حمص الشام واوعى تنسى الشطة، فقالى : من عنيا ياأستاذ، هوا أنا أقدر أرفضلك طلب (قالها وهوا بيبتسم بخبس ولؤم).. وفجأة وهوا بيعبى علبه الكشرى الوصاية وفى جو مليان صلصة وبصل ورطوبة قال: إيه يا استاذ إلا أخبار بانجو حمارك إيه؟؟

صراحة مفهمتش المغزى من السؤال، يمكن بسبب البصل والصلصة وحاجة المعدة لوجبه تنسيها ألم الجوع.

فقلت له: والله من ساعة ما سابنى واشتغل فى السياسة وأنا ماليش دعوة بيه، هو حر.

فرد المعلم وليد: شكلك مش متابع الدنيا، ولا الجوع والكشرى قرصوا جامد.

ضحكت ضحكة خفيفة تحاول تخفيف أثر تريقة المعلم وليد، فقلت له: بتابع بس على فترات، أبوس أيدك خلصنى وأدينى علبه الكشرى..

المعلم : فعلا شكلك كده مش متابع، بص يا أستاذ فى اليافطة اللى متعلقة على باب المحل بعرض الطريق؟؟

فقلت: يافطة إيه ؟ هوا انا بتاع يفط

المعلم: دا حمارك بانجو مرشح نفسه فى الإنتخابات.

وقفت مبهوتا ومستغربا، وخرجت من المحل جرى علشان أتفرج على اليافطة.. دا بجد يافطة شيك وبالألوان بعرض الطريق الأسفلت عليها صورة بانجو لابس هدوم شبابى، ومكتوب عليها مرشح الثورة، سرحت ونسيت نفسى وأنا رافع راسى لفوق بتفرج على اليافطة، و محستشى بنفسى خالص إلا وكلاكسات العربيات من حواليا زعيق وشتيمة، إنت يا (...) يالى قافل الطريق، عاوزين نعدى،

فلقيت المعلم وليد بيشدنى وبيقولى: هتموت نفسك يا أستاذ، أنا السبب، خد علبه الكشرى وروح دلوقتى شكلك أصفر وتعبان.

آآآآآآآآآآآآآة يا زمن يا أبو الميزان أعوج، بانجو على اليافطة، وأنا شايل كشرى أسد بيه

جوعى، بانجو اللى اتولد على إيدى جحش صغير، وكنت بأكله وعمرى ما خليت حد يركبه لحد ما ودانه كبرت وديله بقى ضفاير، ايه اللى جرالك يا بلد.. من الزريبة للبرلمان كدا خبط لزق، وكان لزمتها إيه ثورة كبيرة وناس هايجة وفرحانة بأمل لبكرة، وآخرتها بانجو والشعب شايل علبه كشرى يسد بيها جوعه.

صوت: يا أستاذ | ياسر، يا أستاذ، إنت يا أستاذ .. اتلفت ورايا لقيت واحد باين من ملامحه التاريخيه إنه أمنجى قديم، لابس شياكة ومبتسم وفاتح بقه على الآخر، (ممكن يكون بيبتسم شماتة على ثورة راحت).. فقلت له: خير عاوز حاجة منى ؟ .. فرد عليا : أنا عاوز منك خدمة، وعشمان فيك.

فقلت : خير ان شاء الله.. فقالى : انا ماسك دعاية حملة بانجو الانتخابية، وعاوز منك كام عنوان على كام جملة علشان الدعاية وخصوصا إنك عارف الشباب عاوزين إيه..

فقلت: آآآآآآآآة بانجو ودعاية وشباب وأمنجى وحزب وطنى، أنا معايا لك حاجة تنفع، خد طبق الكشرى دا يناسب الحملة بتاعت بانجو.. مصر بقت طبق كشرى كبير .. يلا يا ابن المرة من قدامى.

جرى من قدامى مذعورا، والصراحة كان بيشتم، قال البعد عنده كرامة أوى، ووصلت البيت وبعد ما هيأت نفسى لأكلة الكشرى المشئومة، فقلت أفتح التليفزيون أكمل الجو الشاعرى.. ولكن فجأة لقيت رنة على الموبايل، نمرة غريبة، فقلت: ألو مين معايا.. هو: أنت لحقت تنسى صوتى هأهأهأ دا حتى صوتى مميز.

فقلت: هوا أنت،عاوز إيه يا بانجو، مش خلاص.

هو: لا مفيش حاجة، أنا بس حبيت أشكرك على النصيحة اللى بعتهالى من شوية.. فقلت : أنا، محصلش.. هو : لأ حصل.. وانا كمان هعمل بالنصيحة وهخللى شعار الحملة « طبق الكشرى مناسب أوى للحالة فى مصر، إنت عبقرى هأهأهأهأ، وقفل الخط.

عجز اللسان عن الكلام ومبقاش غير علبة كشرى للأكل وشعار علبه كشرى لحملة بانجو، مصر بقت طبق كشرى كبير.. بالهنا والشفا يا بانجو عقبال الرز بلبن.. حد عاوز شوية دقة وشطة.

المؤسسة العسكرية و رجال الأعمال وَهم القوة و الانتماء

تشابه الحالات لا يعنى بالضرورة الوصول لنفس نتائجها، وذلك لاختلاف الظروف والوسائل، لذلك فعلى الرغم من أن أزمة الاقتصاد المصرى مشابهة إلى حد كبير لأزمة الاقتصاد الروسى فى عام ١٩٩٨، من حيث هروب رءوس الأموال المنهوبة نتيجة عائد الخصخصة، والفساد المستشرى فى البلاد، والانخفاض الحاد فى سعر العملة، وارتفاع الدين المحلى والخارجى، وهو ما حدا بالدولة لاتباع سياسة التقشف لتقليل فاتورة الواردات، وإجراءات كثيرة أخرى، وذلك كله فى ظل غياب لدور مؤثر لرجال الأعمال، الذين تعلموا حصد النتائج والمكاسب بعيدا عن أى دور تنموى حقيقى فى البلاد.

لكن لماذا خرجت روسيا من أزمتها بعد مرور عامين فقط ؟ ولم تخرج مصر بعد مرور أكثر من عامين ؟

وذلك على الرغم من اتباع نفس السياسات تقريبا؟ وتشابه الحالة السياسية فى الحالتين؟

الإجابة لخصها أحد أتباع مدرسة – شيكاغو – الذين بشروا بالرأسمالية الجديدة فى روسيا، فى أن من أنقذ روسيا من مصير الانهيار الإقتصادى الكامل نتيجة اتباع سياسة الليبرالية الجديدة يرجع لسبب أساسي وهو وجود قوات مسلحة قوية حال تسليحها النووى من تمادى الرأسمالية المحلية ومركزها الخارجى من العبث فى الاقتصاد بجانب إجراءات ضرورية للإصلاح.

وهو وضع مشابه للحالة المصرية التى تعانى من أزمة اقتصادية، تعددت مظاهرها من انخفاض حاد لسعر العملة، وتزايد الدين العام لدرجة حرجة، واتباع سياسة تقشف متبوعة بإجراءات لزيادة التصدير فى مقابل تقليل فاتورة الواردات، كل هذا مصحوب بتوجس شعبى من عدم قدرة الحكومة على ضبط الإيقاع، ووسط تراجع حاد لدور رجال الأعمال فى عملية الإنقاذ، علاوة على زيادة عدم الثقة بين الناس فى رجال الأعمال خاصة بعد تهريب رءوس أموالهم خارج البلاد.

وهو ما استدعى تدخلا واضحا وظاهرا للقوات المسلحة للعب دور اقتصادى كضابط لإيقاع سياسة اقتصادية رأسمالية تبنتها مصر كسلوك اقتصادى عام، حتى لا تعجل باضطرابات واسعة سرعان ما ستتحول إلى ثورة شعبية مشابهة لما حدث فى ٢٥ يناير.

هنا تظهر الحالة الملتبسة بين المؤسسة العسكرية ورجال الأعمال كما فى الحالتين الروسية والمصرية وهى علاقة شد وجذب، بين طرف يرى أنه الأقوى ويمتلك أدوات القوة وقادر عليها، وبين طرف يرى أن حدود الانتماء هى دائرة أوسع من حدود الوطن حيث يستطيع المال أن يتحرك بحرية و

أنه ليس مجبرا على اتباع سياسات تبعده عن مساره الرأسمالى الحر، وإذا كان ثبات العوامل فى الحالة العسكرية واضحا لكن يميل لصالح روسيا لامتلاكها السلاح النووى الذى ألجم الرأسمالية العالمية، وإذا كان نوع رجال الأعمال يتمحور حول فئة أثرت على حساب الشعب فى الجانبين إلا أن ارتباط الرأسمالية المصرية أسبق فى الارتباط بالرأسمالية العالمية.

لذلك فهنا يبرز السؤال الأكبر، أليس هذا مدعاة للتفاؤل لقرب انفراج الأزمة الاقتصادية ؟ مع وجود المؤسسة العسكرية كضامن لعدم انجراف البلاد نحو سياسات رأسمالية تضر بأمن البلاد ؟

أقولها بصدق أشك، ليس تشكيكا فى قدرة المؤسسة العسكرية، ولكن فى حدود القدرة ومداها، وكذلك لارتباط الرأسمالية المصرية ارتباطا وثيقا بالرأسمالية العالمية وتدين بالولاء لها.

لذلك إذا كنا سائرين حتما إلى النهاية فى تبنى الاقتصاد الحر، فيجب أن تضع المؤسسة العسكرية فى حسبانها أن معرفة حدود القوة قادر على تبديد أوهام القوة المطلقة فى ضبط الإيقاع مع الرأسمالية الجديدة، حتى لا نقع فى فخ الثقة المفرطة مع سياسات لا تعرف الحدود، كما حدث لروسيا أثناء أزمة أوكرانيا حيث حالت القوة العسكرية بترسانتها النووية دون وقوع حرب عالمية، ولكنها لم تحول دون وقوع خسائر اقتصادية كبيرة تنذر بأزمة اقتصادية مشابهة للعام ١٩٩٨.

وكذلك رجال الأعمال يجب عليهم أن يخفضوا حدود سقف الانتماء لتكون حدوده مصلحة الوطن، لا وهم الانتماء لمحيط أكبر حتى نجتاز الأزمة الاقتصادية.

لذلك يجب أن تحدد الأسس والقواعد السليمة لضبط العلاقة بين المؤسسة العسكرية ورجال الأعمال من أجل الوصول لعلاقة سليمة بناءة قادرة وفاعلة، من أجل نهضة حقيقية فى البلاد.. خصوصا مع تمخض الانتخابات البرلمانية المصرية عن سيطرة واضحة لرأس المال على المجلس الجديد.. وغياب واضح للمعارضة اليسارية القادرة على لجم السياسات الرأسمالية، ناهيك عن عدم وجود معارضة فعلية من الأساس.

فهل تشهد المرحلة الجديدة محاولات سيطرة من كلا الجانبين على كامل المشهد الاقتصادى ؟ أم محاولات تكسير عظام ربما تستدعى تدخلا خارجيا؟؟ أم تعاونا مثمرا تدعمه القوة؟

إنها المسافة بين وهم القوة ووهم الانتماء، فكلما قلت مساحة الوهم زاد التعاون المثمر، وإذا قلت أصبحنا على وشك الصدام.. فإلى قادم الأيام.

التهمة إخوان

إن من أشد الصفات الذميمة للنفس البشرية، هو النفاق وهو إظهار الإنسان عكس ما يبطن، ليخفى نوايا شريرة تأبى النفس البشرية التعاطى معها من خطورته الشديدة على استقرار الحياة الإنسانية، وقد أخبرنا الله فى القرآن أن المنافقين ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)، لذلك فقد توعدهم بأن أخبرهم بـــ﴿إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾.

وقد جاء اشتقاق كلمة النفاق من كلمة النفق الذى يحفره الأرنب حيث إنه يعمل نفق من فتحتين ولذلك لتفادى الهلاك إذا هوجم، وهذا يجعلنا نسلط الضوء على آلية عمل المنافق والقائمة على ازدواجية المعايير الفاسدة والتى يراها المنافق وسيلة ناجعة من أجل الطفو دائما على سطح الأحداث، وهو بسبيله إلى الوصول إلى أهدافه التى لا تعدو إلا أن يكون خادما للظالمين، يطعن فى المؤمنين ويشكك فى نواياهم ولكن الله يقف له بالمرصاد منتصرا للمؤمنين ومتوعدا إياه بالعذاب الأليم يوم القيامة.

(الّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطّوّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصّدَقَاتِ وَالّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

ولما كان النفاق حالة حاضرة ومستمرة، إلى يوم القيامة ولا نستطيع الخلاص منها، لذلك وجب علينا أن نكون حذرين فى التعامل مع تلك الشرذمة والتى لا تخاف الله ولا تعطى، وزنا لآلام الناس، إنهم قتلة الأحلام والتغيير إنهم لاعقوا أحذية الأنظمة، وقد كانت ثورة ٢٥ يناير المجيدة مفرزة عظيمة، تم فيها إخراج ما فى النفس البشرية من أضغان وأحقاد، ولكنها أيضا أوضحت لنا أن الأنقياء ليسوا قلة، ولكن مساحة الغث قد التهمت جزءا كبيرا من المشهد العام فى مصر.

فبعد الخروج العظيم لجموع الشعب المصرى على اختلاف أطيافه، واختلاط الصيحات بالدموع بالدماء المسالة على أرض ميادين مصر المحروسة، تنفست مصر الصعداء لقرب انبلاج فجر جديد من الحرية والأمل فى مستقبل يسودة العدل والإخاء والمساواة، وإنكسار حلم خدم السلطان من المنافقين بدوام نظام مبارك.

هنا فقط وبسرعة كبيرة كان المنافقون فى وسط الجماهير تبحثون عن سيد جديد يقدمون له الولاءات ولو على حساب الدماء، وقد وجدوا ضالتهم فى جماعة الإخوان المسلمين والذين رأوا فيهم أنهم هم القادمون للجلوس على كرسى الحكم، فتقربوا إليهم وتوددوا إليهم، ولكن كانت

خيبتهم كبيرة عندما وجدوا أن الإخوان ليس لديهم أماكن شاغرة لهم، وأن مرحلة الاستفادة منهم مؤجلة لفترات قادمة، وطوال فترة حكم الإخوان لم نسمع منهم إلا تزلفا واضحا ولم نسمع منهم أى هجوم مباشر على الإخوان ظنا منهم أن الإخوان باقون فى الحكم إلى سنوات بعيدة فى المستقبل.

وما أن بدأت إشارات انهيار حكم الإخوان فى الإضاءة على طريق الثورة المصرية، حتى انتفض هؤلاء مرة أخرى ليلبسوا ثياب الثوار مرة أخرى، وما أن سقط الإخوان حتى أعلنوا ما كانوا يضمرونه من أحقاد، وأن ثورة ٢٥ يناير لم تكن بالنسبة لهم إلا مؤامرة صهيونية دنيئة لدك حصون الوطنية، وشيطنوا كل شيء جميل حلم به الناس بدءا من الديمقراطية وحقوق الإنسان وصولا للعدالة الاجتماعية

ومع مرور الأيام تفرغوا لتصفية الحسابات مع كل من وقف فى وجههم في يوم من الأيام.

وتفتق ذهنهم المريض عن استنساخ الفترة المكارثية فى أمريكا إبان فترة الحرب الباردة، والتى ذاعت شهرتها نتيجة ادعاء جون مكارثى عضو الكونجرس الأمريكى دون دليل على أن هناك عددا كبيرا من الشيوعيين والجواسيس السوفيت والمتعاطفين معهم داخل الحكومة الفيدرالية الأمريكية، وقد أدى ذلك النهج إلى إطلاق حملة ضد الراغبين فى الإصلاح سجنا واعتقالا.

ولكن في النهاية أدي نهجه إلى ضعف مصداقيته وتعنيفه رسمياً بواسطة مجلس الشيوخ، وسمى هذا العام الأسود عام المكارثية، واستخدم المصطلح بعد ذلك للتعبير عن الإرهاب الثقافي الموجه.. وذلك من أجل النيل من الشرفاء وذلك باستغلال حالة العداء القائمة بين النظام الحاكم والإخوان المسلمين للادعاء دون دليل على أن كل من يحاول الإصلاح أو الحديث عن الحقوق المسلوبة هو من الإخوان، فى محاولة منهم للإيحاء للنظام الحاكم أن كل من يطالب بالإصلاح هو إخوانى إرهابى يجب استئصاله.

فياسادة الحكم الجديد، احذروا من هؤلاء الخونة، إنهم أحفاد من خاضوا فى عرض الرسول (ص) زورا وبهتانا، ولن يتورعوا عن إشعال حرائق كبيرة فى المجتمع، من أجل مصالحهم الخاصة، وسيجعلون النظام بأكمله فى مواجهة المجتمع، احذروهم احذروهم.

الشعب القائد الأعلى

الحرب هى ملحمة إنسانية عظيمة تختلط فيها المشاعر والأحاسيس الإنسانية بالدماء والدموع بمشاهد الخراب والدمار فى لوحة سيرياليه، لا تزال تخبرنا بما وصل إليه الإنسان من وحشية لا مثيل لها.

وتتفاوت الدوافع للحروب ما بين التوسع الاستعمارى القائم على السلب والنهب، وما بين حق الدفاع عن الأرض والعرض، وهى تمثل كذلك طبقا «لكلاوزفيتز» « عمليات مستمرة من العلاقات السياسية ولكنها تقوم على وسائل مختلفة « حيث اعتبر أن الحرب ضرورة إنسانية تحتكم إليها البشرية لضمان صيرورة العلاقات فيما بين شعوبها عندما يعتريها الجمود وانسداد الأفق السياسى.

وقد مثلت حرب السادس من أكتوبر ملحمة إنسانية عظيمة اختلطت فيها آمال هذا الشعب بتحرير الأرض بدماء أبنائه فى التحام رائع بين الشعب وقواته المسلحة، من أجل تحقيق النصر.

وقد كانت أيضا وسيلة» لإزالة الجمود العسكرى بكسر وقف إطلاق النار يوم ٦ أكتوبر وبدء العمليات العسكرية» طبقا للتوجيه الاستراتيجى الموجه للقوات المسلحة، بعد أن استقرت القوى العظمى على تهدئة الأوضاع فى الشرق الأوسط بعد حرب ٦٧ وما يترتب على ذلك من سلب لحقوقنا فى تحرير الأرض.. بل وإعطاء شرعية دولية لاحتلال بلادنا.

وما بين ضرورات الحرب وصيرورة العلاقات السياسية، سيظل انتصار السادس من أكتوبر علامة فارقة فى التاريخ المصرى القديم والحديث، حيث أرسى قاعدة جديدة فى العلاقة بين الشعب وقواته المسلحة فلأول مرة فى التاريخ المصرى وعلى الرغم من تسمية رئيس الدولة بالقائد الأعلى للقوات المسلحة إلا أن القوات المسلحة لم تكن تعنى لها تلك التسمية إلا الامتثال لشرعية النظام المستمدة من الشعب صاحب الحق الأصيل والوحيد فى الشرعية.

وتأتى احتفالات هذا العام بمذاق خاص، ففى مشهد لن ينساة الشعب وقواته المسلحة، وقفت طوابير العرض العسكرى أمام الرئيس السيسى، لتعلن الولاء للشعب القائد الأعلى للقوات المسلحة فى تقليد غير مسبوق، إيمانا واعترافا من القوات المسلحة بأن الشعب هو صاحب الشرعية وأن قواته المسلحة مستعدة للتضحية والفداء من أجله.

فتحية للشعب المصرى العظيم صاحب انتصار أكتوبر وفى طليعته قواتنا المسلحة، التى ستظل دائما هى القلب النابض والعين الساهرة لهذا الشعب.

مصر . . طبيب المريض الواحد

يخطئ من يظن أنه لا مقاربات بين مهنة الطب والسياسة، حيث يهتم الطب بسلامة الجسد البشرى والحفاظ عليه من الاعتلال، ناهيك عن التدخل الجراحى المباشر عندما يستدعى الأمر ويكون المريض على شفا الموت وهو تقريبا الفعل السياسى على الأرض حيث تكون مهمة السياسة الحفاظ على سلامة المكتسبات الاستراتيجية للدولة من كل الأخطار التى تحيط بها، ناهيك عن التدخل العسكرى فى أحيان كثيرة من أجل الحفاظ على تلك المكتسبات درءا للأخطار المحيطة بالدولة.. وهذا يعتبر صلب الاستراتيجية العامة للدولة المصرية منذ نشأتها فى غابر الأزمنة وحتى الآن.. علاقة الطبيب والسياسى.

لذلك عندما كشفت وثائق « ويكيليكس» عن محضر إجتماع سرى جرت وقائعه قبل ثورة ٢٥ يناير بين رئيس الوزراء القطرى السابق « حمد بن جاسم « ومسئول إسرائيلى، تحدث فيه « حمد بن جاسم « موصفا الدور المصرى فى القضية الفلسطينية قائلا « مصر طبيب لديه مريض واحد ـ القضية الفلسطينيةـ وتريد إطالة مرضه لتبقى قائد المنطقة « .. فإنه بذلك قد أعطى للبعد السياسى بعدا مرضيا وتوصيفا للأسف يبدوا أقرب للواقع السياسى المصرى خلال سنوات حكم مبارك، فبعد أن كانت الخريطة العربية من المحيط للخليج تمثل مجالا واسعا لحركة السياسة المصرية التى تحافظ كما الطبيب على الجسد المصرى ناهيك عن الجسد العربى ككل.

ولكن ما حدث من تراجع واضح للسياسة المصرية على الساحة العربية والشرق أوسطية بداية من عهد السادات وحتى نهاية عهد مبارك، قد قزم دور « الطبيبـالسياسى « وأصبحت حدود الجسد السياسى المصرى الخارجية هى حدود القضية الفلسطينية، والتى بدورها تقطع جسدها إلى قسمين تصارع عليهما الجميع من أجل مزيد من تقزيم للدور السياسى المصرى، وهو ما تجلى فى مزاحمة الدور القطرى للدور المصرى على جثة المريض الفلسطينى، وهو ما حول قطر من شقيق إلى عدو يحاول بشتى الطرق أن يأخذ دور الطبيب المصرى فى الصراع الإسرائيلى ـالفلسطينى، بل محاولا ضرب استقرار مصر ذاتها للانفراد بالمشهد العام وهو ما ذكره « حمد بن جاسم « قائلا « إن الدوحة تتبنى خطة لضرب استقرار مصر بعنف وإن قناة الجزيرة ستلعب الدور المحور لتنفيذ هذه الخطة، عن طريق اللعب بمشاعر المصريين لإحداث هذه الفوضى».

هكذا كان توصيف لحالة الطبيبـالسياسى المصرى قبل ثورة ٢٥ يناير المجيدة، ولكن ماذا حدث بعدها ؟ وهل حدث تطور جديد يعيد لدور الطبيبـالسياسى دوره الطبيعى على الساحة العربية وقضيته المركزية الفلسطينية؟ أم مزيد من التدهور إلى حد الانكفاء الذاتى لتضميد جراح

طالت الطبيب نفسه؟؟؟؟؟

للإجابة عن هذه الأسئلة يبدو أننا لن نجد صعوبه كبيرة في التوصيف، واستنتاج ما حدث لدور الطبيب-السياسى فبعد قيام الثورات الربيع العربى وفى مقدمتها ٢٥ يناير، فقد حدث تدهور شامل لمنظومة الأمن العربى الذى أصبح مستباحا لكل القوى الغربية والعالمية، وأصبح الحديث عن جسد قابل للشفاء والتئام الجروح محل شك، ولم يعد للطبيب-السياسى المصرى رؤية واضحة لطبيعة دوره فيما يجرى على الساحة العربية، وأصبح اللاعبون كثيرين على الساحة ومنهم من يريد ليس فقط تقزيم للدور المصرى بل محاولة لإلهائه فى محاولة لتشكيل الوضع العربى والإقليمى بعيدا عن مصر.

وهو ما تجلى فى التحالف القطرى-التركى والذى يبذل مجهودا كبيرا وواضحا فى محاولة لنزع المريض الفلسطينى من بين يدى الطبيب-السياسى المصرى، حتى يتم حصار مصر وتقزيمها داخل حدودها بعد أن تقلص دورها على طول المساحة العربية ففى محاولة تركيا لتطبيع العلاقات وبدء المصالحة التركيه-الإسرائيلية، وضعت ثلاثة شروط قبلت إسرائيل منها شرطين وهما الاعتذار وتعويض ضحايا السفينة مرمرة التى كانت متجهة لغزة لفك الحصار، ولكنها رفضت الطلب الثالث وهو طلب تركيا بأن تكون لها الولاية على قطاع غزة مستغلين حالة الصدام بين الدولة المصرية وحركة حماس فى القطاع.

هكذا تقزم دور الطبيب-السياسى وأصبح الصراع على آخر مرضاه، هو السبيل للقضاء على نفوذه الذى يبدو أن الجميع يتباكى عليه، وهم لم يبذلوا جهدا طيلة عشرات السنين فى الحفاظ عليه، ولن يشفع لهم التمدد على طول خارطة العالم الإسلامى وراء تحالف سعودى الذى لن يجدى نفعا.

لذلك فإذا كانت القيادة المصرية راغبة فى أن يكون لمصر دور أكبر فى المنطقة، وأن لا تفقد مريضها الفلسطينى، فيجب على الطبيب-السياسى المصرى أن يعى طبيعة الصراع فى الزمن الجديد، وأن يعتمد آليات عمل متطورة ومناسبة محتواها أن الاعتماد والتحصن وراء القضية الفلسطينية لم يعد مجديا، بعد خروج كل القوى العربية المؤثرة ولو مؤقتا من خريطة التأثير العربى، ودخول دول هامشية كقطر وخارجية كتركيا كعاملين مؤثرين فى تشكيل طبيعة الصراع فى المنطقة.

وإذا كان مشرط الطبيب لازم فى حالات معينة، فإن استخدام السلاح كأدوات للسياسة يصبح لازما وجاهزا للاستخدام وفورا للحفاظ على ما تبقى من بقايا سيادة ونفوذ..

فهل هناك من يسمع ويعى.. قبل أن نجد من يملى علينا شروط بعد خواء العيادة من المرضى..

مطلوب نائب محفز

كثيرا ما كانت مادة الكيمياء فى سنوات الدراسة الأولى مصدر إلهام وخيال، حيث تعلمنا أنها « العلم المركزى» الذى يربط العلوم الطبيعية، ومع ذلك لا نجد لها أثرا يذكرعندما نحاول أن نستدل بها على أى نشاط إنسانى مرتبط بالعلوم الإنسانية، لاختلاف الخواص البشرية ودلالاتها عن خواص المواد والمركبات العضوية، ولكن يظل « العامل المساعد « أو « العامل المحفز « وهوعامل يساعد على التفاعلات الكيميائية زيادة أو نقصانا ولكنه يبقى دون تغير كيميائى فى نهاية التفاعل، هو الاستدلال الأقرب للعلوم الإنسانية، حيث دائما ما تحتاج المواقف الإنسانية إلى عوامل محفزة فى بعض الأحيان لتزيد أو تنقص، مثل اندلاع حريق مفاجئ فى إحدى العمارات فنجد أن هذا العامل قد قوى أواصر التعاون وأوجد أحاسيس ومشاعر كانت محتاجة لتفعيل، ولكنه لم يلغِ الأثر الإنسانى الموحد لهذا الكيان المتعرض للحريق.

وتبقى العوامل المحفزة حاضرة فى كل مناحى الفعل الإنسانى، فى أحيان كثيرة كفعل ثانوى، ولكن فى أحيان أخرى يتطلب أن تكون متواجدة وحاضرة بقوة، وذلك لبطء الإيقاع، والانتظار الطويل لظهور نتائج تفاعل إنسانى مطلوب إنسانيا وجماهيريا، وتعتبر الثورات « عامل محفز» جاء ليسرع من إيقاع تفاعلات مجتمعية لإيجاد بديل جديد يكسر حالة الجمود التى أصابت المجتمع ككل.

وقد كانت ثورة ٢٥ يناير وما أعقبها من ٣٠ يونيو عاملين محفزين للمجتمع نحو إيجاد تسارع لعناصر تفاعلية جديدة تحيى الأمل فى نفوس الجماهير، لكن يبدو أن ذلك العامل رغم قوتة إلا أنه بطبيعته لا يتدخل فى طبيعة المكونات المكونة للمجتمع، وهو ما لاحظناه من مستوى التغير الحادث حيث وإن كان جاء كأثر لعملية تحفيز قوية إلا أنه لم يكن على مستوى الأمل المعقود عليه، فمستوى الأداء السياسى والمجتمعى ليس على المستوى المطلوب منة بعد ثورتين، وهو ما جعل آمال وأمنيات الشعب المعقودة على التغيير مصوبه بطريقة مباشرة لرئيس الجمهورية لإحداث تغييرات جذرية فى كافة مناحى الحياة، بعدما فقد الأمل فى « عوامل محفزة « أخرى للتغيير مثل الأحزاب السياسية الكرتونية وانتخابات تشريعية رأها فى أحيان كثيرة غير مفيدة لم تفرز أملا جديدا للتغيير.

وأصبح منصب رئيس الجمهورية محملا بأثقال وأوزار تفاعل إنسانى غير مكتمل وجد بعد « عامل ثورى محفز « أوضاع ليست معبرة بالضرورة عن مجتمع يريد تغييرا حقيقيا.

لذلك نجد أن أداء الرئيس السيسى لا يختلف كثيرا عن سابقيه حيث إنه مطالب بفعل كل شيء بدءا من إدارة شئون الرئاسة ومتابعة الأوضاع الداخلية والخارجية، وحتى حضور الاحتفالات والكرنفالات.. فى مشهد مكرر من مشاهد رئاسية مكررة سابقة على ثورة ٢٥ و ٣٠ يونيو، وهو مشهد يفقد الأمل فى إيجاد بدائل جديدة ومعطلا أكثر منه باعثا على الأمل فى إحداث نقلة نوعية فى كافة مناحى الحياة، ناهيك عن بعث إشارات سلبية لكافة المؤسسات والوزارات فى أن التغيير ما زال بعيدا.

وعلى الرغم من أن الرئيس السيسى، قد قام بتعيين معاونين مساعدين له، لمساعدته فى إدارة البلاد، إلا أننا لم نسمع عنهم شيئا إلا فى إطار تنفيذ تعليمات الرئيس ناهيك على أنهم فى معظمهم كبار السن وأكبر من الرئيس نفسه، مما يعطى انطباع بتكرار تكلس السلطة كما فى عهد مبارك.. لذلك إذا أراد الرئيس أن يكون أكثر حيوية فى إدارة البلاد بعيدا عن أمور تستهلك منه الوقت الكثير، فأنا أرى أنه محتاج إلى « عامل محفز « يعتبر بمثابة تثوير للأداء الرئاسى ومصدر للتفاؤل والإطمئنان، وهذا العامل يكون بتعيين « نائب للرئيس « يكون محملا بمسئوليات بعينها بعيدا عن فكرة المساعد والمعاون، بعيدا عن فكرة النائب التى سادت فى فترة الرئيس عبدالناصر أو الرئيس السادات، فنحن نريد « نائبا محفزا « يعمل على تسريع الإيقاع الرئاسى، ودافعا لأداء الرئيس وباعثا بإشارات إيجابية بأن هناك من يراقب غير الرئيس ويمتلك سلطات حقيقية للمحاسبة فى إطار منظومة عمل جديدة تبعث بالحيوية الحقيقية بجانب خبرات نراها ضرورية لضبط الإيقاع.

فهل تحدث تغييرات جذرية فى العام الجديد ٢٠١٦، منبعها وجود « عوامل محفزة « جديدة تدخل فى مفاصل الحياة السياسية والاقتصادية الأمل فى التغيير المنشود، وتسرع من أداء الدولة ككل لتلبية احتياجات الشعب ؟؟ وهل يكون من ضمنها « نائب محفز « لأداء رئاسة الجمهورية ؟ وحتى يتفرغ الرئيس لمهام نراها ضرورية فى ظل تشابك الأحداث من حولنا وقرب النيران من الحدود ؟؟

وإذا كانت الأمانى ممكنة فنتمنى أن يكون هناك « نائب « يمثل الأمل فى نفوس شباب ثاروا لإحداث تغيير، بجانب خبرة نراها ضرورية، فهل ما نتمنى يصبح بعيدا عن التحقق ؟؟.

الربح فوق الشعب

« تسعة أعشار النصب فى التجارة « جملة مثلت نهاية حوار ورجاء من صديق ـ أعتز كثيرا به ـ بأن تكون محورا لمقال جديد، وعلى الرغم من توافقها مع طبيعة الحوار الذى طال نواحى التلاعب والغش فى المنظومة الرأسماليه العالمية، إلا أنها اصطدمت بما حفظته الذاكرة لنص دينى مشابه عن الرسول (ص) « تسعة أعشار الرزق فى التجارة « وهو ما جعلنى أتردد قليلا فى الكتابة حيث إن الاصطدام بالثوابت الدينية فى مجتمع شرقى يقدس النصوص هو أشبه بالعبث بقنبلة نووية، خصوصا أن النصوص تحميها فى الظاهر المؤسسة الدينية، ولكن فى الباطن تحميها قوة السلطة والمال التى تريد بقاءً طويلا فى الحكم، وهو ما استدعى منى البحث عن صحة هذا النص فوجدت أن هناك إجماعا على ضعف إسنادة « لجهالة نعيم بن عبد الرحمن «.

هنا وجدت أن « تسعة أعشار النصب فى التجارة « مدخلا كبيرا للحديث عن تيار واسع بدأ يكتسح الساحة العربية ومبشرا بزمن « الليبرالية الجديدة « والتى كانت محورا لكتاب « الربح فوق الشعب ـ الليبرالية الجديدة والنظام العولى « لــ « نعوم تشومسكى «، والذى عرفها بأنها « هى النموذج السياسى والاقتصادى، وهى تتعلق بالسياسات والعمليات التى تتيح لحفنة من الشركات الخاصة السيطرة على أكبر حيز ممكن من الحياة الاجتماعية كى يتم تحقيق أقصى الأرباح « وتؤدى إلى « زيادة هائلة فى عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية، وزيادة ملحوظة فى شد الحرمان .. «.

وتحميها سلطة تؤمن بما قاله « ميلتون فريدمان « فى كتابه « الرأسمالية والحرية « « بأن جنى الأرباح هو جوهر الديمقراطية، وعليه فإن أى حكومة تنتهج سياسات معادية للسوق هى حكومة معادية للديمقراطية «.

هكذا لخصت « الليبرالية الجديدة « نفسها فى تحقيق الربح أيا كانت الوسيلة، حتى ولو كانت على حساب المساواة الاجتماعية والاقتصادية التى ستجعل الناس فى فقر وعوز، وهو ما دعا كثيرا من الدول إلى رفضها ووضعوا نظاما حكوميا يتيح للدولة أن تكون منافسا للرأسمالية داخل المجتمع وذلك لصالح الشعب، ورفضا لكامل النموذج الأمريكى الرأسمالى، مثل اليابان وتايوان ومجموعة النمور الآسيوية، مما جعلهم يحققون طفرات اقتصادية كبيرة رفعت من مستوى المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين طبقات شعوبهم.

ولكن ماذا عن منطقتنا العربية هل طالتها الليبرالية الجديدة ؟ يبدوا أننا تعدينا تلك المرحلة فــ « الليبرالية الجديدة « أصبحت واقعا ملموسا لا مراء فى ذلك، فهى التى قادت الحرب على العراق ٢٠٠٣ ومارست فعلها الاقتصادى الخبيث الذى أسلم العراق لمرحلة من النهب المنظم لم يسبق لها مثيل فى تاريخ أى دولة، وهى التى تظهر بطريقة أو أخرى منذ تسعينييات القرن العشرين وبعد حرب « تحرير الكويت « عن طريق روشتة إصلاح لــ « صندوق النقد الدولى « ممثلة فى سياسات « الخصخصة « ذاك النهج المعبر عن الليبرالية الجديدة المعروف بـــــ» التاتشرية ـ الريجينية « نسبة لدعاتها البارزين رئيسة الوزراء البريطانية والرئيس الأمريكى ـ السابقين ـ، والتى عبرت أيضا عن ضعف واضح للدول العربية أمام الألة العسكرية الغربية الحامية لليبرالية الجديدة، والتى رات أن التماهى مع النظام الرأسمالى الغربى هو الحل الأكيد لخروج تلك الدول مما تعانيه من أزمات اقتصادية وإجتماعية، وأصبح الحديث علنا سواء من دعاتها من رجال الأعمال وصولا لمسئولى الحكم فى تلك الدول، وخاصة بعد ثورات الربيع العربى والذى ظهر جليا أنه كانت مناسبة لفرض الليبرالية الجديدة أسلوبها كحاكم ومخرج أساسى للمنطقة من عثرتها الاقتصادية.

وهو ما لم نستغربه فى انتهاج حكومات ما بعد تلك الثورات النموذج الرأسمالى كحل وحيد، وإعتمادها سياسات تقشف قائمة على التحرر من سياسات الدعم الحكومى المقدمة للشعب، كمقدمة للنهوض الاقتصادى حسبما بشرت به « الليبرالية الجديدة «.

وأصبح طابور الداخلين فى نطاق « الليبرالية الجديدة « طويلا، بدأ بالعراق وحديثا الخليج العربى، والذى بدأ يتبع سياسات تقشف وخفض للدعم الحكومى تمهيدا لدخولة نادى « التاتشريةـالريجينية «، كما بشر بها ولى ولى العهد السعودى « محمد بن سلمان « فى حديثه مع مجلة « الإيكونوميست «.

وهل نحن مجبرون على اتباع تلك السياسة ؟ أظن أن الإجابة للأسف « نعم «، فنحن فى أضعف حالتنا العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، ناهيك عن فقدان الاستقلال الوطنى بدرجة أو بأخرى، وعليه فتنفيذ الإملاءات الغربية ومنها الاقتصادية أصبح مخرجا ملائما للحكومات العربية من ذلك المأزق.

وماذا عن مصر؟ إن مصر ليست حدثا منفردا عما يجرى فى المنطقة العربية، بل هى قطعت شوطا كبيرا فى تطبيق نموذج « التاتشرية ـ الريجينية « المعروف إعلاميا فى مصر « بالخصخصة « منذ تسعينيات القرن الماضى والذى كان سببا لاندلاع ثورة ٢٥ يناير، لإهماله جانب المساواة

الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع وظهور طبقة رأسمالية برعاية فاسدة جعلت من الربح والتجارة تسعة أعشار النهب، والعشر المتبقى يبحث عنه الشعب فى» صفائح الزبالة « وسط طوابير لا متناهية للبطالة بين صفوف الشباب، ويبدو أن الوضع لم يتغير كثيرا بعد مرور ٥ سنوات من عمر الثورة، فهناك إصرار واضح على المضى فى تطبيق سياسات التقشف ورفع الدعم الحكومى نهائيا كمخرج من الأزمة الإقتصادية طبقا لشروط « الليبرالية الجديدة « دون وضوح لرؤية اقتصادية محددة توضح سلوك الدولة الاقتصادى، هل ستتبع نموذج دول شرق أسيا فى النهوض الاقتصادى القائم على تدخل الدولة كمنافس فى النشاط الإقتصادى والذى أدى إلى نهضة دولة ؟ أم النموذج الجنوب أمريكى الذى ترك الليبرالية الجديدة تعيث فسادا وإفقارا للدولة ؟.

الإجابة متروكة للدولة لتجيب عن تلك التساؤلات المشروعة التى يطرحها الشارع بعيدا عن استخدام لغة دينية تبريرية حتما سيلجأ لها النظام السياسى إذا أراد أن يمضى قدما فى تلك السياسة ضاربا بعرض الحائط بكل التحذيرات من « الليبرالية الجديدة « والتى لن تنفعة حين تزداد حالات عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية حتى لو كان النص الدينى المقدس صحيحا وليس ضعيفا، فالفقر والجوع تسقط أمامهما كل النصوص والربح لن يكون أبدا فوق الشعب دون مراعاة المساواة الاقتصادية والاجتماعية.

فهل هناك من يسمع ويعى؟

الميسترال . . تغيير عقيدة

تُعرف العقيدة العسكرية « بأنها الفكرة الأساسية للجيش « طبقا للمؤرخ العسكرى (جارى شيفيلد) .. وهى « النظام الأساسى المعتمد من الدولة لمجمل الآراء العلمية حول طبيعة الحرب الحديثة واستخدام القوات المسلحة خلالها، وهى تتكون من شقين أساسيين، شق اجتماعى سياسى، وعسكرى تقنى « طبقا للمفهوم الروسى، وهى « الإطار المنظم للعمل خلال حقبة زمنية محددة نظرا لطبيعة الصراع الدائر فى ذلك الوقت ومدى استعداد القوات العسكرية له وطرق الاشتبالك المفروضة من أجل إتمام المهمات « طبقا للمفهوم الكندى.

من خلال التعريفات السابقة يتبين لنا أن العقيدة العسكرية هى الفكرة الأساسية والتوصيفية للحالة العامة للسياسة الخارجية للدولة والحامية للإطار العام لمفهوم الأمن القومى وحدود التدخلات العسكرية فيه.

ومع ذلك فإن العقيدة العسكرية ليست جامدة وثابتة على مدار الحقب الزمنية، وإن كانت تتحكم فيها ثوابت التاريخ والجغرافيا، وهذا ممتد على مدار التاريخ المصرى منذ قديم الأزل، فالدولة المصرية القديمة أول من وضعت اللبنات الأولى لمفهوم الأمن القومى وبالتالى بنت علية عقيدتها العسكرية والتى ركزت على حماية حدود الدولة المترامية الاطراف وكذلك الوقوف ضد تمدد القوى الأخرى على حساب مصالح الدولة وشعبها، ولكن مع أفول نجم الدولة الفرعونية القديمة ودخول مصر تحت الاحتلال الأجنبى طيلة أكثر من ثلاثة ألاف عام، وبالتالى ترك للمحتل تحديد عقيدته العسكرية التى تتلاءم مع ظروفة التى لم يراعى فيها الشعب المصرى وطموحاته الخاصة.

ومع بداية ثورة ٢٣ يوليو واستعادة المصريين لقيادة أنفسهم مرة أخرى، فقد بدا أن العقيدة العسكرية المصرية لم يطرأ عليها أى تغيير كبير من الناحية التاريخية، ولكن يبدو أن المساحة الجغرافيه قد زادت اتساعا، فزاد عليها التوجه غربا، بعدما كان التوجه شرقا بالأساس وذلك لتبنى مصر أيديولوجية القومية العربية وهو ما استدعى أن تشمل العقيدة العسكرية مفاهيم جديدة وتوصيفا دقيقا، واستعدادات خاصة وهو ما تجلى فى التدخل فى الأزمة اليمنية عقب ثورتها.

ولكن يبدو أن صدمة التورط فى الأزمة اليمنية وما أعقبها من هزيمة ١٩٦٧ مرورا بحرب الاستنزاف ثم حرب أكتوبر المجيدة، قد أوجد عقيدة عسكرية جديدة حذرة وربما متخوفة أكثر من اللازم، ترى أنها غير مطالبة بالخروج خارج الحدود والاكتفاء ببناء جيش قوى قادر

وفاعل فى محيطة الأقليمى، وهو ما أوجد فترة من الهدوء رأها البعض أنها غير مناسبة لطبيعة مصر التاريخية والجغرافية، خاصة مع استدعاء دول الخليج لمصر فى « حرب تحرير الكويت « والذى أظهر أن العقيدة العسكرية المصرية وجدت نفسها فى مأزق تحديد العدو وبالتالى ما هى حدود التدخل ؟

وأيضا مأزق التعاطى مع تبعات حرب « تحرير الكويت « و» أحداث الحادى عشر من سبتمر « التى أوجدت قوات وقواعد أجنبية على الأرض العربية، وتكدس السلاح الأمريكى فى إسرائيل العدو اللدود.

حتى تفاجأت العقيدة العسكرية المصرية بعواصف ربيع الثورات العربية التى أطاحت بالنظام الليبى بقوة حلف الناتو، والحرب الأهلية فى اليمن والتى استدعت تدخلا عربيا بدعم غربى، والحرب الأهلية فى سوريا والتى تورطت فيها كل القوى الإقليمية والدولية، ناهيك عن خروج العراق كقوة مؤثرة وفاعلة تحت وطأة حربها ضد الإرهاب.

هنا فقد بدا أن مصر مطالبة بتغيير عقيدتها العسكرية قصرا لتتماشى مع المتغيرات العربية والإقليمية والدولية، والتى وجدت نفسها فى مواجهة عدو غير تقليدى وهو الإرهاب، وهو ما استجابت له مصر سريعا عبر إنشاء « قوات للتدخل السريع « محمولة جوا تطال أى مكان على المساحة الجغرافية الخارجية لحماية الأمن المصرى، وقيام مصر بضربات جوية مؤثرة فى ليبيا ضد الجماعات الإرهابية دون الانتظار لقرار أممى.

ثم الإعلان عن صفقات أسلحة ضخمة ليس فى عددها فقط ولكن فى نوعية هذا السلاح الذى يبقى مدى تأثيره أكبر من حدود الدولة أو الاكتفاء بدور الحارس فقط للحدود، ومن هذه الأسلحة شراء حاملتى طائرات هليوكوبتر « ميسترال « والتى أثبتت يقينا أن مصر قد غيرت فعلا عقيدتها العسكرية، أو أن هناك تغييرا جذريا فى تلك العقيدة، وأصبح الإرهاب بجانب التدخل الايرانى يمثلان حدودا جديدة لتلك الحاملة وهو ما يطرح تساؤلات يبدو أننا لن نجد لها إجابة واضحة الآن: هل صفقات السلاح تشى عن تدخلات مصرية فى منطقة الجوار الليبى ؟؟ أم أن مساحة الحركة الواسعة لقدرات حاملات الطائرات « الميسترال « ستدفع مصر بعقيدتها العسكرية الجديدة للخروج لمساحات جغرافية جديدة خارج حدودها لحماية الأمن المصرى والعربى ؟؟ أم انها ستضطلع بمهام جديدة على كامل مساحة الإقليم ؟؟ وما هى حدود تماهى العقيدة الجديدة بسلاحها النوعى مع توجهات القوى العالمية والإقليمية فى الصراع على المنطقة

؟؟ أم أنها بداية جديدة لزمن جديد ؟؟

ولكن يبقى التساؤل الأبرز هل وضعت العقيدة الجديدة تصوراتها لطبيعة الصراع الدائر حول مصر، ومدى تأثيرة على الشق الاجتماعى، خاصة أن العدو غير التقليدى له امتدادات فى الداخل المصرى، وكذلك مدى جاهزية القوة العسكرية للتعاطى معها ؟؟

للإجابة عن تلك التساؤلات جميعها، فيجب علينا الانتظار وترقب سرعة الأحداث، وربما ننتظر حتى تدخل « الميسترال « الخدمة الفعلية فى أوائل ٢٠١٦، ونرى حدود الإبحار خارج الحدود، وما طرأ من تغييرات على العقيدة العسكرية المصرية فى القرن الواحد والعشرين.

الفئة الباغية . . مَنْ قتل الشباب ؟

الفئة الباغية، هى فئةٌ خرجت على الإجماع العام، والتى لا يكون لديها من الأسانيد والحجج القوية لتبرير ذلك الخروج، إلا مصالحها الشخصية.

وهذه الفئة حذرنا منها رسول اللّٰه (ص) عندما قال: « ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» فى بشارة نبوية للصحابى الجليل « عمار بن ياسر » بأنه على الحق ويقاتل مع الحق– فى مواجهة فئة باغية خرجت على الإجماع– مع جيش الإمام على فى مواجهة جيش الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان

ولكن من قتل « عمار بن ياسر » الذى فرق به الرسول (ص) بين الحق والبغى؟ وهل تم أخد قصاص دمه من قاتليه؟ وماذا تبقى من عمار وسيرته بعد كل هذه السنوات الطوال؟

قتل عمار فى موقعة « صفين » بين جيش الخليفة الإمام على بن أبى طالب، وجيش الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان على إثر مطالبة « معاوية » بدم قتلة الخليفة عثمان بن عفان كسبب للمطالبة بعرش الخلافة ككل، وما إن قتل عمار بن ياسر فى المعركة وهو فى جيش الإمام على، حتى وقف الجميع، فقد تبين لهم أن من يقتل عمارًا فهو من الفئة الباغية التى حذر منها الرسول (ص) وهو ما انطبق على جيش معاوية، وهنا أيقن معاوية أنه قد خسر المعركة، وعلى الرغم من أنه من رواة الحديث وسمعه من الرسول (ص) إلا أن بريق ذهب الخلافة والملك العضوض قد دفعه إلى أن يتوجه إلى جنود جيشه قائلا كما ذكر شيخ الإسلام « ابن تيمية» فى الفتاوى (٧٦/٣٥): «تأول معاوية أن الذى قتل عماربن ياسر هو الذى جاء به دون مقاتليه « فما كان من الإمام على إلا أن رد عليه متهكمًا « فنحن إذًا من قتلنا حمزة ولا ريب» فى إشارة إلى قتل عمه حمزة بتحريض من أم معاوية»هند بنت عتبة».

وهكذا استمرت الحرب ودفن عمار دون أن يأخذ أحد بثأره، ولِمَ لا؟ فقد انتصرت الفئة الباغية،

ولكن سيرة « عمار « ظلت باقية برهانا على صدق نبوة هادية مرشده إلى الحق، تفرق بين الحق والبغى، بين الإيمان بالمبدأ وبين الإيمان بالمصالح.

ولكن للأسف انقسم على جثة «عمار» العالم الإسلامى بين فريقين عظيمين تراشقا بالألفاظ والحروب، كل يدافع عن نفسه على خلفية حديث الفئة الباغية، بين شيعة وسنة.

ولكن بقى فريق ثالث أمن بأن «عمار» على حق فى المطلق، وأن الدفاع عن الحق فى الوجود والحرية والكرامة الإنسانية لا يتطلب بالضرورة الانحياز لطرف سياسى دون الآخر.

إنهم شباب مصر الذى أمن بحق بلادهم في التحرر من أسر عبودية الحكم الظالم ومن سيطرة الطغمة الحاكمة من الرأسماليين والانتهازيين الذين ألهبوا ظهور الناس بسياط الظلم والجبروت.

إنهم الذين أمنوا بربهم وبوعده عندما قال « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. « فغيروا ما بانفسهم فغيروا وجه مصر، وأزالوا نظاما فاشيا ظالما، وسالت دماؤهم على أرض ميادين المحروسة فاستحقوا بشارة الرسول (ص) لجدهم عمار بن ياسر بأنهم ستقتلهم الفئة الباغية، الفئة التى انتصرت عليهم وتنكرت لمقتلهم وقالت « قتلهم من أرسلهم» ووصموهم بالتآمر والخزى والعار ولِمَ لا؟ وقد دانت لهم الدولة مرة أخرى،

وبعد مرور أكثر من أربع سنوات ما زال « عمار الشباب « ينتظر القصاص.

انقسمت على جثتة كل القوى السياسية تريد جمع الغنائم، وضاع المعنى والحق، وانتصر أصحاب البغى.. الذين أنكروا وعد الله وبشارة نبيه للشباب، بأنهم هم الغالبون.

ويبقى سؤالٌ يحيرنى ونحن نعيش أحداث الانتخابات البرلمانية، لماذ لم أسمع أحدًا من المرشحين يطالب بفتح تحقيق فيمن قتل الشباب؟ من قتل الحق ومن انتصر للباغية؟ إننى لا أنتظر إجابة من أحد فصمتكم قد أعلن انحيازكم.

واعلموا أن سيرة عمار والشباب باقية وشاهدة عليكم.

مطلوب مراجعة قومية

فى مشهد احتفالى كبير أعلن فى تونس ومن خلال المؤتمر العام الأول لــ»حركة النهضة التونسية» فرع الإخوان المسلمين فى تونس عن تبنيها العمل المدنى وفصل الجانب الدعوى عن الجانب السياسى وذلك بتحويل الحركة إلى حزب سياسى يحمل نفس اسم الحركة.

وهو حدث تاريخى بكل المقاييس حيث يضع جماعة الإخوان المسلمين عند أعتاب أول مراجعة حقيقية لأفكار الجماعة فى ظل تحولات تاريخية تطال العالمين العربى والإسلامى وقد دشن ذلك التوجه رئيسها « راشد الغنوشى » الذى قال « إن النقد الذاتى شرط فى عالم الحداثة، و كما كرسنا هذا فى تاريخنا سنرسخه فى مؤتمرنا العاشر الذى ينتظر من التونسيين الكثير».

و كذلك قول نائب رئيس الحركة «عبد الفتاح مورو» « إن الحركة ستتجدد لتجابه عصرها .»

وأعتقد أنه وإن كانت تلك المراجعة الإخوانية فى تونس فى ظاهرها تخص تونس دون غيرها إلا أنها حتما ستؤثر على الداخل المصرى.. وهو ما ستنبئنا به الأيام القادمة وإن كنت أعتقد أن ذلك التأثير سيأخذ وقتا طويلا حتى يأتى أثره نظرا للظرف التاريخى الذى تعيشه الجماعة فى مصر.. وهو ما نتركة لقادم الأيام ليجيب عنه خبراء فى الشأن الإخوانى بشقية الدعوى والسياسى.

لكن تلك المراجعة الإخوانية التونسية ليست بغريبة على الداخل المصرى، فهذه المراجعة لها تاريخ يحمل علامة جودة مصرية بامتياز، فعند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت مصر تموج بتيارات سياسية ودينية كثيرة منها من تماهى مع الثورة منذ قيامها ومنها من اتخذ منها موقفا ارتيابيا باعتبارها انقلابا عسكريا لن يقيم حياة ديمقراطية ومن هنا ناصبتها العداء ودخلت فى صدام مع النظام الجديد، الذى أودى بها إلى غياهب المعتقلات، ومن السجون حدثت أول مراجعة سياسية قامت بها معظم التيارات الشيوعية تحت وطأة ما قام به نظام يوليو من أعمال تحديثية على المستوى المجتمعى و كذلك تأميم قناة السويس.

وهو ما جعل تلك الفصائل تطرح تساؤلا « لماذا نعادى نظام عبدالناصر ما دام يحقق الحد الأدنى من الاشتراكية « وبعد شد وجذب بين التنظيمات حدث التصالح وانخرط الشيوعيون فى العملية السياسية للنظام الجديد، وهكذا تمت أول مراجعة من رحم الأزمة فى التاريخ السياسى المصرى الحديث.

ثم جاءت فترة بداية التسعينيات من القرن الماضى والتى شهدت حالة حرب مسلحة بين تيار « الجماعة الإسلامية « ونظام مبارك والتى سقط من خلالها آلاف القتلى والجرحى، والتى لم تجن منها مصر إلا التراجع الاقتصادى، ولكن ومع قرب نهاية التسعينيات فقد بدا أن الدولة قد انتصرت فى حربها، وزج بأعضاء الجماعة الإسلامية إلى السجون، وهنا ومع تدخل أطراف عديدة على خط الأزمة فقد بدا أن الجماعة الإسلامية باتت مقتنعة بمراجعة أفكارها، وهو ما أنتج تلك المراجعات الشهيرة للجماعة والتى من خلالها تم الإفراج عن أعضائها الذين انخرطوا فى العمل السياسى المدنى ووفق آلياته خاصة بعد قيام ثورة ٢٥ يناير، التى أنتجت أعضاء لها فى مجلس الشعب المصرى ٢٠١٢

ولكن ومع اندلاع ثورة ٢٥ يناير ومابعدها فى ٣٠ يونيو فقد بدا أن القوميين، أكثرهم قد أصبحوا ينظرون إلى نظام الرئيس السيسى على أنه امتدادٌ طبيعي للخط السياسى لنظام الرئيس عبد الناصر خاصة أنهما من رحم نفس المؤسسة العسكرية وكذلك موقفه من الإخوان المسلمين، وهذا حتما أوقعهم فى مأزق كما حدث للشيوعيين عقب قيام ثورة يوليو من حيث أن النظام الجديد لا يحقق الطموح الوحدوى ولا يتبنى أفكارا اشتراكية بل مضى فى طريقه نحو تبنى نمط اقتصادى رأسمالى.. وهو ما جعلهم فى حيرة من أمرهم، وهو فى نظرى يستوجب منهم مراجعة تاريخية لأفكارهم حتى لا يجدوا أنفسهم فى صدام مبكر مع النظام الحالى، وهو حتما لن يكون فى صالحهم خاصة مع تراجع الفكر القومى بشدة أمام التيارات الفكرية الإسلامية، وكذلك محاولة إنشاء نظام عالمى جديد حتما لن تخرج منه المنطقة كما كانت أيام المناداة بالقومية العربية.

على التيارات السياسية المصرية أن تراجع أيديولوجياتها وافكارها الحركية حتى تناسب مقتضيات العصر وأعتقد أن فكرة الصراع على اللاشىء بين التيارات السياسية المصرية لن يجنى منها الشعب شيئا، ولكنى أعتقد أن المطالب بالمراجعة بشدة أكثر من غيرة هو التيار القومى الذى وقف عند حد زمنى لم يبارحه حتى الآن، خاصة مع تراجع الدعوات إلى التكامل العربى وفق آليات القومية العربية ولكن وفق آليات اقتصادية رأسمالية لن تحقق حتما الوحدة العربية للقوميين العرب، هذا فى الوقت الذى تتصاعد فيه دعوات الأقليات الدينية والعرقية للانسلاخ من جسم المنظومة العربية.

المراجعة هى الطريق الأمثل نحو إنشاء حياة سياسية قوية فى مصر.

دولة الدجاج الأبيض

جرت العادة أن اللحوم المذبوحة أمام مشتريها من الفراخ الحية، تعد مقياسا وتدليلا على صحة وجودة تلك اللحوم من المنذور الشعبى، والذى يبعده عن التوجس من كون الفراخ المذبوحة مسبقا غير مذبوحة على الشريعة الدينية، وكأنما عملية الذبح والتنظيف والشراء تتم فى مجتمع من القديسين الأطهار.

فى هذا الجو المشبع بعمليات الذبح والتنظيف المغلف بجو إيمانى وجدت نفسى وأنا أنتظر تجهيز «الفرخة» المسكينة سارحا وغائصا فى رحلة تاريخية للعصر المملوكى ذاك العصر الفريد من نوعه، الذى أقام فيه العبيد دولة قوية مترامية الأطراف امتدت لأكثر من ألف عام، على أكتاف وسواعد أطفال جلبوا من أسواق النخاسة فى آسيا الصغرى أواخر الدولة العباسية التى تولت تربيتهم وتنشئتهم وتدريبهم- على نهج مزراع الدواجن حديثا- حتى يصبحوا فرسانا ليدافعوا عنها من الأخطار الداخلية والخارجية.

تزامن هذا مع النزعة الشعوبية التى ظهرت أواخر الدولة العباسية، وهو ما أغرى « أحمد بن طولون » أول عبد يستقل بدولة خاصة فى مصر بمساندة العبيد، وعلى الرغم من قصر مدة الدولة وسقوطها، ولكنها أرست مبدأ « الرقيق الأبيض » فى حماية الحكم وإرساء قاعدة الولاء للحكم فى مصر كما الفرخة البيضاء لا تعرف من العالم إلا صاحبها حتى لو فتح لها باب الحظيرة لا تقدر حتى على الهرب.

واستمر هذا الوضع حتى نهاية الدولة الأيوبية، هنا استأسد العبيد وخلعوا عن أنفسهم عار العبودية وتولوا مقاليد الدولة وأسسوا دولتهم الخاصة، ولكنهم ساروا على نهج جلاديهم واستمروا فى سياسة مزرعة دواجن العبيد ليضمنوا الولاء، وطالت مدة الحكم بحلوها ومرها، وطارت رءوس حكام كثيرة منهم تحت وطأة الصراع على السلطة فالكل تعلم اللعبة.. وبقى الشعب ينظر للمشهد عاجزا عن الفعل فكل ملك- عبد أسوأ من الذى قبله، يبدأ حكمه بمشاريع لشق الترع والقضاء على قطاع الطرق حتى يهلل له الناس وتكثر الزروع ويسمن الناس، وهنا فقط يبدأ الحاكم فى حصد ثمار ما فعله فى مزرعته الكبيرة مصر فتكثر الضرائب الباهظة وتنتشر مظاهر السلب والنهب، وتنتشر المجاعات ويموت الناس بعامة من المجاعة – كله فداء للوالى – ولم يعد يملك المصريون إلا حكمة الخنوع الشهيرة « اصبر على جارك السو «السيئ».. يا يرحل يا مصيبة تخده ».

ومع صعود دولة « بنى عثمان « وهزيمتها لدولة المماليك، فقد بدا أن مصر تخلصت من منطق دولة الدجاج الأبيض، لكن بنى عثمان لم يكونوا بأحسن حال من سابقيهم العبيد، فقد نهبوا البلاد وخربوها والأنكى من هذا فقد تركوا إدارتها للمماليك الحكام القدامى ولكن تحت الولاية العثمانية، وعاش المصريون أسود أيام حياتهم فى ظل استمرار دولة العبيد.

ومع أواخر العهد العثمانى وما بدا أنه بداية النهاية للدولة العثمانية العتيدة، فقد ظهر فى مصر حاكم جديد من رحم الدولة بفكر جديد وأسلوب عمل مختلف يريد أن يحقق مجدا لنفسه، إنه « محمد على باشا « الذى تولى الحكم فى ظروف تمرد فيها دجاج المزرعة الكبرى من المصريون على أوضاعهم المتردية ولأول مرة فى تاريخهم الحديث والقديم يختاروا حاكمهم ويفرضوه على سلطة الخلافة، ولم يخب ظنهم فيه فقد قام بذبح كل دجاج المزرعة المملوكية ومن ظلم حكمها وتجبرها على الناس، لكن لم تدم فرحة المصريين طويلا، فدائما خلف كل « قيصر يموت يولد قيصر جديد « فعلى الرغم موت دجاج المزرعة من المماليك إلا أن الباشا الجديد اخترع مبدأ جديدا مستوحى من الثقافة الداجنة وهى « شراء العبد ولا تربيته « توفيرا للمال والجهد.

وهكذا تحولت مصر إلى مجتمع من العبيد من أراد أن يترقى فى منصب أو يعالج أو يحصل على وظيفة، أو.. أو...) فعليه أن يقدم فروض الطاعة والولاء للحاكم ومندوبيه.

وعلى الرغم من توالى الحكام بعد ذلك، إلا أننا لم نتخلص من ثقافة العبيد فى إدارة الدولة– المزرعة، وعلى الرغم من انتفاضة هنا أو ثورة هناك، إلا أن المبدأ لايتغير...

ياااااااااااااااااه سبحان من يغير ولا يتغير...

يا أستاذ يا أستاذ، مالك سرحت كده ليه.. الفرخة خلصت – اتفضل– ولو حضرتك عاوز بيض كله موجود عندى وطازة، فضحكت عاليا ومشيت، وسط استغراب صاحب المحل.

النظام ومافيا التهرب الضريبى

مع إقرار الحكومة تعديل بعض القوانين الخاصة بالضرائب، وقرارات من المزمع اتخاذها لزيادة الحصيلة الإجمالية للضرائب لمواجهة العجز وتحفيز النشاط الاقتصادى إجمالا.. ثارت تساؤلات عديدة نسمعها بين الحين والآخر هذه الأيام بين المواطنين عن تخوفاتهم من أن تؤثر تلك القوانين فى زيادة الأسعار وبالتالى زيادة الأعباء المعيشية، وكذلك عن مصير الأموال التى خرجت من مصر خلال عهد مبارك وأثناء الثورة فى ٢٥ يناير ولماذا يدفع المواطن ثمن أخطاء لم يرتكبها فى ظل عدم وجود تعاطٍ ملموس من رجال الاعمال مع التوجهات الاقتصادية للدولة.. وهو ما جعل المواطن يشعر بأن « الضرائب لصغار الناس « كما قالت المليونيرة الأمريكية « ليونا همسلى».

وبما أن « الضرائب هى الشكل الأكثر استدامة والأكثر أهمية والأكثر فائدة لتحويل القيمة، و تجعل الحكام يخضعون للمحاسبة أمام مواطنيهم، كما أن أنواع الضرائب الصحيحة تحفز الحكومات لإقامة ما تحتاجه من مؤسسات قوية «..

فلماذا إذا لم توفر الضرائب الأموال المطلوبة للحكومة لتلبى حاجات مواطنيها ؟؟ ولماذا لم يقم رجال الأعمال بسداد كامل قيمة الضرائب؟ ولماذا يلجأون للتهرب الضريبى ؟ وأين هى أموال التهرب الضريبى؟ هل هى فى داخل البلاد أم خارجها؟

هنا يكون كتاب « مافيا إخفاء الأموال المهربة «ـ نيكولاس شاكسون ـ عنوانا عريضا للإجابة عن تلك التساؤلات.

فهو يتحدث عن شركات وهمية تعمل « بنظام الأوف شور « أو بمعنى « الملاذ الضريبى الأمن «.. وهو « مكان يسعى إلى اجتذاب البيزنس من خلال عرضه مرافق وتسهيلات مستقرة سياسيا لمساعدة الأفراد أو الكيانات على الالتفاف على القواعد والقوانين والأحكام التنظيمية للسلطات القضائية فى البلد المهرب منها الأموال « أى توفير طرق للهروب من الواجبات التى تأتى فى معية العيش فى المجتمع والحصول على ميزاته، أى الهروب من الضرائب والقواعد التنظيمية والقوانين الجنائية، وهذا يعتبر هو الخط الجوهرى للبيزنس المالى هذه الأيام لأنها توفر له بجانب التهرب الضريبى السرية والهروب من القواعد المالية التنظيمية.

ومن خلال هذا النظام وجدت مافيا لإخفاء الأموال عملت على خروج الأموال إلى خارج البلاد، عبر إنشاء شركات تعمل بنظام « الأوف شور « مسجلة فى مناطق كثيرة حول العالم بأسماء مختلقة،

وفرت ملاذا آمنا للأموال المهربة عبر إعادة تدويرها فى النظام المالى العالمى، وذلك فى ظل وجود قوانين للضرائب يراها رجال الأعمال عالية وغير محفزة للاستثمار ناهيك عن التوترات السياسية وعدم الاستقرار.. وهو ما جعل الأوف شور بمثابة « الفردوس المالى « للأموال المهربة.

هنا اتخذت الحكومات المتعاقبة بعد ثورة ٢٥ يناير بعض الإجراءات للحد من تهريب تلك الأموال إلى خارج البلاد منها تحديد سقف للمبالغ الموردة للخارج لأغراض معينة وبيان مصدرها، كذلك فرض ضرائب على الأرباح الرأسمالية للبورصة وهو قرار مشابه لقرار الرئيس الأمريكى « كيندى « ١٩٦٣، لكن و كما تم إلغاؤه فى أمريكا، فقد رؤى تأجيله لمدة عامين فى مصر تخوفا من تأثيراته على حركة التدفقات النقدية للبورصة المصرية و كذلك الاستثمار، لأن المستثمر لا يحب التعامل مع الضرائب بصفة عامة.

وقامت الدولة بتعديل « ضريبة الدخل « لتحفيز النشاط الاقتصادى، ولكنه ليس كافيا لخطة التحفيز.. وهو ما يشجع على التعاطى مع نظام الأوف شورلأنه « مرتبط بنظام مالى هو الأكثر انتشارا وضخامة وأشد خطرا بكثير « وإذا أرادت الدولة أن تقضى عليه أو تقزمه فإنه وعلى الرغم من أهمية التنظيمات والرقابة الداخلية لضبط الأعمال المصرفية إلا أنها لن تكون كافية أبدا، لذلك على الدولة أن تؤسس إصلاحاتها على استيعاب كامل ودقيق للواقع المالى الجديد حول العالم، وذلك عبر وضع آلية لنظام ضريبى موحد قادر على سد الثغرات والحيلولة دون تدفق الأموال للخارج عبر مافيا تهريب الأموال.

إذا أرادت الدولة أن تبحث عن مصادر للتمويل من خلال الضرائب كمصدر رئيسى، فعليها أن تعمل على وضع قوانين ضريبية تتماشى مع التوجهات المصرية الهادفة لجذب الاستثمار، والتى تعطى حوافز للمستثمرين المصريين والأجانب، بدلا من توجههم ناحية الاستثمار فى الخليج فى ظل وجود بيئة ضريبية مناسبة، و كذلك تخفيض الضرائب على الأموال المهربة كأحد الحلول من أجل استعادتها كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية.. حتى نقضى على ظاهرة تهريب الأموال للخارج، و كذلك يجب أن تراعى الدولة البعد الاجتماعى المحفز للاستثمار وذلك عبر عدم محاصرته بالضرائب من حين لآخر.. المواطن أصبح لا يحتمل

فهل ينجح النظام فى معركته مع مافيا التهرب الضريبى؟؟ ربما..

أنا الدولة

«لا يوجد ما يسمى بالنظام السياسي، بل يوجد مصر ودولة مصرية، فالشعب المصري ينتخب من يدير دولته بمؤسساتها وجيشها وشرطتها وهيئاتها، وينتخب آخر ليستكمل المسيرة «.. تصريح صادم للرئيس السيسى، أثار لغطا وتساؤلات عن ماهية ما يقصده الرئيس؟ وهل يعبر عن توجه فعلى للانفراد بالسلطة المطلقة؟ أم أنه لا يعدوا أن يكون معبرا عن أزمة يعانى منها الرئيس فى تكوين نظامه السياسى؟

ومع مرور الأيام لم نحصل على إجابة أو تصحيح لما يقصده الرئيس، ولكن تأتى الإجابة على لسان الأستاذ هيكل الذى تصدى لشرح ذلك التصريح وإن لم يتناوله علنا قائلا « هذا الرجل بما يواجهه يستحق أن يقف كل الناس خلفه لكن أظن أن هنالك التباسا حول التغييرات والمصطلحات، فالدولة هى التنظيم الشامل للمجتمع بكل قواه، قوى سياسية معارضة ونظام وتنفيذ وبرلمان وحكومة وكل شيء، فهى عقد الحياة المشترك للمواطنين.

لكن أجهزة الدولة وهى مؤسسة الحكم تتغير بمن ينتخبه الناس ثم من هو الفكر السياسى ومن هو الشخص السياسى الذى يجيء ليدير الأجهزة باسم الأغلبية من الشعب، فعلى سبيل المثال أجهزة الحكم فى عهد الملك فاروق هى نفسها الأجهزة التى عملت وقت عبدالناصر لكن تغير التوجيه السياسى، وهى ذاتها التى عملت وقت الرئيس السادات، فتنظيم الدولة موجود لكن النظام السياسى المنتخب يملى سياسات أخرى».

إجابه أمسكت العصا من المنتصف لم تنتقد الرئيس مباشرة من جهة ولم تقدم حلا مباشرا من الجهة الأخرى، ذكرنى ذلك بالملك لويس الرابع عشر الذى تولى الحكم وعمره خمسة أعوام، وقد أدار شئون البلاد عنه رئيس الوزراء الكاردينال « مازاران» الذى حكم البلاد حتى بعد بلوغ الملك سن الرشد، ولكن بعد وفاة مازاران عام ١٦٦١ دخل الملك إلى الحكم بقوة، وكان على قناعة تامة بأن يحكم بنفسه ولايمكن لأحد أن يحل محله، لذلك قرر إبعاد وزيره الأول والأمراء والشخصيات العامة في القصر عن مركز القرار، وألغى كثيراً من المؤسسات الإدارية وقلّص دور المسئولين عنها قائلا «أنا الدولة والدولة أنا »، ودخل بالبلاد إلى مرحلة الحكم المطلق وعلى الرغم من أنه ترك آثارا نهضوية واضحة إلا أنه دخل فى صراعات داخلية وحروب خارجية كثيرة جعلته أعلى الحكام استبدادًا فى تاريخ فرنسا.

أهذا ما كنا نريده بعد ثورة ٢٥ يناير، لا وألف لا ياسيادة الرئيس، نحن نعلم أنه ليس لديك تنظيم سياسى يسندك ولكن هذا كان اختيارك أنت، ونعلم أنك تعانى فى إصلاح أجهزة الدولة

وتعانى فى كيفية لم الشمل فى الداخل، ناهيك عن الأوضاع الإقليمية والدولية، لكن هذا لا يعطيك الحق أن تكون لويس الرابع عشر، الشعب قد تغير والزمن أيضا قد تغير، وهنالك معادلات جديدة على الارض لا تستطيع أن تتجاوزها.

سيادة الرئيس: نحن نعلم أنه ليس هناك فصيل سياسى كبير على الأرض تستطيع أن تركن إليه، فكل الفصائل السياسية هشة وكرتونية ولا تعبر مطلقا عن الشارع، ما عدا تيار الإسلام السياسى الذى أصبح خارج اللعبة ولو مؤقتا، لذلك اعتمد على الشباب وطهر مؤسسات الدولة من الفساد والمحسوبية، احتمِ بالناس إذا أردت إصلاحا حقيقيا، وابعد عن أحلامك هواجس «أنا الدولة» فلن تستطيع أن تعبُر بالبلاد إلا إذا كان هناك نظام سياسى قوى يعبر عن النظام الحاكم قوامه الشباب وروح التجديد، دماء الشباب فى الميادين تصرخ كفاية تجريب فى الحكم.

ماذا بعد 11/11 ؟

إن قراءة المستقبل تصبح سهلة وميسورة إذا كانت قراءة المعطيات سليمة وتتوافق مع القراءة التاريخية والآنية للأحداث، وأما إذا تعثر فهمنا لتلك المعطيات فسنكون مثل الساحر الذى يمشى على الماء خادعا جماهيره وسط أفواههم الفاغرة والتى تظن وهما أن ما تراه حقيقة.

وعندما تمر الأيام يتضح لتلك الجماهير المخدوعة أن الساحر لم يكن يمشى على الماء بل على لوح زجاجى وسط الماء مستغلا « عكارة « الماء لإخفاء اللوح الزجاجى والطبيعة الحقيقية للساحر نفسه والقائمة على الخداع.. لذلك فإن التعامل مع الدعوات الداعية للخروج يوم ١١ |١١ القادم أشبه بدعوة الساحر للجماهير حتى تراة يمشى فوق الماء، فى مقابل دعوات لعدم الخروج تشبه من يحاول الحفاظ على عكارة الماء، واختلف الفريقان وتنابذوا بالألقاب ولم يلتفت أحد إلى الجماهير التى تقف حائرة على شاطئ النهر يثيرها ويلهب مشاعرها المشى على الماء، وفى الوقت نفسه تخشى نقاء الماء الذى سيضعها أمام المستقبل وهى بعد لم تتعلم التعامل مع حقائق الأشياء.

فالمعارضة أشبه ما تكون بساحر يلهب حماس الجماهير الغاضبة التى تريد أن تعبر النهر للجهة الأخرى والتى تنشد عليها الحياة الرغدة والميسورة، وهو يعدهم بألا يخافوا لأنهم سيعبرون النهر مشيا على الماء دون أن تبتل أرجلهم، محطمين كل القيود والأغلال التى تعوق حركتهم وتجعلهم يرفلون فى الفقر والجوع والمرض، مخفيا عنهم حقائق الأشياء التى لا يستقيم معها المشى على الماء وفى الوقت نفسه مخفيا حقيقة أهدافه الحقيقية التى تستغل عكارة الماء لتصبح بالنسبه للجماهير لوح الحقيقة الذى يمشون عليه فى الماء والتى تجعل غشاوة على أعينهم يستحيل معها استبيان الحقيقة الكاملة، والمعارضة إذ تستغل عكارة الماء لصنع لوح زجاجى للحقيقة لعبور الجماهير عليه من كلمات ثورية تداعب أحلام الفقراء والمحتاجين هو لوح إدانة لها إذا زالت عكارة الماء واستبان كل شىء أمام الجماهير والتى سترى معارضة مهترئة صدئة متماهية مع الأوهام تحمل طموحات وآمال الجبال وهى بعد لا تقدر على أى شىء، متناسية أنها أضاعت كل الفرص التى أتيحت لها قديما وحديثا فرصة تلو الفرصة.

وفى كل مرة نراها تريد الجماهير أن تحملها إلى كرسى العرش دون أن تقدم لتلك الجماهير أى مضمون حقيقى، وتناسوا أن الجماهير عندما تصدق نوايا المعارض أيا كان موقعه فى السلطة أم خارجها فإنها تجد نفسها مدفوعة للحركة الذاتية دون دعاوى مثلما حدث مع الزعيم أحمد عرابى، وسعد زغلول، وجمال عبد الناصر، والشباب فى ٢٥ يناير.

أما النظام ومن يناصرونه فهم أشبه بمن يريد أن تستمر عكارة الماء، ولا يريدون أن يتماهوا مع حقائق العصر من الشفافية وأساليب الحكم الرشيدة القائمة على المشاركة المجتمعية، يحاولون دائما أن يقنعوا الجماهير بأن عكارة الماء هى ما اكتسبت أيدى الناس من ثورتهم على الأوضاع السابقة والتى استقرت لسنوات طويله، وأن المضى قدما فى سياسات ما مضى هى طوق النجاة وليس لوح زجاج المعارضة الذى سرعان ما سينكسر وتقع الجماهير فى الماء وتزداد عكارة الماء، لذلك عليهم أن ينتظروا إلى أن تتدفق فى النهر مياها جديدة ووفيرة تزيل أثر الطين فى الماء، وتنتظر الجماهير ثم تنتظر وطال الانتظار.

أما الجماهير فتقف حائرة زائغة العيون، تؤلمها حركة الأمعاء التى تكاد تلامس الجوع، وخوف من مستقبل يداعبها ولا تقدر على الوفاء بمتطلباته. بين ساحر يمنيها بأنه قادر على أن يعبر بها الماء على لوح من الحقائق المخفية والتى لا يستطيع البوح بها ليظل فى نظرهم ملهمهم الأوحد، وبين نظام ومناصرين يتكلمون بلغة ابن سيدنا نوح عندما جاء الطوفان « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء « وأن انحسار الماء سيكون نهاية المطاف وسيبقون هم فى النهاية يحكمون.

لذلك فإن قفزًا لما بعد ١١ | ١١ لفهم ما يحدث وسيحدث هو محاولة استقرائية للمستقبل أرجو أن أسهم ولو بالقدر اليسير فيها.

فماذا سيحدث لو نجحت أو فشلت دعاوى التظاهر؟ أعتقد أن النجاح أو الفشل لن يغير من طبيعة الأمور شيئا.. فالمعارضة فاشلة بامتياز تبحث عن أدوار دون أن تقدم حلولا وخيارات للمستقبل، وأنها ليست لديها أى نوع من الإبداع فى المقابل تماهيها مع ما هو قائم وتقع أسيرة له مثلما وقعت فى حب إطلاق الأرقام على الثورات التى تدعو لها مستلهمة نجاح الأرقام كعناوين للثورات المصرية، ولم تقدم شيئا يدفع الجماهير للالتصاق بها كما حدث آنفا فى الماضى والماضى القريب.. وكذلك النظام الذى يصر على المضى قدما فى سياسات قديمة ثار عليها الناس منذ سنوات قليلة ولم يعد قادرًا على إبداع سياسات جديدة كما المعارضة مستغلا أوضاعا إقليمية ودولية لتبرير ذلك على الصعيد الداخلى.

أما الجماهير فهى هى تلك الجماهير الحائرة دائما بين دعوات للتظاهر لم تختبرها تدعوها للمستقبل والثورة على أوضاعها البائسة، وبين من يدعوها إلى الانتظار أملا فى تغير الأحوال إلى الأفضل ولو بعد سنوات قليلة بديلا عن الفوضى التى تعم الجوار.

وتقف هى حائرة أمام المستقبل لا تعى كيف تطرق بابه كالعادة

يا سادة أيا ما كانت نتيجة ما بعد ١١ |١١ بالنسبة للمعارضة أو النظام، فإن الحال لن يتغير كثيرا اللهم إلا على الصعيد الاقتصادى الذى سيزداد سوء حتما، أما على مستوى الدعوات للدخول للمستقبل فإننى أرى أن المعارضة والنظام غير راغبين فى الدخول إليه، أو بأكثر دقة ليست لديهم الرؤية ولا الخبرة ولا التصورات التى تجعل من المستقبل القادم أسلوب عمل حاليا، يشجع الجماهير وفى القلب الشباب على الانخراط فى التنمية الاقتصادية والسياسية لصنع المستقبل.

..

يا كل من يسمعنى.. اقفزوا إلى ما بعد ١١/١١ وأطلقوا لخيالكم العنان وفكروا فى شكل المستقبل بدلا من اجترار أساليب قديمة لا طائل منها وتفكروا معى كلمات «إيريك هوفر» فى كتابه « المؤمن الصادق « عندما قال « إن الذين يحاولون تغيير أمة ما أو تغيير العالم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بتوليد التذمر واستثماره أو بإثبات أهمية التغييرات المنشودة وضرورتها أو بإجبار الناس على تغيير أسلوب حياتهم.

على الراغبين فى التغيير أن يوقدوا الآمال الجامحة وليس من المهم أن ترتبط هذه الآمال بجنة السماء أو بجنة على الأرض «

الآمال الجامحة يا سادة التى تؤطرها الرؤية المستقبلية هى طوق النجاة أيها المعارضون أو المؤيدون.. غير هذا فالساحر وعكارة الماء سيحكمان فكر الجماهير الذين لم يستطع أحد من علماء الاجتماع تحديد متى وأين يثورون؟

شيفونية ثورية

إذا كانت الأيديولوجيا تمثل رؤية شاملة تنظمها مجموعة من الأفكار المرتبطة اجتماعيا بمجموعة اقتصادية أو سياسية من أجل رفاهية المجتمع وتقدمه، إلا أنه عندما تتحول تلك الأيديولوجيا على يد السلطة الحاكمة إلى محاولة التفرد ونبذ ما عداها من رؤى وأفكار، هنا تتحول إلى « دوجما « أى إلى سلطة مطلقة تحتكر الرأى لا تقبل الجدل بالنسبة لأتباعها فما بالك بمنتقديها ويصبح السلوك القمعي هو السمة الغالبة على حركة تلك السلطة.. لذا فإذا كان هذا هو سلوك السلطة التى تتماهى بين الأيديولوجيا والدوجما، فماهو إذن سلوك الأفراد المنتمين أو المتماهين مع تلك السلطة؟

إنهم بلا شك ما نستطيع أن نطلق عليهم « الشيفونيون « الذين يعتقدون أن المغالاة فى الوطنية هو سلوك حميد والذى مع غياب رزانة العقل والتحزب المبالغ فيه فى مقابل الحط من شأن الجماعات أو الأحزاب الأخرى والتى تنادى بالمقابل بأيديولوجيا لا تتماهى حتما مع أيديولوجيا السلطة، فإن ذلك يورثهم نوعا من التعصب الأعمى الذى يجعلهم فى مراحل متقدمة أن يقوموا بالاعتداء على المخالفين للسلطة بالإيذاء النفسى والبدنى وربما القتل فى بعض الأحيان.

والذين قد يتحولون فى مراحل متقدمة أيضا من التعصب إلى ميليشيات من القتلة الذين يغتالون الحلم بوطن جديد وبمستقبل يسع الجميع دون تفرقة.

إن دوجما السلطة وشيفونية أتباعها قد أورثونا الجهل والفقر والمرض وتم استهلاك طاقات الشعب إلى أقصى درجة من أجل خدمة السلطة والمتماهين معها حتى ثار الشعب فى ٢٥ يناير على تلك السلطوية وما أعقب ذلك من امتداد ثوري فى ٣٠/٦ والذى لم يرض أن يستبدل دوجما سلطوية، بدوجما دينية أتباعها أكثر شيفونية من سابقتها، ولكن هل تحققت أيديولوجيا ثورة ٢٥ يناير والتى قامت من أجل تحقيق شعار « عيش –حرية– عدالة اجتماعية « ؟؟؟

أعتقد أننا لم نبارح مكاننا وبعد أكثر من خمس سنوات من الحراك الثورى فى ٢٥ يناير، نجد أنه لم يحدث أى تغيير ولو ملحوظا فى تبنى سلوك أيديولوجيا يقوم على رؤية مستمدة من ثورة شعب ألهبته سياط القهر والجوع ولكن فى المقابل تمادى فى سلوك الدوجما والمعتمد على شعبية مستمدة من الخروج على حكم الإخوان المسلمين والذى جعل الشيفونيين والمتماهين مع السلطة فى أى زمان ومكان يقومون بأفعال أبشع مما كان فى السابق، فقد راحوا يكيلوا لكل من يعارض أو حتى مجرد أن يقول رأيه الاتهامات بالعمالة والتمويل الأجنبى، وصولا لصبغ المعارضين للنظام

بالخيانة للوطن.

سلطة بعد ثورة يجب أن تكون لها أيديولوجيا وإلا سنظل على ما نحن فيه الآن شيفونية عنصرية تقتات على ما تبقى من مجتمع منهك، إننا لا نريد شيفونية ثورية فى المقابل، إننا نريد رؤية للمستقبل تبتعد بنا عن تقسيم المجتمع إلى مع أو ضد تحت زعم الوطنية والحفاظ على مكتسبات الشعب، وهلم جرا من تلك الكلمات الرنأنه التى سمعناها فى السابق ولم تورثنا إلا التعصب الوطنى والمحصلة تراجع اقتصادي وسياسي حاد، ولم نتفوق فقط إلا فى التعصب الأعمى وتقسيم المجتمع إلى شرفاء وغير شرفاء عند أى اختبار بين السلطة والمناوئين لها.. نريد شيفونية للمستقبل...

أهل الشر

الشر هو العلاقة المعاكسة للخير لذلك فعندما يغلب الشر تصبح البشرية معرضة للحروب والدماء وخراب العمران، وهو ليس حكرا على فئة دون الأخرى من البشر، لذلك عندما ذكر الشر فى القرآن الكريم فإنه جاء عاما مثل قوله « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون « (يونس -آية ١١)، وفى الآنجيل أيضا « لا تحسد أهل الشر، ولا تشتهِ أن تكون معهم « (سفر الأمثال ١:٢٤).

أى أن فعل الشر هو فعل أصيل فى البشرية، وأن البعد عنه مشروط باتباع طريق الله وتعاليمه التى أنزلها على الناس والبعد عن الشيطان الذى جعل رمزا للشر وعنوانا عريضا لكل العصاة والمذنبين الذين سيعاقبون بنار جهنم فى الآخرة.

وعلى الرغم من عموم معنى الشر عند الحديث عن البشرية جمعاء، إلا أن الجماعات البشرية المختلفة استخدمته كسلاح ضد بعضها البعض، وجعلت له معيارا متسقا معها عند الحكم على جماعات بشرية أخرى، دون النظر لفعل الخير العام والمتسق مع الأمر الإلهى، حتى تضمن لنفسها مكاسب دنيوية، لذلك لا عجب أن نرى دولا وأفرادًا تضع معايير للشر لتتماشى مع مصالحها العامة أو الشخصية لتبرير سلوك الاعتداء على الآخرين.. مثل ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية عندما صكت إدارة الرئيس الأمريكى « دبليو بوش « مصطلح « محور الشر « على كل من (العراق - كوريا الشمالية- إيران) لتبرير سلوكها الإجرامى تجاه تلك الدول، دون وضع معيار واضح ومبرر لفعل الشر هذا، وهو ما أدى إلى غزو العراق وتدميره وقتل وتشريد أهله ونهب ثرواته.

ولكن فى المقابل هناك من يضع معيارا للشر عند الحكم على الآخرين متسقا مع الفعل الإلهى، حتى يتم من خلاله معاقبة المخطئ فى حق الدولة والناس، لأن الحفاظ على مصالح الناس ضد تغول أهل الشر هو عين المنهج الإلهى طبقا للقاعدة الفقهية « حيثما وجدت مصلحة الناس فثم شرع الله « وأن مصلحة الناس تتحقق بالعدل والمساواة وتطبيق ما أنزل الله.. هنا وفى هذه الحالة يصبح الحكم على الشر وتحديد معياره هو مصلحة الناس.

لذلك فعندما نسمع الرئيس السيسى يدشن لمصطلح « أهل الشر « - وهو بالمناسبة مصطلح جديد على السياسة المصرية - فإننا يجب أن نقف ونسأل من هم « أهل الشر» الذين يقصدهم الرئيس فى كل خطاباته؟ أهم فئة سياسية منافسة على الحكم؟ أم هو الفساد؟ أم؟ أم أم؟

أعتقد أن تعميم المصطلح جاء متسقا مع الحالة المصرية، والتى تشهد تحديات كثيرة خارجية

وداخلية، وأن أى محاولة للتعويل على فصيل أو مجموعات بعينها عند الإشارة بالمصطلح هنا أو هناك هوعين الخطأ، لأن ميراث الشر ضارب فى أطناب الدولة ومعشش فيها، لذلك أرى أن تعميم اللفظ موفق إلى حد كبير عند وضعه فى السياق العام وهو ما يجنب البلاد صدامات هى فى غنى عنها، ولكن فى المقابل فإن هناك شرا عاما وهو الفساد يجب أن يشار إليه صراحة دون إبطاء لأنه ضد مصلحة الناس، ويكفى أن يخاطب الرئيس التجار فى حفل إفطار الأسرة المصرية قائلا « إحنا حاسين بكل إنسان وشايفينه كويس، الأسعار كلنا بنغلى على بعضنا و الأولى نقللها، الأسعار ارتفعت من ١٥ إلى ٢٠ : ترفقوا وحنوا على الشعب «

ما هكذا تورد الإبل يا سيادة الرئيس، إن الضرب من حديد على أهل الشر من الفاسدين الذين يتلاعبون بأقوات الناس ومصالحهم فى طول البلاد وعرضها هو الحل الأصوب، وستجد الجميع يساندك، فتحقيق مصالحهم هو اتساق مع الأمر الإلهى.

اجعل مصطلح « أهل الشر» منهج عمل لمكافحة الفساد والمفسدين لا شعار يتخفى وراءه من لديه غرض فى نفسه يريد به أن يتخلص من فشله وإلصاقه بغيره، مثلما حدث مع حادثة تسريب إمتحانات الثانوية العامة والتى صرح بعدها أحد المسئولين « أهل الشر هم المسئولون عن تسريب الامتحان « ملمحا إلى فصيل سياسى بعينه، وهو ما أثار موجة من السخرية عند تحويل أكثر من مسئول بوزارة التربية التعليم للتحقيقات على خلفيه تلك التسريبات.

سيادة الرئيس « أهل الشر» هم كل من يقف ضد مصالح الناس، هم الفاسدون فى كل قطاعات الدولة، هم الطبقة التى أثرت وتثرى على حساب فقراء هذا الوطن، هم السوس الذى ينخر فى أساس هذا الوطن، إنهم فى كل مكان ولا أستثنى، لقد أن الأوان أن يكون هناك تعريف واضح للشر وأهله متسقا مع مصالح الناس والوطن جتى يسهل التعامل مع حالات الفساد بصرامة، فى المقابل لن تكفى الحملات الدعائية التى تنبه لجوانب الفساد فى القطاع الحكومى ولن تجدى نفعا وليس هناك عقاب رادع «لأهل الشر».

إن انتصار أهل الشر دائما واضح على طول التاريخ الإنسانى فى مقابل سنوات من الخير قام بها المصلحون عندما صدقوا العهد مع الله ومع الناس.. لذلك يا سيادة الرئيس فإن الصدق مع الله ومع الناس سيجعل لك قوة جبارة فى مواجهة أهل الشر أيا ما كانوا، وساعتها لن تحتاج إلى تعريفهم لأن مصلحة الناس سترشدك لمكافحتهم والقضاء عليهم.

الدولة فى مواجهة أهل الشر.. من ينتصر؟؟

احرقوا سفن التموين

هل حدث معك مرة وأنت تقرأ فى سير القادة والعظماء أن تخيلت أن تقوم بعملية إسقاط لتلك الشخصيات العظيمة على شخصيات تقود العمل فى زماننا هذا؟ فى إطار عام من استنباط العبر وتنفيس الكبت المتنامى فى النفس، وربما الهروب إلى الخلف وإغماض العين للبحث فى أحلام اليقظة عما يأنس وحشة الواقع الأليم.

فمنذ أيام وربما لساعات مضت شغلتنى شخصيتى الأثيرة إلى نفسى القائد الفذ «طارق بن زياد»، وقد كانت واقعة إصداره الأمر بإحراق السفن عند عبوره البحر وحديثه للجنود « البحر وراءكم والعدو أمامكم « هى محور قراءتى وقد تبين لى أن تلك الواقعة فى ذاتها غير موثقة وغير واقعية فى كثير من المراجع، ولكنها لم تنف البطولة ولا شجاعة ملهمى ومثلى الأعلى.

وفى لحظة ما خطر ببالى ما فعله « طارق بن زياد « بإحراق السفن على فرض صحتها، ماذا كان سيفعل وزير التموين المصرى « خالد حنفى « لو كان مكان القائد العظيم وسرحت بخيالى مع القائد التموينى الكبير « خالد بن زياد الحنفى «.. شاب مقدام ـطبعا الشباب ومقاييسه عندالحكومة فقط ـ أعجب به قادته لفتح جنة الأرض وفردوسها « أندلس الأسواق «، فقام بجمع الشعب كله وسلحه بسلاح جديد ومخيف وهو « بطاقات التموين» الذى ظنه فتاكا فى مواجهة قادة وأمراء أندلس الأسواق، وقرر أن يملأ سفنه بالمؤن والتموين اللازم للشعب تحضيرا للغزو المنتظر، وأركب الشعب كله على السفن، وأمر أن يوزع التموين على السفن بالبطاقة التموينية وأن كل من سيوفر ويقتصد سيحصل على نقاط يأخذ مقابلها سلعا أخرى مكافأة، وبعد أن طالت الرحلة البحرية إلى بلاد المولات « كارفور» « سبنسر»، حتى رست سفن التموين المصرية ونزل الشعب واصطف أمام القائد « خالد بن زياد الحنفى « على الشط، فإذا به يوجه هم خطابا مهما قائلا « أيها الشعب أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أصحاب المولات والتجار من أمامكم، وأعلموا انكم إذا صبرتم معى على المشقة قليلا فسوف تستمتعون بالغنى والأكل الوفير طويلا، وإذا أنا قتلت أو أسرت فلا تهنوا ولا تحزنوا فالنصر قادم قادم «.. كل ذلك بعد أن أحرق سفن التموين ظنا منه أنها ستكون حافزا للبطون الخاوية أن تنتصر فى معركتها ضد التجار.

ومع تقدم القائد التموينى الفذ فى أرض المعركة مسلحا الشعب ببطاقات التموين الرهيبة، والذى بشر شعبه بأنها ستكون وسيلة فتح بديلة للسلع على سفن التموين المحترقة عند إتمام فتح

بلاد « أندلس الأسواق « والانتصار على التجار ورجال الأعمال الأشرار.

وهنا ظهر فى الأفق أول جيش سيحاربه، أنه جيش قائد تجار القوطة أو الطماطم ـ لسخرية القدر أن الجيش الذى حاربه طارق بن زياد كان يسمى جيش القوط ـ واشتد القتال وحمى وطيس المعركة وعلا لهيبها وبدا أن نجاعة سلاح بطاقات التموين محدودة ومع انتهاء تباشير المعركة الأولى فقد بدا أن نقاط السلع التى أخذها الشعب المقاتل لم تشفع له حتى لو أخذ بها كلها مكرونة فالهزيمة امام ملوك « القوطة « منعت المكرونة من السباحة فى أنهار الصلصة الرقراقة.

وبقى القائد التموينى بهزائمة المتوالية أمام التجار الملوك ورجال الأعمال فى موقف لا يحسد عليه أمام الشعب التموينى المقاتل الذى بشر بأنهار من العسل فإذا بأسعار السلع فى ازدياد رهيب وسلاح البطاقات لم يعد يقبل الشحذ أكثر من ذلك، باحثا عن مخرج لأزمة الغزو التموينى بعد أن تأخر المدد الذى كان سيؤخر على الأقل حالة التذمر بين الشعب، فقام بركوب فرسه وأطلق له العنان فى البرارى لعله يأخذ قسما من الراحة ليفكر فى حل جديد أو أن يبحث فى كهف من الكهوف الجبلية عمن سرق القمح من صوامع الغلال تدور فى مخيلته آلاف الجوعى يريدون أن ينضموا إلى بطاقات التموين لعلها تنجيهم من لهيب معركة الأسعار ويمرون كل يوم على فاترينات المحلات ينظرون بحسرة على ما مضى.. قبل أن يحرقوا سفن التموين.

بائع الخضار: أستاذ، أستاذ؟؟

أنا: إيه خير؟ قلتها لبائع الخضار الواقف أمامى

بائع الخضار: حضرتك كنت سرحان ولا إيه؟ حساب الحاجة خمسين جنيها.

أنا: طيب تنفع بطاقة التموين.

بائع الخضار: شكلك راجل محترم، امشى من قدامى وخلى وزير التموين ينفعك.

أنا ضحكت وعلا صوتى ولسخرية القدر مر أمامى «توكتوك» يصدح بصوت « محمد رشدى « بأغنية «عدوية»:

اوعوا تحلوا المراكب
والله يا ناس مراكب
ولا حاطط رجلى فى المية
إلا ومعايا عدوية

الشيطان فى القاهرة

قال تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم» سورة البقرة ـ آية ٢٦٨

لا أدرى لماذا تذكرت هذه الآية الكريمة على وقع الأنباء المتواترة عن وصول بعثة « صندوق النقد الدولى « لإجراء مفاوضات مع الحكومة المصرية لبحث كيفية إعطاء مصر قرضا كبيرا، ذلك للسمعة السيئة التى ترافق « صندوق النقد الدولى « أينما حل فى أى مكان فى العالم، فدخوله أو ظهوره فى أى دولة دائما ما يكون مسبوقا بأزمات اقتصادية وسياسية عاصفة تهدد كيان تلك الدولة، وكما الماضى عندما يحل المرابى اليهودى ضيفا ثقيلا على الفلاحين والكادحين يصبح الحديث عن ضياع الأرض والعرض مسألة معروضة للنقاش والمساءلة خاصة أن هذا الظهور ليس الأول خلال الثلاثين عاما الماضية، فظهوره الأول كان فى أعقاب الأزمة الاقتصادية التى ضربت مصر أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وخضوع مصر لتغيير طريقة تعاطيها مع الاقتصاد من التعاطى الاشتراكى إلى التعاطى الرأسمالى وذلك عقب انتهاء حرب تحرير الكويت ١٩٩١، حيث تم الالتزام بشروط « صندوق النقد الدولى « من أجل التحول إلى نظام السوق، وذلك عبر إجراءات إصلاح مالي، واتباع سياسة تخفيض الدعم الحكومى المقدم للمواطنين، ثم اتباع سياسة تكوين رأسمالى حكومى وتهيئة المناخ العام للاستثمار عبر اتباع سياسة « الخصخصة «، والتى تقضى بتحرير الإدارة الحكومية من تبعات إدارة الشركات الخاسرة وذلك عبر بيعها لمن يقدر على إدارتها من المستثمرين المصريين والأجانب.

وعلى الرغم من أن ظاهر الإصلاحات يحمل بين طياته روشتة علاج لاقتصاد مترنح، وعلى الرغم من النجاحات الأولى لتلك الروشتة والتى عملت عملية حراك اقتصادى استمر لسنوات قليلة، إلا أن عوارض تلك الروشتة كانت فادحة على مصر، فقد فوجئ المواطن المصرى بأنه وعلى الرغم من تحملة لبدايات الإصلاح الاقتصادى بأنه ومع نهايات عصر مبارك قد تعرض لعملية نهب منظم لثرواته وأن عملية الخصخصة لم تكن إلا ستارا لتلك العملية، وأن التسويق لفكرة الاقتصاد الحر الذى سيجلب السمن والعسل لم تكن إلا تمكين لفئة لا تزيد على ١٠: تتحكم فى مقدرات هذا البلد، وتراجعت الطبقة الوسطى تحت ضربات التراجع الإقتصادى وزادت البطالة ولم نجنى من النظام الرأسمالى إلا تحويل البلد كله إلى نمط استهلاكى يخدم على مصالح لطبقة واحدة.. وهو ما جعل صندوق النقد الدولى محل عدم ترحيب من المصريين.

وبعد قيام ثورة٢٥ يناير وتولى نظام الإخوان حكم مصر ومع استلامهم حكم مصر، ومع تنامى الشعور الوطنى المناهض لسياسات صندوق النقد الدولى من قبل الجماهير، إلا أن السلطة الحاكمة رأت أن الخروج من الأزمة الاقتصادية لن يكون إلا عبر الاقتراض منه، وعلى الرغم محاولات السلطة لحصولها على تأييد شعبى لتلك الخطوة إلا أن الجماهير رفضت تلك المحاولة، وتناسى الجميع أن تلك المحاولة لم تكن إلا استمرار لسياسات اقتصادية سابقة وليست بدعا جديدا، ولا خروجا عما ألفته مصر سابقا عبر تبنيها سياسات الاقتصاد الحر.

وما أن جاء حراك ٣٠ يونيو والذى أطاح بحكم الإخوان ودخول مصر مرحلة جديدة، وتولى الرئيس السيسى مقاليد السلطة، فقد توارى الحديث عن صندوق النقد الدولى ولم يعد يسمع لقرض الصندوق فى أى حديث من قبل السلطة وسط تأكيدات أنه لن يكون هناك قروض وأن الاقتصاد المصرى قادر على تعويض خسائره مع وصول المعونات والمنح الخليجية الداعمة للنظام السياسى القائم، ولكن الإجراءات التى اتخذها النظام للنهوض الاقتصادى لم تكن بمعزل عما سبقة فقد اتخذ إجراءات نحو خفض الدعم لم يجرؤ أى نظام سابق على اتخاذها مستغلا الشعبية وحالة عدم اليقين لدى الشارع، ووسط أمانى وطموحات كبرى للنهوض الاقتصادى متبوعة بإنجازات افتتاح مشروع قناة السويس الجديده، ومشاريع إسكانية كبيره، والحديث عن مشروعات زراعية عملاقة، إلا أن التراجع الاقتصادى بات واضحا ولا يستطيع أحد إنكاره، وذلك على الرغم من المنحة التموينية التى تمنح للمواطنين كل شهر التى لم تشفع للنظام أمام المواطنين وسط الارتفاع الجنونى للأسعار وتزايد معدلات التضخم التى التهمت مدخراتهم، وزيادة معدلات الدين المحلى والخارجى وهو ما جعل الحكومة تتجه لسد العجز فى الموازنة عبر فرض مزيد من الضرائب على المواطنين.

كل ذلك مغلف بتخبط فى المجموعة الاقتصادية الأمر الذى أوجد ضمن عوارض كثيرة سوقا موازية للدولار مما أشعل الأسعار، و بقوانين أصبحت سيئة السمعة قبل أن تأخذ طريقها للتطبيق مثل « قانون الخدمة المدنية « الذى أشعر موظفى الدولة بأن الدولة غير راغبه فيهم وأنها بصدد التخلص منهم، وقانون « القيمة المضافة « والذى أهب الأسعار وأعطى شعورا لدى المواطنين أن الدولة غير قادرة على إدارة الملف الإقتصادى وأنها تركتهم فى العراء لرجال الأعمال والتجار الجشعيين، وزادت معدلات الفقر والبطالة ووضع الجميع على المحك.

هنا ووسط هذا الجو المليء بالشحن الممزوج بالغضب تجاه الحكومة وإجراءاتها الاقتصادية، يظهر شيطان الدول وعراب الأزمات الاقتصادية حول العالم « صندوق النقد « وذلك عبر تصريح الحكومة بأنها بصدد بدء المفاوضات حول حصولها على ما يقارب ١٢ مليار دولار من الصندوق

على ثلاث مراحل، وذلك لاستكمال مرحلة النهوض الإقتصادى ودفع عجلة الاستثمار عبر عرضها لإجراءتها الاقتصادية على الصندوق لبيان أنها مؤهلة لتسلم مليارات الدولارات، ومن بينها قوانين الضرائب والخدمة المدنية. وسط إجراءات تهدئة للشارع الغاضب عبر الحديث عن تخفيضات فى الأسعار، وإغلاق شركات الصرافة التى تتعامل بالدولار فى السوق الموازية.

يا الله.. ما أشبه الليلة بالبارحة نفس السياسات الاقتصادية ونفس الفعل الاقتصادى، والقرض هو القرض لم يختلف بين عصور ثلاث مضت خلال أقل من عشر سنوات والمواطن هو المواطن عليه أن يتحمل ثقل العبء الإقتصادى، ولكن هل سيكون النظام السياسى والحكومة قادرتين على إدارة ملف المفاوضات بطريقة من سبقها وتستجيب لكامل شروط الصندوق؟ أم أنها ستكون مفاوضا قادرا وفاعلا مسلح برؤية كاملة للنهوض الاقتصادى لا ينقصه فقط إلا المال؟

أعتقد أنه للإجابة عن هذه التساؤلات يجب على النظام أن يعى تجارب الدول الأخرى وتجربة مصر فى التسعينيات مع الصندوق، وأن حدود الصندوق وشروطه لا تقف عند حد الإقراض فقط، بل تتعداها إلى حدود وآفاق تهدد مصير البلاد، وأن الصندوق كشيطان يكمن فى التفاصيل.

كلمة أخيرة.. على النظام أن يعى أن هناك من يعارض دخول صندوق النقد على خط الأزمة الاقتصادية، وأن تقبله لشروط الصندوق من عدمها مشروط بمدى نجاعة الإجراءات الاقتصادية التى ستنتج مع نهاية المفاوضات، وأن الاستجابة الكاملة لشروط الصندوق حتى وإن أوجدت مسكنات مؤقتة للحالة الاقتصادية إلا أنها لن تصمد طويلا أمام مطالبات جماهيرية لم يعد لديها شىء تقدمه، وتريد أن ترى تغييرًا حاسمًا ودائما لمشاكلها الاقتصادية.

....على الجميع بعد قراءة المقال أن يعى جيدا أننا على مفترق طرق شاء من شاء وأبى من أبى.

الفصل الثالث

رؤساء مصر

السيسى وقنديل أم هاشم

فى هذه اللحظة التاريخية من تاريخ مصر الحديثة يعيش المصريون لحظة قلقة فى انتظار مخلص ينتشلهم من الحيرة، يقودهم للمستقبل، ولا أدرى وأنا أرى هذا المشهد التراجيدى فى حياة بلادى، أتذكر الكاتب الكبير، يحيى حقى فى رائعته قنديل أم هاشم.

فها هوا الشعب يرزح تحت وطأة الجهل والخرافة والعبودية، ويلجأ مستسلمًا لمروجى الخرافة باسم الدين محترفى تدجين الشعوب، حتى سلبوا إرادته وأقنعوه بأن الحل فى زيت معلق بقنديل فى سقف مسجد السيدة زينب، إلى أن ظهر إسماعيل ذلك الشاب الذى عاد من أوروبا متسلحا بفكر جديد مختلف، الذى لم يعجبه استسلام الشعب للخرافة، فحاول كسر القنديل رمز التخلف، إلا أن سدنة القنديل أثاروا العامة ضده فأوسعوه ضربا حتى كاد أن يقتل، وهو بين الحياة والموت عرف أن التغيير لا يأتى فجأة لمجرد أن هناك فكرا جديدا وأنه يجب أن يشعر العامة بالتغيير ليقتنعوا به، وعندما أيقن ذلك وعمل وسط الشعب، عندها سهل عليه كسر القنديل رمز التخلف.

ونحن فى هذه اللحظة التى كسر فيها قنديل السلطة الغاشمة وتم إهراق زيت العبودية والتخلف منه، ينتظر الشعب من المخلص الجديد ليس فقط حرية الكلام والحركة، بل ينتظر منه فكرًا يعيد إنتاج مصر الحديثة الرائدة المؤثرة فى محيطها.

وإذا كان الفريق السيسى قد وقع عليه اختيار العامة لقيادتهم خلال هذه المرحلة القادمة، فأنا أرى أنه قد يقع فى مأزق كبير من أجل إنتاج فكر جديد، فنحن أمام ظاهرتين أساسيتين أصبح الشعب أسيرًا ومنغلقا عليهما لا يستطيع أن يبصر فى المستقبل بسبب ما تعرض له خلال سنوات التجريف الماضية وهو يدفع الفريق السيسى لتطبيق إحداهما:

أولاهما: نموذج الناصرية الذى مزج بين الافكار القومية والدينية فيما سمى بسياسة الدوائر والتى رأى فيها فترة ازدهار برغم ما تعرضت له من هزيمة وانكسار وانحسار.
ثانيتهما: نموذج الرئيس المؤمن الذى انغلق على نفسه فى الداخل، وفشل فى إيجاد بديل فكرى، وأطاح بمصر خارج مجال التأثير فى محيطها،

ولذلك أرى أن على الفريق السيسى أن يطرح طريقا ثالثًا يعيد إنتاج قدرات مصر ويعيدها إلى مكانتها التى تليق بها.

ولعل مشهد كسر قنديل السلطة الغاشمة تحت هدير حناجر الشعب فيه من قوة الدفع ما يجعله يفكر فى إيجاد بنية فكرية جامعة توحد الشعب نحو المستقبل الجديد.

وإذا لم يحدث ذلك دعنى أذكرك سيادة الفريق أن الشعب قد أرجح قنديل عبدالناصر، وشرخ قنديل السادات،

وحطم وكسر قنديل مبارك ومرسى من بعده.. فلك الاختيار.

السيسى ثائرًا

لقد ترددت كثيرًا فى الكتابة عن تلك الشرذمة من البشر التى تستبيح كل شىء؛ من أجل الوصول إلى أهدافها وهم فلول كل نظام، ذباب قذر على جسد متعفن تبحث دائمًا عن عائل تعيش عليه، وهم ليسوا وليد هذا الزمن ولا هم نبت شيطانى ظهر فجأة، بل هم على مدار التاريخ موجودون يزينون لكل حاكم أفعاله، حتى إن ثار الشعب على الحاكم سارعوا بتركه وذهبوا إلى غيره

ولعل مشهد الحسين بن على سيد شباب أهل الجنة، وهو مضرج فى دمائه مقطوع الرأس، ليس ببعيد عن أفعال هذه الشرذمة القذرة من البشر، فهم الذين زينوا للخليفة يزيد بن معاوية أن الحسين ما خرج ثائرًا على ظلم أو حوائج شرعية، ولكنه ما خرج إلا لينزع الخلافة وينازعك الملك، فأقدم الخليفة على استباحة أهل بيت النبوة قتلًا وتشريدًا، ولم يكتفوا بذلك بل شهروا بآل البيت على المنابر.

وعندما ثار الناس لما علموا بهذه الفعلة وشككوا فى إسلام الخليفة، ظهر منهم ما يعرف بفقهاء هذا الزمن المثقفين من المحسوبين على هذه الشرذمة؛ ليمارسوا ألاعيبهم المعتادة وقالوا، إن الخليفة صح إسلامه وما صح قتله الحسين؛ لأنه لم يأمر بقتل الحسين، نفس الحيل القديمة لتدجين الشعوب وقتل روح الثورة فيهم.

ولعل هذا المشهد الكربلائى الحزين له نصيب وافر فى الحالة المصرية الراهنة، فهاهم فلول النظام المباركى الذين قالوا لمبارك إنه الرئيس الاوحد، وإن معارضيك ما عارضوك إلا منازعة لك فى الحكم، بل وصلوا إلى أن حاولوا أن يورثوا ابنه الحكم بعده فى مشهد تاريخى مكرر

وما إن ثار الشعب رافضًا حكم مبارك حتى حاولوا استنساخ كربلاء ثانية للثوار فى ميدان التحرير وذلك يوم موقعة الجمل، وزينوا له قتل الشباب الثائر أحفاد الحسين الثائر، وما إن فشلوا فى إنقاذ مبارك واسترداد الشعب حريته فى مشهد ثورى لا يتكرر كثيرًا فى التاريخ ممثلا فى ثورة ٢٥ يناير وموجة ثورية مكملة لها يوم ٣٠ يونيو، حتى ظهروا من جديد يعيدون مشهد فقهاء الخليفة معلنين أنهم ثوار ويقولون إن مبارك صح حكمه وما ظلم وما صح قتله الثوار ولا أمر بقتلهم، على أمل استعادة ما فقدوه.

هذا المشهد الذى دفع الشعب الى التشكيك فى نظام الحكم القادم على أنه إعادة إنتاج نظام مبارك الفاسد، مما دفع قطاعات من الشعب الى الكفر بالثورة ونتائجها التى جاءت بتلك

الشرذمة، هذا الذى دفع بالفريق السيسى إلى التأكيد على عدم عودة تلك الشرذمة مرة أخرى إلى المشهد السياسى.

ونحن نقول لسيادته إنك إذا اعتقدت أن تلك الشرذمة المعلومة العدد والفعل هم كل الشرذمة، فإنك تكون قد تلبسك فعل الوهم لأنهم ليسوا أشخاصًا بذاتهم بقدر أنهم مطامع لإناس متسلقين لا يربطهم مبدأ ولكن تربطهم مصالحهم فقط ، فاحذرهم فإنهم رسل الشيطان،

ولتعلم سيادة الفريق أن مشهد دماء الحسين هو مشهد مكرر فى التاريخ، قابل للتكرار دائمًا فاصلًا بين حق الثورة وبين دعاة المصالح من رسل الشيطان.

فإما أن تكون ثائرًا لدم جيكا و كريستى وأمثالهما ، وإما أن تعيد ترميم مبنى الحزب الوطنى، وساعتها فنحن مقبلون على كربلاء جديدة.

السيسى وبدر الجمالى

إن فى تاريخ الأمم والشعوب على اختلافها على مر العصور دروسا وعِبرا وشهادة على الفعل البشرى لتلك الأمم، ويربط العلماء بين عبقرية المكان وتداخله مع عبقرية قاطنية، حيث يتوالد الإبداع وتنشأ الحضارات وتتلاقح الثقافات، وقد عبر العالم الكبير جمال حمدان عن عبقرية المكان وتفاعله مع تاريخ قاطنيه فى كتابه «شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان»..عندما قال «الجغرافيا تاريخٌ متحركٌ والتاريخ جغرافيا ساكنية».

لذلك فإن للمكان فعلا حاكما فى بناء التاريخ والحديث عنه، وعندما يتحول إلى أطلال وشواهد عندها تصبح السياحة بين جنباته وسيلة مهمة لاستلهام العبر عند الحديث عما هو قادم فى المستقبل.

وقاهرة المعز الفاطمية بأثارها وأطلالها شاهدة على عبقرية المكان وشخصية قاطنية، فقد بُنيت على مراحل، كل مرحلة تحمل سمات خاصة بها وتعبر عن مرحلة مهمة فى التاريخ المصرى، ولعل أحد أحيائها وهو حى الجمالية بنشأته وما يحويه بين جنباته من آثار وشواهد، يثير فى نفوسنا ذكريات تكاد تكون أحداثها مشابهة للواقع المصرى الحالى، ونافذة مهمة لمحاولة استقراء المستقبل.

فهاهو الخليفة المستنصر بالله، يستدعى أحد ولاته بدر الدين الجمالى عام ١٠٧٣ م ليكون القائم بتدبير شئون الدولة وإصلاح الأمور، وهذا الأمر كان مألوفا فى أواخر عصر الدولة الفاطمية والذى عرف بعصر الوزراء العظام، نظرا لضعف الخلفاء الفاطميين، وقد نصب الخليفة بدر الجمالى وزيرا له وأميرا للجيوش، وقد كان شديد الهيبة مخوف السطوة فاتكا جبارا بخصومه، كثير الخير كريما يخدم العلم وأهله.. وتلك الصفات جعلتة يتخلص من قادة الفتنة ودعاة الثورة على الخليفة، وإعادة الهدوء والاستقرار لكامل مصر وبسط نفوذ الخليفة على جميع أرجاء البلاد، وكذلك تتبع المفسدين فى كل جهة من جهات مصر حتى أفناهم عن أخرهم واستصفى أموالهم، فاستقامت الأمور وسكنت الفتن وفرض النظام والهدوء.

ثم قام بتنظيم شئون الدولة وإنعاش اقتصادها وشجع الفلاحين على الزراعة وأصلح لهم الترع والجسور، وقد كان لاستتباب الأمن دور كبير فى تنشيط حركة التجارة فى مصر وتوافد التجار عليها من كل مكان.. وكعادة من سبقوه فقد قام بتحصين وإعمار القاهرة وتخليد اسمه عبر المكان، حتى تسمى حى الجمالية بإسمه تخليدا له.

وبعد مرور أكثر من ٩٤١ عاما على استدعاء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى، وتوارى حى الجمالية عن الأحداث التاريخية، إلا من ثلاثية نجيب محفوظ الأدبية، يطل علينا أحد مواليد الحى

وهو أمير الجيوش ووزير دفاع المحروسة المشير السيسى متصدرا واجهة الحكم ، بعد استدعاء قطاع كبير من الشعب، مرشحا لرئاسة مصر، فى محاولة لإصلاح الأمور واستتباب الأمن وإنقاذ الاقتصاد من الانهيار وكأن التاريخ توقف بين جنبات حى الجمالية فى تشابه غريب بين الحاضر والماضى.

ولكن يبقى السؤال، وقد تشابهت الحالة المصرية فى مكان واحد وزمنين مختلفين وظروف متباينة: هل يستطيع السيسى أن يفعل ما فعله بدر الجمالى، ويخلد اسمه عبر التاريخ ؟

أظن أنه من المبكر الحكم على ما قد يفعله السيسى فى المستقبل، ولكن تبقى العبرة والدروس التاريخية محط اعتبار عند بداية مرحلة جديدة فى التاريخ المصرى.

فعلى السيسى وقد حسم أمره، وبات من المؤكد تحصلة على كرسى الحكم، أن يعلم أن بدر الجمالى قبل أن يكون مخلدا بأعماله، كان من علامات انهيار الدولة الفاطمية وأن أعماله كلها كانت عن طريق القوة وبسط النفوذ تحت دعاوى استتباب الأمن، وحماية عرش الخليفة دون الالتفاف إلى أن الأمن لايطبق على الجميع بطريقة واحدة، فليس قاطع الطريق والإرهابى كالثائر على الظلم، وإذا كان ذلك منطق الماضى، فيجب علي السيسى إذا أراد أن يكون علامة وبداية لتقدم مصر، عليه أن يتلافى ما وقع فيه الجمالى من أخطاء، وأن يأخذ منه قوته وشدته على المفسدين، ويكون نصيرًا للمظلومين، فاتحًا صدره للجميع غير مُقص أحدًا إلا لمن اقترف جرما فى حق المجتمع، ساعتها نستطيع أن نقول إن مصر وقفت على الطريق الصحيح نحو مستقبل أفضل لنا ولأبنائنا.

عبد الناصر . وجبل الحطام

كنت قد تخلصت من التحيزات السياسية منذ فترة بعيدة،وأصبحت أرى جميع التيارات السياسية ورموزها على مسافة واحدة،وذلك فى محاولة جادة للوصول للحقيقة التى أبحث عنها من خلال البحث والقراءة،ولكن ذلك ليس بالعمل السهل فهو بمثابة إبحار ضد العاصفة بعد أن أصبحت الأفكار والتحيزات الحزبية والشخصية مثل « كثرة النقود الزائفة فى الأسواق تجعل الناس تكذب بوجود الذهب الصراح ويعتادوا على أن الأمور قد تصلح ويستقيم الحال بلا ذهب «،والتى تتطلب مجهودا مضاعفا للوصول للحقيقة خصوصا وأن هناك أوغادا كثر يسيئون للأفكار التى يعتنقوها ولرموزها قبل أنفسهم،وهم يقفون حجر عثرة أمام البحث عن الحقيقة بسبب عدم نزاهتهم فى نقل تلك الأفكار والتعصب للرموز ،وهو ما جعل الكاتب « توماس كارليل « يوجة إليهم نصيحة قائلا « اجعل نفسك شخصا نزيها وسوف تتأكد من أن عدد الأوغاد فى العالم قد نقص واحد «

وهذا يجعلنى فى مراحل معينة مطالبا بالاشتباك مع المؤيدين والمعارضين لنفس الفكرة والرموز سواءً بسواء من أجل الوصول للحقيقة التى يريدها الناس والتى قد تدفعهم بعيدا عن التعصب الأعمى.

وليس أدل على هذه الحالة هو ما نعيشه بعد أحداث ثورة ٢٥ يناير وأحداث ٣٠ يونيو، من اشتباكات عنيفة تصل فى أحيان كثيرة إلى التراشق بالألفاظ النابية وصولا للاشتباك اليدوى،بين دعاة القومية الناصرية ومناهضيهم من التيارات الأخرى،فالكل يدعى البطولة الثورية والأفضلية الرمزية حتى تاهت حقيقة تلك الأفكار وتلوثت الرموز بوحل القاذورات الفكرية والتعصب الأعمى واختلط الحابل بالنابل،وتاهت الأجيال الجديدة فى متاهات الصراع الموروث حتى فقدت الأفكار قيمتها والرموز أصبحت محل انتقاد وتشهير يطال من حقيقتها وقيمتها وهو ما يتطلب النزول لحلبة الصراع للدفاع عن قيم ومبادئ عامة أصبح الخروج عنها أمرا يطال حقيقة ثابتة.

ويبدو أن هناك من يريد أن يغيرها ويقفز عليها وصولا لأهداف غير مشروعة،وهو ما ينطبق على فترة القومية العربية ورمزها الرئيس جمال عبد الناصر فى ستينيات القرن الماضى، التى لم أشهد لها فترة حرجة كتلك التى تمر بها الآن، فتجربتها أصبحت فجأة محل إنتقاد وهجوم شديد،وفى المقابل هجوم مضاد من دعاتها على الرغم من انتهاء تلك الفترة بحلوها ومرها،ولكن تبقى السمة الغالبة على هذا الصراع الجدلى العقيم هو الهجوم على رمزية الرئيس جمال عبد الناصر والنيل من مكانته وصولا للتشكيك فى نزاهتة وشخصيته.

وكأن المطلوب من هذا الصراع المفاجئ أن يتم التشكيك فى رموز هذا الوطن حتى يقتنع الشباب بأنه ليس هناك رموز حقيقية وأن كل شيء زائف حتى يسهل اقتيادهم والتحكم فيهم عبر شيوع ثقافة استهلاكية بينهم تبعدهم عن الثوابت..

وفى المقابل لم يفلح « القوميون الجدد « كما يحلو لى تسميتهم فى التخلص من أو تطوير أفكار الماضى للوصول لحلول جديدة تناسب عصرا جديدا بعيدا عن التعصب،ولكنهم أثروا المضى فى طريق ألفه أباؤهم فكان سهل اصطيادهم فى رمزهم وتجاسر عليهم الكل،حتى أن أى محاولة للدفاع من جانبهم عن رمزية الرئيس عبد الناصر ستقابل كما قال « توماس كارليل « « بجبل من الحطام وكومة ضخمة من الإفتراء والنسيان «، افتراء يفتقر إلى المصداقية والتهوين من شأن الرئيس عبد الناصر من قبل معارضيه، ونسيان وجحود من مناصريه لأفكاره وعدم تطويرها واستسلامهم لصراع لا طائل منه.

الأبطال تصنعهم الحوادث،وهم طراز مختلف من البشر ولا يستطيع أحد أن ينال منهم حتى وهم أموات، ذلك بأنهم حفروا أعمالهم فى قلوب الملايين من البشر، فخلدتهم البشرية رغما عن كل حاقد أو ناقد، ولكن يبقى العتاب واللوم على غيرهم الذين أرادوهم آلهة مخلدة، فغالوا فى تقديسهم هم حتى تراكمت جبال من حطام الافتراء والنيل منهم نتيجة سلوك مناصريهم ومناهضيهم.

والرئيس عبد الناصر ليس استثناءً عن غيره من أبطال التاريخ فهو يعانى كغيره من جبال حطام الافتراء والاجتراء عليه وعلى مشروعه فى واحدة من مفارقات التاريخ الحديث، والتى تعلى من قيم التبعية واقتصاديات السوق وضياع حقوق العمال والفلاحين.

لذلك علينا جميعا حتى وإن كان اختلافنا مع سياساته محل جدال، أن نحافظ على ما تبقى لهذا الوطن فى هذا الزمن الكئيب ألا وهو الحفاظ على رمزية الرئيس عبد الناصر وغيره من رموز هذا الوطن،الذى أرى أنه يعانى أزمة كبيرة طالت كل شيء فيه،وأن تكون لدينا الشجاعة لأن نتخلص من الأوغاد الذين يمرحون بيننا يؤججون الصراع فى المجتمع ويفرحون لسقوط الرموز على الأرض، ويهللون للمنتصر، فى معركة الكل خاسر فيها،لأن ساعتها لن تجدوا غير الرموز المزيفة تهديكم إلى التبعية وضياع الوطن.

الجنرال والحرافيش

بعد انتهاء أحد فصول مسرحية اللا معقول- الاستفتاء- التى نعيش فصولها منذ ثلاث سنوات،
طفت ظاهرة غريبة كنت أحسبها اختفت منذ بداية نشأة الدولة المصرية الحديثة، تجلت فى تخلف نخبة هذا المجتمع وعدم قدرتها على إيجاد بديل حقيقى يقود هذا البلد الى المستقبل، بل تستقوى
بالشعب كمجموع جماهيرى لتبرير عجزها، والاحتماء به تحت دعاوى الحفاظ على الدولة.

هذا المشهد العبثى استدعى من ذاكرتى مشهدًا تاريخيًا لا يقل عبثية عما نحن فيه منذ خلع الرئيس محمد مرسى، فها هو عمر مكرم والشيخ الشرقاوى يذهبان إلى الوالى خورشيد باشا، بمطالب محددة،
يرفضها الوالى جملة وتفصيلا، فيتم تثوير العامة والحرافيش ضد الوالى.

وتتوالى الأحداث ما بين عناد الوالى وانتشاء النخبة بزعامة وهمية، وفى لحظة انكشاف- ما هو البديل- يذهب أهل النخبة إلى قائد عساكر الوالى فى مصر محمد على
وأحضروا له كركا وعلية قفطان.. ووقفوا ضد السلطان العثمانى فى الأستانة حتى عينه واليًا على مصر استجابة لرغبة الشعب.

ومع تشابه الحوادث ما بين توليه محمد على، والرغبة الجامحة فى تولية الجنرال السيسيى، يبقى السؤال الأهم:
هل يتعامل السيسى مع النخبة كما تعامل الوالى محمد على قتلاً؟
فى ظنى أن استدعاء مشهد الدماء قديمًا أصبح غير مقبولا الآن، ولكن مهمة إصلاح النخبة أصبحت محل شك كبير لما أصابها من وهن، لذلك أرى أن الفريق السيسى ليس أمامه إلا الاستقواء بالعامة والحرافيش-الشعب- من أجل إحداث تحول نوعى فى مسيرة هذا البلد فى المدى القصير، على أمل إنتاج خطاب ثقافى جديد ناتج عن إصلاح حقيقى لبنية المجتمع، وقادر على إفراز نخبة جديدة تكون قادرة على استيعاب إمكانات الحاضر وضرورات المستقبل، معبرة عن الشعب قائدة له وليست محتمية فيه ذعرًا.

إن الآمال المعقودة عليك سيادة الفريق من العامة وإن كانت تعبر عن مطالب مشروعه- فإنها تعبر أكثر عن محنة شعب عانى ويعانى مشاكل لا حصر لها، شعب فى أزمة حقيقية،

لذلك فإن التفكير فى الإقدام على تحمل المسئولية كاملة يجب أن يكون مدروسًا، لا تنظر إلى نخبة لا تريدك حاكمًا ولكن لا مفر أمامها إلا ذلك خوفًا على مصالحها

ولا يغرنك هدير حناجر العامة والحرافيش التى تريد حاكمًا يخلصها مما هى فيه.

سيادة الفريق، تذكر جيدًا أن استرجاع حوادث التاريخ للحكم على المستقبل فيه مخاطرة غير محسوبة،

كذلك محاولة إنتاج زمن مضى مع عدم الأخذ فى الاعتبار اختلاف الظروف، هو انكسار ونهاية محتومة لحلم سلطة قد يتبدد سريعًا

وتذكر دائما أن الحرافيش إن لم تتحسن ظروفهم معك.. فلا يغرنك هيئتهم الرثة وثيابهم البالية فتحتها قد تجد نارًا تحرق كل نياشين الجنرال..

فإلى قادم المواجهة المرتقبة بين الجنرال والحرافيش.

سيادة الرئيس . .
هناك حل آخر غير المملوكى

« إلى الذين يحبون مصر وردة ناضرة ذات أريج « بهذا الإهداء المفعم بروح الوطنية والخوف على ما تبقى من مصر الحديثة، يفتتح الدكتور» ع . ع» كتابه القيم « تراث العبيد فى حكم مصر المعاصرة « ، الذى حيرنى لماذا لم يكتب اسمه كاملا إلا بعد أن عرفت أنه مازال يشعر بأنه يعيش أجواء الحكم المملوكى بكل مساوئه رغم انتهاء هذا الحكم منذ عقود طويلة، فهو يرى أنه إذا كانت الدولة المملوكية قد زالت واندثرت فى غياهب التاريخ، إلا أنها وعلى الرغم من سقوطها السياسى وزوال سلطانها تغلغلت فى كل النواحى الإدارية والحياتية فى المجتمع المصرى منذ سقوطها وحتى الآن.

فهو من خلال الكتاب يرصد سلوكا مملوكيا تفرد به الحكام المماليك دون غيرهم، فهاهو الأمير المملوك يشترى العبيد غلمانا صغيرة ويربيها ويعلمها أساليب الحرب لتشب على الطاعة المطلقة له، فى مواجهة الأمراء المنافسين ولضمان عدم الخيانة، وهو ما يرصده الكاتب فى طريقة تعيينات الدولة المصرية الحديثة فى الوظائف العامة حيث تختار الدولة من تضمن ولاءه وليس لمعيار الكفاءة لضمان الاستمرارية للنظام القائم.

وهكذا بمرور الأيام تصبح الدولة معزولة عن الشعب، ويصبح دائرة الحكم عبارة عن صراع دائم بين الأقوياء فيما يعرف بطريقة التشرذم المملوكى التى تنحصر بمرور الأيام حول فكرة من يتولى الحكم.

وهو لا يستثنى كل المكونات الحديثة فى الدولة المصرية ومنها التيار الإسلامى، حيث يقرر أن هذا التيار كان فى بداية تكوينه بعيدًا كل البعد عن مكونات التراث المملوكى، حتى بدأ فى التفكير فى تولى السلطة فاختلط بكل مكونات هذا التراث وأصابه ما أصاب النظام الحاكم، وأصابه ما عرفه الكاتب بـــ»تراث العبيد البيض» الذى ظهر نتيجة اختلاف الرؤى بين أنصار هذا التيار الذى خرج من إطاره الأول إلى إطار السلطة والصراع فيما بين أطيافه، ناهيك عن الصراع مع أجنحة السلطة القائمة.

وفى المقابل، يوضح أن تراث العبيد البيض و التشرذم المملوكى لم يصب النظام الحاكم والتيار

الإسلامى فقط، بل طال حتى كل التيارات التى تتبنى الأفكار الغربية من يساريين وليبراليين. ومن ورائهم الشعب بكل فئاته والذى يرصد أثر هذا الفكر المملوكى وتعاطى الشعب معه من خلال أجهزة هذا النظام، حيث يقرر أن الشعب تعود على هذا النمط من السلوك القائم على التعامل الخشن من خلال أدوات السلطة التى تريد شعبا خانعا.

فهو يرصد تعامل الشعب مع الشرطة عبر الإقرار بأن عليه أن يأخذ على « قفاه « عند الدخول لقسم الشرطة كإجراء مملوكى تفردت به الدولة المصرية فى التعامل مع الشعب كعقاب أولى يحمل كل معانى الإهانة، ناهيك عن تفرد أصحاب وأتباع السلطة بأسلوب مملوكى مصرى خالص، حيث يطلبون أشياء من المواطنين دون دفع أثمانها تحت قاعدة أن «الباشا» لا يدفع نظير ما يأخذ.

وهو فى المقابل يطرح تساؤلا عريضا « ماجدوى التشريعات والقوانين إذا ما دام ستطبق بأسلوب المماليك؟ وهو يرى أنه ليس هناك جدوى من ذلك لأن الأمور تحتاج لما هو أهم من التشريعات والقوانين، ونحتاج إلى إعادة هيكلة النظام السياسى، بل وكل المجتمع من أجل التخلص من التراث المملوكى الذى تغلغل فى كل مكونات المجتمع ولم يترك مكانا إلا وله أثر فيه .

كان هذا كله قبل قيام ثورة ٢٥ يناير التى أزاحت نظاما طبق فيه التراث المملوكى وعبيده البيض، كأحد أسوأ تجليات هذا التراث وانفرد النظام السياسى بغلمانه، الذين عاثوا فى الأرض فسادا وأذاقوا الشعب كل صنوف العذاب.

بل وتفرغ للصراع مع مكونات العمل السياسى على طريقة المماليك، على طريقة من منهم يقدر على الثانى.

وما أن زال هذا النظام المملوكى حتى تنفس الناس الصعداء وأحسوا أن لهم مكانا تحت الشمس، ومع توالى الحوادث وبعد ٦/٣٠ ووضع الشعب ثقتة فى النظام الجديد على أمل التغيير وبناء نظام جديد بعيد عن سياسة العبيد البيض، إلا أن هذا الأمل يكاد يختنق تحت وقع مظاهر مملوكية ما زالت قائمة تعوق حركة الدولة الجديدة نحو الأمام، فتوريث المناصب والوظائف كازال موجودا، وقاعدة الولاء هى التى تحكم، والأمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى.

سيادة الرئيس، ما زلت أقول إنك لديك فرصة ذهبية للخروج من نفق الدولة المملوكية إلى رحاب الدولة الحديثة القادرة الواعدة، وأعلم أنك تعانى من سلوك العبيد البيض الذين يقبعون فى كل نواحى أجهزة الدولة المختلفة والذين يجهضون أى محاولة للتغيير.. ولكن أرى أنك باستقوائك بالشعب الذى يرزح تحت أدوات الحكم المملوكى قادر على إزاحة هذا العهد للأبد، للوصول إلى حلول مبتكرة وناجعة للخروج بمصر من أزماتها السياسية والاقتصادية، بعيدا عن

الحلول المملوكية الجاهزة التى ستعزلك حتما عن جميع طوائف الشعب.

سيادة الرئيس ننتظر منك أن تجمع شمل جميع أطياف المجتمع، على وثيقة عمل موحدة، تزيل أثار الاحتقان داخل المجتمع لنخرج بها ومن خلالها من دائرة الأزمات التى تداهمنا من آن لآخر.

فهل أجد صدى لما أطلبه لدى سيادتكم؟؟

أنا وجميع أطياف الشعب فى انتظاركم.. ونعلم يقينا أنك لا تريد عبيدًا «بِيض» يُفجرون المجتمع من جديد.

وحوى يا وحوى .. السيسى

« امدحوا سيدة المصريين، سيدة جزر البحر المتوسط ذائعة الصيت فى كل بلد أجنبى، هى التى تصنع الخطط للناس، زوجة الملك، أم الملك، ابنة الملك، النبيلة العالمة بالأشياء التى ترعى شئون المصريين، هى التى جمعت شمل الجيش ووضعته تحت رعايتها وحمت الناس وأعادت المهاجرين وجمعت الفارين، هى التى هدأت الجنوب وأخضعت ثائريه.. إنها إياح حتب، زوجة الملك، لها الحياة الأبدية «.

هكذا خلد الملك العظيم « أحمس « والدته التى تحملت العبء الأكبر فى الدفاع عن مصر ولملمة أشلائها المتناثرة على يد المحتل « الهكسوس « عقب وفاة زوجها الملك ومن بعده ابنها الملك « كاموس « وتولت شئون الحكم والرعية حتى كبر ابنها الصغير ذو العشر سنوات « أحمس « وتولى الحكم وأنتصر على الهكسوس وطردهم من مصر.

إنها الملكة التى صارت فى عيون الشعب المصرى الأمل وصاحبة الفضل فى النصر على الهكسوس، لأنها هى من لملمت الجيش المبعثر ورعت شئون المصريين حتى تغنى باسمها الشعب حاملين المشاعل والمصابيح عند قدومها بعد النصر قائلين « وحوى يا وحوى إياحة « أى « مرحبا يا قمر الزمان «.

قد تبدو الحكاية للوهلة الأولى أنها تأصيل أو إعادة تذكير باسم ملكة عظيمة طواها النسيان، أو محاولة موسمية للبحث التقليدى المصرى عن مدلولات الكلمات المتداولة فى التاريخ الفرعونى وكأن التاريخ لم يتحرك منذ نهاية العصر الفرعونى.

ولكن ما جعلنى أتناول تلك القصة هو ذاك الشعب الذى يبرهن بعبقريته الشعبية البعيدة عن أبواق السلطة عما يجيش فى صدره دون رتوش، حتى يتحول هذا التعبير إلى أيقونة فى الذاكرة يسحبها على ما يراها مناسبة فى أى زمان ومكان، بغض النظر عن الحاكم أو طبيعة الحكم، لذلك لا عجب عندما يتفرد المصريون عن سائر المسلمين فى شتى بقاع الأرض فى طبيعة استقبال شهر رمضان الكريم، حيث لم تنسَ الذاكرة الجمعية للشعب المصرى فرحته باستقبال ملكته « إياح حتب « التى كانت أيامها خيرًا ونصراً والتى تحولت كلمات الاستقبال من المعنى الحرفى للكلمات إلى معنى للخير والسلام لذلك لا نتعجب من أن يستخدمها المصريون فى استقبال شهر الصيام، شهر الخير والمحبة والسلام.

ولكن مع تحول الكلمات من الاستقبال السياسى إلى الاستقبال الدينى، يبدو أن المزاوجة بين

السياسى والدينى ما زالت حاضرة فى الذاكرة المصرية عند استقبال شهر رمضان، فنرى الحالة الاقتصادية هى ما تؤثر على طبيعة المصريين المرحة الساخرة، فاستثنوا الجانب الدينى من السخرية اللاذعة، وصارت سخريتهم من فعل السلطة على زيادة الأسعار هى ما يعكر صفو استقبال شهر الخير، لذلك من يعرف الشعب المصرى لا يعجب من فعله بالغناء العفوى فى استقبال من يحملون الخير من الحكام إلى فقراء هذا الشعب، فى مقابل عدم اهتمامه بأى تخليد يعمله الحاكم لسنوات حكمه حتى وإن بدا عليه نوع من الاهتمام التاريخى.

لذلك ونحن على بعد سُويعات قليلة من حديث الرئيس السيسى الذى قدم فيه ما عرف طبقا للتقاليد الغربية « كشف حساب « عن سنوات حكمة « الاثنتين «، ومع اقتراب شهر رمضان، شهر الخير والسلام، ووسط حالة من الغلاء غير مسبوقة.. فبماذا سيستقبل المصريون هذا الشهر، هل سيهتفون للرئيس وسط هذا الغلاء مع كل ما ذكره من إنجازات ؟ أم سيكتفون بالاستقبال الدينى مشفوعا باسم ملكتهم القديمة « وحوى يا وحوى إياحة « ؟ أم ستكون السخرية من الغلاء هى المائدة المفضلة للمصريين والتى تعبر عن استيائهم هى الشريك غير المرحب به عند استقبال شهر الخير والسلام؟

والسؤال الذى يُحيرنى، لماذا لم يفكر المصريون طوال تاريخهم الطويل فى إقران اسم أى ملك أو رئيس بأنشودة « وحوى يا وحوى « وقصروها على الشق الدينى ؟ هل هو يأس من الحكام أم أنها العاطفة الدينية ؟ وهل من الممكن أن يأتى رمضان ونسمع فية إسم الرئيس ممزوجا بالأغنية « وحوى يا وحوى السيسى « ؟

كل عام أنتم بخير... وحوى يا وحوى إياحة.

السيسى فى المتحف

اجتماع الرهان الأخير، هكذا هو الوصف الذى يستحق على أن يطلق على اجتماع الرئيس السيسى برؤساء الأحزاب، حيث إن الأحزاب المصرية قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أنها ليست على قدر المرحلة التى تمر بها مصر، الأمر الذى استدعى قيام رأس الدولة بالدعوة للاجتماع بها فى محاولة أخيرة للتوفيق فيما بينها من أجل توحيد الصف خاصة ومصر مقبلة على انتخابات برلمانية ستحدد شكل المرحلة القادمة.

ولكن يبدو أن الاجتماع لم يسفر عن جديد مما قد يضع الرئاسة أمام سيناريوهات مفتوحة منها قصر عمر البرلمان القادم، الأمر الذى قد يدفعها إلى استخدام طريقة الرئيس عبد الناصر فى التعامل مع ذات الأزمة عندما وجد انسدادا فى الأفق السياسى سيعطل مشروعه واصطدامه بالإخوان المسلمين والشيوعيين

وهي محاولة إحياء التنظيم الواحد خوفا من تبعات النكوص مرة أخرى والتعامل مع التيار الإسلامى كبديل من أجل الخروج من الأزمة السياسية .

ويبدو أن الرئاسة ربما تكون مرغمة أو مكرهة على التعامل مع هذا الوضع المزرى الذى وصلت إليه الحياة السياسية المصرية وأحزابها السياسية من أجل الخروج المرحلى من أزمة التحول الديمقراطى .

إنه اجتماع يذكرنى بفيلم « ليلة واحدة فى المتحف « حيث بطل الفيلم يضطر إلى العمل حارسا ليلا فى متحف من أجل أن يضمن الاستقرار لابنه الصغير، ولكنه يفاجأ بأن التماثيل فى المتحف تدب فيها الحياة ليلا نتيجة تعويذة فرعونية وهو ما أثار فزعه وخوفه وترك العمل ولكنه رجع بناء على نصيحة الحارس السابق الذى أوصاه بقراءة كتب التاريخ من أجل كيفية التعامل مع التماثيل التى تمثل حقبا مختلفة، ومع تعامله مع التماثيل أراد بطل الفيلم أن يرى ابنه عمله الجديد والتماثيل التى تتحرك ليلا، ولكن عندما وصل الابن وجد أن التماثيل لم تتحرك، حيث إن حراسا آخرين للمتحف سرقوا التعويذة ظنا منهم أنها تضمن لهم الشباب الدائم، هنا يتحالف البطل مع التماثيل من أجل استرجاع التعويذة التى ستجلب المشاكل والويلات إن هى وقعت فى اليد الخطأ مع وعد التماثيل بأن تظل تماثيل ولاتعود مرة أخرى إلى الحياة، وعادت التعويذة ولم تعد التماثيل تتحرك مرة أخرى، وتحسن وضعه الوظيفى فى المتحف وهو ما حقق به الاستقرار لابنه الصغير.

أهكذا وصل بنا الحال فى السياسة المصرية بدلا من أن نبحث عن مستقبل شبابنا، من خلال دمجهم فى الحياة السياسية فإذا بنا نبحث عن مستقبلهم بين تماثيل سياسية من متحف التاريخ المصري، الذين دبت فيهم الحياة نتيجة تعويذة دعوة الرئاسة لهم، فتصوروا أنهم قادرون على الفعل وقيادة المرحلة، وتناست الرئاسة أن تلك التعويذة لن تحيى أملا جديدا لتماثيل فقدت مصداقيتها وتحولت بفعل الزمن والتجربة إلى مسوخ تاريخية لفظها المجتمع أكثر من مرة. إنهم ليسوا أكثر من شواهد لقبور أيديولوجية لأفكار ماتت وتعفنت.

سيادة الرئيس، إذا أردت أن تدخل المستقبل فعليك بترك المتحف وتعاويذه، واحتفظ بكتاب التاريخ للتجربة والعظة، وضع يدك فى يد الشباب من أجل تحقيق الاستقرار وبداية زمن جديد من التنمية والاستقرار السياسى ولا يكفى أن تصرح وتنفى أنه ليست هناك خصومة بينك وبين الشباب ولا أن تؤكد أن الأمور تسير بشكل جيد فى ظل الظروف الحالية.

إن الشباب يقفون خارج المتحف فى انتظار انتهاء زيارتك له، فهل يكون خروجك منه نصرة للشباب، أم نجدك خارجا منه وبصحبتك الماضى.. سنرى وبيننا وبينك الأيام القادمة.

سيادة الرئيس . .
لماذا يضيق صدرك ؟

لقد أثارت أزمة ترسيم الحدود البحرية بين مصر والسعودية زوابع وعواصف أعتقد أنها لم تطال فقط فكرة التنازل عن الجزيرتين بين المؤيدين للمعاهدة أو المناهضين لها، وإنما عبرت فى أحد أعراضها الجانبية عن حالة من « ضيق الصدر» عبر عنها الرئيس « السيسى « فى حواره مع ما عرف « بحوار العائلة المصرية « حيث أظهر ضيقا واضحا من الإعلام وخاصة مواقع التواصل الاجتماعى « السوشيال ميديا « الذى ألقى عليها باللوم فى تصاعد أزمة الجزيرتين ومن قبلها قضية مقتل الشاب الإيطالى « ريجينى «.

وقد أعقب ذلك تظاهرات عرفت بــ» جمعة الأرض والعرض « للتعبير عن رفض المعاهدة قاد فيها الشباب الدعوات للتظاهر عبر « السوشيال ميديا « وعلى الرغم من محدوديتها إلا أنها تركت أثرا بالغا فى علاقة السلطة بالشباب فى عام أطلقت عليه السلطة « ٢٠١٦ عام الشباب «، وهو ما سبق أن حذر منه الكاتب الراحل | محمد حسنين هيكل الرئيس السيسى من أن الشباب ترك العمل على الأرض بسبب الإحباط من عدم تحقيق مطالبه بعد ثورتين وصعد إلى الفضاء الإلكترونى، مشيرا إلى أن النظام السياسى ليس لديه نموذج سياسى واضح لجذب الشباب وأنه على الرئيس السيسى أن يعيد الشباب مرة أخرى إلى التفاعل مع قضايا الوطن قبل أن يتحول يأس الشباب إلى معادين للدولة أو إرهابيين.

وأعتقد أن زيارة للتاريخ بصبحة الكاتب الراحل «هيكل « ستشرح لنا أن ما نعيشه ليس حالة جديدة أو نتاجا ثوريا عارضا وإنما حالة تتصاعد وتخبو مع التعامل الصحيح معها من قبل السلطة الحاكمة.

فهاهو الكاتب الراحل يتحدث عن ثورة يوليو ١٩٥٢ وقاداتها من الشباب فى مقال « جيل وسط الأنقاض « أغسطس ١٩٥٣ واصفًا حالة الشباب المصرى آنذاك:» إن جيل الشباب المصرى الحاضر جيل مسكين.. لقد شب ليجد الجيل الذى سبقه منهمكا بأقصى قوته وبكل حماسة وإخلاص فى عملية هدم ليس لها مثيل «.. جيل الشباب المصرى الحاضر كاد يفقد إيمانه

بكل شيء حتى نفسه «.. « فمتى يحين دور البناء؟

ويبدو أن السلطة الجديدة كانت جادة فى البناء والتحديث فخاضت عملية تحديث واسعة أسفرت عن تنامى الطبقة المتوسطة وانخراط الشباب فى التنظيم السياسى للدولة فيما عرف بـــ» منظمة الشباب « التى هاجمها هيكل فيما بعد قائلا « لقد ركزت منظمة الشباب مثلا جهدها على تعليم الشباب كيف يصرخ بالهتافات لكنها لم تعلمه أن التفكير يستطيع الاستغناء عن الهتافات «.. وذلك بعد اندلاع مظاهرات فبراير ١٩٦٨ التى قادها الطلبة التى قامت للاعتراض على محاكمات الطيران فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧ والتى تحولت إلى مطالب لحرية الرأى والصحافة ومجلس نيابى حر وإصدار قوانين الحريات وإبعاد المخابرات والشرطة عن الجامعات، وعلى الرغم من التعامل الأمنى مع تلك التظاهرات إلا أنها كانت اتجاها عاما يسود العالم وليس مصر فقط واعتبرت امتدادا لتظاهرات الشباب فى فرنسا ١٩٦٨ والتى امتدت إلى كل أنحاء العالم.. والتى عبرت عن شرخ واضح فى علاقة السلطة بالشباب عبر عنه « هيكل « بمقال « قضية الشباب «.

فقال هيكل في مقاله: إننى أعرف مقدماً أن الحديث عن قضية الشباب – خاصة فى هذه الظروف – ديناميت، ذلك أن بعض الحق فى الموضوع قد لا يعجب الذين لا يرون فى شباب اليوم نفعاً ولا أملاً، كما أن بعضه الآخر قد لا يعجب الشباب، بطل القضية نفسه.

وأضاف: إن سوء التعبير مرة أو مرتين لا ينبغى له أن يؤثر فى حق التعبير أساساً، كما أن جموح قلة ليس له أن يغطى موقف الكثرة الغالبة التى تتمثل فيها حركة الشباب.

وتابع: أنا أعلم أن بيننا من تغضبه– وأحياناً تفزعه– اللغة التى يتكلم بها شباب اليوم وأقول بغير تحفظ إننى أختلف مع الذين يتركون أنفسهم للغضب أو للفزع، ذلك أننا يجب أن نسلم بأن الجيل المعاصر من الشباب يعبر عن نفسه بلغة تختلف كثيراً عما ألفناه وذلك لظروف موضوعية كثيرة.

وإذا أردنا أن نحتفظ بقدرتنا على الحوار مع هذا الجيل– وتلك ضرورة حيوية– فإنه يجب علينا أن نحذر التحدث إليه– أو عنه – بأسلوب التعالى الأبوى.

إن ثورة العصر أحدثت نوعاً من الاهتزاز فيما يمكن أن نسميه الرواسى الرواسخ.. التى كان النظام الاجتماعى يستقر عليها مستريحاً ومطمئناً.

ثم استتبعه هيكل بمقال « الشباب بين النيران والثلوج « ١٩٦٨ قائلا « قال جمال عبد الناصر فى خطابه الافتتاحى أمام الدورة الطارئة للمؤتمر القومى الذى دعى للنظر فى موضوع الشباب والجامعات: إنه لا ينبغى ولا يمكن أن يقوم تناقض بين الثورة وشبابها، خاصة شبابها فى الجامعات.

و «هيكل « ما بين مقال البداية ومقالين النهاية إنما يحدد بدقة أزمة نظام ملكى فقد كل مقومات الصمود وانهار تحت قدرة شباب يوليو على التغيير، ونظام يوليو الذى عانى سريعا من تنامى متطلبات الشباب العصرية وقدرته على التواصل مع محيطه العالمى بخلاف من سبقوه حيث التعاطى مع تكنولوجيا العصر مما اضطره صاغرا لأن يلبى متطلبات الشباب ولو مكرها وهو ما اعتبر مؤشرا أن هناك أزمة بين شباب متصل بالعالم ومستحدثاته وبين سلطة تريد أن تحكم بأدوات زمن ثارت عليه قديما.

لذلك إذا وضعنا « ضيق صدر « الرئيس السيسى من « السوشيال ميديا « فى ميزان التاريخ السابق وقياسا عليه، سنجد أننا وبعد افتتاحية عظيمة لثورة ٢٥ يناير والتى كتبها الشباب بنفسه دون الحاجة لكاتب محترف يوصفها وأمام وضع لا يقبل التشكيك فيه من أن هناك أزمة بين الأجيال تدعمها سلطة « شاخت على كراسيها « ولم يعد فى الأفق متسع للشباب، ولكن ومع تداعيات الأوضاع وما تلاها من أحداث ٣٠ يونيو واعتلاء سلطة جديدة، إلا أن الأوضاع لم تسر وفقا لما سار سابقا من تنامى سرعة استيعاب الشباب والأزمة الاقتصادية الطاحنة والتعاطى الأمنى الخاطئ مع ملف الحريات السياسية وعدم قدرة النظام الجديد على إيجاد ظهير سياسى يدعمه كما السابق.. كل هذا جعل الشباب ينسحب سريعا نحو عالمة الافتراضى متماهيا مع تكنولوجيا العصر التى يبدو أن النظام السياسى مصرا كمن سبقه أن يتجاهلها متناسيا أن الشباب وليد عصرة ومستحدثاته وأنه يجب أن يتعامل مع الشباب من هذا المنطق.

لذلك ليس غريبا أن نسمع فى تظاهرات الأرض والعرض – برغم من هاجموها ومحدودية تأثيرها – هتافات نادى بها الشباب فى ميادين مصر فى ٢٥ يناير فى محاولة لاسترجاع مطالبات شبابية فى الحرية والكرامة، والتى عبرت بكل تأكيد كما عبرت مظاهرات فبراير ١٩٦٨ عن أزمة بين الشباب والسلطة يجب أن تزول سريعا حتى لا نفاجأ بأوضاع كارثية.

سيادة الرئيس.. إن ضيق الصدر والتعبير عنه لن يكون منه طائل أمام شباب منفتح على العالم

بأكثر مما حدث لسابقيه على مر العصور لذلك يجب على النظام أن يحاور الشباب من خلال آليات العصر بعيدا عن الصدام الذى أراه قد ظهرت بوادره خاصة أن النظام ليست لديه كتلة سياسية تدعمه على الأرض ووسط حالة اقتصادية ستدعم حتما ذلك الصدام وتقربه.

لذلك لا أرى داعيًا لضيق الصدر، المجال مازال مفتوحا لحوار لجسر الهوة بين الأجيال وجسر الهوة بين الدولة والشباب.. وتذكر سيادة الرئيس أن نظام يوليو استطاع أن يستوعب الشباب لأكثر من عشر سنوات، حتى حدث الشرخ الأول والذى لم يكن الأخير طيلة أكثر من ستين عاما مضت.

الفصل الرابع

قراءات في السياسة الإقليمية والدولية

داعش بين
صناعة الحالة والفعل التآمرى

صناعة الحالة هو فعل مخابراتى بامتياز يهدف إلى توجيه وتهيئة الرأى العام، بهدف الوصول إلى حالة عامة يتم من خلالها إيجاد واقع جديد مغاير لما سبقه، وتعبر قياسات الراى العام عن مدى نجاح أو فشل تلك الحالة.

وهنا يقع الالتباس والتساؤل عن مدى العلاقة بين صناعة الحالة والفعل التآمرى؟ ومما لا شك فيه أن الإجابة عن هذا التساؤل صعبة جدا، وذلك لصعوبة الفصل التام بين ما هو حالة وما هو تآمرى، إلا إذا توافرت أدلة كافية للحكم على وجود تلك العلاقة، ومن ثم الحكم عليها من خلال نظرية المؤامرة.

ومع انفجار بركان ثورات الربيع العربى ٢٠١١، والذى ما زال يقذف بحممه على المنطقة بأكملها، وبمرور الأيام والسنوات فقد ترسخ اقتناع كامل عند طبقة واسعة من الشعوب العربية والشرق أوسطية، بأن تلك الثورات هى نتاج صناعة حالة تم الإعداد لها بليل فى أروقة أجهزة المخابرات الأمريكية منذ فترة، لتغيير الأنظمة العربية ومن ثم يصبح من السهولة تنفيذ مخطط تقسيم البلدان العربية بعد ذلك، فيما عرف إعلاميا باتفاقية « سايكس - بيكو « الجديدة، وهو اقتناع أراه ليس صحيحا بالكامل لأنه فيه نوعا من التجنى على الشعوب التى ثارت على حكامها الظالمين ومحاولة وصمها بالتآمر وهى بعيدة عن ذلك.

وهو تجنى يسهل استخدامه لإيجاد حالة من الاستسلام لنظرية الفعل التآمرى، ومن ثم تطويع الشعوب العربية مرة أخرى للانضواء وراء الهيمنة الأمريكية.

ولكن تنظيم الدولة الإسلامية « داعش» هو نموذج صارخ للإجابة عن مدى العلاقة بين صناعة الحالة والفعل التآمرى. فهو تنظيم يبدو لكثيرين أنه تنظيم جديد ومستحدث دخيل على الثقافة الإسلامية، وهذا ليس بصحيح فهو تنظيم جرى إيقاظه من بين أضابير التاريخ لصناعة حالة غير مستقرة للمنطقة العربية للسيطرة عليها، فهو فى تنظيمه وتدريبه وطبيعة حركته الاجتماعية والاقتصادية، بل والمناطق التى يسيطر عليها، وأماكن تواجده خارج تلك المناطق، يتشابه مع تنظيم قديم وهو « الحشاشون « ذاك التنظيم الشيعى الذى فرض سيطرته وأسلوبه الثورى على

مناطق واسعة من الدولة الإسلامية العباسية، بل وكان من عوامل ضعف الدولة ذاتها.. ويتشابه التنظيمان فى كل الجوانب من ناحية التنظيم وآلية العمل، وبدايتهم الثورية القائمة على النقاء الدينى ومحاولة إنشاء دولة إسلامية قوية قبل أن ينحرف كليهما ناحية القتل وترويع المسلمين ذاتهم.. بل يصل التشابه بينهما فى الحالة الدولية القائمة آنذاك، ويختلفان من ناحية المنطلق العقائدى فداعش سنة، والحشاشون شيعة.

ولم يبق أمام صانع الحالة إلا تهيئة الظروف أمام تنظيم داعش ليتمدد بسرعة خارجة عن حسابات الزمن الطبيعية لنشأة التنظيمات وتطورها، ولم يجد صانع الحالة صعوبة فى ذلك فحالة الدول العربية مذرية جدا وتعانى من أحوال مترددية وأعداء إقليميين متربصين بها.. مما سهل إمداد داعش بالعتاد والرجال مستغلين حالة الهياج الدينى الذى وصل إلى حالة الاحتراب المذهبى، وليس أدل ما يعبر عن ذلك ما ذكره « برنارد لويس « فى كتابة « الحشاشون- فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام « عندما وصف حالة الدولة الفاطمية آنذاك وظهور تنظيم الحشاشون قائلا «.. ولكن الضعف المخزى والمشين للنظام القائم فى القاهرة وفشله فى مقاومة الخطر التركى واللاتينى على السواء، دفع كثيرين من أنصاره فى سوريا إلى تحويل ولائهم إلى الفرع الإسماعيلى (الحشاشون) الآخر الذى كان أكثر نشاطا وأكثر ميلا للجهاد، وبالتالى بدا أكثر قدرة على النجاح.

حقا لقد حافظ بعض الشيعة ومعظم السنة على ولاءاتهم القديمة، ولكن هناك الكثيرون ممن التفوا حول القوة الجديدة التى بدا أنها وحدها القادرة على تهيئة التصدى الفعال للغزاة القادمين من الخارج والحكام القابعين فى الداخل «

يا الله أهذا الحد نجح صناع الحالة فى إيقاظ مارد قديم، وجعله قبلة للشباب المسلم الثورى المتحفز للدفاع عن دينه، والذود عنه ضد أعدائه الخارجين من الغربيين والأمريكان، ولاحظوا معى وجود الأتراك مع التنظيمين قديما وحديثا، وكذلك جعل التنظيم هو المدافع العقائدى الصلد عن أهل السنة، كما قدم الحشاشون أنفسهم قديمًا على أنهم حماة المذهب الشيعى.

أهذا الحد وصل بنا الهوان أن تتم صناعة حالة من خلال فعل تآمرى واضح المعالم، ومع ذلك نستمر فى تلك الحالة بإرادتنا الكاملة منساقين وراء صانع الحالة الأمريكى، نتحارب فيما بيننا داخليا وخارجيا، سنيا وشيعيا، ننتظر مصيرنا الذى لم يحدده بعد السيد الأمريكى.. نخاف على عروش ملك أكثر مما نخاف على أنفسنا وديننا الذى هو الضحية الأكبر لرجال بكوا كالنساء على أوطان لم يدافعوا ويحافظوا عليها كالرجال، لذلك لا تستغربوا توجه الشباب العربى والمسلم ناحية داعش فى واقع عملى لنجاح صناعة الحالة.

الأندلس على وشك السقوط.. هل تدركون معنى ما أقول؟؟؟

هل تتدخل مصر فى سوريا ؟

بعد تفتح أزهار ربيع الثورات العربية فى بعض البلاد العربية وإحداثها تغييرات لا تخطئها العين، سرعان ما شاخت وذبلت، وسرعان ما تحولت إلى صراع مفتوح بين أطياف المجتمع الواحد وصولا لتدخلات أجنبية صريحة كما فى الحالة الليبية واليمنية والسورية، ولكن تبقى الحالة السورية تحتل مكانة خاصة وحساسة لتأثيرها المباشر على شكل المستقبل السياسى والإستراتيجى للمنطقة، ومع احتدام معارك الحرب الأهلية فى سوريا التى كانت تحلم بتغيير سلمى سريع.. أصبح لون الدم يكسو الشارع السورى، وأصبح أهله مشردين فى جميع البلدان فى أكبر مأساة إنسانية فى التاريخ الحديث.

وبتصاعد الحوادث والأحداث وبعد ثلاث سنوات هى عمر الثورة السورية الموءودة، فقد ظهرت الملامح النهائية لشكل الصراع فى السورى والذى اكتسب شأنا داخليا فى البداية ولكننا نراه وقد تحول لصراع دولى صريح بين كتلتين واحدة بزعامة أمريكا والثانية بقيادة روسيا، وأصبح الهدف النهائى من التدخل فى الصراع السورى الداخلى ما هو إلا محاولة أمريكية -غربية لترتيب النظام العالمى الجديد فى مواجهة مقاومة روسية لا تملك أجندة واضحة المعالم لشكل العالم فى القرن الواحد والعشرين، غير اعتمادها على وسائلها التقليدية القديمة القائمة على قوة السلاح دون غيره.

لكن الغريب هو الموقف العربى وخاصة الخليجى والذى صارع منذ البداية للحكم على الأحداث فى سوريا بأنها حكم نهائى ومطلق على نظام بشار الأسد بالزوال والذى دفعهم فى مراحل تطور الأزمة السورية إلى تسليح مجموعات مسلحة إسلامية تحارب ضد النظام بهدف إسقاطه بالقوة تحت دعاوى الحرية والثورة، ولكن يبقى العداء بين الفكرة الإسلامية المدعومة أمريكيا والفكرة القومية التى دعمها الثالوث القوى (العراق -سوريا-مصر) هو ما يظهر فى الخلفية بداعى أن يكون الخليج قائدا سنيا فى مواجهة إيرانية -شيعية لإعادة ترتيب المنطقة للقضاء على القومية العربية لصالح الجناح الأمريكى فى الصراع الدائر فى سوريا.

ولكنهم فى غمرة الاندفاع نحو تحقيق حلمهم المزعوم والمدعوم أمريكيا ظهر تنظيم داعش ليعطى قبلة الحياة للتيار القومى على عكس التصورات القائلة بأنه خطر على الجميع، حيث أثبت أنه عدو جرى تحضيره بليل لتهديد الأنظمة العربية لضمان أمن إسرائيل، فإذا به وقد تحول لتهديد السياسة الأمريكية برمتها على امتداد المساحة من أفغانستان وحتى نيجيريا على المحيط الأطلسى مهددًا مصالح الجميع، وفى المقابل وجد النظام السورى له حلفاء أقوياء ساعدوا على

صموده فى مواجهة ما يحدث على أراضيه وخاصة روسيا وإيران وكلتاهما مدفوعتان بأسبابهما السياسية والجيواستراتيجية، وخاصة روسيا التى رأت أنها تخوض معركتها الأخيرة على آخر موطئ قدم لها على الأرض العربية وخاصة على شاطئ البحر المتوسط، بعد خسارتها فى العراق بسقوطه وكذلك ليبيا، وكذلك لسببين لا يتعلقان بالشأن العربى المباشر وهو الخروج من مأزق الأزمة الأوكرانية التى وضعت روسيا فى مأزق اقتصادى قد يضعف موقفها فى مواجهة أمريكا والغرب فى محاولتهم لإعادة تشكيل العالم فى القرن الواحد والعشرين، ناهيك عن تخوفها من أن سقوط سوريا فى يد التنظيمات الإسلامية المتشددة « داعش» أو تلك المدعومة من دول الخليج قد ينقل الصراع الدينى إلى جمهوريات الاتحاد الروسى وهو ما ينذر بتفككه، ولذلك نرى الجميع وقد تعددت دوافعه وأسبابه للتدخل فى الشأن السورى، فى حين يبقى الموقف المصرى هو الأكثر غموضًا وأكثر تشتتًا فى حسم إلى من ينتمى؟.

فهو ما زال يراوح مكانه جيئة وذهابًا بين تأييد التدخلات الخليجية المدعومة أمريكيا فى اليمن، والتى رأها إضعافا للموقف المصرى على المدى البعيد لاعتمادها على قوى إسلامية وجد النظام المصرى نفسه فى مواجهة مفتوحة معها، وبين تدخلات يراها لازمة فى الشأن السورى حتى لا يضيع الدور القومى ويصبح فى مهب الريح خاصة مع سقوط العراق، ومشارفة سوريا على السقوط وهو ما سيجعل سوريا تقسم إلى ما يرجوه المعسكر الأمريكى فى الصراع وبالتالى لن يكون أمام مصر إلا الانضواء تحت أحد معسكرين يحكمان المنطقة فى النهاية وهو معسكر سنى بقيادة السعودية، فى مقابل معسكر شيعى إيرانى، وهو ما يعنى النهاية للسياسة المصرية ودورها فى العالم العربى الذى سيكون شيَّع للتو آخر معاقل القومية العربية بسقوط سوريا وانتهاء الدور المصرى إلى الأبد

ولكن لماذ هذا التردد فى اتخاذ قرار نهائى يحدد شكل التدخل المصرى بعيدًا عن لغة السياسة المطاطة؟.

أعتقد أن الذرائع التى يسوقها النظام المصرى للتمهل فى التدخل فى سوريا لها وجاهتها مثل محاربة الإرهاب فى سيناء وفى ليبيا، ولكن هذا يبطئ من حركة السياسة المصرية على الصعيد السورى خاصة بعد دعوة الرئيس الروسى لقيام تحالف دولى لمكافحة الإرهاب وهو ما لقى ترحيبا سوريا وعراقيا وفى هذا دلالة واضحة على تشكل جناح قوى فى مواجهة تدخلات خليجية بتصورات بعيدة عن فكرة الصراع الشيعى- السنى وهو ما يعطى النظام المصرى حرية الحركة، وكذلك حتى لا تفلت فرصة مصر فى إيجاد كرسى على مائدة تحديد مصير المنطقة وليس سوريا وحدها.

لذلك أصبح التدخل الحاسم فى سوريا ضروريا والذى يجب أن يتم تحت مظلة شرعية قانونية

وأخلاقية، ولكن مع تآكل الشرعية القانونية والتى أصبحت محل شك وخاصة وأن الدول الدائمة فى مجلس الأمن قد أصبحت طرفا فى الصراع، وكذلك تآكل غطاء الشرعية الأخلاقية وذلك لشيوع الدم السورى وتفرقه بين الفصائل المتناحرة، لذلك لن تجد مصر غير الإعلان المباشر عن تدخل يحفظ المصالح المصرية والعربية فى مواجهة محاولة إعادة تشكيل المنطقة بين سنى وشيعى وهو ما يعنى تهميشا لمصر وجعلها تابعا، وحماية لما تبقى لها من نظرية أمن قومى قد أصابها التآكل لمرحلة حرجة تنذر فيما تنذر إلى انصياع كامل للقرار الخارجى وهو ما نخشى منه.

فهل تتدخل مصر فى سوريا حماية لوحدة التراب السورى وحماية لما تبقى من النظام العربى فى مواجهة انتقال مركز القرار العربى من ثالوث القومية العربية (مصر-العراق-سوريا) إلى شواطئ الخليج المدعوم أمريكيا.

يبدو أن القيادة المصرية تعيش أسوأ مراحل الاختيار فى تاريخها المعاصر إما المعسكر الشرقى بقيادة روسيا للحفاظ على ما تبقى من بقايا زعامة عربية تضمن بعدا استراتيجيا فى مواجهة تيار إسلامى يهدد وجود الدولة المصرية، أم المعسكر الأمريكي الخليجي يضمن لها الاستقرار إلى حين، مدعوم بعلاقاته بتيارات الإسلام السياسى.

يبدو أن اختيار التدخل فى سوريا معقد جدًا ولكنه ليس مستبعدًا، ولكن الظاهر للعيان أن خيارات مصر للتدخل فى سوريا أصبحت متضاربة خاصة مع اختبار الخيارات المصرية فى الحالة اليمنية.

القرامطة لم يصلوا الحرم

لمن لا يعرف نظرية « الدومينو»، هى نظرية سياسية أمريكية ظهرت فى خمسينيات القرن العشرين إبان الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفييتى دشنها الرئيس الأمريكى» داويت أيزنهاور» مفادها: « إذا كانت دولة فى منطقة معينة تحت نفوذ الشيوعية، فإن الدول المحيطة بها ستخضع لنفس النفوذ عبر تأثير الدومينو». لذلك ومن منطق تساقط الدومينو المتتالى والمتسارع واستخدامًا لتلك النظرية، يمكن أن نطلق على ثورات الربيع العربى أنها خير مثال حى على تلك النظرية، فالنداء الثورى الشعبى الذى اجتاح تونس سرعان ما انتقل إلى الجوار، ليبيا ثم مصر، فدعوات ثورية فى الخليج والأردن، ثم ثورة تحولت إلى حرب أهلية فى سوريا. إنها ثورة مثل الدومينو تساقطت من الشرق إلى الغرب بسرعة عالية، أعتقد أن من دشن تلك النظرية لم يتوقع حجم التسارع إذا قدر له أن يتنبأ بالثورات العربية ومدى تأثيرها. ولكن مع تساقط الدول العربية تحت تأثير الدومينو الثورى، فقد بدا أن السقوط قد كشف عن تردٍ شامل فى المنظومة العربية سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا ولا أبالغ إذا قلت دينيًا أيضا، لذلك نجدها وبعد مرور أكثر من خمس سنوات على اندلاع ثورات الربيع العربى غير قادرة على استيعاب ما جرى، فى مقابل استباحة كاملة لأراضيها من قبل قوى الجوار العربى، وخاصة إيران الحالمة بالمجد الفارسى الإمبراطورى الملتحفة برداء مذهبى التى لم نرها تدافع كما غيرها من الدول العربية عن ديار الإسلام فى وجه التدخلات الأجنبية بل راحت تشيع جو من التهيئة المذهبية للصراع مع الدول العربية لتحقيق مكاسب إمبراطورية وإحياءً لمجد لن يعود.

وفى هذا الجو المتزاحم بتداعيات تأثير الدومينو الثورى وخوفًا من التأثير الإيرانى الشيعى على الهوية العربية السنية، دار حوار بينى وبين صديق أحترمه لم يدم أكثر من عشرين دقيقة، والذى كان من رأيه أن الدفع فى اتجاه التحذير من التمدد الشيعى الإيرانى هو الأهم فى هذه الأيام. ولكن كان من رأيى أن الدفع فى هذا الاتجاه سيولد حروبا طائفية مريرة سيطول أمدها، وأنه يجب توسيع الرؤية وتحييد الجانب المذهبى جانبا وجعله فى خلفية المشهد فى مقابل التحذير من الأطماع الإمبراطورية الفارسية الممتدة الجذور فى التاريخ الإيرانى. إلا أنه باغتنى بقوله « ولكن الدول العربية سقطت وأصبحت ضعيفة «.. فقلت له « إن تداعيات السقوط لم تصل بعد إلى ذروتها فالمشهد الحالى مشابة لفترة نهاية الدولة الفاطمية وبداية الأطماع الصليبية الأمر الذى أغرى القرامطة غلاة الشيعة من الإغارة على مكة ونزع الحجر الأسود لمدة إثنين وعشرين عاما وقتل الحجيج فى الحرم « هنا استدار صديقى مذهولا وألقى السلام ومضى كل منا فى طريقه.

وتركنى أستدعى مشهدًا دمويًا من تداعيات السقوط العربى فى ثوب جديد يتراءى أمام عينى فالمشهد الحالى مشابه لحد التطابق مع بدايات المشهد قديما الذى بدأ بذبول تأثيرالخلافة العباسية السنية، وبداية أفول نجم الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر، وإيذانا ببداية عصر الحروب الصليبية على المنطقة العربية الإسلامية، كل هذا أغرى القرامطة وهم من غلاة الشيعة الذين إتخذوا من البحرين تذكروا ذلكـمركزا لدولتهم من أن تزيد أطماعهم التوسعية فى محاولة للسيطرة على المنطقة ومحاولة ميراث الدولة الفاطمية فى مصر، ولكنهم فشلوا، فعاثوا فى المنطقة فسادا وقتلا وتشريدا مستغلين إنشغال دولة الخلافة العباسية الضعيفة فى إخماد الثورات الداخلية داخل أراضيها، فقاموا بالإغارة على مكة وقت الحج وقتلوا أكثر من ثلاثين ألف من الحجيج بملابسهم البيضاء ولم يكتفوا بذلك بل نزعوا « الحجر الأسود « من مكانه وأخذوه إلى الإحساء شرق السعودية حاليا وأمروا أهل القطيف بالحج هناك ولكنهم رفضوا فكان جزاؤهم القتل والتنكيل، وتوقفت شعائر الحج بمكة لمدة اثنين وعشرين عاما حتى تم إسترداد الحجر الأسود مرة أخرى.

لذلك لا داعى للاستغراب عند الحديث عن مساندة لا محدودة لإيران الإمبراطورية للشيعة فى البحرين الذين يمتد تأثيرهم إلى المنطقة الشرقية فى السعودية والتى بها أغلبية شيعية عربيه، ووسط تداعيات السقوط المتسارع للمنظومة العربية السنية فلا نستغرب أيضًامحاولات إيران استغلال موسم الحج فى مكة لإثارة المشكلات فى محاولة لإيجاد موطأ قدم داخل الجسم العربى الذى يعانى أمراضا عضال وصولا لأن تدعوا إيران حجيجها الذين منعتهم من الذهاب إلى الحج هذا العام بالتوجة هم وكافة الشيعة إلى كربلاء فى مليونية فى محاولة كاشفة عن أن الهدف ليس الحج أو شعائرة بقدر إثبات النفوذ الإمبراطورى الإيرانى الملتحف برداء إسلامى مذهبى. أيها السادة إن الانحناء يغرى بالركوب، لذلك لا نلم من امتطى ظهرنا لأننا قد انحنينا أولا، نحن الذين أوجدنا أسباب السقوط ولم يكن تسارع سقوط الدومينو إلا تعبيرًا عن سقوط أكثر إيلاما وهو السقوط تحت وطأة الخلافات المذهبية العقيمة واستدعاء الأجانب عنا فى الدين والجوار فى محاولة استقواء كلا منا على الآخر، لذلك لا تستغربوا وهكذا حالنا الآن من التخبط من أن تعلن إيران أنها موجودة فى كل مكان على الخريطة العربية واستدعاؤها لمشهد إمبراطورى متمثل فى تدخلات عسكرية مباشرة فى العراق وسوريا، ودعوات بإنشاء حرس ثورى فى كل البلاد التى يوجد فيها شيعة، فى محاولة لإيهام العرب بأن الشيعة كتلة واحدة تأتمر بأمرها حتى تنشغل الدول العربية فى داخلها بصراع مذهبى دموى يشغلهم عن أطماع إمبراطورية ستلتهم الجميع. لذلك على الدول العربية إذا أرادت أن لا ترى هجوما جديدًا للقرامطة، كما فى السابق على الحرم المكى وقتلا للحجيج ونزعا أخر للحجر الأسود، أن تقاوم تداعيات السقوط وأن تستفيق لمحاولات إيرانية

إمبراطورية التشيع ليس هدفها الأساسى ولكنه مظهر يخفى وراءه الكثير، وأن محاولات الوقيعة بين السنة والشيعة العرب ستكون بمثابة « ذريعة « لجنود فرس أتوا ليستعيدوا مجدًا قديمًا وهى محاولات مكشوفة أستخدمت قديما لهدم الخلافة العباسية. وتذكروا أن من أعاد الحجر الأسود لمكانه شيعة أيضًا. لن أمل من تكرار أن التمييز بين الخلاف المذهبى بين السنة والشيعة، وبين المجد الإمبراطورى الإيرانى يجب أن يكون هو معيار العمل الجماعى العربى إن وجد، لأن ذلك سيكون عامل صد يحول دون اكتمال سقوط الدومينو إلى مستويات أخطر وأعمق، ودون ذلك فعلى العرب أن يذكروا أنفسهم أن القرامطة المدعومين إيرانيًا سيدخلون الحرم ولا يغرنكم أنهم لم يدخلوه بعد. صيحة مكررة أرجو أن تجد لها صدى عند من لديه عقل وضمير فى هذه الأمة المكلومة، عدوها واضح وتصر على أن تأكل نفسها بنفسها.

أنابيب قطر . تحدد مصير العرب

الكلام الهامس غير الكلام الصريح الواضح، لأنه يصدر بصوت خفى لا يكاد يفهم، وهو يعبر عن شخصية مصدر الكلام بأنها شخصية تريد أن تكون مستخفية وراء الظلال، وما بين الكلام الصريح الزاعق ليل نهار على الفضائيات وبين الحديث الهامس داخل الغرفات وخارجها، يصبح البحث عن الحقيقة عملية شاقة ومتعبة تستلزم متابعة جديدة للكلام الصريح، وإنصاتًا لحد صمت القبور للكلام الهامس.

لذلك ومع الأزمة السياسية المصرية بعد أحداث ٣٠يونيو، والتى أطاحت بنظام الإخوان المسلمين من الحكم،

وما أعقب ذلك من صدام بين القيادة المصرية الجديدة ودولة قطر على خلفية دعم حكومة قطر لنظام الإخوان المسلمين، والذى طال للدرجة التى أصبح يتسع ليشمل تحدى النفوذ المصرى مباشرة فى مناطقة التقليدية وخاصة فى سوريا والتى أصبح للدور القطرى فيها نفوذ متنام لدرجة محرجة للدور المصرى، أصبحت أسيرًا للكلام الصريح على الفضائيات وما أكثرها والذىً لم يعط درجة كافية من العقلانية فى الشرح والتوضيح لحجم الخلاف الحقيقى ومدى تأثيره، اللهم إلا مشاحنات وصدامات كلامية لا تغنى ولا تسمن من جوع.

لذلك أصبح التشويش سيد الموقف وأصبح الحكم على تلك العلاقة الجديدة بين القيادة المصرية والقيادة القطرية بطريقة سليمة محل شك، حتى كان يومًا مشهودًا وكان محتدمًا فيه النقاش حول أزمة العلاقة بين مصر وقطر ومدى تأثيرها على مجمل السياسة العربية ككلٍ؟ وفى غمرة التحليلات والتنظير والتنظير المقابل، فإذا بصوت هامس يستميلنى ويهمس قائلًا « إذا كنت راغبًا فعلا فى البحث عن أزمة العلاقات العربية بعد أحداث الربيع العربى، فعليك بالسير وراء أنابيب البترول والغاز «، ثم صمت، وهكذا أصابنى الصمت المطبق مندهشًا لمنحى جديد وغير متداول إعلاميًا صريحًا.

وهنا كانت البداية همسًا تحول لبحث مطول حول خطوط البترول والغاز القديمة أو المزمع إنشاؤها فى المنطقة العربية ومدى علاقتها بثورات الربيع العربى، حتى ظهرت فى الأفق الأزمة الأوكرانية والتى أعطت لخطوط البترول والغاز بعدًا جديدًا للصراع فى المنطقة العربية، حيث مثلت الأزمة الأوكرانية رأس حربة لاحتواء النفوذ الروسى ومنع تمدده، محتواها الأساسى محاولة الغرب

التخلى عن الاعتماد عن الغاز الطبيعى الروسى تمهيدًا لحصار روسيا فى جزئها الآسيوى؟

وهنا ثار التساؤل، فلماذا إذا وقفت الدول الأوروبية وراء أوكرانيا ودعمتها فى مواجهة روسيا وهى التى تعتمد بشكل أساسى على الغاز الروسى ؟ وأن هذا الموقف سيدفعها لدفع فاتورة باهظة لتعويض الغاز الروسى من مصادر أخرى حال قطع روسيا الغاز عن أوروبا حال تعقد الموقف فى أوكرانيا؟

وهنا ظهرت قضية غاية فى الخطورة، وهى محاولة الغرب مد خط أنابيب غاز قطرى، يمتد من قطر مرورًا بالسعودية والأردن، وسوريا ثم تركيا فأوروبا فى النهاية معوضا الغاز الروسى وفى الوقت نفسه منخفض التكاليف، لكن الرئيس بشارعام ٢٠٠٩ رفض لاعتبار أساسى وهو الحفاظ على مصالح روسيا حليفه الرئيسى، وهذا ما اعتبر معوقًا لنفوذ قطر المتنامى والتى تريد دورًا كبيرًا فى تحديد وتشكيل مصير المنطقة العربية تحت ضغط حاجة أوروبا للغاز الرخيص واستثماراتها ذات السيولة المالية الكبيرة فى السوق الأوربية التى تعانى من تباطؤ فى النمو.

ومع تداعى الأحداث الأوكرانية ودخول الأزمة السياسية السورية فى نفق الحرب الأهلية، هنا دخلت قطر كداعم للحركات المسلحة الدينية فى مواجهة الحكومة السورية من أجل إسقاطها وعقابا لها على رفض مشروع مد خط أنابيب الغاز القطرى لأوروبا، بجانب مساندة واضحة من أمريكا وأوروبا من أجل إسقاط النظام السورى ككل، هنا أدركت روسيا أنه أصبح عليها أن تتدخل لحماية مصالحها ومحاولة وقف عملية إنشاء خط الغاز القطرى عقابا لأوروبا على ما فعلته فى الأزمة الأوكرانية، وكذلك وقف أحلام قطر بتدمير شركة « غازبروم» الروسية أكبر منتج للغاز،عبر بيعها للغاز لأوروبا بسعر منخفض مما يهدد الاقتصاد الروسى.

وكذلك معارضة السعودية لإنشاء الخط ومروره عبر أراضيها لأنه سينتقص أيضا من الدور السعودى لصالح الدور القطرى المتنامى المدعوم أمريكيًا وغربيًا، وهذا يعطى منظورًا جديدًا لطبيعة الأزمة المصرية القطرية، ولماذا دخلت السعودية كطرف فى الأزمة، ويفسر طبيعة التباطؤ المصرى تجاه اتخاذ موقف مصرى حازم تجاه قطر، والتى احتمت وراء جدار سميك من المصالح الغربية سمحت به قدراتها المالية العالية، وقدرتها على تسويق مشروع خط الغاز الرخيص لأوروبا مما جعلها وفق لطلبها المشروط، أن يكون لها دورٌ فى تشكيل المنطقة العربية، ينال من الدورين المصرى والسعودي بغض النظر عن طبيعة النظام المصرى السياسية والذى يتم تناوله بصوت عالٍ على الفضائيات، مجافيًا طبيعة الصراع الحقيقى فى المنطقة، وعكس الكلام الهامس الذى يدور فى الكواليس والذى ينطوى على حقائق كثيرة.

ربما يكون خط الغاز وخطوط الطاقة إجمالًا بعضًا من كل، ما زالت أذناى لم تستطع أن تسمعه

ربما لأننى لا أنصت بالشكل الصحيح.

ويبقى سؤال موجه للقيادة المصرية.. إذا كان الكلام الصريح العلنى لايعدو كونه مشاكسات إعلامية لا يعبر عن حقيقة الصراع المصرى القطرى، وإذا كان كلام الهمس ينبئنا بالكثير، وفى الوقت نفسه نعلم أن الصمت له دوافعه الكثيرة خصوصًا مع تداعى البدائل.

لكن لماذا الصمت والهمس بعد اكتشافات الغاز فى البحر المتوسط ؟ ألم يحن الوقت للحديث بكلام علنى وصريح محملا بحقائق وقدرة فى مواجهة الدور القطرى الداعى لتشكيل مستقبل المنطقة العربية وتحديد مصير العرب ككل؟

سؤال أعتقد أن الإجابة عنه متروكة لتداعيات الأزمة السورية؟

فيروز . تُخاطب أبو الغيط

يظن كثير من القوميين العرب، وخاصة صغار السن أن « القومية العربية « هى إرث عربى ثابت، وضارب فى جذور التاريخ العربى الإسلامى، ولكن ذلك يحمل بين طياته مغالطة كبيرة، فإذا اعتبرنا أن النظام السياسي للخلافة الأموية نظام عُروبى، إلا أنها كانت تفضل العنصر العربى فى الحكم دون الحديث عن أن وحدتها كانت قائمة بالأساس على العامل الدينى.. لذا، فإن سقوطها السريع قد عجل بوأد فكرة سيادة العنصر العربى على نظام الحكم فى الخلافة الجديدة التى كانت تحكم العالم فى القرون الوسطى، نظرًا لأسباب كثيرة ليس هناك مجال لذكرها.. وهكذا كانت المحاولة الأولى لذكر العروبة فى التاريخ العربى.

وبعد اندلاع الثورة العربية ضد حكم الدولة العثمانية، التى كانت تُعد نفسها هى الوريث الشرعى للخلافة الإسلامية، ومع ظهور ما يُعرف بالدولة الوطنية التى نشأت بعد زوال وانهيار دولة الخلافة العثمانية- ظهرت فكرة العروبة كمحدد جديد بعيدًا عن فكر الدولة الأموية، حيث إنه لم تكن هناك دولة واحدة تجمع الدول العربية المستقلة، وتعمل على توحيدها تحت شعار وحدة اللغة والدين والتاريخ المشترك.

وياللعجب، فقد كان طليعة هذا الفكر هم مسيحيو الشرق فى الشام، فسرعان ما لقى استجابة سريعة داعبت حلم الاستقلال الوطنى لدى الدول العربية المحتلة فى نهاية القرن التاسع عشر، وما إن وصلنا إلى منتصف القرن العشرين حتى تحول الحلم القومى إلى واقع جديد يملأ الفراغ الناشئ عن زوال دولة جامعة، وأصبح فى العام ١٩٤٥ لدى العرب ما يعرف بـــ» الجامعة العربية « أو « بيت العرب «.

وما إن نالت الدول العربية استقلالها فى أوائل خمسينيات القرن العشرين حتى تحولت فكرة القومية العربية فى مصر وعلى يد الزعيم جمال عبد الناصر إلى واقع جديد يلقى قبولا واسعا من الشارع العربى وانتقل الفكر العروبى من منطقة الفكر والحلم وواقع مبهم إلى عمل واقعى وفاعل أراد توحيد العرب على أسس جديدة كان الدين واللغة عاملا أساسيًا، ثم يأتى التاريخ المشترك ليفتح المساحة ليشمل غير المسلمين فى أول بادرة وتطبيق لفكرة المواطنة داخل دولة القومية العربية.

ولكن وبعد مرور أكثر من سبعين عاما على إنشاء الجامعة العربية وانكسار دولة القومية العربية،

انحسر الفكر القومى الذى تحول إلى أحزاب متناثرة ليس لها تأثير فى مساحة الوطن العربى من المحيط للخليج مقابل تيار إسلام سياسى مهيمن، لا يؤمن بفكرة القومية العربية لصالح الأممية الإسلامية، فى تكرار يبدو مشابها لما حدث فى البدايات الأولى مع الخلافة الأموية.

ويبقى الوضع الحالى هو أكثر مرحلة فاصلة فى تاريخ العروبة كفكرة جامعة وهل تصمد أم تنتهى لصالح فكرة أخرى أو أوضاع كارثية وخرائط جغرافية مقزمة كالتى كانت أيام الحروب الصليبية؟

أعتقد أن هناك ما يدفع لاندثار فكرة القومية وذلك لأسباب متعددة،وهى:

١- أن فكرة الدولة الوطنية المستقلة أصبحت محل شك كبير وتراجع قيم التسامح داخلها.

٢- أن هناك حالة استقطاب حادة ناحية العامل الدينى السياسى والذى دخل فى صراعات مع الدولة الوطنية ناهيك عن الدخول فى صراعات دموية بين أجنحة هذا التيار.

٣- أن هناك دول عربية راديكالية لا ترغب فى إحياء فكرة العروبة فى مقابل الفكرة الإسلامية والتى تراها مناسبة لها لتمارس أدواراً قيادية بعيدًا عن مركز الثقل العربى فى مصر وسوريا والعراق.

٤- سقوط مركز القرار العربى فى مصر وسوريا والعراق فى تيه التهميش أو الحروب الأهلية مما جعله غير قادر على القيادة.

٥- سطوة العامل الخارجى الدولى على القرار العربى لتنفيذ سياساته، التى يراها متصادمة مع فكرة العروبة.

وهكذا تتعدد الأسباب لتمتد إلى مالا نهاية،و يصبح الحديث عن وجود « الجامعة العربية « «كبيت للعرب « محل تساؤل: لماذا هى موجودة إلى الآن؟ ولماذا هذا التصارع والخلاف حول ماهية الأمين العام لها؟ ألها دور جديد فى وسط هذا الوضع المزرى بعد وأد آخر محاولة للتجمع العربى بإنشاء « القوة العربية المشتركة « لصالح « الحلف الإسلامى « الذى يضم دولاً غير عربية تشارك فى صنع مستقبل المنطقة العربية ؟ وماذا يفعل الأمين العام الجديد «أحمد أبو الغيط « أمام هكذا وضع؟

أعتقد أن صوت الفنانة اللبنانية الكبيرة « فيروز « سيظل صوتها يصدح فى أذن « أحمد أبو الغيط « ليذكره بهذا الوضع المزرى للوضع العربى وجامعته:

مافى حدا لا تندهى ما فى حدا

عتم وطريق وطير طاير عالهدا
بابن مسكر والعشب غطى الدراج
شو قولكن؟ شو قولكن صاروا صدى؟
مع مين بدك ترجعي بعتم الطريق
لا شاعلة نارن ولا عندك رفيق
ياريت ضوينا القنديل العتيق
بالقنطرة
يمكن حدا كان اهتدى
وما في حدا

خودروكوفسكى مصر

«مسترشدًا بمبادئ إنسانية، قررت أن ميخائيل بوريسوفيتش خودور كوفسكي، يجب أن يتم الإفراج عنه قبل انتهاء عقوبته، وهذا المرسوم يدخل حيز التنفيذ على الفور».. هكذا أنهى الرئيس الروسى « بوتين « بمرسوم رئاسى فترة السجن التى قضاها الملياردير الروسى « خودرو كوفسكى « رئيس شركة « يو كوس « للبترول على خلفية قضايا فساد وتهرب ضريبى ربما تكون الأكبر فى تاريخ روسيا .

لكن لماذا أدخل السجن؟. ولماذا أخرج بعفو رئاسى قبل انتهاء مدة الحبس المقررة؟؟

إن «خودرو كوفسكى « رجل أعمال ينتمى لحقبة « النيوليبرالية» والتى كانت بدايتهم متواضعة، فهو على الرغم من نشأته فى» الشبيبة الشيوعية « إلا أنه انطلق بسرعة الصاروخ إلى عالم المال بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وتولى الرئيس» يلتسين» مقاليد الحكم والذى أدار دفة الاقتصاد الروسى ناحية الغرب، وساهمت عملية الخصخصة فى انتشار الفساد المالى داخل الدوله، والذى وفر المناخ المناسب لـــــ « خودور كوفسكى « وأصبح فى غضون سنوات قليلة جدًا « مليارديرا « كبيرًا، وأصبح عنوانًا كبيرًا معبرًا عن تحالف غريب من رجالات الدولة الفاسدين من العهد السوفييتى وبعض من رجال المال الفاسدين من خارج الإطار الحكومى بمساعدة جهات أجنبية مثل مؤسسات غربية كـــــــ «كارليل جروب» التى تعبر عن توجهات النيوليبرالية.

ولكن لم يقف طموح « خودرو كوفسكى» ومن وراءه من الداخل أو الخارج عند السيطرة فقط على مفاصل الاقتصاد، ولكن وصل طموحهم لحلم السيطرة على النظام السياسى بأكمله عبر الرغبة فى الترشح لانتخابات الرئاسة بعد أن سيطروا على معظم التكتلات السياسية بالبرلمان الروسى، هنا وهنا فقط اصطدم «خودرو كوفسكى « بالوافد الجديد للكرملين الرئيس «بوتين» والممثل للمؤسسة العسكرية الذى رأى فى «خودرو كوفسكى» خطرًا ليس على الاقتصاد فقط بل على كيان الدولة ككل، فتم فتح ملفات الفساد بمساعدة خارجية والتى كشفت عن حجم فساد وتدخل قذر من دوائر مالية غربية فى الداخل الروسى، ناهيك عن التهرب الضريبى، وهذا حدا بدوائر المال الغربية لأن تشن حربًا إعلامية ضروس على الرئيس «بوتين» متغافلين الفساد المالى والضريبى لـــ»خودرو كوفسكى» وتم التركيز على « يهوديته « فى محاولة لإخراجه من المحاكمة وهو ما تم التنويه عنه من السلطات الروسية « بأنه قد تم استدعاء خودرو كوفسكى بصفته زعيمًا تجاريًا وليس بصفته زعيمًا يهوديًا».

وبعد أن أدانته المحكمة ودخل السجن فإن الرئيس بوتين قد نجح فى القضاء على المحاولة الغربية من جانب « النيوليبرالية « للسيطرة على مقاليد الحكم فى روسيا عبر رجالها فى الداخل الروسى .

إن النموذج النيوليبرالى من رجال الأعمال من أمثال « خودوركوفسكى « هو نموذج مكرر فى عالمنا العربى ولكن تختلف تفاصيل الرواية وحجم تزاوج المال بالسلطة، ولكن يبقى حلم الوصول للسلطة هو الرغبة الجامحة التى تسيطر على رجال أعمال النيوليبرالية، ففى مصر وبعد انتهاج نظام «مبارك « نظام الخصخصة كمبدأ اقتصادى للتحول من الاقتصاد الاشتراكى إلى الاقتصاد الرأسمالى، فجأة وبدون مقدمات ظهرت طبقة من الأثرياء ورجال الأعمال كنتيجة مباشرة لما شاب عملية الخصخصة من فساد مالى وسياسى كبير، مما مكن تلك الطبقة الجديدة من أن تسيطر على مفاصل الاقتصاد فى نهاية عصر مبارك ولم يعد لها إلا حلم السيطرة على السلطة السياسية وهو ما تبخر بعد اصطدام الحلم بثورة ٢٥ يناير والتى بدا أنها قد وضعت حدًا لطموح رجال النيوليبرالية، وأصبح الحديث عن مخالفات وفساد والتهرب الضريبى لتلك الطبقة هو الحديث المسيطر ظنا بأن هناك محاكمات تلوح فى الأفق وهو ما عُد لاحقًا من أوهام تُضاف إلى أوهام حلمت بها مصر بعد الثورة، حتى قامت ٣٠ يونيو وتغير المشهد تمامًا وأصبح الحديث عن رجوع رجال النيوليبرالية هو المسيطر بعد أن ظهرت تكتلاتهم فى البرلمان الجديد وأصبح صوتهم عاليًا ولم يخفوا طموحهم فى السيطرة السياسية.

ولعل أبرز مثال لتلك الطبقة رجل الأعمال « نجيب ساويرس» الذى صعد بسرعة الصاروخ والذى طالته تهم التهرب الضريبى وعلاقته بالسلطة ودوائر المال الغربية كمؤسسة « كارليل جروب «، وما شاب صفقة بيع مصنع الأسمنت لشركة « لافارج « الفرنسية والتى حولته من ملياردير محلى إلى ملياردير عالمى

ويبقى السؤال: هل سيكون للوافد الجديد لقصر الاتحادية بعد ثورة ٢٥ يناير وما أعقبها فى ٣٠ يونيو الرئيس «السيسى» رأي آخر للحد من صعود تلك الطبقة التى باتت تهدد ليس فقط الاقتصاد ولكن السياسة أيضًا؟.

وهل سنشهد صراعًا بين « خودوركوفسكى مصر « وبين الرئيس « السيسي « على خلفية طموح المال المدعوم من دوائر المال الغربية فى مواجهة الحفاظ على الدولة؟

يبدو أن قادم الأيام حُبلى بالكثير من المفاجآت على طريق السياسة الداخلية المصرية.

جوليو ريجينى

ما زلت أعتقد أن الذى يجرى فى منطقتنا العربية وفى القلب مصر، لا يخرج عن كونه إعادة توزيع وإنشاء خطوط أنابيب للثروة العربية فى سياق ترتيبات العالم الجديد وهذا ليس بجديد على المنطقة، وأعتقد أن حالة قضية الشاب الإيطالى «جوليو ريجينى» الذى قتل بالقاهرة تدخل فى صلب هذا النوع من صراع الطاقة، وأنا لا أدعى العلم ولا المعرفة بخلفيات الحادث ولا بسير التحقيقات، ولكن ما يعنينى هو ما يدور خلف المشهد أو ما أضعه تحت سؤال عريض: من هو صانع هذه الحالة التى تصل فى بعض جوانبها إلى الفعل التآمرى؟

أنا لست من أنصار مدرسة « نظرية المؤامرة « ولكنى سأتعاطى معها حيث إنها الحاكمة والمسيطرة على عقلية وتفكير المصريين منذ اندلاع ثورة ٢٥ يناير وما تلاها ٣٠ يونيو، ولكنى سأتناولها من جانب واحد فقط وهو « الفعل التآمرى» ومدى تأثيره، ومن المستفيد، وسأترك القارئ يحكم بنفسه على ما حدث من منظور آخر وقراءة ربما تكون جديدة على الغالبية العظمى ممن تناولوا قضية «ريجينى»

ففى بداية أحداث الفيلم الإيطالى « قضية ماتى» يظهر أن المحققين يبحثون بين حطام الطائرة التى سقطت عن جثة رجل مشهور وهو رجل الأعمال الإيطالى الأشهر»إنريكو ماتى» مؤسس شركة «إينى» للبترول والذى حاول أن يكسر إحتكار الشركات الأمريكية لبترول الشرق.

ويواصل المحققون البحث عن الحقيقة ويسألون الشهود للوصول للكيفية التى سقطت بها الطائرة، وهو ما قادهم إلى علاقات « إنريكو ماتى « مع شركات البترول الأمريكية والذى ظهر فى أحد مشاهد الفيلم مدعوًا على الغداء من قبل أحد وكلاء الشركات الأمريكية، وقد بدا أن هذا الوكيل يعامل « إنريكو» بأسلوب متعال ومهددًا إياه بإلحاق الضرر بشركته إذا بدأ يقلق المصالح الأمريكية وهو بذلك يلمح إلى اتفاقيات بترولية عقدتها شركة « إينى « فى الشرق مع ليبيا ومصر، وهو ما حدا بـــــ» ماتى « أن ينصرف ويترك الوكيل منفعلا، وصولا لآخر المشاهد وهو سقوط طائرة « ماتى «.. إلى هنا ينتهى الفيلم وظل لغز مقتل « ماتى « حائرا لسنوات طويلة حتى أعلنت « المافيا الإيطالية « بعد سنوات أنها من كانت وراء عملية الاغتيال عبر وضع قنبلة فى طائرة «ماتى» للتخلص منه لصالح شركات البترول الأمريكية التى رأت فى شركة « إينى» تهديدا صريحا لمصالحها فى بترول الشرق.

من هنا يبدو أن سيناريو اغتيال « إنريكو ماتى « مشابه لحادث مقتل « جوليو ريجينى « فشركة «إينى» للبترول حاضرة وبقوة فى المشهدين، فبعد الإعلان عن الاكتشاف الكبير للغاز الطبيعى بمصر فى مياه البحر المتوسط، والذى قدر بـــ ٣٠ تريليون قدم مكعب غاز بما يعادل ٥,٥ مليار برميل بترول، حدث أمران مهمان، الأول مهاجمة مركز الشركة فى ليبيا من قبل ما يعرف بـــداعش ليبيا، والثانى مقتل «جوليو ريجينى» بالقاهرة، وهذان الأمران يلقيان بظلال من الشك حول ماهية صراع الشركات الكبرى على غاز شرق البحر المتوسط والتى لا تريد لشركة « إينى « الانفراد بهذا الكنز لنفسها، وذلك عبر الإتيان بـــ « فعل تآمرى « يضمن لها التواجد شريكا فى كعكة الغاز الكبيرة، حتى ولو بقتل « ريجينى « كما حدث مع « ماتى « سابقا.

إنها المصالح الكبرى للشركات الكبيرة، التى لا تقف أمامها أى عوائق فى سبيل تحقيق أهدافها، بل تستخدم كل الأساليب للوصول إليها، وأظن أيضا أن قتل «ريجينى» هو محاولة عرقلة إيطاليا عن تحقيق دور بارز فى أوروبا عبر احتكارها غاز شرق البحر المتوسط، الذى سيغنى أوروبا عن الغاز الروسى.

هذه ليست كل القصة، وكما قلت سابقا: إننى لست من أنصار « نظرية المؤامرة « ولكن أحاول أن أقرأ حادث مقتل جوليو ريجينى من منظور أوسع، أعتقد أنه مهم، ويتسق ما يتداول مع أخبار تواتر شركات التنقيب العالمية على مصر، وكذلك محاولة لوضع القضية على مسار جديد، ربما يسرع بالكشف عن القاتل الحقيقى، وصدقونى خطوط أنابيب الطاقة هى من تحكم مصير هذه المنطقة، وأن هناك جرائم ارتكبت ولم تجد لها جهات التحقيق حلا، ولكن نتائجها تصبح هى الحاكمة وتصبح جرائم القتل مجرد حدث عابر لحدث أكبر.

مصر و السعودية . . واقع جديد

السوق والخيمة.. نصيحة تلقاها وزير الخارجية الأمريكى الأسبق « هنرى كيسنجر « عندما تولى ملف العلاقات العربية الإسرائيلية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، مفادها أن كل شيء فى المنطقة العربية قابل للمساومة على منطق السوق وأن القرار النهائى فى يد ساكن الخيمة وليس أحد غيره، وقد نجح « كيسنجر» فى استعمال هذه النصيحة واستطاع أن يفرق التكتل العربي إلى كتل منفصلة يساومها بمنطق السوق حتى كان له ما أراد، واستطاع أن يوجد صلحا منفردا بين مصر وإسرائيل بقرار منفرد من ساكن الخيمة.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت علاقات أمريكا بالعرب قائمة على المساومة والابتزاز بمنطق السوق، وأصبح كل شيء قابلا للبيع والشراء، على طول المساحة العربية، فى الوقت الذى أصبحت فيه الخيمة خياما متعددة كل منها يسكنها ساكن يرى مصالحه بعيدا عن الآخرين، حتى أصبح الوضع العربى مزريًا مع بداية استراتيجية جديدة لأمريكا فى المنطقة، وفى الوقت نفسه مغريًا لمزيد من الابتزاز والمساومة، وعلى ساكن الخيمة فى كل بلد عربى أن ينصاع لها وإلا؟

ولعل الحديث الأخير للرئيس الأمريكى باراك أوباما لمجلة «ذا اتلانتيك» الذى انتقد فيه المملكة العربية السعودية نقدًا لاذعًا، واتهمها بتأجيج الصراعات فى المنطقة على أساس مذهبى طائفى مع إيران، وإدارة حروب بالوكالة فى المنطقة، ملمحًا فى الوقت نفسه إلى أن المصالحة مع إيران وإعطاءها دور فى إدارة المنطقة هو السبيل لإنهاء الصراع.. لعل هذا الحديث هو استلهامٌ لنصيحة الخيمة والسوق القديمة، القائمة على المساومة والابتزاز من أجل تمرير مصالح أمريكا، حتى ولو كانت هذه المرة على حساب مصالح شركاء، لطالما تعاملت أمريكا معهم على أنهم شركاء استراتيجيون فى مواجهة إيران.

وهذا ما يفسر الانتقاد الواسع لأمريكا من دوائر صنع القرار فى الدول الخليجية، وخاصة السعودية لهذه التصريحات التى لم تراعِ المصالح المشتركة لتلك الدول معها، وفضلت التعامل مع شريك آخر يرى أن مصالحة مقدمة علَيهم كإيران.

وتأتى مقالة «لا يا سيد أوباما» للأمير»تركى الفيصل» التى وجه فيها رسالة للرئيس الأمريكى لتكون أقوى تصريح غير رسمى مفاده أن أمريكا عليها أن تتذكر أن السعودية ساعدت أمريكا

كثيرا فى سنوات طالت عمر التحالف بينهما والذى شارف على الثمانين عاما، وأنها ليست الباحثة عن الطائفية ولا الحروب بالوكالة ولا نشر الوهابية على الرغم من امتداح أوباما نفسه لجهود المملكة فى «مناهضة النشاطات الإيرانية التخريبية الإرهابية «.. ذلك فى محاولة عربية لتذكير أمريكا بأخلاقيات عربية لا تعرفها السياسة، فليس «رد الجميل» مصطلحا واردا فى مجال السياسة الأمريكية، وخاصة إذا تقاطعت مع مصالحها.

ويبقى ما قاله الأمير «تركى الفيصل» فى نهاية المقال- هل هذا نابع من استيائك من دعم المملكة للشعب المصرى الذى هب ضد حكومة الإخوان المسلمين التى دعمتها أنت- هو أكثر ما يلفت الانتباه، حيث يعتبر ذلك تقاطع مصالح « ساكنى الخيمة « مع مصالح أمريكا المتحكم بـــــ» سوق « المنطقة، والتى أرادت أن تبحث عن لاعبين جدد بمواصفات غير عربية.

وهنا تكتسب زيارة الملك « سلمان بن عبد العزيز « ملك السعودية لمصر أهمية قصوى لتحديد شكل التعاون بينهما فى مواجهة التحرك الأمريكى الجديد فى المنطقة، وكذلك تحديد الإطار العام لشكل العلاقات بينهما، والتى يجب أن تراعى مصالح كلا منهما ومن ورائهم الدول العربية، باعتبار أنهما أكبر قوتين متبقيتين فى المنطقة، بعد تهاوى القوى العربية الأخرى، ولكن يجب أن تتخلى المملكة عن أحلامها المنفردة فى القيادة، وأن العمل على إذابة الخلافات العالقة بينهما هو بداية لقيام تحالف على مبادئ أخلاقية تبحث لنفسها عن قواعد جديدة بعيدة عن منطق « السوق والخيمة « فى إطار قوة تحفظ التوازن الإقليمى فى مواجهة إيران، وهذه تعتبر النصيحة الجديدة لما بعد ثورات الربيع العربي والتى وجهها الثعلب العجوز « كيسنجر « فى كتابه الجديد « النظام العالمى الجديد « للإدارة الأمريكية مفادها أن « المبادئ الأخلاقية بعيدًا عن فكرة قوة التوازن، حالة تغرى الآخرين بتحديها « ملمحًا إلى أن أمريكا فضلت المبادئ الغائمة فى دعمها للثورات العربية وتخليها عن حلفائها الأقوياء فى المنطقة وهو ما أغرى القوى الأخرى لتحدى الهيمنة الأمريكية فيها.

وما بين نصيحة «الخيمة والسوق» قديما وبين « المبادئ الأخلاقية وقوة التوازن « سيبقى الخيار المصرى-السعودى لشكل التعاون بينهما مرهونا بقدرتهما على تخطى الشكل النمطى القديم لطريقة التعامل مع مستجدات المنطقة التى يستحيل معها تمرير أى سياسات جديدة دون الرجوع للشارع العربى، والذى تقاسم بمستجدات الربيع العربى السلطة مع « ساكن الخيمة « ورافض فى الوقت نفسه مساومة « السوق « ولكن يغريه توافق على مبادئ تراعى المصالح العليا لجميع الشعوب العربية فى إطار مبادئ أخلاقية ملزمة تدعمها قوة عسكرية تقف فى مواجهة الترتيبات

الأمريكية للمنطقة، وكبح جماح الطموحات الإيرانية والتركية والإسرائيلية فى المنطقة.

فهل تنجح القمة المصرية السعودية القادمة، فى إيجاد تعاون من أجل واقع عربى جديد، واستغلال فرصة التيه الأمريكى الحادث الآن فى المنطقة، أم سنظل أسرى «السوق والخيمة»، حيث ضاعت بسببها المكتسبات العربية، وتضيع فرصة أخرى كسابقاتها لتحقيق حلم بسياسة عربية موحدة ضد الأخطار، ويسير كل فى طريقة إلى مصير مجهول وننتظر مساومات « السوق « التى حتما سيكون « ساكن الخيمة « مضطرًا لقبوها.

أنفاق «كو_شى» و المقاومة الفلسطينية

المقاومة المسلحة،هى ذاك الفعل الساحر الذى يلهم خيال وحماس شباب الأوطان عندما تغلق أمامهم آفاق الحوار مع المحتل الغاصب لأرضه من أجل الحرية، وعندما تصبح أشكال المقاومة السلمية حلولا غير ذات جدوى أمام آلة قمع المحتل الغاشمة.

وقد كانت المقاومة المسلحة الفلسطينية ولا تزال مصدرا ملهما لكل شباب الداخل الفلسطينى وفلسطينيى الشتات، ومن ورائهم شباب الوطن العربى والإسلامى، إنها الأمل الوحيد أمام استعادة الأرض المغتصبة ولم شتات الوطن المبعثرة دماؤة على مساحة وطن عربى أصبح لا حول له ولا قوة.. تلطخ ثيابه دماء شهداء الوطن والمقاومة تطالبه بالثأر ولا يستطيع أن يحرك ساكنا.

إن تاريخ المقاومة الفلسطينية هو تاريخ مشرف لكل فلسطينى وعربى منذ اللحظات الأولى لوطء أقدام اليهود لأرض فلسطين، تاريخ حافل بكل أشكال المقاومة وصولا لتشكيل هيئة عليا انضوت تحتها كل فصائل المقاومة الفلسطينية المختلفة أسميت « منظمة التحرير الفلسطينية « والتى حالت دون موات القضية الفلسطينية عبر المقاومة المسلحة الباهرة فى الداخل والخارج والتى جعلت إسرائيل فى حالة استنفار دائمة، ولكن بتزهل « منظمة التحرير الفلسطينية « ورهنها لمستقبل المقاومة المسلحة لتوازنات القوى العربية والدولية- ما جعلها وهي فى بواكيرها الأولى- تتدخل فى شئون دول أخرى كالأردن ولبنان، لذا أصبحت غير مرحب بها فى تلك الدول وحذر الآخرون منها.. ومن ثم، أضحت فى نهاية الأمر ومع سقوط الاتحاد السوفييتى وتداعى عربى عام- مطالبة بتوقيع اتفاقية سلام تحت جنح الظلام فى أوسلو « اتفاق غزة أريحا أولا» وهو ما أعطى مؤشرا سلبيا على أن المقاومة قد ماتت.

ولكن ومع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧ فقد بدا أن هناك مرحلة مخاض أخرى للمقاومة الفلسطينية تبشر بأمل جديد بعد أن شاخت « منظمة التحرير»، وهو ما عبر عنه بميلاد « حركة المقاومة الإسلامية، حماس» التى وإن كانت اتخذت توجها أيديولوجيا نابعا من خلفية إسلامية بعكس التوجه العلمانى لمنظمة التحرير، إلا أن الشارع العربى استقبل الوليد الجديد بترحاب كبير حتى عبر عن نفسه بمقاومة مسلحة شرسة أصبحت مثار إعجاب الشباب العربى والإسلامى.

ولكن وبمرور السنوات فقد بدا أن « حماس « أصابها ما أصاب « منظمة التحرير» فى سابق الأيام فعلى الرغم من عمرها القصير نسبيا بالنسبة لتاريخ المقاومة المسلحة الفسطينية إلا أنها أقحمت نفسها فى لعبة التوازنات الإقليمية والدولية مبكرا، وراحت تتعامل على أنها الممثل الأكثر شعبية فى الداخل الفلسطينى وعليه فإنها صاحبة الحق فى تقرير مصير الوطن، فى الوقت الذى تناست فيه أن الأرض التى تحت سيطرتها جاءت عبر اتفاقية أوسلو الموقعة بين « منظمة التحرير» والكيان الصهيونى، والتى رفضتها منذ البداية، وهو ما أوقعها فى خلافات أدت إلى انقسام الداخل إلى قطاع غزة وسلطة فى الضفة الغربية، وضاعت المقاومة المسلحة التى أصبحت هجماتها تخضع لتوازنات الخارج الفلسطينى، وحوصرت « حماس» أو بمعنى أدق فقد « حصرت « حماس نفسها بنفسها فى القطاع عندما رهنت المقاومة بالتوازنات الإقليمية وانشغلت عن القضية الأساسية، وكذلك تدخلها كما فى السابق الفلسطينى فى الشئون الداخلية للدول الأخرى وخاصة مصر الشريك الأهم للقضية الفلسطينية.

وكانت النتيجة النهائية والتى نحن بصددها ذكرى مشرفة للمقاومة الفلسطينية وواقع مهين للشعب الفلسطينى المنقسم بين فريقين ومنظمات فلسطينية أخرى، وحصار خانق جعل المقاومة الفلسطينية تحفر أنفاقا ليس لمقاومة مسلحة ضد الإحتلال ولكن لمحاولة سد جوع مواطنيها بعد أن رهن سلاح المقاومة نفسه للتوازنات الخارجية.

إن أنفاق غزة كانت استلهاما من أنفاق « كو-شى « الفيتنامية التى قهرت وأذلت القوة الأمريكية الطاغية والتى وفرت المأوى والسلاح للمقاومة، بل وأجبرت أمريكا على أن تتنازل عن تفوقها التكنولوجى لتقاتل المقاومة فى الأنفاق بأساليب بدائية، حتى كان النصر فى النهاية يصوره مشهد رحيل المحتل الأمريكى عبر الطائرة الهليوكبتر، وهى تغادر من فوق السفارة الأمريكية فى سايجون، ولكن ماذا حدث لأنفاق غزة؟ لماذا لم تعطِ نفس نتائج « كو-شى « ؟ لماذا لم تستطع المقاومة الفلسطينية أن تُجبر المحتل الإسرائيلى على أن ينزل إلى الأنفاق البدائية وتنزعه تفوقه التكنولوجى؟ لماذا تحولت المقاومة المسلحة إلى سلطة تحرس أنفاق تعتبرها أساس اقتصاد القطاع من السلع المهربة ؟

أعتقد أنه على المقاومة المسلحة فى الداخل الفلسطينى أن تتوحد وأن تبتعد عن فكرة التوازنات الخارجية حتى يكون لصوت السلاح الفلسطينى صدى عند العودة إلى موائد المفاوضات والتى أرى أنه يجرى نصبها تحت جنح الظلام، نحن نريد أن تتحول أنفاق غزة إلى أنفاق فى كامل الأراضى الفلسطينية فى القطاع والضفة وأراضى ٤٨، نريد أنفاق « كو-شى» فلسطينية تبحث عن حلم تحرير وطن كما فى السابق بعيدًا عن أحلام توازنات لن تحدث دون وجود فلسطينى على أرض

المقاومة المسلحة حتى « يأتى اليوم الذى نرى فيه الإسرائيليين يحاولون بقوة التعلق بسلم آخر طائرة مروحية تغادر « تل أبيب « من فوق سطح السفارة الأمريكية «كما قال شارون أثناء الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧

لم يعد أمام المقاومة الفلسطينية إلا الاتحاد وتناسى الخلافات والبعد عن لعبة التوازنات، لن ينفعكم إلا سلاحكم الذى يجب ألا يكون مرهونا لدى مساومات الآخرين، وأن أنفاقكم يجب أن تكون موجهة للخلاص والحرية من المحتل الغاصب، لا أن تكون موجهة للبحث عن فتات طعام يهرب إليكم.

إما أنفاق « كو-شى « للحرية، أو أنفاق « غزة « للبحث عن الطعام.. فهل من مستمع؟

السعودية تريد سادات جديدًا

« إذا أفلس التاجر بحث فى دفاتره القديمة « هذا هو حال المملكة العربية السعودية فى التعاطى مع الأحداث الراهنة فى المنطقة العربية والشرق أوسطية الحالية، فالتاجر قديما وفى ظروف تاريخية مؤلمة تحالف مع القوى العالمية الاستعمارية بغرض بناء دولة ومجد متصل من خلال شرعية ومظلة كبيرة تخفى حقيقة التاجر المتخفى خلف اللحى وكان له ما أراد، واتسع المجد تحت رايات النفط متسلحا بسلفية وهابية كدعوى تغطى تحالفا بين سلطتين زمنية ودينية.

ولكن يبدو أن التاجر لم يقتنع بفكرة الإمارة القائمة على بئر البترول كما خطط له سلفا، بل طمع أن يكون له دور كدولة عتيدة مارست فعل السياسة منذ القدم فسار فى ركب السياسة الغربية وتماهى صعودا وهبوطا مع اللاعبين الأساسيين فى المنطقة ولكن بلا تأثير واضح، حتى بداية صعود تيار القومية العربية المصاحب لحركات التحرر الوطنى، هنا رأى «التاجر – الدولة» أن الفرصة قد حانت لممارسة دور قيادي وهو ما تجلى فى معاداة الفكر التحررى باطنا، عبر مناصبة القومية العربية العداء الصريح، وذلك عبر محاولته إنشاء كيان موازٍ للقومية العربية بمساندة لاعبين دوليين وشرق أوسطيين رأوا أن القومية العربية خطر داهم عليهمٍ وخاصة تركيا وباكستان، وهو ما تجلى فى إنشاء «منظمة العالم الإسلامى»، تعويضا عن « حلف بغداد « الذى مات فى مهده، ولكنها ما برحت مكانها ولم يكن لها تأثير واضح، تحت وطأة وهج فكرة القومية العربية، حتى كانت هزيمة ١٩٦٧ وبداية النهاية للحلم القومى وتيار القومية العربية.

هنا وجد « التاجر – الدولة» الفرصة سانحة لمحاولة ملء الفراغ وأخذ مكان يليق به وبماله بين الكبار، وتم له ما أراد بعد وفاة الرئيس جمال عبدالناصر وانتصار أكتوبر، فقد وجد مصر خارجة لتوها من حرب استمرت ست سنوات أكلت كثيرا من قدراتها الاقتصادية ووجد قيادة جديدة ترفض القومية وتريد التحلل من إلتزاماتها، ناهيك عن احتلال الأرض التى لم تحرر بعد، ورغبة ليس لها ما يبررها من القيادة المصرية للحاق بالركب الغربى الرأسمالى.

هنا وجد « التاجر – الدولة» الفرصة سانحة واستطاع أن يوجد علاقة جديدة فى المنطقة العربية بعيدة عن فكرة القومية العربية متماهية مع الفكرة الإسلامية فى سياق استراتيجية غربية تعوض فشل «حلف بغداد» واستطاع أن يدخل مصر فى هذه العلاقة عبر علاقة شخصية بينه وبين

الرئيس السادات الذى رأى فى العلاقة الجديدة منفذًا يتم من خلاله الولوج للسياسة الغربية التى رأى فيها الحل لكل أزماته الداخلية والخارجية، وتجلت مظاهر تلك العلاقة داخليا فى تصالح الدولة المصرية مع تيار الإسلام السياسى القابع فى السجون منذ الحقبة الناصرية، الذى خرج من السجون من خلال صفقة يتم بمقتضاها القضاء على التيارات القومية واليسارية التى باتت تقف عائقا أمام توجه السادات الجديد، وفى المقابل يترك للتيار الإسلامى حرية الحركة.

وخارجيا تماهى السياسة المصرية مع الرؤية السعودية فى التعاطى مع القضايا التى كانت تدار على أساس دينى مثل حرب أفغانستان والتى تم توظيف التيار الإسلامى فيها لخدمة قضايا خارج حدود بلاده الأصلية، تخدم على العلاقة الجديدة والتى بدا فيها أن «التاجر – الدولة» هو القائد وأنه له اليد الطولى صاحب النفوذ والتأثير.

وهكذا صارت السنوات حتى بدأت الأعراض الجانبية لتلك العلاقة تظهر وذلك بعد انتهاء حرب أفغانستان حيث ظهرت ظاهرة الإرهاب المقترنة بالتيارات الإسلامية والتى أصبحت تهدد كيان دولة «التاجر – الدولة» وحلفاءها.. هنا قام التاجر بفسخ العلاقة بينه وبين الإخوان المسلمين فى محاوله منه للتملص أمام أمريكا أنه لا يساند الإرهاب وكذلك مساندة مصر فى تحجيم الدور الإخوانى بها.

حتى قامت أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى أمريكا والتى تبنت أمريكا من بعدها استراتيجية جديدة عكس ما توقع الجميع حينها قائمة على التعاون مع تيار الإسلام السياسى المعتدل عبر مساعدته للوصول لسدة الحكم فى المنطقة العربية لمساعدتها فى التخلص من المتشددين الإسلاميين الذين باتوا يهددون المصالح الأمريكية.
وهو ما تجلى مع اندلاع ثورات الربيع العربى عام ٢٠١١ والتى رأى فيها « التاجر – الدولة» تهديدا مباشرا ليس فقط لمصالحه بل لوجوده المباشر على الأرض خاصة مع تداعى الأنظمة العربية وخاصة الحليفة معه، وشعر ساعتها بقوته الحقيقية التى لا تعدو طنطنات مع تنامى القوة الإيرانية واختلاف رؤى شركائها الإسلاميين من الاتراك والباكستانيين معها فى التعاطى مع قضايا المنطقة وخروج تيارات الإسلام السياسى من تحت سيطرتها.

ومع بداية أحداث ٣٠ يونيو ٢٠١٤ فى مصر سارع « التاجر – الدولة» لمساندة تلك الأحداث ليس حبًا فى القيادة المصرية ولا كرها فى التيار الإسلامى، ولكنها أرادت أن لا يحدث لمصر ما

حدث لسوريا والعراق حتى لا يصبح بعدها الدور عليها.

وكذلك تكوين حلف سنى بمواصفات « حلف بغداد» القديم بعيد عن التصورات الأمريكية ليكون درءًا لها من التوحش الإيرانى الذى بدا كوحش قرب على التهام الخليج كله.

هنا وجدت السعودية «التاجر – الدولة» نفسها غير قادرة على تبنى سياسات جديدة تناسب العصر خاصة مع تنامى الفعل الثورى فى العالم كله، وذلك لطبيعة تكوينها الأول، فبحثت فى دفاترها القديمة فوجدت أنه يمكن استنساخ تجربة الرئيس السادات مع القيادة الجديدة ولكن يبدو أنها رغم نجاحها الجزئي فى « عملية عاصفة الحزم « فى اليمن، إلا أنها وجدت صعوبة كبيرة فى إقناع القيادة المصرية الجديدة بأهمية التصالح مع التيار الإسلامى وخاصة الإخوان المسلمين كما حدث مع السادات، والذى وجدت فيه بعد تفكير طويل أنه بديل ما زال صالحا للاستخدام خاصة فى مواجهة إيران، عبر تصوير الصراع فى المنطقة على أنه صراع سنى– شيعى.

ومع تعنت القيادة المصرية ورفضها استنساخ تجربة السادات وفق الرؤية السعودية، فيبدو أن العلاقة بينهما ستشهد تطورات كبيرة خلال الأشهر القادمة، لذلك يجب على القيادة المصرية الجديدة أن تبحث عن حلول جديدة من خارج الصندوق خاصة بعد اجتماع قادة الخليج بقمة « كامب ديفيد « الأخيرة، وعلى القيادة المصرية أن تبحث عن حل سياسى واقتصادى لما تعانيه مصر من أزمات، وفق الرؤية المصرية الخالصة التى تراعى المصالح العليا للبلاد، حتى لا يصبح أمامنا غير الحل السعودى– الساداتى، الذى كبدنا كثيرا من المشكلات، ولتعلن أن عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء، وأنه لا يوجد للسعودية فى مصر سادات جديد يقبل بقواعد اللعبة القديمة.

إيران تستعيد الصليب المقدس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ..

.... صدق الله العظيم.

بهذا الوعد والبشارة الربانية الموثقة فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة انتصر الله للمؤمنين المستضعفين فى مكة الذين يؤيدون نظراءهم من أهل الكتاب ضد أهل الوثنية وعبدة النار، وعندما وقع فى نفوس المؤمنين من طول أمد انتصار الفرس عبدة النار على الروم أهل الكتاب واستيلائهم على الصليب المقدس ودارت فى نفوسهم الظنون وسط شماتة من الكافرين الذين كانوا يريدون انتصار الفرس، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره وينصر عباده المؤمنين المستضعفين على الكافرين.

ومع مرور الأيام يبدو أن هذا المشهد يكرر هذه الأيام فى تكرار لمشهد استراتيجي ثابت تاريخيا يعكس الصراع بين الشرق والغرب، ولكن فى ثوب جديد، فإيران وإن لم تعد وثنية ودخل الإسلام إليها لكنها أبت إلا أن يكون لها موقع خاص فى حظيرة الإسلام يعكس توجه الأمة الفارسية المعتزة بنفسها فاستقلت مذهبيا ولغويا.

كذلك الغرب الرومى لم يغب عنه أهمية منطقة الصراع التى يتصارع عليها فى غياب لاعب قوى انتابه المرض الشديد وهو اللاعب العربى المسلم، فسياق الأحداث والحديث عن البرنامج النووى الإيرانى وما واكبها من البداية وحتى النهاية من صراع وحصار اقتصادى وصولا للحديث عن الحرب لحسم الملف النووى، حتى وصلنا للمرحلة النهائية.

وتوصل الروم والفرس المسلمون لاتفاق يستعيد فيه الغرب التحكم فى الصليب المقدس « السلاح النووى» ويعطى للفرس الحق فى الاحتفاظ بالقدرة النووية فقط، بل أكثر من هذا أعطى مؤشرات لم تكن فى الماضى الذى غلفه الصراع الدموى، مؤشرات على التعاون يطال السيطرة على مقدرات المنطقة كلها ويطلق يد إيران الفارسية فى تحديد مصير المنطقة العربية

بالتعاون مع الغرب الرومى، فى تجاهل تام للمعتقد الدينى المشترك بين إيران والعرب، وانتصار للتوجه الاستراتيجى العام تاريخيا.

إنتصرت إيران فى معركة الصليب المقدس نوويا، ولم يجد العرب من يؤيدهم لأنهم خذلوا السماء ونسوا الوعد الربانى بنصر المؤمنين، وتفرقوا فرقا وشيعا، ولم يعوا أهمية التفكير الاستراتيجى القائم على العلم، الذى انتصرت به إيران الفارسية فى مواجهة الغرب، وعلى العرب حتى وهى مرتدية العباءة الإسلامية.

إنه صراع أمم يحدد مصير المنطقة والعالم ولا مكان فيه للجهل و كثرة المال الريعى، ولن ينفعنا الدخول تحت عباءة أحد المتصارعين « الغرب الرومى»، لحمايتنا من الجار الفارسى الذى هو الآن على نفس ديانتنا، لكن يبدو أن كفار قريش قد انتصروا على المؤمنين بنصر الله الذين فقدوا البوصلة ولم يعد يعلموا من هو العدو من الصديق؟، ولم يتحلقوا حول قوة إيمانهم بل ركنوا إلى مستوى الضعف الأول ووقفوا ينظرون ويتراهنون فيما بينهم على من سينتصر الروم أم الفرس، فى انتظار لوعد جديد من السماء، ونسوا أن الصليب المقدس «السلاح النووى»، أصبح مطلبًا ضروريًا لنا للحفاظ على ما تبقى لنا فى هذا العالم، وإلى أن يتحقق هذا فعلينا أن نكون حذرين فى التعاطى مع الاتفاق النووى بين إيران والغرب، الذى ستصبح له تداعيات لا تخطئها العين فى المستقبل القريب والبعيد، ويكفينا إهدار الفرص تلو الأخرى للتوحد وآخرها مشروع « القوة العربية المشتركة»، الذى أصبح فى مهب الريح، وكذلك الرهانات على قوى خارجية لا هم لها إلا أن تساعد على تشرذمنا.

أيها العرب العلم والوحدة هما الطريق الوحيد لتحديد مصيرنا بأيدينا، ولا تراهنوا على من ينتصر فى معركة الصليب المقدس» السلاح النووى» ليحمينا أومن يسيطر علينا، كفانا عارًا بعد أكثر من ١٤٠٠ عامًا من البشارة الربانية أن نكرر مشهد شماتة كفار قريش فى المؤمنين المستضعفين ونتراشق بالألفاظ، فى حين تقاسم الفرس والروم الصليب المقدس، ليس هذا فقط بل تقاسمونا مع الاتفاق.. التاريخ لا يرحم الأغبياء.

البعث الفارسى الشيعى

الفكرة والتطبيق، محددان رئيسيان لحركة الأمم متلاصقان متى انتفى أحدهما حتى ينتفى الآخر، فالفكرة تظل فكرة فى رءوس مبتكريها حتى يقوم أحد ما بتبنيها والدعوة لها ومحاولة تطبيقها وصولا للتطبيق الكامل متى توافرت شروط نجاحها والتى تخضع فى حركة تطور الأمم والمجتمعات لثلاثة ثوابت أساسية وهى التاريخ والجغرافيا والشعب المراد بالفكرة وتطبيقها.

وقد شهد التاريخ محاولات كثيرة من أمم كبيرة لإعادة إنتاج الأفكار القديمة بنفس محاولات تطبيقها القديمة أيضا فى نفس إطار الثوابت الرئيسية الثلاث التاريخ والجغرافيا والشعب من أجل استعادة مجد قديم لن يعود إلا بإعادة إنتاج أفكار جديدة ووسائل تطبيق أكثر حداثة تتماشى مع ثوابت التاريخ والجغرافيا وحركة واحتياجات شعوبها.

لذلك فمع الإعلان عن تأسيس « جيش التحرير الشيعى « على لسان الجنرال « محمد على فلكى « والذى عدل اسمه بعد ذلك إلى « جيش التحرير « فقط حتى يتلافى حجم الغضب والسخط العربى والإسلامى السنى، واضعا هدفا رئيسيا لهذا الجيش وهو « تحرير القدس وإنهاء وجود إسرائيل خلال فترة أقصاها ٢٣ عاما « وهو جيش سيتكون من خارج إيران من الجاليات الشيعية فى العالم العربى والإسلامى وهو جيش سيعتبر « ضرورة ملحة لأن الاستكبار العالمى لن يكف شره عن الجمهورية الإسلامية «، فإننا أمام نموذج إيرانى يحاول إحياء أفكار قديمة بوسائل تطبيق عتيقة لم تنفع قديما لأنها الآن وكما الأمس مكبلة بثوابت التاريخ والجغرافيا وحركة الشعوب فى محاولة لاستعادة مجد الدولة الفارسية القديمة فى ثوب إمبراطورى إسلامى سبق أن فشلت فى تحقيقه سابقا.

فبعد سقوط الدولة الفارسية الساسانية وخضوعها بكامل أراضيها لدولة الخلافة الإسلامية الجديدة إلا أنها تقبلت الدين ورفضت اللغة العربية فى محاولة جانبها النجاح وكعلامة على تمرد يرفض السلطة العربية الإسلامية على أمل بعث الدولة الفارسية مرة أخرى، وقاومت كل المحاولات للدمج النهائى طيلة حكم الدولة الأموية التى كانت قوية عليها، حتى حانت اللحظة والتى قام فيها أتباع الدولة الفارسية القديمة من « الدهاقنة « – عصب الدولة الساسانية الزائلة – بالوقوف مع المعارضة العباسية المسلحة والتى أزالت حكم الأمويين وأقاموا الحكم العباسى

الذى أعطى امتيازات كثيرة لعصب الدولة القديمة ومنها منع محاولات الاندماج الكامل الدينى واللغوى والذى شارف على النجاح قبل زوال الحكم الأموي.

ولكن مع نهايات العصر العباسى الثانى والذى شهد تدهورا شديدا للفكر السنى الغالب على تفكير الأمة ودخوله مرحلة الاحتراب والخلافات التى ليس من ورائها طائل مثل « محنة خلق القرآن «، فى مقابل تدهور سياسى واقتصادى أتاح للأقليات نفوذا كبيرا داخل الدولة، وهو الأمر الذى أدى إلى قيام دول ودويلات شيعية داخل جسم الإمبراطورية العباسية السنية تنازعها السيطرة والنفوذ، وهذا أعطى أتباع الدولة الساسانية القديمة نفوذا كبيرا عبر تبنيهم الأفكار الشيعية على أمل استعادة نفوذ الفرس القديم.

فكان هم أن أيدوا حركات شيعية متطرفة مثل حركة « الحشاشين « وقائدهم « حسن الصباح « ـ شيخ الجبل ـ وهو الأمر الذى ساعد على إضعاف الدولة العباسية أكثر وأكثر، بعدما خرج النفوذ الساسانى من بقعته الجغرافية فى إيران إلى بقعة بعيدة عنه ولكنها تعتبر منطقة نفوذ قديمة له إبان دولته القديمة وهى سورية واليمن، وزاد معدل التدهور بغزو « الصلبيين» لأرض الخلافة الإسلامية ولكن ما أوقف هذا التدهور والوقوف أمام فكرة عودة دولة الفرس القديمة هو دخول القبائل التركية والتركمانية التى تتبنى الفكر السنى على خط الصراع عبر وقوفها أمام انتشار الفكر الشيعى وكذلك زوال حكم الدولة الفاطمية فى مصر، والذى أدى فى النهاية إلى هزيمة أولى محاولات إيران الفارسية لاستعادة مجدها القديم.

ولكن ومع توالى السنوات الطويلة والمحاولات الإيرانية الفارسية تخمد لكن سرعان ما تعود مرة أخرى فى محاولة جادة ودءوبة لإحياء فكرة المجد الإمبراطورى القديم ولكنها و كما الماضى تتبع نفس أدوات التطبيق متجاهلة حقائق التاريخ والجغرافيا وحركة الشعوب.

هذا ومع تشابه الحوادث فى هذه الأيام بين القديم والحديث نجد إيران الشيعية تحاول إحياء فكرة المجد الإمبراطورى الفارسى فى ثياب شيعية سبق أن ارتدتها وبوسائل تطبيق تكاد تكون مشابهة لحد التطابق مع الأساليب القديمة، فإيران تستغل التناقضات والضعف داخل أتباع المذهب السنى والذى وصل إلى مستويات خطرة من الإحتراب الداخلى سواء بالفكر أو بالإرهاب كما فى حركه» داعش « وتحاول التمدد داخل المجتمع السنى على أمل استعادة نفوذ وإحياء لفكرة قديمة، لذلك نراها تتمدد فى مناطق بعينها تعبر بالضرورة على حقائق التاريخ والجغرافيا التى

قامت عليها الدولة الفارسية القديمة مثل سوريا ولبنان واليمن والخليج العربى، وهى الآن تحقق نجاحات واضحة فى التغلغل داخل الكيان السنى مثل ما حدث مع أواخر العصر العباسى فها نحن نرى ميليشيات شيعية تكاد تصل لحد الدولة داخل الدولة كما فى لبنان عن طريق « حزب الله «، ونفوذا شيعيا فى اليمن عن طريق « الحوثيين « ونفوذا أكثر من صارخ فى العراق عبر « مليشيات الحشد الشعبى «.

كل هذا وسط تراجع دول الجوار السنى وضعفها واكتمال الصورة كما الماضى بتدخل غربى أمريكى روسى.

ولكن هل تنجح إيران الفارسية فى ثوبها الإسلامى وعمامتها الشيعية فى أن تعيد إنتاج فكرتها الإمبراطورية وتطبقها على أرض الواقع مستغلة حالة التوهان وفقدان البوصلة لدى أتباع المذهب السنى وإحتراب وتنازع دولة فيما بينهم ؟ أم أنها ستصطدم بحقائق تاريخية وجغرافية تغيرت عما كان وقت سقوط الدولة الساسانية القديمة ؟

يبدو أن محاولة البعث الإمبراطورى الفارسى فى ثوبه الشيعى يتكرر مرة أخرى وبنفس الأدوات القديمة، ويبدو أنه سينجح مرحليا مستغلا الانقسام فى المحيط السنى ودخوله فريسة على مائدة الصراع الدولى، لذلك على الداعين للوقوف فى وجه التمدد الفارسى القديم الجديد أن يعوا دروس الماضى فى كيفية التصدى للفكرة الفارسية القديمة ومحاولات تطبيقها مستغلين التقارب التاريخى والجغرافى من أجل محاصرة ذلك التمدد وإرجاعه إلى غياهب التاريخ مرة أخرى، ولكن لن يكتب لهذا النجاح دون خروج الغرب من دول الجوار السنى، وإيجاد بيئة خصبة لنمو فكر سنى معبر عن حقائق العصر.

إن حماية الداخل السنى من محاولات إيران الفارسية التى تستغل المذهب الشيعى كحصان طروادة هو الأهم هذه الأيام حتى لا تدخلنا إيران فى احتراب داخلى قائم على مذهبية مقيتة لن يكون حطب نار هذا الإحتراب إلا العرب فقط لصالح إحياء إمبراطورى فارسى لا يعنيه المقتول كان سنيًا أم شيعيًا.

لست من دعاة المذهبية المقيتة ولكن حقائق الأشياء تفرض علينا أن نكون حذرين تجاه المشروع الفارسى الجديد القديم لذلك كلنا مسلمون وعرب سنقف أمام الزحف الإمبراطورى الإيرانى الفارسى.

اليمن.. الفناء الخلفى

اليمن مرة أخرى.. عنوانٌ عريضٌ لتعثر الثورات العربية، فالأزمة اليمنية وتداعياتها على الأرض، من بداية الربيع العربى وثورة الشعب اليمنى على حكم الطاغوت على عبد الله صالح، مرورا بالأزمة السياسية فى البلاد واختلاف الشركاء السياسيين عن ماهية وطبيعة مرحلة ما بعد صالح، وصولا إلى المحطة الأهم وهى التدخل العسكرى فى الشأن اليمنى لوضع حد لتطورات خرجت تأثيراتها من الواقع اليمنى إلى الوضعين الأقليمى والدولى- قد أعادت إلى الأذهان أوضاعا سابقة لحقبة تاريخية لا يزال جرحها ينزف فى الداخل اليمنى وفى المنطقة كلها.

فاليمن ما زال يمثل الفناء الخلفى لتصفية الصراعات التى نشأت عن التطورات الثورية فى المنطقة العربية قديما وحديثا، وما زالت نفس القوى القديمة تمارس نفس الأدوار ولكن مع مرور السنوات اختلفت التحالفات السياسية والعسكرية، وبقى اليمن هو الساحة الكبيرة والمهمة للحكم عن مدى قدرة الأنظمة العربية بعد الثورات على الصمود فى وجه التحديات الكبرى فى عالم متغير.

فمع موجة التحرر الوطنى فى خمسينيات القرن العشرين، ونجاح الثورات فى إنهاء الاحتلال الأجنبى فى بعض الأقطار العربية، وخاصة مصر الناصرية التى ألهم نجاح ثورتها وقيادتها لحركة التحرر الوطنى ومساندتها لأشقائها فى الوطن العربى والتى أصبحت النموذج الملهم للضباط فى الجيش اليمنى، والتى أعطتهم الأمل فى تغيير نظام الإمام أحمد ملك البلاد الذى يحكم شمال اليمن، وصولا لتحرير جنوب اليمن من الإحتلال البريطانى آنذاك، وإقامة نظام جمهورى جديد.

وهكذا مع نهاية عام ١٩٦٢ وبعد مقتل الإمام أحمد ملك البلاد، فقد أدرك الضباط الأحرار أن الطريق أصبح مفتوحا لبداية عهد جديد وهكذا أحدثوا ثورة جديدة، ولكن وريث الملك لم يصمت وتحالف مع القبائل الموالية للحكم الملكى مؤيدا من القوى التى تناهض حركات التحرر وعلى رأسها السعودية ودول الخليج ماعدا (عمان)، ودخل فى صراع مسلح، وأيد القوى الثورية النظام المصرى وهو ما استدعى تدخلا عسكريا مصريا للقتال فى اليمن.

وقد ساندت القوى الاستعمارية وإسرائيل القوى الرجعية الملكية من أجل إضعاف العرب والقضاء على فكرة القومية العربية وليس حبا فى الاستقرار اليمنى.. وانتهى الصراع الدامى

فى اليمن بعد سنوات على اتفاق انتهى بموجبه الحكم الملكى وتسلم الجمهوريين مقاليد السلطة فى البلاد.

وقد اختلفت دوافع التدخل فى الشأن اليمنى، فالقوى الخليجية رأت أن القيام بثورات شبيهة بالتى حدثت فى مصر والدول العربية الأخرى هو تهديد لأمنها وبقائها على الخريطة العربية، فضلا عن الرؤية السعودية فى التعاطى مع الشأن اليمنى الداخلى والتى ترى أنه من الضرورى أن يكون النظام القائم فى اليمن هو نظاما مواليا لها، منعا لمطالبات يمنية بأراض انتزعت منها سابقا، وكذلك منع توحيد اليمن الشمالى مع الجنوبى حتى لا تكون هناك دولة كبيرة فى خاصرة المملكة، والتى تعتبرها السعودية الفناء الخلفى لها.

أما مصر الناصرية فقد كانت تعانى من تبعات فك الوحدة مع سوريا وتراجع أحلامها فى الوحدة العربية الكاملة، لذلك فهى كانت تبحث عن انتصار عسكرى سريع يمكن أن يرجع لها ريادتها و قيادتها للوطن العربى، ناهيك عن صراعها الواضح مع القوى الرجعية الملكية فى المنطقة العربية، وكذك حاجة مصر لوجود عسكرى فى منطقة باب المندب والذى كان تحت سيطرة الوجود البريطانى آنذاك

وخرجت القوى العربية من الأزمة اليمنية خاسرة، فقد انهار النظام العربى برمته مع نكسة ١٩٦٧، وانتصرت القوى الغربية لنفسها فى الأزمة وتم لها ما أرادت فقد انتهى المشروع العربى الوحدوى الذى هو لُب الثورات العربية آنذاك.

ومع استقلال اليمن الجنوبى عن بريطانيا وتكوين جمهورية اليمن الديموقراطية، أصبحت هناك دولتان يمنيتان واحدة فى الشمال والثانية فى الجنوب، وقد جرت محاولات عديدة لتوحيد الدولتين فى كيان واحد، حتى بداية عام ١٩٩٤ والذى اتفق فيه الجنوبيون بقيادة على سالم البيض والشماليون بقيادة على عبدالله صالح على الوحدة وتقسيم المناصب فى الدولة بين الجنوبيين والشماليين بالتساوى، وهو ما اختلفوا فيه بعد ذلك، ما استدعى قيام الحرب الأهلية فيما بينهم، وهنا تدخلت السعودية لدعم الجنوبيين لعدم إتمام الوحدة ولكن كانت أمريكا على عكسها تريد يمنًا موحدًا لطبيعة الصراع العالمى.

وهكذا أصبح اليمن موحدا لأول مرة منذ سنوات طويلة.. ولكنه ظل يرزح تحت حكم ديكتاتورى قبلى بقيادة على عبدالله صالح أورثه الفقر والجهل والمرض، حتى قامت ثورات الربيع العربى والتى قادها شباب هذه الأمة وأطاحت بكل الأنظمة المستبدة، ولم تكن اليمن بعيدة عن

تلك الثورات فقد قام الشباب اليمنى بثورة عظيمة أطاحت بحكم «صالح».
ولكن كما ثورة ١٩٦٢ اختلف الشركاء وزادت الخلافات وأصبحت البلاد فى فوضى عارمة، وكذلك لم يستسلم على عبد الله صالح كما ابن الملك أحمد سابقا، وتحالف مع الحوثيين المهمشين أعداء المملكة السعودية المدعومين من إيران التى تبحث لها عن نفوذ متنام ودائم فى منطقة الخليج، وعطل كل محاولات الحوار الوطنى المراد به انتشال البلاد من أزمتها السياسية، وسيطر مع الحوثيين على مرافق الدولة ومؤسساتها وعزلوا الرئيس التوافقى عبد ربه منصور هادى « الجنوبى».

هنا أصبح اليمن على شفا حرب أهلية حقيقية تجرى وقائعها على مرأى ومسمع من العالم، ومع تصاعد الأحداث فى الداخل اليمنى استيقظ العالم كله على وقع صدى قيام طائرات حربية عربية وإقليمية بضرب تحالف على عبدالله صالح وقواته والحوثيين، فيما عرف إعلاميا بـــ»عاصفة الحزم « وذلك للتأكيد على الشرعية فى اليمن من خلال رئيسها عبد ربه منصور هادى.
ومع تواصل عمليات القصف الجوى لليمن وانتشار الأقاويل والتحليلات التى ترجح التدخل البرى لقوات التحالف العربية فى اليمن،هنا يبرز التساؤل القديم الجديد عن ماهية التدخل فى الشأن اليمنى وطبيعة المصالح التى تريدها دول التحالف فى اليمن ؟؟؟
فكما السابق اختلفت الظروف واختلفت طبيعة الثورات من الانقلابات العسكرية إلى الثورات الشعبية ولكن لم تختلف مصالح الدول، وإن طرأ عليها تغيرات فى طبيعة الصراع الإقليمى والدولى.. فدول الخليج وخاصة السعودية تريد يمنا منقسما غير موحد لسابق ما ذكرناه، وكذلك محاولة احتواء رياح التغيير التى أزاحت أنظمة عربية عتيدة، ناهيك عن مناهضة الدور الإيرانى والتى تراه مشابها لنفس الدور المصرى فى ثورة اليمن ١٩٦٢.

أما الدولة المصرية الجديدة بعد ثورة ٢٥ يناير فلم تختلف كثيرا دوافعها عما سبق فهى تعانى من غياب الدور المصرى على الساحة العربية وتبحث عن دور تمارس فيه فعل القوة من أجل إعادة الهيبة والرياده، ناهيك عن الأهمية القصوى لباب المندب وضرورة تواجد مصرى دائم مع تعاظم الدور الإيرانى هناك.. وكذلك محاصرة النفوذ الإيرانى فى اليمن وهو ما يتلاقى مع الرؤية السعودية الخليجية بعد تعاظمه فى العراق وسوريا ولبنان.

أما القوى الدولية المساندة للتحالف العربى، فلم تختلف رؤيتها عما سبق، تريد يمنا مقسمًا بين شمالى وجنوبى، وتزيد عليه منع التمدد الإيرانى فى الشأن الخليجى التى تراه ملكا خاصا لها.

وتبقى التساؤلات الأبرز ونحن نسمع أزيز الطائرات والبيانات العسكرية اليومية: هل تنتهى الأزمة اليمنية على ما انتهت إليه فى السابق؟؟ وهل ينتهى ما تبقى من النظام العربى؟؟ هل نصحو على نكسة عسكرية كبرى أخرى؟؟ هل تنتهى ونحن موحدون أم إجراء لنظام إقليمى يدار فيه العرب من خارجه؟؟

تساؤلات تبحث عن إجابة.. أعتقد أنها مطروحة أمام القيادات العربية، ولكن هل هم يدركون دروس الماضى؟؟.. الله أعلم.

فرنسا . .
ملء فراغ أم حرب بالوكالة ؟

هل تحدد العلاقة بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية شكل ومستقبل المنطقة العربية؟ يبدو للإجابة عن هذا التساؤل- الذى يراه كثير من الناس والمحللين خارجا عن السياق التقليدى للتفكير العربى القائم على أحادية التفكير، المقتصر على المشاهدات دون التعمق فى قراءة ما وراء السطور والأحداث – فإنه يجب النظر إلى العلاقة الأمريكية الفرنسية على إنها صراع مصالح ولكنه من منطق آخر، صراع إرادات غير متكافئ، خاصة أن الصراع يطال المساحة الأهم فى العالم وهى العالم العربى والشرق الأوسط برمته.

وقد لعب صراع المصالح دورا كبيرا فى بلورة شكل العلاقة الأمريكية الفرنسية إلى حد كبير، بعيدا عن شكل التحالف القائم بينهما. فأمريكا ترى أن فرنسا أخذت دورها فى القيادة وأنه لا مجال لعودتها مرة أخرى إلا من خلال تفاهمات جديدة وإدارة جديدة للعالم تحتفظ فيها أمريكا بالقيادة.. ولا مانع من دور فرنسى بارز يحقق المصلحة الأمريكية بالأساس، ويعطى فرنسا إحساسا بالوهم الإمبراطورى القديم.

لذلك ففى مؤتمر « يالطا « فبراير ١٩٤٥ وقبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية بشهور قليلة، اجتمع قادة الاتحاد السوفييتى وأمريكا وبريطانيا، ليحددوا شكل وحدود المصالح بينهم بعد انتهاء الحرب، وقد غابت فرنسا عن المؤتمر، وعندما سأل رئيس الوزراء البريطانى « تشرشل « الرئيس الأمريكى « إيزنهاور « لماذا لم تتم دعوة فرنسا باعتبارها قوة عظمى ؟ فرد قائلا « إنها دولة تم احتلالها من ألمانيا ونحن من حررناها ولا مكان لها بين المنتصرين «.

هكذا تم شطب الدور الفرنسى من قبل القوى الجديدة القائدة للعالم الجديد، ولكن تم الإبقاء على دور رمزى لا يعدو الاعتراف لها ببعض النفوذ فيما تبقى لها من التأثير اللغوى فيما عرف لاحقا بالفرانكوفونية.

أما فيما يخص المنطقة العربية، فبعد الحرب العالمية أخذ دور أمريكا يزداد فى المنطقة للاستحواذ

على الميراث الفرنسى.. وهو ما تجلى فى النفوذ المتزايد فى المغرب العربى، والاعتراف بالثورات العربية، بل والوقوف الشهير ضد العدوان الثلاثى ١٩٥٦ على مصر، وذلك من أجل إنهاء النفوذ الفرنسى فى المنطقة العربية إلى الأبد وهو ما تحقق فى النهاية.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقة فرنسا بالمنطقة تحدد صعودا وهبوطا بمدى قوة أو ضعف العلاقة بينها وبين أمريكا؟ وكذلك بمدى الحاجة الأمريكية للمساعدة الفرنسية فى ضبط الإيقاع فيما لا يخالف الإطار العام الخاص بترتيبات مؤتمر «يالطا»..

فأمريكا احتاجت فرنسا لمكافحة الشيوعية ومحاصرة روسيا فى المنطقة العربية وإفريقيا، ووافقت على قيام تحالف عربى – فرنسى فيما عرف بـــ» نادى السفارى» لمكافحة الشيوعية تحت الإشراف الأمريكى، وانتهى دوره، بانتهاء الغرض منه.

ثم السماح الأمريكى بتوريد السلاح الفرنسى لتعويض نقص التكنولوجيا الأمريكية لدى العرب، حتى تكون فى منأى من الانتقادات الإسرائيلية وانتقادات الداخل الأمريكى المعادى للعرب.

وهكذا صارت العلاقة الفرنسية بالمنطقة العربيه، يعبرعنها ترمومتر العلاقة الأمريكية–الفرنسية حتى قبيل ثورات الربيع العربى وتحديد استراتيجية جديدة لقيادة العالم، واحتياج أمريكا لدور فرنسى مساعد وفاعل فى نفس الوقت ويتماهى مع الاستراتيجية العامة.. فكان الوجود الفرنسى فى دولة الإمارات فى مواجهة النفوذ الإيرانى المتنامى

حتى قامت ثورات الربيع العربى، ومع رغبة أمريكا فى تغيير الأنظمة العربية وإحلال مكانها أنظمة راديكالية دينية معتدلة، نرى أنها استعانت بفرنسا لضرب النظام الليبى وإسقاطه، وكذلك استعانت بها بل وساعدتها بقوة من أجل القضاء على الجماعات الإسلامية المسلحة بشمالى جمهورية مالى.. لأن أمريكا رأت أن ذلك خطر يدعم الأصولية الإسلامية فى مواجهة النفوذ الأمريكى– الإسرائيلى، وهو ما اعتبر مقدمة لسقوط التيارات الدينية السياسية فى المنطقة العربية.

ومع تداعى الأحداث وسرعة إيقاعها فقد بدا واضحا أن أمريكا تريد فرنسا فى مناطق عربية دون أخرى فهى لا تريد تنامى نفوذها فى المغرب العربى ولا فى سوريا، خوفا من أحلام إمبراطورية فرنسية قديمة، وفى المقابل لم تمانع فى أدوار كبيرة فى مناطق أخرى، فمثلا لم تمانع التقارب السعودى– الفرنسى من أجل تسليح الجيش اللبنانى، وكذلك لم تمانع عقد مصر لصفقات كبيرة للسلاح الفرنسى، كما لم تمانع فى الظهور الكثيف للدبلوماسية الفرنسية فى منطقة الخليج وفى الأزمة اليمنية.

ويبدو من خلال المؤشرات الجديدة التى تتداولها وسائل الإعلام أننا مقبلون على دور فرنسى جديد، يساند الموقف الأمريكى فى المنطقة، ويتماهى مع المصالح العربية الحالية، وهو ضبط الإيقاع فى « ليبيا « ما بعد سيطرة الميليشيات المسلحة.

فهل تكون حربا جديدة بالوكالة، كما حدث فى مالى سابقا ؟؟ هذا ما ستجيب عنة الأيام القادمة.

ولكن تبقى كلمة لبلادى العربية: إلى متى نحتاج إلى قوى خارجية تنظم لنا شأننا الداخلى، وهل سيفضى التبرم العربى الحالى من السياسة الأمريكية إلى واقع جديد؟ أم سيسلمنا هذا التبرم إلى وكيل جديد يملأ لنا فراغ القوة، ويخوض عنا حربنا بالوكالة ؟؟ فرنسا لا تصلح لملء الفراغ ولا تقدر عليه، إنها تصلح وكيلا مؤقتا، ولكن يجب الحظر ثم الحظر من طلبات الوكيل بعد الانتصار.

إنى أكاد أسمع هدير المدافع وأزيز الطائرات من بعيد.

العراق ولبنان..
ثنائية الفساد والقمامة

للثورات علامات ونذر وسحب من المسببات تتراكم فى فضاءات المجتمعات لتنذر بقدوم التغيير المنتظر، بعد عشرات السنين من الظلم والقهر، لكن الدراسات التى تتحدث عن علم الثورات وإن كانت أجمعت على أن هناك ثلاث مراحل للثورة فى أى مجتمع وهي، مرحله التعبئة الفكرية ومرحلة الكبت المتصاعد ثم مرحلة تعبئة الجماهير، ولكنهم يفترضوا وحدة المجتمع وثبات مكوناته الاجتماعية، لحدوث التراكم المنشود للثورة على الأنظمة الحاكمة.

وهو ما لا ينطبق على الحالتين الثوريتين فى كل من العراق ولبنان فكلاهما لم يعش مخاضا ثوريا طويل يغلب عليه الطابع الفكرى الأيديولوجى – على الرغم من كونهما مركز إشعاع حضارى كبير– ولا تجانس المكون المجتمعى المكون للمجتمعين بل على العكس من ذلك فالمكون يكاد يكون متشابها إلى حد التطابق فى الحالتين المجتمعيتين، فكلاهما منقسم على أساس دينى ومذهبى وصولا إلى وجود مناطق حكم ذاتى كما فى العراق وتحكم قوة عسكرية مذهبية كما فى الجنوب اللبنانى.. ويبقى السؤال فلماذا إذن وصلت الأمور فى كلا الدولتين إلى الحد الثورى؟
إنه المرحلة الثالثة من الكبت المتصاعد فى كلا الدولتين ضد طغمة حاكمة لم تراع فى شعوبها إلا ولا ذمة، عاثت فى الأرض فسادا تحت دعاوى كثيرة وبذريعة الانقسامات المجتمعية التى تعوق الإصلاح والعدو الخارجى المتربص بنا، حتى نهبوا البلدين، وانتظر كلا الشعبين الحكومة تلو الأخرى لتحسين الأوضاع السياسية والاقتصادية ولكنه انتظار الحليب من ثدى ميت.
هنا كانت الحالة الثورية الفريدة فيما يسمى الثورات الشعبية فقد تناسى الشعبان آلام التفرق المذهبى والعرقى وانتفضوا ضد الفساد والإهمال الحكومى للخدمات الذى بدا وكأن الشعب خادم للحكومتين وليس العكس.

وتوحدت الألوان والشعارات والمذاهب حتى ارتعدت مفاصل الحكام واستجابت الحكومتان لمطالب المتظاهرين واتخذت إجراءات للحد من الفساد فى العراق بعد ما أثبتت لجنة التحقيق أن الفساد تجاوز كافة الحدود، الأمر الذى حدا بالفاسدين للهروب من العراق، وفى المقابل

وعدت الحكومة اللبنانية المتظاهرين بتحسين الخدمات المقدمة ولكنها ألقت باللائمة على الانقسام السياسى الذى يحكم لبنان.

وهنا ظهرت نبرة غريبة وسط التظاهرات فى كلا البلدين فقد ظهر السياسيون الذين يحاولون أن يوظفوا تلك الثورة الشعبية لمصلحتهم ولتصفية الحسابات.

لذلك أقول للمتظاهرين فى كلا الدولتين.. إنكم أبهرتم العالم الذى ظن أنكم شعوب قد ماتت تحت ركام الانقسام المذهبى والعرقى، فلا تتركوا العراق و لبنان يضيعان على يد السياسيين، إنهم من أضاعوكم، إنهم الطابور الخامس بينكم، فلتكونوا نخبة جديدة من رحم الشارع بعيدة عن المذهبية والمناطقية، لقد أثبتم أن العيب ليس فى المذهب ولكن العيب فيمن يصمت على ظلم الطواغيت من الحكام الفاسدين الذين يكرسون فيكم الانقسام،

وإذا كانت عجلة الثورة قد دارت عندكم فلا توقفوها عند ثنائية الفساد والقمامة، وانطلقوا بها لتطهير كلا المجتمعين من كل رواسب الماضى، ولا تحسبوا أنكم انتصرتم فمكر الساسة أدهى وأمر.

يحيا العراق، يحيا لبنان.

بوتفليقة . .
دابة الأرض تأكل منسأته

قال تعالى « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين « سورة سبأ- آية ١٤

من يتخيل أن القصص القرآنى هو محض قصص للتسلية فعليه أن يراجع منظومتة الإيمانية بالكامل، لأنه يتعارض مع ما أخبرنا به الله تعالى « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الأبصار..» ولذلك فقراءة القصص القرآنى مهمة جدا للخروج منها ومن خلالها بأجوبة عن أحداث يختلط فيها الحابل بالنابل بعيدا عن الجدال بالنصوص والآيات الذى غرقنا فيه حتى فقد معناه، وأصبح أسلوب الحكى والقصص هو الأقرب للفهم على طريقة الأمثال الشعبية التى تجسد المعنى فى أقل كلمات موجزة، بعدما عجز العلم أن يخترق عالم الجهل الذى نعيش فيه ليل نهار.

إن مشهد سقوط سيدنا « سليمان « على الأرض ميتا أمام الإنس والجن هو مشهد كاشف لحقيقة ما يجرى وما يجب أن يكون عليه من يريد التغيير الإنسانى، فسيدنا « سليمان « طلب من ربه « أن يعمى على الجن والإنس خبر موته فى المحراب، حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب « وما أن دخل المحراب واتكأ على منسأته (عصاه) حتى مات، وكانت الجن تمر عليه جيئة وذهابا ولا تعلم أنه مات حتى قامت دابة الأرض بأكل المنسأة من الأسفل فوقع سيدنا سليمان على الأرض وأعلن أنه مات.

هنا علم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وأن استسلامهم لغواية الجن ما هو إلا محض عجز وتواكل.. وأن من يريد التغيير هم فقط من لديهم الإرادة الحقيقية للتغيير.

لذلك فلا يختلف مشهد رؤية الرئيس «عبدالعزيز بوتفليقة « على كرسيه المتحرك عن مشهد اتكاء سيدنا « سليمان « على منسأته فهى مسألة وقت ويعلن موت الرئيس، فدابة الأرض تأكل وتنخر فى جسد الدولة الجزائرية وأن محاولة الإيحاء للجماهير - الإنس- بأن الأوضاع مستقرة عبر التغييرات فى المراكز القيادية الأمنية يدل على أن الرئيس يمسك بزمام الأمور من قبل المؤسسة

العسكرية والأمنية وزمرة المنتفعين من رجال الأعمال المحظوظين – الجن – فهذا محض محاوله تدجين متعمدة عبر الإيحاء بقدرة هؤلاء الجن على إدارة الأمور فى البلاد وأن على جماهير الإنس أن تعلم أنهم قادرون وفاعلون على الدخول للمستقبل، وأن أى محاولة للتغيير خارج الإطار المرسوم ستقابل كما الماضى القريب بالعنف، والعنف وحدة.

ويبدو أن جماهير الإنس الجزائرية لم تستوعب بعد القصص القرآنى، ويبدو أنها استسلمت لقدر الجن الذى يدير أقدارها، يرزحون تحت وهم عدم القدرة على التغيير متأثرين بتفسير خاطئ لقصة سيدنا سليمان من قبل التيار الإسلامى فى التسعينيات من القرن الماضى الذين لم يكونوا يرغبون فى إزاحة الجن من طريقهم بل أرادوا أن يجلسوا مكان سيدنا سليمان نفسه، لذلك إذا أراد الجزائريون أن يقوموا بعملية تغيير قادرة وفاعلة تدخلهم إلى المستقبل فليس مشهد الرئيس بوتفليقة على كرسى متحرك إلا محفزا هم مستلهمين الدرس الذى تعلمته الإنسانية كلها من قصة موت سيدنا سليمان التى أيقظت الإنسانية على أن وهم الارتكان فى التغيير على الآخرين هو استمرار فى العبودية أبد الدهر.

إذا أردتم التغيير فالقصة التاريخية تعاد على أرضكم، وإن لم تتعلموا الدرس وتستوعبوه فإن سقوط الرئيس من على منسأته لن يكون تغييرا لكم بقدر أن يكون تكريسا لمزيد من عبودية لزمرة متحلقة حول العرش، وليس الخراب لأن سنن من لا يريد المستقبل أن يستقبل الخراب.

الدابة قاربت على أكل المنسأة فهل ينتظر الإنس حتى يفيقوا إلى أنهم مطالبون بالتغيير قبل سقوط الرئيس.. المستقبل فى الجزائر غائم وأن الجن لا يؤمنون إلا بالماضى.
بوتفليقة ليس نبيًا.. وهم ليسوا قادرين.

إسرائيل والأطراف الخليجية

مشهد الطالب وهو باسط يديه والمدرس يضربه بالعصى يختزل معانى كثيرة – ليس من ضمنها طبعا التعاطف مع الطالب المتكاسل– فعقوبة الضرب فى المراحل التعليمية الأولى هى علاقة جدلية بين المراد منها وهوتأديب الطالب من أجل أن يتعلم وبين تعليمه لغة الانصياع لتسهيل تلقى التعليمات دون تفكير، وعلى الرغم من تنوع شكل العقوبة إلا أن ضرب العصى على الأطراف – الأيدى والأرجل– هوالشكل الشائع وهو حالة وسط بمرور الوقت يتعلم الطالب منها أنها وسيلة أبسط للعقاب لأنه عندما لا ينصاع لتلقيها، فإنه سيتلقى أشد منها وفى مناطق مختلفة على الجسد، وعليه عندما يظهر المعلم بالعصا ويهم بالاختبار تتحرك أطراف الطلبة تلقائيا كرد فعل منعكس لما حدث سابقا.. وهذا يفسر كثيرا مما يحدث الآن فى منطقتنا

كيف ذلك ؟ تعالوا معى نروى الحكاية من البداية.

فمنذ أن خط نائب الملكة وحاكم الهند البريطانى بعصاه على الرمال وحدد بواسطتها حدود الدول الخليجية الجديدة، ومن ساعتها وفعل العصى على الرمال وعلى الرجال نافذ، ولغة الانصياع بدأت تتزايد شيئا فشيئا حتى أصبح رد فعل التلميذ ردا لمراد الأستاذ، إذا ما طلب شيئا لبى التلميذ، وهذا ما حدث فى تلبية الأطراف لطلب العصى عندما كان الطلب ثورة على الحكم التركى الظالم للمنطقة العربية والذى يعلم الأستاذ أن الشعوب العربية تكره هذا الحكم وتريد استقلالا، ولكن القلب كان فيه بقايا حنين للحكم التركى لدواع مختلفة خاصة من الحكام، هذا رأى الأستاذ البريطانى أن تقوم الأطراف بدور المحرض فى البداية ثم يحدث الطوفان.

وهو ما حدث بثورة الشريف حسين فى مكة ضد الحكم التركى، ومع تصاعد الأحداث كوفئت الأطراف بدول ذات سيادة وكيف لا وأن نتيجة عملهم ليس إزالة الحكم التركى الظالم بل إحلال الأستاذ الإنجليزى والفرنسى مكانه، وليس هذا فقط بل وجود دولة إسرائيل نفسها.. فى إطار تنفيذ معاهدة سايكس– بيكو الأولى.

وبعد أن تحررت الشعوب العربية فى بداية خمسينيات القرن العشرين وما بعدها، يبدوأن الأستاذ وإن تغير شكله من إنجليزى إلى أمريكى إلا أن فعل العصا والأطراف لم يتغير، فمع تصاعد القومية العربية انزعج الأستاذ من إعادة الروح إلى الجسد الذى بات يقلقه عنفوانه وقوته، ومع التلويح بالعصا تحركت الأطراف الخليجية وهاجمت القومية ووقفت فى وجه باقى الدول العربية وأظهرت

دعاوى طلب منها أن تقوها حماية لمصالح الأستاذ مثل « الهلال الإسلامى -حلف بغداد « بديلا عن القومية وبعثا جديدا للإسلام، حتى وصل الأمر بهزيمة ساحقة للعرب أمام إسرائيل.. فى إطار استمرار وتكريس معاهدة سايكس-بيكو الأولى.

ثم توالت السنوات والأحداث تخيلت فيها الأطراف أن بإمكانها قيادة الجسد وفى وسطة القلب، ظنا ووهما تحت دعاوى المال والاتصال بالأستاذ صاحب العصى، ولكن يبدو أن الأستاذ أراد تغيير قواعد اللعبة بعدما اعتل الجسد ووهن وأصبح لا يتحمل أكثر من ذلك من ظلم الحكام وحان تطبيق سايكس–بيكو جديدة وعلى قواعد مختلفة.. لهذا كانت ثورات الربيع العربى – شرارتها إندلعت من أطراف دولها– التى شهدت استجابة غير مسبوقة من الشعوب التى ثارت.

وكما الماضى كان فعل الأطراف المنعكس حاضرا وبقسوة فى الربيع العربى الذى تحول إلى دماء غزيرة فى سوريا وليبيا واليمن كما حدث ويحدث فى العراق، وتمادت الأطراف فى محاولة القضاء على القلب ظنا منها أنها قادرة على الصمود والقيادة دون قلب نابض فى سوريا أو العراق أو مصر.

وتشرذمت دول القلب بفعل الأطراف مع لسعات عصى الأستاذ الأمريكى، وأصبحت إسرائيل واحة للأمان فى المنطقة بفعل الأطراف الخليجية التى تتماهى مع عصى الأستاذ الأمريكى فى انتظار سايكس – بيكو جديدة، حتما سيكون الأطراف فاعلين فيها ولكن بطلبات أو لسعات أشد قسوة.

إن نشأة وصعود إسرائيل هو مرتبط حتما بقوة الأطراف الخليجية على حساب المركز والقلب العربى، وبقدرة عصى الأستاذ الأمريكى على استثمار الخوف اللاشعورى ورد الفعل المنعكس لرؤية العصى إذا لم تنصاع للأوامر التى من ضمنها التهديد من أن عدم الانصياع سيكون لصالح التهام دول المركز لدول الأطراف الخليجية.

ولكننى لا أميل إلى نظرية المؤامرة فى التاريخ، ولكن تشابه حوادث التاريخ ونواتجها إلى حد كبير يجعل الفرد منا يقف لينتبه لما يجرى حوله، وعلى الأطراف أن تتلمس طريق الشفاء من العقدة النفسية التى ترسبت من فعل العصى وذلك بترياق يسرى فى القلب والمركز وأن تفيق الأطراف إلى حقيقة الدور الذى ربما تكون منساقة له قصرا.

إسرائيل لم تكن تحلم بتدمير الجيش العراقى ولا الجيش السورى ولا ليبيا، ولكن بمساعدة الأطراف دان لها ما أرادت، ويبدو أن الانصياع قد فاق حدوده وأصبح حلم تتويج الأرجل والأيدى مكان القلب هو الشغل الشاغل لدول الأطراف الخليجية، وتريد تطويع ما تبقى من القوة العربية فى مصر لصالح وهم قدرتها على القيادة وهى تعلم مدى نفور مصر وعدم تقبلها تلك الفكرة حتى وهى فى أزمتها الاقتصادية.

على الدول الخليجية أن تعى أن حلم إسرائيل الكبرى قد بات وشيكا إذا لم تفيق من أوهامها، لأن الأستاذ الذى يمسك العصى لن يكون أمريكيا هذه المرة بل إسرائيليا وساعتها لن تجدوا من يدافع عنكم.. أعلم أنكم موجودون فى كل مصيبة على مساحة العالم العربى وأن صيغة تحالفاتكم شملت كل الأديان والملل من أجل إرضاء من ليس منا.. أفيقوا من زمن الامتنان الذى خط بعصى على الرمال، ومن زمن هيب العصى على الأيدى والأرجل.. الطوفان قادم.

الحقبة السعودية الإسرائيلية

كثيرُ ما وصف تاريخ الشرق الأوسط وفى محيطه الأكبر المنطقة العربية من المحيط للخليج، بما يحكمه من سياسات ودول وإمبراطوريات حاكمة.. كثير ما توصف بمن يملك مقاليد الحكم فيها، فتارة يقال إنها حقبة يونانية أو رومانية أو فارسية أوإسلامية فى نهاية المطاف، وصولا لنهايات القرن التاسع عشر وبداية إرهاصات الدولة القومية والوطنية ونشوء خيارات جديدة لدول الإقليم تقوم على تقرير الدولة مصيرها بعيدا عن العمل الجماعى الجامع كما كان فى السابق.

وقد تحقق لدول الإقليم ما أرادته عندما بدأت موجة التحرر الوطنى من الاستعمار فى بداية خمسينيات القرن العشرين، والتى فوجئت عند فورة الانتصار على المستعمر بمن يريد أن يجعل المرجعية القومية نظام عمل حاكم للمحيط العربى يعيد للأذهان أمجاد حقب تاريخية سابقة، وهو ما عرف حينها بحقبة «القومية العربية « بقيادة مصر، وهو ما قوبل بعاصفة من الهجوم من الجوار العربى على امتداد الشرق الأوسط، وكذلك من داخل المحيط العربى المتمثل أساسا من دول راديكالية محافظة معظمها نشأ نتيجة ظروف تاريخية معقدة مثل دول الخليج العربى.

وعلى الرغم من عدم استمرارية الحقبة القومية لسنوات طويلة إلا أنها تركت أثرا عميقا فى النفسية العربية حيث إنه بنهاية تلك الحقبة فقد انتهت آخر مراحل العمل الجماعى العام فى العصر الحديث وربما لأجيال قادمة كثيرة.

وبنهاية حرب أكتوبر ١٩٧٣ فقد بدا أننا أمام حقبة جديدة حاكمة ليس عنوانها القوة العسكرية الحاكمة، ولا القوة الناعمة القائمة على الميراث الحضارى العام، ولكنها قائمة على ثروة البترول مثل الحقبة السعودية الممتدة من منتصف السبعينيات وحتى منتصف ثمانينيات القرن الماضى، وحقبة أخرى قائمة على النفوذ الغربى والأمريكى بالأساس مثل إسرائيل والممتدة من أوئل التسعينيات وحتى بدايات ثورات الربيع العربى ٢٠١١

فالحقبة السعودية، التى بدأت عشية حرب أكتوبر ١٩٧٣ نتيجة الزيادات المتتالية لأسعار البترول، السلعة الاستراتيجية الأهم فى العالم، والتى جعلت من السعودية مع بداية الثمانينيات تمتلك ما يقارب من ثلث السيولة النقدية فى العالم آنذاك، وكذلك تراجع أو تخلى قوى المركز العربى لظروف تاريخية ما عن القيادة، وهو ما أغرى السعودية بلعب دور إقليمى ودولى رأته

فرصة تاريخية لإثبات الوجود ومنافسة دول المركز على القيادة مدفوعة بتأييد أمريكي غير محدود مما جعلها تدخل على ملف الصراع العربي – الإسرائيلي وتمهد المشهد الخلفي لاتفاقية السلام « كامب ديفيد « عبر جهاز مخابراتها، بل تدخل على خط الصراع العالمي بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا وتساعد أمريكا على تصفية الوجود السوفيتي في المنطقة بداية من إنهاء الوجود السوفييتي العسكري في « عدن « في اليمن، و «بربرة « في الصومال، وصولا لإضعاف الصوت القومي المتبقي في بعض الدول العربية.. وصولا لذروة التعاون وهو الدخول على خط الصراع العالمي بطريقة شبه عسكرية في أفغانستان لإنهاء الوجود السوفيتي وبدعم أمريكي واضح.. وتراجع العرب للخلف سنوات.

ولكن ومع نهاية ثمانينيات القرن العشرين ومع تراجع أسعار النفط العالمية لمستويات متدنية، وكنتيجة مباشرة لحرب « تحرير الكويت « من الغزو العراقي، فقد بدأ أننا أمام نهاية الحقبة السعودية وسط فوضى عارمة خلفتها تلك الحقبة على التاريخ العربي كله، وهو ما مهد الطريق لبداية « الحقبة الإسرائيلية « تلك المدعومة بحليفتها « القطب الأوحد « أمريكا القابعة على الأرض العربية بجيوشها وأساطيلها البحرية والجوية، والتي مكنت إسرائيل في تلك الحقبة وحتى بداية ثورات الربيع العربي من فرض شروطها وإملاءاتها على الجوار العربي.

وتحولت القضية الفلسطينية من قضية عربية مركزية إلى مسألة هامشية يمكن تسويتها ضمن ترتيبات إسرائيلية –عربية في إطار تعاون اقتصادي وسياسي مباشر، بعد أن أصبح واضحا أن إسرائيل موجودة في كل مكان على امتداد الرقعة العربية سواء بالتطبيع المباشر وغير المباشر، وهي حقبة شهدت تراجعا أشد للموقف العربي حتى أصبح أقل ما يقال عنه إنه وضع مزرٍ هو تبسيط لحقائق الأشياء على الأرض.

وبعد إندلاع ثورات الربيع العربي ٢٠١١، فقد بدا أن ما تبقى من بقايا قوة عربية مقاومة قد انتهى فقد تم إسكات ليبيا بالطريق المباشر عن طريق القوة المسلحة ثم الفوضى، وإدخال سوريا على طريق الحرب الأهلية، ناهيك عن خروج العراق ممزقا منذ زمن ليس بالبعيد، وأصبحت مصر التي خرجت بأقل القليل من الخسائر المباشرة إلا أنها خسرت استراتيجيا كأكثر خسارة في تاريخها الحديث ناهيك عن انكفائها على معالجة أزماتها الاقتصادية التي خلفتها فترة الحراك الثوري الممتدة لأكثرمن خمس سنوات، وهو ما أغرى السعوديين لاسترجاع أمجاد « الحقبة السعودية « الماضية، ومحاولة إسرائيلية جادة لمحاولة استمرارية « الحقبة الإسرائيلية « وهو ما قوبل بتلاقي المصالح بين

طرفى الحقبتين على امتداد خطوط الصراع فى المنطقة العربية تحت ذريعة معلنة وهى « الخطر الإيرانى ، وتململ سعودى- إسرائيلى من السياسة الأمريكية فى المنطقة فى عهد الرئيس « أوباما «، ولكنه يبدو تنسيقا أكبر لجعل الحقبة التاريخية القادمة، حقبة مشتركة « سعودية-إسرائيلية» لقيادة المنطقة أبرز سماتها عزل إيران وراء الحدود العربية بأى ثمن وإخراجها من المعادلة السورية حتى ولو بتقديم تنازلات وإغراءات للجانب الروسى للابتعاد عن إيران وإعطائه دورا ولو مؤقتا فى إدارة الشرق الأوسط.

وهو ما يؤكده قول عادل الجبير وزير الخارجية السعودى، لمجلة « بوليتيكو « الأمريكية: «إننا مستعدون لإعطاء حصة لروسيا فى الشرق الأوسط، وستحول روسيا إلى قوة أكبر بكثير بالمقارنة مع الاتحاد السوفييتى»، ولكن السمة الأبرز هو التعاون الاقتصادى لقيادة المنطقة بطريقة مريحة وآمنة لكلا الطرفين، ويبدو أن السعوديين أصبحوا فى حل من الالتزام العربى الصارم كما فى السابق بعد تغير الظروف، وخاصة والظروف سانحة لفعل أى شىء، لذلك لا نتعجب من أن يظهر وفد سعودى برئاسة عقيد عسكرى سابق فى إسرائيل وهو يأخذ صورة تذكارية مع الوفد الإسرائيلى بعدما اتخذ الطرفان « المبادرة العربية « للمصالحة مع إسرائيل كحصان طروادة لتبرير الزيارة.

إلى هنا وكفى فقد وقع ما توقعناه من أن غياب الدور المصرى وعدم قدرته على الحركة السريعة سيغرى الآخرين بملء الفراغ، وسيخرج مصر من معادلة وترتيبات ما بعد الفوضى والركام العربى والشرق أوسطى.. ويبقى السؤال: ماذا سيكون شكل المنطقة العربية فى حالة أننا أصبحنا أمام حقبة « سعودية- إسرائيلية « مشتركة بالفعل ؟؟

البديل الفلبينى

إن انسداد الأفق السياسى علامة فارقة على أمة وصلت إلى حالة من عدم اليقين وضبابية الرؤية، تتخبط الخطى فى ظلام التراشق اللفظى واليدوى فيما بين فرقائها السياسيين، والذى تنعدم فيه الرؤية الشاملة للحل ويتمترس كل الفرقاء حول ذاته متهما الآخرين بأبشع الصفات وصولا لتوزيع صكوك الوطنية يمينا وشمالا لمن يتماهون معهم كلا على حدة، ويصبح الوطن كله فى النهاية حاضرة ومستقبله معرضا للخطر.. ودائما وهكذا هو الحال تظهر دائما أصوات– تعلو وتخفت أحيانا– تنادى ماهو الحل؟ ما هو البديل لهذا الوضع؟.

تلك الأصوات التى « تذكر من أنه لا جدوى من البحث عن الأخطاء، إذ إن من سمات العقل العديم الحياء أن يفضل دور الناقد الذى يوبخ على دور الشاعر الذى يخلق «.. وهذا ما جعل مفكر كبير مثل «روجيه جارودى» يكتب كتابا عنوانه « البديل « يطرح فيه رؤية متكاملة عن فكرة البديل معرفا كتابه « بأنة نداء وحافز لكل من يحب المستقبل « وأنه لا يرمى إلى إنشاء حزب وإنما إلى خلق روح ولا يقترح يوتوبيا بل مسارا عينيا لفكر ولعمل على مستوى مشكلات عصرنا «.. و» ليس أمامنا من خيار بين النظام والتغيير وإنما بين ثورة تشنجية وثورة بناءة».

ويمضى قائلا « السياسة ما عادت تعنى أن ننتخب أو أن ننتمى إلى حزب بل أن يخترع كل واحد منا المستقبل، ليس فى السياسة موديل جاهز للبس «، « ليست السياسة أن نطالب الإنسان بأن يعطى وإنما أن نطالبه بأن يعطى ما هو أشق من ذلك: ذاته وكينونته بأسرها أى الشاعر الكامن فيه».

إذًا البديل ليس حلا سياسا يريد فرضه فصيل دون الآخر على كل الفرقاء السياسيين، وإنما رؤية شاملة جامعة لكل مكونات المجتمع تنظر للمستقبل وفق رؤية تتجاوز الواقع، تتخطى حدود ثورة التشنج والعصبية التى تصاحب أى عملية تغيير كبيرة إلى حدود وآفاق البناء والتغيير.

وأن البديل لن يكون من أعلى ولكن من أسفل، ليس من خلال التراشق السياسى، والاحتراب الحزبى، ولكن من خلال وجود آلية تحفيز للناس على أن تشارك فى صنع حاضرها ومستقبلها وكسر حاجز الخوف من التغيير، حتى يستطيع كل واحد منهم أن يصنع مستقبله، وأن استمرار القوى السياسية فى عملية استمراء البحث عن أخطاء السلطة والقوى المناوئة لها هو تجاوز مسألة

انعدام العقل إلى عدم وجود حياء وشهادة وفاة لقوى خاصمت العقل والمنطق وطبيعة الأشياء وقد آن الأوان أن تدفن فى مزبلة التاريخ.

إننا نريد بُعدًا خلاقا إبداعيا فى مسار الحياة الحزبية والسياسية المصرية، نريدها أن تنادى وتجمع حولها كل الذين يحلمون بالمستقبل والقادرين على تحقيقه، ولا تحصر كل همها فى البحث عن عضوية حزبية جاهلة حتما لن تنفعها وهى لا تعلم شيئا عن المستقبل، وأن أولى خطواتها إلى المستقبل أن تستوعب الشباب وفق منظومة ورؤية مستقبلية.

على الحالمين بالبديل من القوى السياسية المصرية أن ينظروا جيدا إلى تجارب الآخرين ويتعلموا، فهناك على الجانب الآخر من العالم فى « الفلبين « التى كانت ترزح تحت حكم الديكتاتور « فرديناند ماركوس « الذى حول شعبها إلى شعب فقير مهان، محروم من كافة حقوقة السياسية، محتل بقواعد عسكرية أمريكية دائمة تحمى عرشه الإمبراطورى الذى لم ترى منطقة شرق آسيا مثيلا فى بذخة وسط شعب غالبيته من سكان العشش، طاردا ومطاردا كل من يعارض حكمه، وعلى الرغم من أنه كان هناك معارضة قوية بقيادة « بنيتو أكينو « إلا أنه سرعان ما تم التخلص منه بالقتل، هنا أدركت المعارضة أن السبيل للمستقبل يكمن بداية فى إزاحة نظام « فرديناند ماركوس « وهو ما حدث بعد توحد المعارضة على يد « كورازون أكينو « زوجة زعيم المعارضة المغدور.

وما أن شعرت أمريكا بأن الأمور تتجه إلى المعارضة تخلت عن الديكتاتور، وسقط وتنفست الفلبين الصعداء وتولت كورازون أكينو السلطة.. ولكن هل كان البديل هو الحل فى الفلبين ؟ المؤشرات والمعطيات والنتائج لم تخبرنا بذلك فحال الفلبين وإن طرأ عليه بعض التغيير إلا أن الفساد ظل ضاربا فى مفاصل الدولة، واستمرار وجود القواعد العسكرية الأمريكية فى البلاد، واستمرار نزوح ملايين السكان للبحث عن عمل فى كل أصقاع العالم، وسط تردٍ للحالة الاقتصادية والحرب الأهلية فى الجنوب.

كل هذا وضع حلم المعارضة فى إيجاد بديل موضع تساؤل.. ماذا كانت رؤية المعارضة للبديل ؟ وما شكل المستقبل الذى كانت تريده؟ وما الخطة التى اعتمدتها لتنمية الشعب؟ هل كان كل حلمها بتمكين البديل أن تشارك أو أن تحكم فقط ؟ هل تحرر البديل من التبعية والهيمنة الأمريكية؟.

كل هذا وأكثر من الأسئلة أطرحها على الداعين إلى وجود « بديل « يغير شكل الحياة السياسية

فى مصر، بعدما وصلت إلى طريق مسدود، ولعلى أزيد وأقول هل اختلف البديل الفلبينى عن البديل المصرى بعد أحداث ثورة ٢٥ يناير؟ هل كانت هناك رؤية للمستقبل أم أمانى وطموحات لا تدعمها الحقائق ؟

وماذا كانت النتيجة: الكل سقط فى أول اختبار– وربما الأخير لعقود قادمة– غابت الرؤية للمستقبل وتريدون الآن أن يلحق بكم الناس ويعطوا لكم ما عندهم، وأنتم فى المقابل لم تعطوهم ولو أملا واحد فى المستقبل وفق معطيات العصر بل أعطيتموهم كلاما فى السياسة، والسياسة يا سادة ليست شعارات وإنما خطة عمل وفق رؤية شاملة تستوعب طاقات المستقبل من الشباب.. ابحثوا عن بديل داخلكم أولا، وعندما تجدونه فنحن بالانتظار.. نحن لا نريد بديلا فلبينيا آخر.

الدولة المصرية بين السُّفن والرؤي

كنت وما زلت أؤمن بأن نظرية المؤامرة فعل خارج عن السياق العام للأحداث التاريخية وخاصة تلك الحاكمة للتحولات التاريخية الكبرى فى حياة الشعوب، وذلك من منطلق أن الفعل البشرى قابل للتكرار بنفس التصورات والرؤى إذا تشابهت الظروف إلى حدود معينة، والتى عندها يصبح الحكم عليه من منطق المؤامرة، وهو على غير حقيقة الأوضاع التاريخية والاستراتيجية المحددة للواقع الإقليمى والدولى.

ويكثر الحديث هذه الأيام عن نظرية المؤامرة التى تحاك للأمة العربية، ومحاولة توريطها فى صراعات فيما بينها لتكون نواة لتقسيم المنطقة العربية إلى دويلات صغيرة يسهل السيطرة عليها من قبل الدول الكبرى وإيران، فيما عرف إعلاميا بـــ(سايكس – بيكو) الجديدة.

وفى وسط الزخم الإعلامى، والقلق المتصاعد فى الداخل المصرى المصاحب للعمليات العسكرية فى اليمن فيما عرف بـــ(عاصفة الحزم) خوفا من ذكريات التورط المصرى فى ستينيات القرن الماضى، جاء حديث الرئيس السيسى عقب اجتماع المجلس الاعلى للقوات المسلحة منذ أيام، مؤكدا « أن هناك حجما كبيرا من القلق لدى الرأى العام «، بل وأوضح السيسى « أن ما حدث من تدخل مصر فى اليمن منذ ٦٠ سنة أمر وما يحدث الآن يعد أمر مختلف تماماً.

ولكن فى الوقت نفسه شدد على أننا « لن نتخلى عن أشقائنا وسنقوم بحمايتهم والدفاع عنهم «.. مذكرا المصريين بموقف الأشقاء الخليجيين قائلا « محدش فاكر ساعة ٣/٧، محدش فكر سفن الوقود بتحول من البحر الأحمر والمتوسط، تخش على موانينا علشان تضخ وقود علشان محطات الوقود مفيهاش وقود « ومع ذلك أردف قائلا « لا يليق بنا فى التعامل مع بعضنا البعض أن نقول إنهم وقفوا إلى جانبنا فنحن نقف بجانبهم الآن».

مؤكدا :» إحنا هنقف جنبهم حتى لو معندهومش فرصة يقفوا جنبنا لأن دى بلادنا العربية».

وهذا الحديث للرئيس السيسى يذكرنا بحديث مماثل جرت وقائعه عقب استقبال الرئيس السادات، شاه إيران المخلوع محمد رضا بهلوى فى مصر بعد الإطاحة به بعد الثورة، ففى معرض

تبريره استضافة الشاه وفى لقاء جماهيرى تكلم الرئيس السادات موجها حديثه للجماهير قائلا: إنه كانت هناك أزمة فى البترول إبان حرب أكتوبر وطلب من العرب سرعة تزويده بالبترول لحاجة القوات المسلحة ومحطات الطاقة للوقود ولكنهم تأخروا وعاب عليهم تلكأهم متهما إياهم بعدم تقدير الموقف قائلا « مش على بالهم.. مرتاحين « واتهم صراحة ليبيا القذافى بعدم تنفيذ وعدها بتوريد ملايين الأطنان التى وعدت بها.. وفى هذه اللحظة امتدح موقف شاه إيران المخلوع الذى أمده بالبترول طبقا لروايته، التى لم يتحقق منها، قائلا: الشاه حول المراكب من البحر تيجى على الإسكندرية واللى رايحة لأوروبا»، وهكذا حلت مشكلة أزمة الطاقة فى مصر.

وهذا الموقف من الرئيس السادات جرى تفسيره من منطلق الفعل التآمرى الذى تمحور حول أن القيادة المصرية اختارت التوجه الغربى الأمريكى عبر معادتها للثورة الإيرانية التى أخرجت النفوذ الأمريكى من إيران، الذى هو بالأساس معادٍ لتوجهات القومية العربية، دونما الأخذ فى الاعتبار الأوضاع الإقليمية والدولية التى تمخضت عنها فترة السبعينيات التى شهدت بداية التراجع السوفيتى وبداية صعود التيارات الدينية المتمثل فى الثورة الإيرانية التى سببت مزيدا من القلق فى المنطقة العربية.. وهو ما أثبت صحة توجه الدولة المصرية فيما بعد.

وهنا يطرح الفعل التآمرى سؤالا، ما الفرق بين موقف الرئيس السيسى والسادات ؟؟ أليس ما فعله السيسى مشابها لسابقه ومتماشيا مع السياسة الأمريكية المضادة للعرب والعروبة عبر توريط مصر والعرب فى صراع عربى -إيرانى يطال الساحة العربية بأكملها من أجل مواصلة تفتيت الأمة العربية؟.

هنا أقول بصراحة لا.. فالتغيرات التى حدثت على النظام الدولى والإقليمى عقب ثورات الربيع العربى وتصاعد النفوذ الإيرانى الذى أوجد صراعا من نوع جديد قائم على الاختلافات المذهبية بين الشيعة والسنة، جعل من الموقف المصرى المساند لأشقائها العرب متسقا مع النظام العروبى لا ضده، حتى وإن اتسق مع الموقف الغربى الأمريكى من إيران، فمصر تدافع عن مصالحها أولا وأمنها القومى، وأمن العرب فى العموم، ضد تمدد النفوذ الإيرانى فى المنطقة العربية، وهو نفس الموقف الذى اتخذته مصر ومعها العرب ضد إيران فى الحرب العراقية– الإيرانية فى اعتراف عربى صريح لموقف السادات من إيران.

إن نظرية المؤامرة ليست لها محل من الإعراب فى الحالة العربية الآن، وكذلك لا يصح تبرير

العطاء العربى أو عدمه لتبرير موقف الدولة المصرية من القضايا العربية والإقليمية، فالعالم يشهد تحولات كبرى ستطال الجميع وإذا لم ينتبه الجميع لخطورة الأوضاع الإقليمية فستضيع الأمة العربية.

لذلك يجب على القيادة المصرية أن تعمل على بلورة رؤى كاملة تحدد المهام والمسئوليات المصرية والعربية وحدود الأمن القومى المصرى والعربي بدقة ووضوح فى إطار استراتيجية عامة لا تقبل المساومة عليها دون التورط فى مغامرات غير محسوبة يضيع معها الأمن القومى العربى، وهو ما يضع حديث السيسى عندما قال عن حدود التدخل المصرى فى اليمن « بأن تلك المسألة تخضع لتقديرات كبيرة وحسابات دقيقة وأن مصر لن تضيع بلادها وبلاد أشقائها بحسابات خاطئة».

فهذا موضع تقدير ومقدمة يبنى عليها للعمل على تبنى رؤى عربية جادة للحفاظ على الأمن القومى العربى، ومقدمة مهمة لتعاون إقتصادى عربى شامل بعيدًا عن سياسة المن والعطاء.. وسفن الوقود.

إن العرب عند منعطف تاريخى وعليهم ألا يستجيبوا للتفكير التآمرى للحكم على الأحداث ويلتفوا حول قياداتهم من أجل الخروج من المأزق الدولى والإقليمى الحالى. ولا تحسبوا أن أمريكا ستخرج من المنطقة العربية بمجرد الأمانى، بل بالعمل الجاد والوحدة العربية الجامعه، ولا تعطوا الفرصة لأى قوة أن تحدد مستقبلكم.. الفرصة مازالت فى أيدينا.. فلا تضيعوها.

الشرف ريحانة

يعرف الشرف بأنه هو تلك الصفة التى يقيم بها الفرد فى محيطه الاجتماعى، ويحدد من خلالة مدى ثقة الناس به، بناء على ما يقوم به من أفعال وتصرفات، وفى بعض الأحيان يشار بالشرف إلى رفعة النسب.

كما يعد الشرف من الأخلاق الحميدة ويستدل به على نقاء السرير والأمانة المادية والأخلاقية والبعد عن الأفعال الآثمة التى يجرمها المجتمع كالسرقة والإغتصاب والقتل والسلب والنهب.

وينتقل الشرف من المستوى الشخصى البحت إلى المستوى العام، حيث يشار به إلى من يدافع عن حق المستضعفين اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعرقيا، وهو يتطلب المصداقية فى هذا الدفاع.

لكن الشرف فى هذه الأيام نزل من كلياته التى تحمى شرف الوطن وتحمى المستضعفين، إلى مستوى الدفاع الحيوانى الذى يقلل من كرامة الإنسان وأصبح وسيلة ناجعة للحيلولة دون سلب الحياة ذاتها.

وهو يترجم فى هذه الأيام الكؤود ما وصل إليه عالمنا الإسلامى من تدهور قيمى جعله يطرح قيم الشرف أرضا، ولا عجب لذلك فى مجتمع قسم ذاته إلى سادة وعبيد، السادة هم الرجال والعبيد هن النساء، مجتمع أصبح يفكر بما بين فخذيه واستبدله بما يحويه رأسه من عقل، وأصبح ولا فخر يملك عضوين ذكريين يفكر بهما، وكيف لا فى مجتمعات تحكم باسم السماء لتقهر شعوبها التى لم تجد متنفسا إلا النساء الضعفاء لتنفيس كبتها، الناتج عن رجولة ناقصة، وإن غلفت بمعانى دينية براقة، والإسلام منها براء.

وفى هذه الأيام تأبى نساء أمتى إلا أن تكتب للشرف عنوانا جديدا، ملأه الفخر والعزة، حتى لو كان نتيجة ذلك الموت، ومن وسط ركام الكبت والظلم والعدوان المسلح، تبرز الرياحين العطرة لتحيل ذلك الواقع إلى أمل فى التغيير حتى وإن طال أمده.

فهاهى (ريحانة) الفتاة الإيرانية التى دافعت عن شرفها ضد من حاول اغتصابها وقتلته، وقدمت للمحاكمة فى مجتمع يعادى المرأة ويعتبرها نجسة ويقيد حريتها، ووسط حملة شعواء تطال كل النساء وصولا لتشويهها بماء النار لعدم التزامها بقيود الزى المحتشم، لم تستسلم للاغتصاب وتجلب لذويها العار ولكن فضلت أن تقدم للمحاكمة ويحكم عليها بالإعدام لتعلنها صرخة مدوية فى وجه مجتمع لا ينظر للمرأة إلا باحتقار، ولتعطى معنى جديدا للشرف لبنات شعبها وأمتها، وأن

مقاومة الاغتصاب فقط ليست هى الشرف، لكن الشرف هو مقاومة مجتمع خارج إطار الزمن وإن غلب عليه الطابع الدينى الملتزم والذى يخفى وراءه حكم سلطوى جائر.

وتأبى الرياحين أن تموت فى موضع آخر من عالمنا الإسلامى، فها هى (ريحانة) الكردية التى قتل تنظيم داعش والدها، فقررت أن تحمل السلاح دفاعا عن أهلها ووطنها ممن انتهكوا الحرمات وسبوا النساء وباعوهن فى أسواق الرقيق، وجعلت للشرف عنوانا للدفاع عن وطنها وتقدمت الصفوف وقتلت من رجال ذلك التنظيم، حتى أصبحت هدفا لرجال التنظيم، حتى تم أسرها، وقام التنظيم بذبحها وقطع رأسها فى انتصار زائف لمنتصر جاهل، ظن أنة بقتلها قد عطل مسيرة المرأة فى الدفاع عن وطنها وشرفها، لكن لا وألف لا فقد تحولت إلى أيقونة يتفاخر بها بنو جنسها من الرجال قبل النساء.

ويالسخرية القدر، عندما تتحول الرياحين التى تنبت الرائحة الطيبة من الزهور، والتى ترمز إلى المرأة الناعمة الرقيقة، إلى أشواك تدمى من يلمسها، ونساء تترك مكانها الطبيعى لتستلم مكان الرجال، فى الدفاع عن شرف النساء والوطن، فى زمن عز فيه الرجال الحقيقيون، لذلك لا تعجبوا عندما نقول إن تعريف الشرف فى عالمنا الإسلامى أختزل فى عنوان عريض هو: الشرف ريحانة ..

لابد أن يختفى

لا شك أن اختفاء شخص وانقطاع كل السبل للوصول إليه هو بمثابة كارثة تخلق حالة من الاضطراب الممزوجة بالخوف وصولا للإحساس بالعداء تجاه المجتمع ككل، ناهيك عن حالات اختفاء تطال العشرات وربما الآلاف من البشر سنويا.

وهو ما جعل منظمة الأمم المتحدة تنتبه إلى خطورة حالات الاختفاء والتى أصبحت تسبب كوارث إنسانية، وخاصة أن ارتبطت باختفاء أعداد هائلة من البشر دون سبب مقنع، وهو ما عرفته المنظمة الدولية بالاختفاء القسرى والذى يعنى الحرمان من الحرية أيا كان نوعه وذلك لأسباب سياسية يتبعه رفض الاعتراف بالحرمان من الحرية أو اختفاء مصير الشخص المختفى أو مكان تواجده مما يجعله خارج حماية القانون.

وهو ما دفعها إلى عقد اتفاقيات دولية تجرم هذا الاختفاء، ولكن فى الوقت الذى تؤطر فيه اتفاقيات جنيف وبروتوكولاتها الإضافية الاختفاء القسرى فى وقت الحرب، فإن أحكام القانون الدولى الإنسانى هذه لا تخص النزاعات غير التقليدية ولا حالات السلم.

وهنا مكمن الخطورة فى هذا الموضوع حيث إن حالات الاختفاء التى تحدث داخل حدود الدول فى غير زمن الحرب هى عمل غير مجرم وتصبح تلك الدول غير معنية بتقديم تبريرات لتلك الحالات وبالتالى تكون فى منأى من الملاحقات الدولية.

وهذا ما نلحظه فى التعاطى مع حالات بعينها مثل حالة اختفاء المناضل المغربى المهدى بن بركة والذى اختفى قسرا على يد سلطات بلده المغرب بالتعاون مع السلطات الفرنسية وجرى تصفيته لاحقا.

وحالة وزير خارجية ليبيا الأسبق منصور الكيخيا والذى اختفى من القاهرة، ومن وقتها لم تعط أى إجابات واضحة عن كيفية خروجه، حتى زوال نظام القذافى والذى أزاح الستار عن إختفائه بوجود بقايا جثتة مدفونة فى إحدى مقار المخابرات فى طرابلس، وإلى الآن لم تعرف الوسائل ولكن تبقى أسباب الاختفاء فى الحالتين واضحة لا لبس فيها، وهى أن كلا النظامين المغربى والليبى قد ضاقا ذرعا بكلا المعارضين ورأوا أن أفضل وسيلة للتخلص من تلك المعارضة هو العمل على اختفائهم وتصفيتهم لاحقا.

وذلك لضمان استقرار النظام السياسى ووقف محاولات التدخل الخارجى التى يرى النظام أن كلا المعارضين هما حلقة من حلقات التدخل الأجنبى.

وها نحن على مشارف إحياء ذكرى أحداث شارع محمد محمود والتى تتوافق مع الدعوة التى أطلقتها الجبهة السلفية للتظاهرات لإسقاط النظام حتى ولو بالقوة لإعلان الثورة الإسلامية.

ولسخرية القدر يتزامن هذا مع أحداث أراها تغذى حالة الاحتقان والتى يصبح عندها التنبؤ بما سيحدث يوم التظاهرات أمرا خارج التوقعات، ومنها تزامن التظاهرات مع إعلان الحكم النهائى فى قضية قتل المتظاهرين والتى يحاكم فيها الرئيس السابق حسنى مبارك، والتى ستحاول التظاهرات استغلاله فى حالة أن الحكم أتى بالبراءة أو جاء مخففا، وكذلك الصعود الفج لرجال الحزب الوطنى القديم والذى أثار احتقانا فى الشارع السياسى، وأوجد حالة من الغضب لدى الشباب من عدم جدوى التغيير، هذا كل ذلك متزامنا مع الدعوات المستمرة من جماعة الإخوان للتظاهر.

هنا سيجد النظام الحاكم نفسه أمام احتمالات وخيارات مفتوحة للمواجهة، وهنا تكمن خطورة اللجوء للحل الأمنى حيث إن ذلك سيجعلة فى مواجهة الجميع لأول مرة، لذلك إذا أراد النظام أن يخرج من هذا المأزق السياسى فلابد من اختفاء مبارك ورجاله من المشهد السياسى نهائيا إما اختيار أو قسرا وهذا لن يعرضه لتبعات دولية، وسيلقى ترحيبا محليا، ويسقط كل الدعاوى التى تطال النظام من أنه امتداد لنظام مبارك، فهل يعى النظام تلك الرسالة ونحن على مشارف تلك الأحداث الساخنة ؟

الوهابية فى مواجهة الصفوية

فى مشهد تاريخى أعلنت الدول الخليجية المنضوية تحت « مجلس التعاون الخليجى « قرارا باعتبار « حزب الله « اللبنانى الشيعى منظمة إرهابية، وعددت أسبابا عدة لهذا القرار.. ظاهرها الدفاع عن الثور السورية، ووقف تدخل حزب الله فى الحياة اللبنانية والأزمة اليمنية، ولكنه فى الحقيقة جاء لمنع تمدد وحصار النفوذ الإيرانى على إمتداد الخارطة العربية، أعقبه قرار مشابه من مجلس وزراء الداخلية العرب.

وهذا يستدعى من الذاكرة التاريخية مشهدا استخدم كخلفية لصراع جرت وقائعه على خلفية الصراع الجيوسياسى التقليدى، الذى انتهى إلى تمترس كلا الجانبين وراء الدين ومذاهبه لحماية نفسه من الآخر.

وإن هذا الاستخدام المذهبى للدين ليس بجديد على شكل الصراع فى المنطقة العربية وجوارها الشرق أوسطى منذ الأزمنة القديمة، ولكن يظل الصراع الذى تم بين الإمبراطورية العثمانية السنية والدولة الصفوية « السنية « فى إيران هو الصراع الأهم والذى أراه يسترجع نفسه بنفس آلياته مع إختلاف الظروف الجيوسياسية للمنطقة ككل، فحالة الصراع بين الدولتين والذى وصل إلى حالة الاحتراب فى أحيان كثيرة، دون الوصول لحسم كامل، وهو ما استدعى من الدولة الصفوية فى إيران أن تحمى نفسها أمام قوة وتأثير الدولة العثمانية على طبيعة التجانس المذهبى داخل دولتها، وذلك عن طريق تبنيها المذهب الشيعى رسميا كمذهب وحيد للدولة دون سواه وقامت على إثر ذلك بأكبر عملية « تشييع « للشعب من أجل إيجاد أرضية شعبية تحول دون سقوطها أمام الدولة العثمانية السنية، وهو ما ساعدها فعلا على الصمود لسنوات طويلة

ولكن وبعد المضى قدما نحو التحديث والحداثة، نجد أنه وبعد ثورات الربيع العربى والتى كانت الأمل فى التغيير لمستقبل أفضل فإن الأمور لم تسر كما كانت تأمل فيه الشعوب التى قامت بها، فإذا بالربيع العربى يتحول إلى شتاء ثقيل، قاومته دول لا تريد للثورات أن تمتد إليها، وهو ما حول الثورة الليبية والسورية واليمنية إلى حرب أهلية، جعلت المحيط العربى ساحة كبيرة للتدخل الدولى والإقليمى، وأصبح الصراع بين القوى التقليدية على السيطرة على النفوذ فى المنطقة هو سيد الموقف دون النظر للنتائج الكارثية المتوقعة نتيجة هذا الصراع المميت.

فهاهى المملكة العربية السعودية نصبت نفسها كدولة قائدة فى غياب للقوى الكبرى فى المنطقة،

وراحت تتدخل فى الشئون الداخلية للدول العربية تحت زعم مقاومتها لنفوذ الدولة الإيرانية المتنامى إقليميا، فنراها تتدخل عسكريا مباشرة فى اليمن، ومساعدة المنظمات المسلحة فى سوريا، وقطع المعونات العسكرية عن لبنان، وذلك كلة على خلفيه دعم أمريكى وغربى واضح لها.

وهى فى سبيلها ليكون هذا التدخل ذا تأييد شعبى فقد استدعت مشهد الصراع « الصفوى-العثمانى « الذى انتهى وراء التمذهب الدينى، وذلك عن طريق إحياء الصراع المذهبى من أجل تصفية النفوذ الإيرانى فى المنطقة لمحاولة تراها سانحة لقيادة المنطقة العربية على خلفيه الاستراتيجية الأمريكية الجديدة فى القرن الواحد والعشرين خصوصا مع عدم اطمئنان الدول العربية للنفوذ التركى المتنامى فى المنطقة.

وهذا ما يفسر الحملة الجبارة على حزب الله اللبنانى ووصفه بالإرهابى، ولكن وعلى الرغم من الاستنكار الواضح لسلوك الحزب المرفوض لتدخله المباشر عسكريا فى الصراع السورى، واشتراكه بعناصر فى الصراع اليمنى، إلا أن القائمين على تأجيج الصراع المذهبى كحل استراتيجى لحسم الصراع تناسوا ان الصفويين والعثمانيين قديما كانوا ينتمون إلى قوميات مختلفة وغيرعربية، ولكن فى حالة حزب الله فهذا الحزب عربى بالأساس وينتمى إلى محيط شيعى عربى أوسع، وهو ما ينذر بصراع عسكرى مفتوح على جبهات واسعة من الرقعة العربية ولن تتتسنى أحدا، وهو ما يفسر رفض « الجزائر « قرار اعتبار الحزب كمنظمة إرهابية.

ولن يكون فى وسع السعودية ولا حلفائها سواء من الداخل العربى ولا من الخارج الإسلامى أن تحسم هذا الصراع.. هذا ناهيك عن أن المستفيد الأول من اعتبار « حزب الله « منظمة إرهابية هو إسرائيل عدو العرب الأول الذى سيكون سعيدا من التخلص من الحزب بأيدى عربية تحت دعاوى مذهبية، وساعتها لن يكون أمام إسرائيل أى عائق مقاوم يحول بينها وبين تصفية ما تبقى من قوة لدى العرب و ساعتها لن يكون أمامها عائق غير القوة المصرية كآخر قوة متماسكة فى المنطقة.

أيها الداعون إلى تأجيج الصراع المذهبى بين السنة والشيعة يجب أن تتذكروا أن الصراع القديم قام على صراع مذهبى « سنى-شيعى « فى حدود الصراع الاستراتيجى على حدود الدولتين، أما الآن فإن الصراع اتخذ منحى أكثر وعورة، فمعظم التيارات المتحاربة الآن معظمها سنية مختلفة المشارب وتحارب فى الداخل العربى، ولعل أكبر كتلة سنية تحارب على الأرض هى الكتلة «

السنية الوهابية « بقياد السعودية، وهذا ما يجعل الصراع إلى الآن صراعا « وهابيا-شيعيا « وهو ما يعقد المشهد.

وذلك لتشابك وتعقد المشهد السنى فى المنطقة ككل ورفضه سيادة النموذج الوهابى الأيديولوجى.

الحوار يا سادة هو الحل.. وصدقونى إذا لم نستفق فسنجد أنفسنا نعقد القمة العربية- إذا استمررنا عربًا- فى تل أبيب.

عاصفة الحزم . . نهاية قومية وبداية محور

انتهت قمة شرم الشيخ بنتائج كان يرجوها العرب منذ سنين طويلة، سواء بالترابط الاقتصادى أو تكوين قوة عربية مشتركة تحافظ على أمن العرب، ولكن ما صاحب أجواء القمة من بداية العمليات العسكرية ضد الحوثيين وأنصار الرئيس اليمنى المخلوع على عبدالله صالح فى اليمن والمتحالفين مع إيران، قد أثار أسئلة وشكوكا حول ماهية المقصد النهائى من وراء العمليات العسكرية المسماة « عاصفة الحزم ».. وتساؤلا حول ماهية الدور الباكستانى والتركى فى تلك العمليات ؟؟ وهل تلك العمليات وما تبعها فى قمة شرم الشيخ من تكوين قوة التدخل السريع بمثابة شكل قومى ظاهرى، وباطنه إعادة تشكيل المنطقة على أساس محور سنى لمجابهة المحور الشيعى وتمدده فى المنطقة بعيدا عن مفهوم القومية العربية؟ وهل حققت السعودية للقوميين العرب أكبر أمانيهم بوحدة وتحالف عسكرى ظاهريين، رغم تناقضهما مع التوجهات الراديكالية السعودية المناهضة للقومية العربية؟ ولماذا ساندت أمريكا العمليات العسكرية رغم كرهها ومعاداتها لفكرة القومية العربية، بل وساعدت فى القضاء عليها عبر مسيرة تاريخية من العداء الواضح؟

وللإجابة عن تلك التساؤلات، فزيارة قصيرة للتاريخ ستتكفل بالإجابة، بل وستعطى استشرافا للمستقبل.

ففى عام ١٩٦٥ ظهرت فكرة تشكيل منظمة المؤتمر الإسلامى لأول مرة تحت مسمى الحلف الإسلامى، وهو حلف دعا له الملك فيصل بن عبد العزيز، ولم يوافق عليه إلا شاه إيران والأردن، وقد رؤى أنه محاولة لتوسيع حلف بغداد الموالى لأمريكا والغرب ضد المد الثورى العربى ومن ورائه القومية العربية، وجعله بديلا للجامعة العربية، وهو ما لاقى ترحيبا من الدول الإسلامية وتأييد أمريكا، التى رأت أن النزعات والتحالفات الدينية قادرة على مواجهة التيارات القومية والاشتراكية فى المنطقة، ولكن فشلت المحاولة الأولى للتأسيس بسبب تخوف الدول الإسلامية من مسمى الحلف الإسلامى وكذلك وجود إيران الشيعية فى التحالف.

وهو ما تم تأكيده فى شهر يوليو ١٩٦٦حيث طلب ذو الفقار على بوتو وزير خارجية باكستان الموجود فى المنفى، بأن يقابل الرئيس عبد الناصر فى أمر هام، وبعد حوار دام أكثر من ساعتين،

شرح بوتو للرئيس عبد الناصر الضغوط الأمريكية لمساعدة إنشاء المؤتمر الإسلامى كبديل لحركة القومية العربية وقال « إننا كنا نسمع عن فكرة مؤتمر إسلامى يشجعه الملك فيصل ومعه عدد من أصدقائه منهم شاة إيران، وقد كنت فى اجتماع لوزراء خارجية الحلف المركزى (بغداد) فى إسطنبول حينما جاءنا أول إعلان عن المؤتمر، وكان «دين ريسك « وزير خارجية أمريكا متحمسا للفكرة، وقد تحدث محبذا لها مع الأتراك ومع الإيرانيين ومعى، ولاحظت أنه لم يكن قادرا على كتم مشاعره وقال: هذا هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن ينجح فى محاصرة نفوذ الجمهورية العربية المتحدة.

وهو ما إستدعى أن يخطب الرئيس عبدالناصر فى اجتماع جماهيرى بجامعة القاهرة قائلا « أن الإمبريالية والرجعية تقومان بتأسيس حلف إسلامى على غرار حلف بغداد موجه ضد حركات التحرر الوطنى «.. وهو ما أدى إلى فشل المحاولة.. ولكن بعد أقل من عام وقعت نكسة يونيو ١٩٦٧، والتى بدا واضحا منها أن حلم القومية العربية فى طريقة للأفول، وأن الدول العربية عاشت حلما واستفاقت على كابوس، وبدأ الانهيار الوحدوى وأصبحت القطرية هى السمة الغالبة لاجتماعات الجامعة العربية على مدار السنوات التالية لانتصار أكتوبر ١٩٧٣.

ومع تصاعد النزعة الدينية فى سبعينيات القرن العشرين، فقد وجدت فكرة « منظمة المؤتمر الإسلامى « بيئة خصبة لملء الفراغ الناشئ عن تراجع الدور القومى وهزيمته، وأعلن عن قيامها ولقيت ترحيبا كبيرا من الدول الإسلامية وخاصة تركيا وباكستان اللتين استحوذتا على المقار الدائمة للجان الأساسية للمنظمة ولجان البحوث المتصلة بكافة جوانب الأعمال على أراضيها، والذى يتبين منه قوة التأثير والفعل لتركيا وباكستان بجانب السعودية على الساحة الإسلامية.

ومع قيام ثورات الربيع العربى ٢٠١١ وانهيار ما تبقى من جيوب المقاومة القومية، ومع صعود تيار الإسلام السياسى وتصدره للمشهد السياسى، فقد بدا وهما أن القومية ماتت وأنه لا وجود لها على أرض الواقع، ولكن مع صعود القوة الإيرانية والنفوذ المتنامى الايرانى فى سوريا القومية، واليمن بعد الثورة، وتصاعد النفوذ الشيعى الواضح فى لبنان، فقد ظهر تأثير منظمة المؤتمر الإسلامى أنها منظمة عاجزة بنفسها عن تصدر المشهد حتى مع الحديث (السعودى–التركى) عن قيام محور سنى لمجابهة التمدد الشيعى الإيرانى.

لذلك جرى إفاقة حلم القومية العربية فى شرم الشيخ من أجل الدفاع عن الأمة العربية فى إطار تحالف إسلامى سنى، وتدشين السعودية لمرحلة جديدة قوامها نهاية القومية العربية بمفهومها

القديم، وبداية لسياسة تحالفات المحاور.. لوضع حد للنفوذ الإيرانى والروسى فى المنطقة العربية، وهو ما يتلاقى مع السياسة الأمريكية.

لذلك فليس غريبا وجود باكستان وتركيا، فلقد جاءت عاصفة الحزم لتكون ترجمة عملية لنفوذ المحور الجديد فى المنطقه، وإعطاء دور محورى فى تشكيل المنطقة العربية على أسس جديدة فى إطار الاستراتيجية الأمريكية الجديدة فى القرن الواحد والعشرين.

لذلك على القيادة المصرية وهى ذاهبة فى شراكة عربية إسلامية سياسيا وعسكريا، أن تراعى محددات الامن القومى المصرى والعربى، حتى لانفاجأ بعد انتهاء العمليات العسكرية داخل المنطقة العربيه، أننا مطالبون على طول المساحة الجغرافية الإسلامية، بعيدا عن مجال الأمن القومى المصرى، ويجب أن ننتبه للدور التركى لأنه هو الأخطر وإن ارتدى ثيابا إسلامية.

ولنتذكر أنه إذا كان تلاقى السياسة المصرية العربية مع المحور الجديد فاعلا فى هذا التوقيت، فليكن معلوما أنه فى الماضى كان ضد توجهات السياسة المصرية.. لذلك يجب الحذر ثم الحذر.

الخليج يهوَى العزف المنفرد

مع انتهاء فعاليات القمة الأمريكية- الخليجية فى منتجع كامب ديفيد، والسرور الواضح على دول الخليج من نتائج القمة، التى حصلوا منها على ما كانوا يأملون فيه من الإدارة الأمريكية، من الدعم السياسى والضمانات الإقليمية- بعد فترة من التوجس الخليجى من التوجهات الأمريكية فى المنطقة- ناهيك عن استعداد أمريكا لإمداد الدول الخليجية بأحدث الأسلحة التى تدعم أمن الخليج.. وكذلك تماهى الرؤية الأمريكية مع الرؤية الخليجية فى اليمن وكافة الملفات المفتوحة التى تهدد أمن الخليج وخاصة الملف النووى الإيرانى الذى يبدو أن الراعى الأمريكى استطاع تهدئة المخاوف الخليجية من الإتفاق الغربى الإيرانى وذلك ما عبر عنه أمير قطر قائلا« كل دول مجلس التعاون ترحب بهذا الاتفاق، وتتمنى أن يكون عامل استقرار .

فإنه يبدو أن الصيحة التى أطلقتها فى مقال سابق قائلا: « اتحدوا قبل الطوفان.. اتحدوا قبل الطوفان.. الذى أرى بوادر مائه قد ظهرت فى الأفق، وأتمنى أن ندرك أن الوقت لبناء سفينة نوح جديدة قد أصبح ضئيلا «
يبدو أن هذه الصيحة قد ذهبت أدراج الرياح، وبدا أن الخليج مازال يهوى العزف منفردًا حتى فى أحلك الظروف التى تمر بها المنطقة العربية، ويؤثر الحلول المنفردة بعيدًا عن مناطق التأثير العربية.

فالخليج مازال متأثرا بسنوات النشأة الأولى على يد القوى الغربية، منذ معاهدة « دارين « ١٩١٥، ومؤتمر « العقير» ١٩٢٢ والذى تم فيهما وضع اللبنات الأولى لنشأة دول الخليج، وحتى عام ١٩٤٥ والذى انتقل فيه الخليج من المظلة البريطانية إلى المظلة الأمريكية.

ومنذ ذلك الزمان وحتى الآن، اعتبرت دول الخليج نفسها لأسباب كثيرة داخلية وخارجية، أن أمنها مرتبط بوجود قوة عظمى تحميها من أطماع عربية أو إقليمية، وهو ما جعلها تتعاطى مع القضايا العربية بحذر، وخوفا من الانجرار إلى صراعات لا تقدر عليها لإعتبارات اقتصادية وسكانية.. واكتفت بدور الداعم المالى فى معظم القضايا العربية باعتبارها الدول الأغنى والأكثر ثراءً، وهو دور كان له تأثير واضح فى بعض القضايا العربية وخاصة فى السنوات التى تلت نكسة ١٩٦٧ وما تلاها من نصر أكتوبر ١٩٧٣.

ويبقى التساؤل لماذا لم تتفاعل دول الخليج مع القضايا العربية أكثر من دور الدول المانحة ؟؟ وهل هذا الدور جعلها فى منأى عن تداعيات القضايا العربية ؟؟

فالإجابة واضحة فدول الخليج تتخوف من التدخل فى الشأن الخليجى من الدول الرئيسية مثل مصر وسوريا والعراق، واعتبرت منظمة « مجلس التعاون الخليجى « ناديا خاصا بها ينظر فى شئونها الخاصة بعيدا عن « الجامعة العربية « والتى أرادت من خلاله أن يبعدها عن مجمل المشاكل العربية.. ولكن هذا لم يمنحها الأمان وإن أكد على صحة الرؤية الخليجية، فهاهو التخوف يصبح حقيقة ويغزو العراق دولة الكويت إحدى دول النادى الخليجى، ويطلب الخليج الحماية من المظلة الأمريكية، ومن الدول العربية وخاصة مصر وسوريا وهو ما اعتبر ساعتها أنه تغير فى التعاطى الخليجى فى اتجاه الاندماج العربى، وهو ما عبر عنه بعد تحرير الكويت بما عرف بــ» إعلان دمشق « بين دول الخليج ومصر وسوريا.. والذى اعتبر نواة لقيام قوة عربية خليجية لحماية الخليج.. لكن سرعان ما انهار هذا الإعلان لاعتبارات عديده، ولكن أهمها هو التأكيد الخليجى على عدم وجود تأثير للقوى العربية الرئيسية فى منطقة الخليج والرجوع لمربع النشأة الأولى وزيادة القواعد العسكرية الأمريكية والغربية فى منطقة الخليج.

ومع توالى السنوات ومع اندلاع ثورات الربيع العربى وما رافقها من تنامى القوة العسكرية الإيرانية والتى أصبحت تهدد أمن الخليج مباشرة، فى الوقت الذى أحست فيه دول الخليج بتغير فى السياسة الأمريكية فى المنطقة برمتها، رأت الدول الخليجية أنها فى عين العاصفة التى تهدد بقاءها كدول وهو ما ينذر بإعادة تفككها، فكان التحرك خارج النادى الخليجى فى اتجاه المحيط العربى فى محاولة لوقف الطوفان الزاحف عليها، من كافة الاتجاهات سواء الثورية أو العسكرية المحيطة بها، فكان مساندتها لمصر وتونس والثورة السورية وذلك عبر مواقف واضحة وقوية ناهيك عن التبرعات المالية الكبيرة.. وهو ما ترجم إلى مواقف من الدول العربية ومساندتها فى التدخل الخليجى فى اليمن عبر» عاصفة الحزم «.

ولكن يبدو أن الخليج غير راغب كما العادة على الاستمرار فى هذا النهج العروبى، ففى الوقت الذى يتخذ فيه العرب جميعا بما فيهم الخليج قرارا بإنشاء القوة العربية المشتركة نرى الخليج لا يمانع أن يكون مركز القيادة فى القاهرة بعيدا عن الخليج، وهو ما لم يدرك فى حينه أن الخليج يريد قوة عربية ولكن ليست على أرضه.

ومع توالى العمليات العسكرية فى اليمن وإطالة أمد تلك العمليات، وهو ما قد ينذر بتدخل

برى يجعل من الخليج كله منطقة صراع، ويتحقق تخوف دوله من تدخل كل القوى فى شئونه التى عمل كثيرا على النأى بنفسه عنها.. هنا تلقف الخليج الدعوة الأمريكية للاجتماع فى « كامب ديفيد « كطوق نجاة لدوله،

ومن هنا يفهم حجم الترحيب الخليجى بنتائج قمة « كامب ديفيد « فهى أعطته ما كان يريد منذ بدايات الربيع العربى وتنامى القوة الإيرانية، فقد نال ما كان يصبو إليه من الحماية المباشرة للمظلة الأمريكية، ناهيك عن التعهدات الأمريكية بدعم المواقف الخليجية فى كافة القضايا، فى المقابل تقبل الخليج « للتغييرات الاستثنائية « التى تريدها أمريكا بما يتماشى مع استراتيجيتها الجديدة فى المنطقة.

وهكذا يبقى العازف الخليجى أسير عزفه المنفرد، مؤثرا مصالحه المباشرة بعيدا عن السياق العربى الجامع، وهو ما ينذر بفشل قيام « القوة العربية المشتركة « كما حدث مع « إعلان دمشق « فى أعقاب حرب تحرير الكويت، ساعتها ستضطر مصر القوة الرئيسية الكبيرة المتبقية للبحث عن إطار جديد تتحرك فيه ومن خلاله للتعاطى مع مستجدات الواقع العربى والإقليمى.

الواقع العربى مؤلم ولا أمل فيه، الكل يسبح فى اتجاهات مختلفة والبحر ملىء بسمك القرش المتوحش.

وداعًا لبنان

الفسيفساء طبقا لتعريف الموسوعة العالمية ويكيبيديا « هو فن وحرفة صناعة المكعبات الصغيرة واستعمالها فى زخرفة وتزيين الفراغات الأرضية والجدارية عن طريق تثبيتها بالملاط فوق الأسطح الناعمة وتشكيل التصاميم المتنوعة ذات الألوان المختلفة «.

ومع أن فن الفسيفساء فنٌ يوناني فى الأصل إلا أنه قد انتشر فى كل الثقافات الآخرى وأصبح على يد الحضارة الإسلامية يمتلك من السمات التى أصبح يتفرد بها عن الفسيفساء الحضارية الأخرى، فقد تغلل هذا الفن ليصبح سلوكا حياتيا يحكم ليس فقط الفن ولكن يحكم كل شيء سياسة واقتصاد واجتماع، ولكن ليس فى تناغم يبرز لوحة جميلة لفن أجمل، بل لتشكيل لوحة قميئة تبرز أقبح ما فى هذه الأمة من انحطاط.

فقد أدمنا التشرذم وأدمن حكامنا أسلوب المستعمر فى الحفاظ على ميراث الفسيفساء السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتى تتيح لهم البقاء طويلا فى السلطة، حتى تحول فن الفسيفساء إلى عملية تبليط « كسر الرخام « تشويه فى تشويه.

لقد خطر ببالى هذا الفن الجميل وأنا أقرأ كتاب « الانتصار فى الحروب الحديثة– العراق والإرهاب والإمبراطورية الأمريكية « للجنرال السابق « ويسلى كلارك « القائد الأعلى لحلف الأطلنطى سابقا والذى ذكر فيه « عندما زرت البنتاجون فى نوفمبر ٢٠٠١ كان لدى أحد العسكريين الكبار بعض الوقت للتحادث معى، قال لى إننا ما زلنا نعتزم التحرك ضد العراق، لكن ثمة ما هو أكثر من ذلك، وتجرى دراسته كجزء من خطة حملة تمتد خمس سنوات، وأن هناك سبعة بلدان تبدأ بالعراق، ثم سوريا ولبنان وليبيا وإيران والصومال والسودان.

لذا خطر فى بالى أن هذا ما يقصدونه عندما يتحدثون عن «تجفيف المستنقع» وكان ذلك دليل آخر على نهج الحرب الباردة: يجب أن يكون للإرهاب «دولة راعية»وأن مهاجمة دولة– مع الثقة التامة بالقدرة على إسقاطها– أجدى بكثيرمن مطاردة أفراد ومنظمات غامضة وجمعيات مستترة».

أى أننا أمام لوحة فسيفساء جديدة يجرى الإعداد لها من قبل المستعمر الجديد– القديم لتشكيل

المنطقة بحجة محاربة الإرهاب، ولكنها فى الحقيقة عبارة عن عملية تفتيت وتقسيم كيانات على غرار النموذج الفسيفسائى اللبنانى القائم على كيانات عرقية وإثنية داخل دولة واحدة أو إقليم واحد يسهل التلاعب به كما يحدث الآن، وذلك من أجل « تنظيف « الجوار الإسرائيلى من كل قوة تهدده وتمهد الأرض أمام الإمبريالية العالمية لجعل المنطقة العربية سوقا استهلاكية تكون إسرائيل مركزها، كل ذلك بمساعدة المتماهين مع السياسة الغربية من الساسة والحكام العرب الذين يرون بتماهيهم وتعاونهم مع الغرب الاستعمارى أنهم سيحافظون على سلطتهم وعروشهم.

لقد قاربت عملية الهدم والتكسير التى تسبق عملية لصق الفسيفساء على الاكتمال بعدما تم تدمير العراق وسوريا وليبيا والصومال والسودان ولم يبقَ إلا لبنان تلك اللوحة الفسيفسائية القديمة التى شكلوها قديما والتى يريدون تكسيرها مجددا لإعادة تشكيلها بما يتواءم مع الجوار الإسرائيلى والمنظومة الاقتصادية الجديدة عبر التمهيد المعتاد وخلق الأزمات التى تمهد لعملية هدم لبنان.. وليس هناك أفضل من التعاون الإيرانى مع حزب الله وتنامى الجماعات الإسلامية لتصبح مبررا لغزو لبنان وإعادة تنظيمه.

أيها الحكام العرب إذا أردتم – وهذا فى ظنى وَهم – أن تثبتوا لشعوبكم أنكم وطنيون تخافون على دينكم وعرضكم فلا تتماهوا مع الفسيفساء الجديد للمنطقة، هذا ليست لوحة فنية نقف مشدوهين لجمالها، ولكن لوحة سترسم بدماء ضحايا شعوبكم فى المقابل لن تكونوا فى النهاية سوى ولاة على ولايات الخليفة الأمريكى تدفعون الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

احتموا بشعوبكم وكفاكم ما فعل ببلادكم ولتكن لبنان ساحة المعركة الأخيرة للمحتل الغربى وبداية لنهضة جديدة قبل أن نقول وداعا لبنان كما قلنا وداعا لدول عربية أخرى.

مصر وإسرائيل . . صراع بالنقاط

تمثل الألعاب الجماعية جمهورا واسعا ومشجعين كثيرين، لما تتطلبه من تنسيق متكامل بين عناصر اللعبة، خاصة تناغم اللاعبين فيما بينهم مما يعطى لشكل تلك الألعاب الرونق الجمالى وبالتالى تحقيق النصر، مثل كرة القدم.. عكس الألعاب الفردية التى تعتمد فقط على قدرة ومهارة اللاعب الفرد فى مواجهة فرد آخر، والتى عادة ما تحسب نتائج مبارياتهم بالنقاط وليس الحسم.. كما فى رياضة سلاح الشيش.

وبما أن السياسة الدولية لا تختلف كثيرا عن هذين النوعين من الرياضة، خاصة فى عالمنا العربى، فمنذ خمسينيات القرن العشرين ومع بداية حركات التحرر والاستقلال الوطنى، أتت حكومات عربية وطنية، وقد رأت الحكومات أهمية كبيرة للعمل العربى المشترك تحت راية القومية العربية والعمل العربى المشترك على غرار الألعاب الجماعية فى تناغم للرؤى المشتركة بينهم، مما مكنهم من إحراز نجاحات دولية ضد إسرائيل والتجمع الغربى من وراءها، وذلك عندما أحرزت نجاحا فى مؤتمر باندونج لعدم الانحياز وما تلاه من مؤتمرات فى محاصرة إسرائيل دوليا وإقليميا ودعما للقضية الفلسطينية وصولا لإعطاء « منظمة التحرير الفلسطينية » صفة مراقب كاعتراف دولى بالقضية الفلسطينية وممثليها الشرعيين.

وتواصل الجماعية العربية فى تناغمها حتى تقتنص قرارا مهما من القمم الإفريقية بعد أحداث نكسة ١٩٦٧ واعتبار الكيان الصهيونى كيانا غاصبا شبيها بنظام الفصل العنصرى بجنوب إفريقيا آنذاك فى ظل دعم المجموعة العربية للدول الإفريقية ووقوفها بجانبها فى الوقت الذى تخلى عنها الغرب.

ولكن بدءًا من اتفاقية « كامب ديفيد » فقد بدا أن العمل الجماعى العربى قد انفرط عقده وأصبح الصوت الفردى هو سيد الموقف، وهو ما أدى إلى تشرذم الفريق المتناغم إلى لاعبين فرديين، ومع توالى الأيام والسنوات الطوال ومع انحسار بريق الدول الوطنية التحررية و سقوط الاتحاد السوفييتى وانتصار المعسكر الغربى الداعم لإسرائيل هنا ظهر جليا حجم التراجع العربى وفى القلب مصر، حتى قامت ثورات الربيع العربى والتى بدا أنها تواكب تغيرًا كبيرًا فى منظومة العلاقات الدولية ودخولها إلى عالم جديد متعدد الأقطاب، هنا نرى شكلا جديدًا من أشكال الصراع، صراعًا ليس قائما على سخونة الأحداث وقعقعة السلاح، وليس قائمًا على جماعية

متناغمة كما السابق بل صراعاً استبدل فيه السيف البتار بسيف « سلاح الشيش « حيث أصبح من المألوف أن يتصارع العرب والإسرائيليون على نفس الرقعة فى تحد لا يقوم على صرع الآخر، لأنه قد بدا أن هذا مستحيل فى تلك اللحظة الراهنة.

ولعل زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى « نتنياهو « إلى إفريقيا واقتناصه صفة « مراقب « للاتحاد الإفريقى هى نقطة ناجحة من لاعب سلاح الشيش الإسرائيلى فى مواجهة خصمه المصرى وسط جمهور إفريقى أصبح يرى أن الصراع العربى الإسرائيلى لا يعنيه وسط كم من المشكلات الاقتصادية والتى يرى فى إسرائيل مدخلا مهمًا حلها.

ولكن وسط الصراخ والعويل الموسمى فى الإعلام المصرى كلما نجحت إسرائيل فى كسب نقطة على الحلبة الفردية، لم يفطن ذاك الإعلام إلى إحراز مصر نقطة مهمة بحصولها على « صفة مراقب « فى قمة العشرين القادمة فى الصين وهو حدث كبير يضع مصر ضمن حسابات وترتيبات ما بعد الاستقرار الدولى، وهو بحسابات السياسة الدولية والإقليمية حدث مهم فى مواجهة إسرائيل.

إن زمن اللعب الجماعى العربى قد ولَّى ولن يعود ثانية على الأقل فى المدى المنظور ولسنوات، لذلك لن يكون هناك إلا اللعب الفردى القائم على السرعة وخفة الحركة وتسجيل النقاط، وسط عالم لم يعد يتقبل قواعد العمل الجماعى خاصة فى منطقتنا، لأن إسرائيل قد بدأت تغير من استراتيجيتها وقد رأت فى إفريقيا المستقبل وساحة الصراع العالمى القادم.

لذلك على مصر وهى تلعب فرديا سواء أرادت أم لم ترد أن تعى أن لها وجودا فى إفريقيا أصبح مهددا ولم يعد فى مقدورها استخدام قواعد اللعب الجماعى كما السابق بمجموعتها العربية، فقد انفرط العقد وأصبح امتشاق السيف البتار فى هجوم جماعى هو محض خيال، لذلك عليها أن تتنازل وتلعب بسلاح الشيش مع إسرائيل على كامل المساحة الإفريقية، والتى حتما ستصفق دولها لمن يسجل على أرضها أكثر النقاط.

ويتبقى أن ندرك أن اللعب الفردى يتطلب ظهورًا متكررًا بين اللاعبين، وهو ما سنشاهده كثيرا فى الأيام القادمة وسط صراخ من جمهورغاضب لم يع بعد التغير الحادث فى قواعد اللعبة الدولية والإقليمية، ولن يلتفت أحدٌ لصراخه وسط زلازل التَغيير العالمية الحادثة.. الكل يريد أن يستبدل الصراع المسلح بتعاون اقتصادى رأسمالى يجعل من الألعاب الفردية مقياسا للتقدم.

خيار اللعب الجماعى لم يعد موجودًا، وخيار اللعب الفردى أصبح متاحًا، وهناك من يريد تغيير

شكل الصراع فى المنطقة برمتها، وأن المنطقة العربية وجوارها أصبح ممهدًا لملاعب مجهزة لجمهور أقل يريد مشاهدة لاعبين على الأكثر وبطريقة فردية وبسلاح شيش لا يخدش، تمهيدا لتحويل جماهير غاضبة خارجها تريد امتشاق السيف البتار إلى مستهلكين يتابعون المتبارين عبر شاشات التليفزيون وهم يأكلون الشيبسى ويشربون الكوكاكولا.

وعلى الذين يتكلمون فى الصراع العربى– الإسرائيلى أن يدركوا أن قواعد اللعبة تغيرت ولم يعد باستطاعتنا تكوين فريق جماعى، وأن تلك القواعد تفرض علينا سلوكا مغايرا بعيدا عن الصراخ والعويل على نظام عربى قد انفرط عقده منذ زمن، وأن الاقتصاد أصبح هو الحاكم لطبيعة الصراع فى المنطقة.

لا تحسبوا كلامى يأسا بل قراءة واقعية أحسبها صحيحة لواقع أقل ما يُوصف بأنه مُزرٍ.

الموشح الحلبى

كثيرٌ من الناس لا يعرفون « الموشح «.. إنه نظم شعرى مقفى ممزوج بالعامية فى إطار غنائى، عرف بمسميات مختلفة على حسب عدد الأبيات، فهو الرباعى والخماسى والسداسى والسباعى وهكذا، وهو معروف فى بقاع عدة من الوطن العربى بمسميات مختلفة لعل من أشهرها ما عرف بـــــ» الموال «، لكن تتفرد بلاد الشام بهذا الاسم، ولسخرية القدر فإن معقل هذا الفن هو مدينة « حلب « المكلومة التى قدر لها أن تتصدر فى الأيام السابقة واجهة الأحداث الدامية بعد أن كانت عنوانا عريضا ومعقلا لأهم الفنون التراثية الشامية، والتى أصبحت تحت القصف وتعدد الدول والفصائل المتحاربة فيها أعظم « موشح حزين « يحكى على أنغام حزينة قصة مدينة كل ما جنته أنها أصبحت نقطة صراع بين دول لم تراع الإنسانية ولا الدين ونظموا بالدم شعرا مقفى على أنين عامية الشعب المقتول فى إطار أصوات غناء الطائرات التى تقصف ورصاصات تحصد.. إنها « حلب «.

بعد أن تصدرت أخبار « حلب « كل عناوين الصحف وكل شاشات الميديا فى العالم العربى والغربى لأيام، فجأة ودون مقدمات نرى أن أخبار « حلب « ترجع إلى الخلف مرة أخرى رغم أن القصف مستمر ولكن بوتيرة أقل، فالسؤال.. لماذا حلب ؟ ولماذا خفتت الحملة المساندة لها؟.

البداية كانت ما قبل اندلاع أحداث الثورة السورية وتحديدا عندما عرضت دولة قطر عام ٢٠٠٩ على النظام السورى فكرة تمرير خط أنابيب للغاز المسال إلى أوروبا ممتد من قطر مرورا بالسعودية والأردن وسوريا فتركيا ثم أوروبا، وكانت أقرب نقطة لمرور الغاز فى شمال سوريا هى حلب وريفها القريب من تركيا، ولكن النظام السورى رفض الفكرة وفضل التعاون مع إيران، وممتنعا عن إغضاب الحليف الروسى الذى رأى فى هذا الخط منافسا خطرا للغاز الروسى المصدر لأوروبا.

لذلك ومع اندلاع الثورة السورية وقد بدا منذ البداية ومع سيلان الدماء الغزيرة أن هناك من يحول ويدفع باتجاه الحرب الأهلية، ومع فورة الغضب ضد النظام السورى الباطش، لم يفطن أحد لما يجرى، حتى طالت أيام الثورة وتحولت إلى حرب أهلية، هنا انكشف الغطاء عن الجميع وأصبحت سوريا مسرحا للجميع، وظهرت قطر والسعودية كلاعبين أساسيين فى إدارة وتمويل

العمليات العسكرية فى سوريا بالتعاون مع الاستخبارات الأمريكية، كما أشار بذلك مستشار الأمن القومى الأمريكى السابق « زبيجنيو بريجنسكى « فى مقابلة مع مجلة (ذا ناشونال إنترست) قائلا « إن وكالة الاستخبارات المركزية سى آى إيه بقيادة الجنرال بيترايوس بدأت تبذل جهودا كبيرة لمساعدة القطريين والسعوديين وربطهم بطريقة ما مع الأتراك».

وطالت الحرب وتدخل الجميع بشكل سافر واختلطت المفاهيم وأصبحنا أمام أزمة مختلطة لا تستطيع فصل مكوناتها عن بعضها، اختلطت فيها شعارات الدين بلغة المصالح، وتعددت المصالح حتى تمزقت سوريا بين الأحلاف المتحاربة والمتصارعة على تقسيمات جغرافية ومصالح اقتصادية، حتى ظهرت النعرات الطائفية والقومية ومنها القومية الكردية والتى رأت أنه بتحالفها المؤقت مع النظام السورى ضد تنظيم الدولة الإسلامية- داعش- سيضمن لها تواجدا جغرافيا فى إطار حكم ذاتى بعد انتهاء الحرب لصالح النظام، وهذا ما أزعج تركيا التى كانت تريد منطقة عازلة داخل سوريا تضم « حلب وريفها « لتضمن لها عدم قيام منطقة كردية على حدودها وكذلك لضمان تمرير مشروع الغاز القطرى فى حال تم تقسيم سوريا إلى دويلات، ولكن تقدم جيش النظام السورى - بعد استعادته لعافيته بعد الدعم الروسى - لاستعادة ما فقده من أراض لصالح المعارضة المسلحة بجميع أطيافها، ومن ضمن تلك المناطق « حلب وريفها «.

ومع التقدم الملحوظ لقوات النظام فى المعارك بدعم روسى، هنا هاجت الدنيا واشتعلت الحرب الإعلامية « لإنقاذ حلب « استخدمت فيها تكتيكات إعلامية كتلك التى كانت تمارس إبان الجهاد فى أفغانستان لإثارة المشاعر وحشدها ضد النظام السورى، وتحت تلك الحالة من القصف الجوى على « حلب « وبين القصف الإعلامى على الرءوس والتى استمرت لأيام اجتمع فى « جنيف « ممثلى أمريكا وروسيا والسعودية وقطر وممثلى المعارضة السورية لبحث سبل التهدئة، وخرج البيان بصيغة « اتفقت روسيا وأمريكا «، ولم يذكر البيان دور قطر ولا السعودية ولا تركيا ولا حتى المعارضة، وخبت الحملة الإعلامية أو تكاد فجأة وضاعت الشعارات الدينية أدراج الرياح تحت وقع اتفاق دولتين من دين آخر يديران دفة الصراع وأصحاب دم الدين المسفوك يباركون هذا.

هكذا ضاعت « حلب وريفها « أو بالأحرى لم يعرف مصيرها بعد، وسفكت الدماء تحت وقع غناء كورال عربى وإسلامى يغنى موشحًا حلبيًا منظوما بقيادة غير إسلامية مصحوبا بعامية سورية مستباحة الأرض مهدرة السيادة أمام شعب مشرد و قتيل وجريح.

الجميع أخطأ فى حق سوريا وشعبها، نظامها الوحشى المستبد الذى قدر له أن لا يسقط بفعل عوامل متعددة، وأيضا ليضمن ماتبقى من سيادة أعتقد انها لن تعود كما كانت، والدول العربية والإسلامية التى شاركت فى دمار سوريا تحت مظلة أجنبية بدوافع المصالح غير المفهومة، والدول الغربية التى اختارت مصالحها على حساب دماء الشعب السورى، لذلك فإن « حلب « ستبقى نموذجا للعار العربى والإسلامى الذى يذكرنا بما جرى فى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى، حيث كانت معظم الدول والجماعات فى تلك الفترة ترفع شعارات دينية ومعظمها كان يتعاون مع المحتل الصليبى.

« حلب « آخر ما تبقى لنا من كرامة إنسانية بعدما أن تم ربط الدين بلغة المصالح فى صراع الجميع فيه خاسر.. وتذكروها لأنه ستصبح نموذجا تقاس عليه كل مدينة عربية وإسلامية قدر لها أن تكون ممرا للمصالح الغربية بتعاون عربى إسلامى.

تركيا . . أزمة المؤسسة العسكرية

إن خيارات الشعوب فى تقرير مصيرها وتحديد شكل وطريقة الحكم التى تريدها هو من موجبات الاحترام التى تقوم على أساسها إقامة العلاقات الصحية والسليمة بين الدول.

لذلك فعند تناول أحداث بعينها فى دولة معينة، وخاصة إذا كانت تلك الأحداث لم تشهد حسما نهائيا، لذا يجب التريث قليلا قبل إصدار أحكام نهائية على تلك الأحداث، وعدم القفز على نتائج وترتيبات ما بعد تلك الأحداث.

إننى أتكلم وقد انتهت أحداث ما يسمى «الانقلاب التركى « الفاشل والذى شهد أحداثا دامية، وصراعا كلاميا فى مصر طال الجميع دون استثناء لأسباب متعددة خاصة بالشأن المصرى الخالص، فهناك من رأها نهاية طبيعية لحكم « أردوغان « الديكتاتور الذى وقف أمام خيار الشعب المصرى فى ٣٠ يونيو بقيادة الجيش، ومنهم من رأى أن فشل الانقلاب هو برهان دامغ على أن شرعية الإخوان هى شرعية شعبية تم وأدها فى ٣٠ يونيو.. وهناك فريق سلك مسلكا عاما – منتصرا لمبادئ عامة – رأى فيه أن الانقلاب أو محاولة الانقلاب على أي من قامت عليه من أنظمة سياسية فهو مرفوض طالما أنها منتخبه بطريقة ديمقراطية وشرعية.

وأظن أن السجال لن ينتهى بمجرد الإعلان عن انتهاء المحاولة الانقلابية لأن الوضع المصرى ما زال فى بدايات الطريق ويحمل أوزار سنوات طويلة من الاستبداد ولم يصل بعد لدرجة النضوج السياسى.

ولهذا ومع متابعتى لشاشات الفضائيات المتعددة، لمتابعة التطورات التركية، فإننى أستسمح الجميع فى أن أنحو جانبا وأن أكون على مسافة واحدة من الجميع وأن أطرح تصورى الخاص لأحداث المحاولة الانقلابية الفاشلة فى تركيا، محاولا الربط بينها وبين تأثيراتها على الخارج التركى بعيدا عن خيارات الشعب التركى السياسية.

فمنذ الساعات الأولى للانقلاب ومع توالى التصريحات والبيانات المتضاربة من كافة الأطراف التركية الحاكمة للمشهد العام، فقد بدا لى أن الجيش بكتلته الأساسية لم يكن وراء المحاولة الانقلابية

وأن من قام بتلك المحاولة هم قلة من قوات الجيش موزعة على جميع أفرع الجيوش الرئيسية، فليس من المتصور أن يقوم جيش بمحاولة انقلاب ثم يقصف أهدافا بالطائرات، خاصة أن كانت تلك الأهداف حيوية مثل مبنى المخابرات العسكرية والبرلمان، مع عدم احتلال الميادين الرئيسية وغلق المجال الجوى بالكامل، فى الوقت الذى تعطى فيه أوامر مختلفة ومتضاربة لطائرات سلاح الجو سواء بالقصف أو ضرب الطائرات المغيرة.

وهو الأمر الذى جعل من محاولة الانقلاب أمرا سهل الانقضاض عليه خاصة من قوات الشرطة التى وضح من خلال الأحداث أنها لديها تعليمات محددة للتصدى لأى محاولة انقلابية من الجيش.

ومع تسارع الأحداث ظهر أن القيادات الوسطى والصغرى هى من قامت بالمحاولة وعزاها جميع الأطراف إلى أنها كانت بسبب إقدام الدولة على تسريح عدد كبير منهم طبقا للنظام العام، وهو ما فتح الطريق أمام التصريح علنا أو ضمنا بأن هناك من كان يعلم بالمحاولة وقدر لها أن تنجح أو تفشل لغرض فى نفسه وهو ما دعى البعض لنفض التراب عن نظرية المؤامرة، كما حدث فى أحداث الأمن المركزى ١٩٨٦ فى مصر عندما خرجت مجموعات كبيرة من جنود الأمن المركزى فى الشوارع وحدوث أعمال شغب وسلب ونهب نتيجة لإشاعة سرت بينهم بأن هناك تمديد لسنوات الخدمة العسكرية، وهو ما استدعى تدخل الجيش لوأد التمرد.

وعلى الرغم من إنتهاء تلك الأحداث إلا أن نظرية المؤامرة ما زالت حاضرة، وعلى الرغم من انتهاء أحداث الأمن المركزى فى مصر بسيطرة الدولة وجيشها على تمرد جنود الأمن المركزى وما تبع ذلك من إجراءات جعلت من مصر تتجاوز أزمة تلك الأحداث، إلا أن المؤسسة العسكرية التركية تلقت ضربات موجعة حتما ستؤثر عليها داخليا وخارجيا من جراء المحاولة الفاشلة.

ففى خضم الأحداث وتصاعدها نجد أن حاكم أنقرة يصرح بأن « الطيار الذى أسقط الطائرة الروسية من ضمن الانقلابيين « فى محاولة سريعة ومباغتة لاستدعاء الخارج على المؤسسة العسكرية، كذلك استدعاء الرئيس أردوغان للشعب للتصدى للجيش وهو بعد لم يكن متيقنا بالكامل من وقوف كامل المؤسسة وراء الانقلاب وهذه سابقة خطيرة وضعت المؤسسة بالكامل فى جانب والشعب فى جانب، والأخطر هو المقاومة المسلحة من قبل قوات الشرطة التى أخذت أوامر قتالية ضد الجيش مما أوقع قتلى وجرحى من الجانبين.

وبعد إنتهاء المحاولة وسيطرة الجيش على الأوضاع فقد بدا أنه شيخ عجوز تجاوزه الزمن مُشيعًا بلعنات الجميع وبصور جنوده وهم ملقون على الأرض عرايا ويضربون بالأيدى وبالأحزمة من قبل المواطنين وفى المشهد الخلفى قوات الشرطة.. وسط إدانات دولية لمحاولة الانقلاب ليس حبا فى الديمقراطية التركية ولكن لأن الانقلاب لم يأت فى ظروف أخرى فإيران والسعودية مثلا رفضتا المحاولة الانقلابية رغم اختلافهما مع سياسات أردوغان، ولكن الأولى وهى التى تحارب فى المعسكر المقابل لتركيا فى سوريا لا تريد أن تتفاقم الأزمة الكردية بسبب الانقلاب مما يعقد المشهد الإيرانى نفسه، وكذلك السعودية التى لا تهمها الديمقراطية والتى رأت أن الانقلاب سيؤثر على تحالفهما فى محاربة النظام السورى وإسقاطه.

إن ما حدث أثناء وبعد المحاولة الانقلابية فى تركيا سيترك آثارا وجروحا غائرة فى المؤسسة العسكرية، ولن يشفى جراحها وقوف الرئيس أردوغان فى مطار إسطنبول ومن خلفه صورة مؤسس الدولة التركية « كمال أتاتورك وهو يقول « إننى أؤمن بالجيش وبقادته « ولا أن يصف الجيش فى خطاب عام بأنه « جيش محمد (ص) «.. لأن صور جنوده وهم يضربون فى الشوارع لن تنمحى من الذاكرة وهو من وافق على المسار الديمقراطى من الأساس.

لذلك فعلى المؤسسة العسكرية أن ترتب أوضاعها الداخلية التى وضح أنها مخترقة للحد الذى لا يهدد فقط أمنها هى بل أمن تركيا برمتها ومحيطها الجغرافى الذى سيتأثر حتما بنذر حرب أهلية لاحت فى الأفق التركى لساعات حبس العالم والجوار التركى أنفاسه فيها. وأعتقد أن أى محاولة لتصفية حسابات مع المؤسسة العسكرية التركية من قبل المؤسسات السياسية فى هذا الوقت سيحول حالة التوهان التى تعيشها المؤسسة إلى حالة تذمر وتنمر سيعقدان المشهد أكثر مما هو معقد، وهو ما سيعجل من المحاولة الانقلابية الفاشلة مجرد نزهة أمام المحاولة التالية والتى حتما ستسيل فيها دماء أغزر يعززها تأييد أو تغاضٍ دولي هذه المرة لأن الغرب لن يسمح بأن تخرج المؤسسة العسكرية التركية عن خطها المرسومِ.

وتصبح فى يد فصيل سياسى يقبله الغرب شكلا ويرفضه ضمنا

لذا، فإن قدرة المؤسسة العسكرية فى التعاطى مع الأحداث فى الأيام القادمة هو ما سيحدد مصير العملية السياسية التركية والنظام العام وليس حزب العدالة والتنمية فى تركيا، الجروح أصبحت غائرة بين الجانبين والميراث معقد بينهما.. فهل نشهد فى الأيام القادمة أحداثا تزيل آثار ما حدث أم نشهد صراع النهاية بين القطبين العسكرى والسياسى والذى سيصبح كطوفان يجتاح المنطقة برمتها ؟ نحن فى الانتظار.

الفصل الخامس

قريتي طحانوب

لمصر.. لا لشبابها

« كل كتاب له علاقة خاصة بكاتبه، فهو قطعة من حياته وفكره وعمله وتجربته استؤمنت عليها صفحات وسطور وصفحات.

وما يبوح به أى كاتب فى مجمل ما يكتبه هو فى الحقيقة مراحل عمره، ومراحل عمر أى كاتب ليست مجرد تواتر واتصال و تكرار، وإنما هى عالم إنسانى بأكمله: عالم متنوع متناغم مختلف مؤتلف، فكل يوم و كل ساعة و كل لحظة لها طعم ولها لون ولها عبق متميز تدركه الحواس وتستشعره، وتذوب فيه أحيانًا أو يذوب فيها، وهذا الكتاب لحظة من العمر لها إيقاع خاص: مزيج متداخل من الحزن والشجن، من الشعور بالاستفزاز والرضا بقبول التحدى، وهى لحظة من العمر كانت بداية لسبع سنوات لها قيمة معينة فى حياتى من سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٨١ »

هذا هو استهلال مقدمة كتاب « لمصر لا لعبد الناصر » للكاتب الكبير» محمد حسنين هيكل « الذى دشن من خلاله حملة للدفاع عن مصر، بعد أن طالت حملات تشويه الرئيس « جمال عبد الناصر» مدى لا يمكن القبول به، بدأت بعد أن أحس تيار السادات أنه قد أن الأوان للإجهاز على عصر عبد الناصر بعد أن أعطته حرب أكتوبر شرعية جديدة، رأها مناسبة للإجهاز على كل منجزات أمة فى شخص رئيسها، وهو ما حدا بالكاتب الكبير لأن يجعل الكتاب بداية، أو طلقة البداية فى حرب دفاعًا عن منجزات شعب لا منجزات شخص ضحى وأنجز حيث أمكن له أن يفعل.

وتوضيحا لدور لا يمكن أن يمحى فى حياة الأمة، وتثبيتًا لموقف فى أن العداء مهما بلغ مع رأس أى نظام سياسى لا يجوز أن ينسحب على منجزات شعب كان هذا الرأس ملهما له.

لا أدرى لماذا خطر ببالى استدعاء هذا المشهد « الهيكلى » الكاشف لفترة ممتدة منذ خروجه من دائرة الحكم وحتى دخوله السجن، والتى تعرض فيها المجتمع لهجمة ارتدادية من أعداء هذا الوطن، الذين ظنوا وربما هم على حق أن عهد الكرامة قد ولى وحان وقت الانتقام من « ناصر » ومشروعه .

ربما بسبب التراجع فى حجم الآمال والطموحات المنشودة من ثورة ٢٥ يناير وما تلاها من ٣٠ يونيو، والذى أوجد مساحة كبيرة لأزلام النظام السابق للانفراد بالمشهد بل والعمل على تشويه تجربة إنسانية لوطن كان قائدة الشباب، فراحوا يكيلوا لهؤلاء الشباب السباب والشتائم والاتهام بالعماله والتآمر، وصولا للنيل من مكتسبات وطن ظل يرزح تحت نير حكم فاسد كانوا هم أول المستفيدين منه.

وقد كنت شاهدًا على فترة أربع سنوات هى عمر الثورة المصرية بنجاحها وانكسارها، وفورانها وهدوئها، بأبطالها وخونتها، بشبابها النادر و أكثرية شيوخها المتخاذلين، فترة مثلت بداية جديدة لى شخصيًا مع شباب جرىء لا يخاف متفانٍ وصادق فى حبه لوطنه، وبداية جديدة لقريتى « طحانوب « التى ضرب شبابها أروع الأمثلة فى الحراك الثورى من كافة أطيافه السياسية.

ولكن مع انحسار المد الثورى لظروف يعلمها الجميع، ومع انتشار جراد الفساد من أزلام النظام السابق ومرتزقته، الذين راحوا يلوكون بأسنانهم وألسنتهم شبابها الأخضر، أجدنى فى موضع مشابه لكتاب كبار ومفكرين ومخلصين سبقونى فى هذه الحالة فى السابق مدافعًا عن مكتسبات قريتى وليس دفاعًا فقط عن رموزها من الشباب.. الذين ألهمونا جميعًا وأعطونا المثل والقدوة.

وبما أن ما يحدث فى قريتى ما هو إلا نموذج صغير لما يحدث فى طول البلاد وعرضها، من هجمة شرسة من أتباع سياسة الانفتاح والانبطاح خدم الأنظمة، الذين يشبهون الضفادع لا يعرفون غير الطين سكنًا لهم، على مكتسبات هذا الشباب ويسيئون لنضال ممتد لقرية مضرب المثل فى الحراك الثورى منذ عشرات السنين فإننى أعلنها وبمزيج متداخل من الحزن والشجن، ومن الشعور بالاستفزاز والرضا بقبول التحدى، أن معركة الدفاع عن مكتسبات هذه القرية ورموزها من الشباب مستمرة، ولن نسمح لأحد أن ينال من شبابنا ومن نضاله وثورته، وصولا لتشويه ثورة جيل أعطى لمصر قبلة الحياة، بعد أن ظن الجميع أن مصر قد هرمت وماتت.

وضد أى أمل فى عودة أزلام النظام السابق الذين ساءهم أن يكون الشباب هم الطليعة والأمل، الممتلئ كرامة وعزة يفتقدونها بطبيعة الحال.

يا شباب قريتى.. لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، ولا تحسبوا أن الكلاب برقصها على جثث الأسود تبقى أسودًا، ولكن تبقى الكلاب كلابًا والأسود أُسودًا، وتذكروا أن المعركة مستمرة وحاضرة فى كل وقت وحين بين قوى خدم السلطان و» التمليّة «، وبين قوى الشباب والتغيير ودعاة الحرية وكسر الأغلال، وتذكروا أيضا أن ما يشعر الناس بالكرامة والحرية هو باق إلى أمد الدهر، لذلك لن تنساكم قريتكم ولن ينساكم أهاليكم، ولكنهم سيشيعون خدم السلطان من المرتزقة باللعنات، حتى أرض « طحانوب « ستلعنهم وهم يمشون عليها، وحتى يدخلوا فى جوفها.

لذلك ستظل « طحانوب « عنوانًا عريضًا لنضال شبابها، وسيظل شبابها رمزًا لها، لذلك فتحية إعزاز وتقدير لشباب قريتى قديمًا وحديثًا، الذين أعطوا شرفًا لأجيال سابقة وأجيال قادمة، أرجو أن يحافظوا عليه، ولا يتركوه لمن لا يستحق.

مصر . دين ضد دين

مئذنة مَنسى نموذجًا

« التاريخ يشهد لنا بأن الناس على مر العصور كانوا متدينين دائمًا فى مسارهم الاجتماعى التاريخى» هكذا يقرر الكاتب الكبير « على شريعتى « فى كتابة القيم « دين ضد دين « ، ولكنه يقف حائرًا ومتحيزًا فى ماهية الدين الذى اتبعته البشرية طوال مسيرتها الممتدة من البداية وحتى الآن، وهو بسبيله للبحث عن تلك الماهية ، فإنه قد توصل إلى نتيجة جديدة وربما مبتكرة لتبرير الصراع الإنسانى، حيث يقرر أن أصل الشرور كلها ما هى إلا صراع « دين ضد دين «.

دين التوحيد والتنوير الثورى التحررى ضد دين الشرك والظلام وتكريس العبودية للظالمين.. دين الأنبياء والرسل ضد دين فرعون وقارون.. دين الحضارة ضد دين الهدم
لذلك لا نتعجب عندما نراه يحدد ماهية الدين الثورى قائلا « الدين الثورى هو دين يغذى أتباعه ومعتنقيه برؤية نقدية حيال كل ما يحيط بهم من بيئة مادية أو معنوية، ويكسبهم شعورا بالمسؤولية تجاه الوضع القائم، يجعلهم يفكرون بتغييره ويسعون لذلك فيما لم يكن مناسبا «.

وهو لة سمة أساسية لايبرر الوضع القائم تبريرا دينيا ولا يؤمن بمبدأ الرضوخ للأمر الواقع أو اتخاذ موقف اللامبالاة حيال ما يحيط به،
ويبرهن عليه بحركة الأنبياء والرسل ضد مجتمعاتهم وهم بسبيلهم إلى إحداث التغيير المنشود.

فى مقابل « دين الشرك « أو الدين التبريرى الذى يصفه « بأنه يسعى دائما إلى تبرير الوضع القائم عبر ترويج المعتقدات ذات الصلة بما وراء الطبيعة ويسعى إلى تحريف الاعتقاد والمقدسات والقوى الغيبية ويشوه المبادئ العقائدية والدينية ليقنع الناس بأن وضعهم الراهن هو الوضع الأمثل الذى يجب أن يرضوا به، لأنه مظهر لإرادة الله تعالى وهو المصير المحتوم الذى قدره الله عليهم «
وهو يضع أضلاع ثلاثة كأضلاع حاكمة تتحكم فى طبيعة هذا الدين ، فرعون بجبروته وسلطته السياسية، وقارون الرأسمالى الجشع ، وبلعم بن ياعورا الشخصية الدينية المنحرفة.

ولكن السؤال، هل التعريفان السابقان يقرران وجود دين فى مقابلة دين فى ذات الوقت ؟؟ الأجابة بالطبع ستكون بلا.. حيث إن الكاتب يريد أن يقرر حقيقة أزلية ، ألا وهى أن الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إلى مجتمعاتهم من أجل نشر دين التوحيد والتحرر والثورة، قد اصطدموا بأصحاب دين الشرك أى دين العبودية وإذلال الناس وتبرير ما هم فيه من أوضاع دنيئة من أجل السيطرة والحكم، وهو يدلل على ذلك بحقيقة قرآنية عندما قال تعالى « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون « أى أن هناك فعلا دينين مسيطرين على مسار البشرية، ولكن أيا منهما سيطر وأزاح الآخر؟ وأصبح حاكما طوال التاريخ البشرى؟

بالطبع أصحاب دين الشرك.. هكذا كانت النتيجة، حيث لم يستسلم أصحاب دين الشرك فى البداية أمام دين التوحيد والثورة، ولكنهم سرعان ما دحروا، بل الأمر من ذلك فقد آمنوا كما آمن الناس وسلموا بالوضع الجديد، ولكنهم استطاعوا أن يتسلقوا ويسيطروا على الدين الجديد ويحولوا مساره فى اتجاه أطماعهم وظلمهم، إنهم الثالوث الأزلى فرعون وقارون وبلعوم.

السلطة والمال والمؤسسة الدينية، الذين أشاعوا التمييز الطبقى فى المجتمعات وأحالوا حلم التغيير لدى الناس إلى الدنيا الآخرة، عبر إشاعة فلسفة القدرية التى لا تبحث فى تغيير الواقع بين الناس.

إنهم أول الذين حولوا الأديان إلى سلطة وإلى مكتسبات حكرًا على الحكام والكهنة والقساوسة والمشايخ.

إنهم الذين طمسوا دين الحضارة والثورة والبناء والجمال.. إنهم أحفاد عبدة الأصنام من أصحاب دين الشرك من كبار تجار مكة قبل ظهور الإسلام ، الذين رفعوا المصاحف على أسنة الرماح ليس حبا فى الدين، ولكن من أجل السلطة والمال..

لذلك وبعد مرور أربع سنوات من عمر الثورة المصرية، سنجد أن الوضع لم يتغير، فدعاة الدين الثورى قد دحروا كما العادة، وسيطر فى المقابل أصحاب الدين التبريرى.

أصحاب الفكر المتخلف أعداء الحضارة والبناء الذين يريدون مجتمعا ذا عقل مشوه لا يعرف من الحضارة إلا القشور، وذلك عبر إشاعة جو من البلادة والخمول تسمح بوجود فكر متطرف، يشعل صراعًا على السلطة، بين أصحاب الفكر الإرهابى والتبريرى تكون نتيجته انتصار دين الهدم والتخلف وتراجع قوى دين التوحيد والثورة ، ولا تصبح أمامها إلا الصياح وإجترار ماضى الرسل والأنبياء.

لذلك فإن هدم مئذنة مسجد « سيدى منسى « فى قريتى والتى تعبر عن شكل حضارى يعتبر ميراثا ثقافيا لأبناء قريتنا هو شكل من أشكال الصراع بين أنصار دين الحضارة ودين الهدم، وامتداد طبيعى لصراع ممتد على طول المساحة الزمنية للتاريخ، وهو تكريس لثقافة دين التبرير

الذى لا يعطى جديدًا فى حياة الناس بل يعطى قيمًا سلبية تبعد الناس عن طريق دين التوحيد، الذى يرتكز على قيم حضارية سامية ، روحية ومادية.

ولكن هل « المئذنة « هى لب الصراع ؟ لا بالطبع.. ولكنها صراع ضد قيم طغت ورسخت للإرهاب المسلح والإرهاب الفكرى، وحولت الناس إلى مسوخ لا تعرف قيم الحضارة التى تعلى من القيم الإنسانية..

لذلك، لتكن معركتنا لإعلاء قيم دين التوحيد والحضارة والبناء فى مواجهة دين التبرير وحماته من أعمدة السلطة والمال ورجال الدين

الشيخ حُسنى الديزل

«هُنا القاهرة.. أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ.. فهل ساءلُوا الغواص عن صدفاتي، مقدمة» لُغتنا الجميلة» أهم وأعظم برنامج قدمه الشاعر فاروق شوشة.

بَرنامجٌ يبحث عن مكنونات وجواهر لغتنا العربية الجميلة، من خلال الشعر، ولكن هناك المحيط الأعظم لبحر اللغة، وهو» القرآن الكريم « الذى لم يسبر أغواره بَعد، أعظمُ الغواصين الذين يغوصون فيه ليل نهار، ليُخرجوا لنا من جوف لجاجه أثمن ما فيه.

وإذا كان القرآن قد نزل فى مكة، فإنه قد قرئ فى مصر، التى قال عنها مولانا الشيخ الشعراوى، « أعظم ما قدمته مصر للعالم تجويد القرآن «، لذلك فإن جيلا جديدا من الغواصين الباحثين عن اللآلئ فى جوف صدفات بحر القرآن الكريم، قد أخذوا على عاتقهم الغوص للبحث عن جواهر يرون فيها إظهار لموهبة نادرة، وعبقرية فى التلاوة، لا تقارن بمثيلاتها على امتداد مساحة البحر، وهدية يسمعها ويستمتع بها كل من يقترب، أو يحب أن يتعرف على القرآن وفضائله.

وتختلف نوعية الدُّرُّ المكنون فى صدفات بحر القرآن الكريم، ولكن يبقى لكل واحدة منها رونقها ومذاقها الخاص، ومن هذه الدرر موهبة حباها الله بجمال الصوت وحلاوة التلاوة، نادرًا ما يجود الزمان بمثلها، وعلى الرغم من مرور السنوات الطوال وهى بعيدة عن منال الاكتشاف، إلا أن الغواصين كانوا لها بالمرصاد كاشفين عن صدفة تحوى أغلى وأثمن لؤلؤة تزين وتضاف لعقد المجودين للقرآن الكريم الذين تفخر بهم مصر أمام العالم.

إنه الشيخ « حسنى أبو ستيت «، ابن قريتي، لؤلؤة فى بحر القرآن الكريم، استطاع أن يحجز لنفسه صدفة خاصة تميزه عن غيره، قيثارة خاصة يهوى مستمعوه سماعها، وتسجيلها لتبقى بجوار الأسماع والقلوب.

إنه كما يلقبه غواصو بحر القرآن الكريم بـــ» الديزل « فى استدعاء لمشهد ذاك القطار القوى فى عنفوان جريانه الهادر، الذى يثير غبار الخيال، ولا يقف فى محطات تاركًا خلفه إعجابًا بقوته ودقته.

الشيخ حسنى « الديزل»، لا يختلف عن كونه لؤلؤة فى صدفة فى لجاج بحر القرآن الكريم، صوت قوى، حساس، يلامس القلوب، تصل الآيات القرآنية من خلال صوته العذب إلى شغاف القلوب العطشى لسماع القرآن لترطب مياه بحره قلوب قد جفاها البُعد عنه.

هنيئًا للشيخ حسنى بغواصيه الذين أمتعونا بجواره، والذين يبذلون جهدا جميلا ومحمودا من أجل أن نستمتع بغوصهم فى بحر القرآن الكريم بسماع لؤلؤة جميلة نادرة الوجود .. وهنيئا لنا بذلك المبدع الذين يمتعنا كل يوم بصوته الجميل العذب.

#الغواص مدحت حنفى

#الغواص مصطفى أبوشعير

#الغواص عبدالعزيز رشدي

دكتور من بلدنا

تحت قصف الطائرات، وهدير المدافع، تتساقط الجثث وتتطاير الأشلاء وتعلو صرخات المصابين الذين لا يسمع صوتهم إلا ملائكةٌ من نوع خاص لا يعرفون إلا تخفيف الألم وإنقاذ الأرواح ما وسعهم من جهد.

إنهم رجالٌ صدقوا وعدهم ووفاءهم لمهنة الطب والإنسانية، حولوا مهنتهم إلى معنى للإنسانية فى أزهى صورها، وجعلوا من تخفيف الألم قصة عطاء لا محدود، وبداية جديدة لحياة مختلفة.

ولا تختلف السنوات التى تلت ثورة ٢٥ يناير والتى رأى فيها فقراء القرى قصفا أشد من قصف الطائرات وهدير المدافع، إنه قصف الفقر وما استتبعه من السقوط صرعى الأمراض المزمنة والحالات الحرجة، والذين لم يجدوا تحت هذا القصف من يحنو عليهم، ولم يجدوا بين طيات ملابسهم أموالا يعالجون بها أنفسهم.

ووسط حالة اقتصادية يعلمها القاصى والدانى وجدنا ملائكةً فى زى أبيض يتقدمون؛ ويلملمون أشلاء فقراء وطن، سقطوا كعارض لمعركة لم يختاروها ولم يجنوا منها شيئا، يخففون الآلام ويجبرون الكسور ويجرون عمليات دون مقابل، أرجعوا البسمة على وجوه شحبت من جراء قصف الأمراض المزمنة، وأحيوا فى نفوسهم الأمل بأن الانتصار فى معركة الإنسانية ما زال ممكنا بفضل وجود أمثال هؤلاء الأطباء الذين أعطوا للجميع أصحاء ومرضى درسًا فى الإنسانية وفى حق الفقير فى الوجود، وأن هناك دائما مكانا يسع الجميع تحت الشمس، ما دام هناك من يحنو على الفقير ويعطيه أملا فى وطن ظن أنه قد تخلى عنه.

تحية إجلال واحترام للأستاذ الدكتور| محمد الكرماني، والأستاذ الدكتور|ممدوح الكرمانى، والدكتور| ياسر الكرداسى كمثال نفتخر به جميعًا، وكسلاح نُشهره فى وجه الفقر، وعنوان عريض لكل من تسول له نفسه أن يتاجر بآلام الفقراء.

إننا حقًا نستطيع أن نتفاخر بهم وبأمثالهم ونقول فخرًا «هذا دكتورمن بلدنا»

جبلاية طحانوب تنعى خالها

ياه على غربتي بعدك يا خال، يا ولداه على غربة الأحباب، بتخللى الواحد منا وحدانى عامل زى عود الدرة الناشف فى غيط كمون.

أول ما جانى خبر موتك يا خال حسيت بالخوف ناشع فى عروقى زى البرد، واتذكرت ساعتها تشجيعك ليا ووقفتك جنبى، انت اللى خلتنى صنايعى وقولتلى إن صاحب الفاس ممكن يصير صاحب صنعة.

مشتاقلك يا خال شوق الأرض لبل الريق. شوق الزعلان للنسمة لما الصدر يضيق، يا خال لو الورقات تكفى لكنت أعبيلك بحر النيل كلام.

ياه على الأيام لما تحنى الضهر وينهش المرض فى الجتة وأنا لا قادر أشيلك على كتفى وماشى وراك أتسند، وأسمع صوت الصويت والعويل وتعديد النسوان، وحاسس إنى طيرة مهاجرة جناحها محتار واقف على باب القبر، كانس كل دروب الجبلاية بديل توبى، طاوى كفوفى وبخبط بيهم على صدرى والنعش، سامع صوتك بتقول مين ؟؟ مسيت الدمعة فى حزنى عليك.. ماعرف ساعتها إيه اللى جرالى؟؟

وأفوق ألاقى عزيزة وعيد بيشدوا فى توبى والدمعة مالية الجفون.. الجد مات يا أبوى فينك يا أم علب عباس، أبوس أقدامك ونقولك سامحينى لما زهقت عليكى فى جواباتى، لما قالولى قاعدة على العتيبة إيد على خد وماسكة عود قش بتبكى وتخطط فى تراب الدرب، ما كنت أعرف إن الفراق صعب كده.. بيخللى القلب أسخن من رمل القيالة لما يقيد، ويبقى عش خراب بيصرخ على طيره، والعين يكسيها الدخان من كتر دموعها.

أمانة ياخال لما تقابل أم علب عباس قولها تسامحنى، لأنى أنا وولدها انحنى بينا الضهر وبقينا يتما.

خلاص يا خال انكسر القلم واتبعترت الورقات و معدش مرزوق البسطاوى يخبط على دارى ويقولى خالك بعتلك جوابات.. البيت بقى واسع كدا وحيطانه مطاولة بعدك، والعمر بينهش فيا

بعد الواد والبت ما سابونى لوحدى فى نهاية العمر، وما عادت السمرية معاك تونسنى ولا عاد تلعب بالقمارى مع الولد.

مع السلامة يا خال الجبلاية كلها بتقولك مش راح ننساك، وسلوتى فيك لما ألمح عصايتى وتوبى وفاسى ومداسى وأتذكر قولك مضيعناش الفاس، ولكن ضيعتنا غربة الزمن اللى عايشينه.

الفصل السادس
في الفكر الإسلامي

اذبح إسماعيلك

الحج هو الإسلام فى حركة وليس فى كلمات، بل إن الحج فى جوهره هو عملية ارتقاء الإنسان نحو الله.. بهذه الكلمات المبدعة أصبحت أسيرًا لكتاب « الفريضة الخامسة « لعلى شريعتى، ذلك الكاتب المبدع الذى خاطب الحجيج وكل المسلمين من وراءهم مستثيرًا فيهم الهمم والعزائم ليتفكروا فى شعائر الحج من منظور إيمانى ثورى، قلما وجدنا غيره من دعاة العبادات والطقوس يتناولها، لذلك نراه يخاطب فينا الإنسان المؤمن بعيدًا عن الطائفية والمذهبية قائلًا « أيها الإنسان يا من خلقت من حمأ مسنون أو من صلصال كالفخار، ابحث عن روح الله فيك، واستجب لدعوته واذهب لتلقاه إنه سبحانه ينتظرك، لأن بقاء الإنسان فى الحياة دون التوجه للإنابة إلى روح الله استهتار لا معنى له، لذلك أيها الإنسان حرر نفسك من رغباتك وأطماعك التى تنأى بك عن الله، وانضم إلى الفوج البشرى الخالد المهاجر إلى الله فى الحج وهناك ستلقى الله، ودع قصور السلطان وكنوز الثروة ومعابد الضلال وأطلق سراح نفسك من هذا القطيع الحيوانى الذى يرعاه الذئب وانضم إلى الملبين السائرين إلى بيت الله

وتذكر أن نبيك إبراهيم كان متمردا على الرذائل، رجل دعوة ورسالة وإيمان وعقيدة، ضحى بابنه إسماعيل حتى يحفظ أعناق الناس من النحر، ولكن أى ناس؟؟ إنهم أولئك المؤمنون الذين يضحى بهم على أعتاب قصور السلطان أو بالقرب من خزائن المال الحرام أو داخل مؤسسات الطغاة الدينية المتصفة بالخزى والنفاق.

وتذكرأن نبيك إبراهيم لم يؤمر بذبح إبنه إسماعيل إلا اختبارا ينال به مقام الطاعة عند الله، فى اختبار يسمو بالإنسان عن أطماع الدنيا وزخرفها، فى أقسى اختبار يتحمله بشر، ولكن مقام الطاعة لا يقدر عليه إلا المؤمنون بصدق القادرون على التضحية بكل متاع الدنيا وصولا لأغلاها وهو الابن، لذلك أجاب إبراهيم نداء الله، فقبل منه الله تقربه، وأرسل بفداء لإسماعيل من الذبح بكبش عظيم.

لذلك أيها الحاج السائر على درب إبراهيم، لا تنسى أن العشر من ذى الحجة هو عيد الفداء، وهو الذى فيه تفتدى نفسك لترتقى إلى مقام الطاعة، بأن تضع السكين على عنق إسماعيلك، الذى هنا يمثل ولدك وكل ما تمثله لك الدنيا من متاع، وتأكد أنه بقدر إيمانك وتقربك سيدفع

الله عنك فدية إسماعيلك وستنتصر على الشيطان كما فعل إبراهيم، وتذبح الذاتية وتنضم إلى عبيد الله الذين أدركوا بعمق معنى الحرية وحرروا أنفسهم ليس من فرعون فحسب، ولكن من إسماعيلهم أيضا ليرتقوا إلى الله.

يا رايحين عند النبى الغالى.. هنيالكم وعقبالى..

محمد نبى الإنسانية

قال تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين» آية ١٤٤ آل عمران».

إنه الجانب البشرى فى شخصية محمد النبى (ص) الذى تجرى عليه قوانين البشر من الحياة والموت والذى تخبرنا به الآية الكريمة عند منتصفها الأول، وأن الرسالة المحمدية للإنسانية باقية وأن أى محاولة لتبرير الخروج عليها لأن مبلغها قد مات، فسيقابل ذلك بعقاب من الله وأن من سيعى رسالة الله للإنسانية سيكون له جزاء الشاكرين.

وهذا ما لم يستوعبه كثير من المعاصرين للنبى محمد (ص) وظنوا أن السماء تحميهم وأن رسالة الإنسانية مرتبطة بحياة أو موت النبى، وكان الاختبار الأول فى غزوة «أحد» والتى أشيع حينها أن النبى قتل فجزع الكثير من المسلمين إلا رجل من الأنصار قال « إن كان محمد (ص) قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم «، لقد استوعب الرسالة وعلم مرادها، حتى كان الاختبار الثانى عندما صعدت روح النبى محمد (ص) إلى بارئها هنا كانت الصدمة الكبرى التى أعجزت أكبر الصحابة عن تصديقها حتى خرج الخليفة أبو بكر الصديق قائلا « أما بعد، من كان يعبد محمدًا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت « ثم تلى الآية السابقة، هنا صدق الجميع أن النبى مات فأجهشوا بالبكاء الشديد وما إن أفاقوا من الصدمة حتى تيقنوا أنهم أصبحوا ورثة الرسالة المحمدية والأمناء عليها، رسالة الإنسانية التى جاء بها النبى من أجل أن ينتشل الإنسانية من غيها وجبروتها.

لقد كان التأكيد الربانى على بشرية محمد النبى (ص) متسقًا مع طبيعة رسالته الإنسانية التى جاءت مكملة لما جاء به قبله من الرسل والأنبياء، لذلك لم يقف كثيرًا من الناس عند تساؤل مهم: لماذا بعث محمد (ص) إلى قريش وهى قرية وليس يحكمها ملك ذو سلطان واسع ؟

لقد كانت بعثة النبى محمد (ص) إلى قريش حالة فريدة، فقد بعث إلى مجتمع فريد تحكمه قوانين المال والجاه والتمايز الطبقى الذى يقسم المجتمع القرشى إلى سادة وعبيد، لذلك فهو لم يأت مبلغًا لتلك الطبقة الاجتماعية الغنية التى تسيطر على مكة والتى تستعبد الناس وتستبيح الحرمات الإنسانية، وإنما جاء للجميع دون استثناء، حتى يرسخ قيما تعلى من قيم الإنسانية وفق قوانين إلهية، تجعل من المساواة الاجتماعية نسقًا عامًا يساوى بين البشر دون تمايز قائمًا على اللون والجنس والعقيدة.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يكون أكثرية من أمن برسالة الإنسانية من العبيد المسحوقين

مع قلة من علية القوم الذين استوعبوا قيم رسالة الإنسانية، فى مقابل طوفان هادر من الأغلبية الطبقية التى قاومت حتى لا تسقط أمام قيم إنسانية تنقص من تمايزها الطبقى، حتى إنها عرضت الملك على النبى فى مقابل التخلى عن مناصرة العبيد وتأليبهم على أسيادهم هكذا ظنهم، والذى أعماهم عن فهم طبيعة رسالة الإنسانية، التى ليس من بين ثناياها أى محاباة تجعل من الإنسان عبدًا لأخيه متمايزا عنه بالمال والجاه والسلطان إلا فى حدود العمل والممارسة الإنسانية.

رسالة الإنسانية التى جعلت من أمة محمد (ص) أمة وسط لتكون شاهدة على كل الأمم السابقة، رسالة تحرير الإنسان من كل القيم الفاسدة التى أصابت الإنسانية وجعلتها قريبة إلى المجتمع الحيوانى بل فاقتها وأصبحت أكثر دموية وعبودية، رسالة استوعبها خلفاء النبى، فهاهو أبوبكر الصديق يحارب المرتدين بظاهر منع الزكاة ولكن بباطن الحفاظ على قيم الإنسانية والحفاظ على حقوق الفقراء، وعمر بن الخطاب الذى كان يعزل الولاة لشبهة التمايز المالى والطبقى، وعثمان الذى بذل كل ما لديه من أجل إعلاء قيم الإنسانية وجعل من صيانة المجتمع هدفا، وعلى بن أبى طالب حارب من أجل أن لا تنزلق قيم الرسالة الإنسانية وتصبح ملكا لا يساوى بين الناس المعنيين برسالة السماء الإنسانية.

وأبو ذر الغفارى ذلك الإنسان الذى استوعب قيم الإنسانية وحث الناس على عدم التفريط فيها وأنها ليست منحة من الحكام أو الملوك وأنها قيم إذا فرط فيها الناس فستضيع تلك القيم وسيعقبها ارتداد إلى ما قبل الرسالة المحمدية لذلك لا نعجب عندما يقول « عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته، ألا يخرج على الناس شاهرا سيفه »، إنه يحث الناس على التمسك بالرسالة قبل الحكام، وقبل فوات الأوان.

ولكن ماذا تبقى من رسالة الإنسانية التى بعث بها محمد النبى هذه الأيام ؟ ماذا تبقى من قيم الإنسانية وسط التمايز الطبقى والمالى الكبيرين اللذين يحكمان عالمنا الإسلامى؟ لماذا لا يتمثل الأغنياء قيم الإنسانية حتى لا يكون هناك فقير تمتهن إنسانيته فى سبيل الحصول على قوت يومه؟ ولماذا فرط الفقير فى رسالة النبى حتى فرط فى إنسانيته حتى أصبح عبدًا لغيره؟

فكروا معى وضعوا رسالة النبى الإنسانية موضع بحث بينكم، ولا تجعلوا الحكام ولا الفقهاء نصب أعينكم، ولا حكاما على ما تصلون له من إجابات عن التساؤلات السابقة.

رسالة محمد النبى، رسالة إنسانية لا تخطئها العين، فقط فكروا فيما أنتم عليه من إنسانية، هل هى حقا إنسانية متسقة مع الرسالة المحمدية أم مع رسالة وشريعة الغاب التى جاء محمد النبى ليهدمها..

كن إنسانا تتسق مع طبيعتك التى أرادها الله لك.

موسى والسامرى . .
من ينتصر الألواح أم العجل ؟

صراع دراماتيكى يخبرنا به «القرآن الكريم» و يفرق فيه بين الحالة الثورية الحالمة المنتصرة التى كافحت سنين طويلة، ضد الظلم والجبروت والكفر بالله لتصل إليه مؤمنة طائعة، وبين انكسارها وضياع مكتسباتها فى أقل فترة زمنية وارتداد كفرى لا مثيل له فى التاريخ.

إنها ثورة النبى موسى المؤيد من السماء ضد فرعون الذى طغى وتجبر وتكبر على الله، الذى لم تقنعه الإشارات والمعجزات الربانية من أن يصدق أن « موسى » جاء مبشرا بزمن جديد، الناس فيه متساوون أمام الله وفى الحقوق والواجبات، والذى ازداد تنكيلا وتعذيبا لكل من آمن برسالة السماء الخالدة الموحدة للإنسانية التى تصف الناس فى اتجاه السماء، حتى لم تقنعه آيات العذاب التى أنزلها الله على الشعب المصرى الذى استخف به فرعون فصدقه، والذى لم يبده الله بعامة كقوم عاد وثمود لسبب يعلمه الله وحده.

هنا أيقن موسى أن التغيير محال فى هذا الجو المشحون بالكراهية من النظام الرافض لنداء التغيير، لذلك طالب أتباعه من قومه ومن المؤمنين به أن يتجهزوا للخروج من الأرض الظالم أهلها، وتم له ما أراد واستطاع أن يخرج بقومه فى غفلة من فرعون وجنوده، ولكن تنبه فرعون وأمر جنوده بالقبض على موسى وأتباعه، حتى ما إن وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر أدركوا أنهم مدركون من فرعون، هنالك أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فانفلق البحر إلى فلقين كالجبال، وعبر موسى وقومه البحر مشيا.

هنا أدركهم فرعون الذى ظن أن المعجزة الربانية ممكن أن تستوعبه وتسلم له موسى ليقتله، فمشى وراءهم فى البحر هنا عاد البحر إلى سيرته الأولى واضعا نهاية أليمة لكل ظالم متجبر ظن وهما أن قادر على كل شيء، فغرق فرعون وجنوده وانتهت حياته للأبد وبقيت سيرته عبرة لكل متجبر.

وما أن عبر موسى بقومه إلى سيناء، حتى ذهب للقاء ربه ليتلقى ألواح التشريع الإلهى التى تؤسس لمجتمع ما بعد ظلم فرعون وجنوده.

غاب الملهم، فحدث خللٌ بين قومه، وقدم « السامرى» نفسه لهم على أنه ملهم جديد وصنع

للقوم إلهًا على هيئة «عجل» يصدر صوتا، وكانت المفاجأة أن أكثر القوم صدقوه رغم الآلام التى عاشوها فى ظلم فرعون ورغم البشارات والمعجزات الربانية المؤيدة لهم، ولم تشفع عندهم نداءات «هارون» أخي موسى بأن يرجعوا إلى الصواب.

وعلى الرغم من أن موسى رجع بألواح التشريع الإلهى ونسفه للعجل الإله ودعائه على السامرى، إلا أن ذلك لم يشفع للبشرية.

وتقرر ثورة موسى ضد فرعون حقيقة أن المؤمنيين بالتغيير لصالح كرامة الإنسان وضد الظلم والجبروت، هم قلةٌ وسط طوفان بشرى قد يظن فى وقت من الأوقات أنهم مثلهم ولكن ما إن تخمد المعجزات، نجدهم عباداً للعجل المقدس مقدمين مصالحهم الشخصية على مصالح التغيير للأفضل.

هذا ما حدث فى ثورة ٢٥ يناير قلة مؤمنة بالتغيير رافضة كل أشكال الظلم والجبروت قامت بثورة ضد فرعون جثم على صدور العباد حتى ظن الناس أنه لايمكن أن يزحزح من مكانه، مؤيدة من حجافل عظيمة من الشعب المصرى، صانعة طوفانا بشريا أغرق فرعون ونظامه فى ملحمة تاريخية فى زمن لا توجد فية معجزات الأنبياء.

ولكن بعد أربع سنوات ونيف من الطوفان العظيم وغرق مبارك ونظامه، يبدو أننا قد وقعنا فى الفخ الأزلى وظهر أن الأكثرية قد باتوا منقسمين عائدين إلى عبادة « العجل المقدس « تاركين ألواح التشريع الربانى التى تدعو للحرية والمساواة والعدل، وتمترست كل طائفة وراء « عجلها « الخاص بمسمياته المختلفة (إمام ـ شيخ ـ زعيم ـ حركة) معلنة أنها الوحيدة صاحبة التغيير، فى الوقت الذى يقف فيه الشعب يائسا حائرا.. مع من يقف «موسى أم السامرى» «الألواح أم العجل» ليخرج من أزمته السياسية والاقتصادية التى تعصف به، فى الوقت الذى يقصف ليلا ونهارا من إعلام غير منضبط منفلت، غير معبر عن تطلعات أمة لا زالت تعانى آلام مخاض عسير خاضع لكل تيارات عبادة « العجل المقدس « فى الوقت الذى جاءت فيه سلطة جديدة تنادى بتحقيق أهداف ثورة ٢٥ يناير.

ولكن يبدو أن القائمين على الإعلام يريدون أن يحولوا السلطة الجديدة إلى « عجل مقدس « بديلا « لألواح موسى « ظنا منهم أنهم يقدمون ولاءات لم تطلب منهم أصلا للنظام الجديد، غير مدركين لطبيعة التغيير وحدودة الجديدة وأن الحوادث وإن تكررت فإن الأزمنة لا تكرر

لذلك إذا كنا راغبين فى الخروج من أزمتنا الحالية، فعلينا أن نتخلص من عبادة « العجل المقدس « وأن لا نكون أسرى تجارب سابقة وشخوص ماتت وأفكار عفا عليها الزمن، وأن نبحث عن زمن

جديد بأفكار جديدة تناسب هذا العصر، وأن تكون « ألواح التغيير « هى الحاكمة لنا جميعا .. وأن نعيد صياغة لغة إعلامية منضبطة بعيدة عن التشكيك محفزة غير منحازة إلا لصالح الوطن.

وأن نهدم تلك المنظومة البالية لصالح نظام جديد يبشر بزمن « الألواح « لا زمن « العجل المقدس «

فإلى أن يتم التغيير المنشود، فسنظل أسرى صراع موسى « الألواح» والسامرى « العجل» تحت مظلة إعلام يضلل ولا يهدى.

لذلك فهل هناك من يسمع ويعى أن الإعلام يؤجج الصراع ويعزز مواقع المتمترسين حول العجول المقدسة، ويعمل على تشرذم المجتمع.

انسفوا هذه المنظومة من أجل صالح هذا الوطن.

والله لسه بدري بدري . .
يا شهر الصيام

رمضان شهر الصيام والبركات الربانية، التى تتنزل على عباده الصائمين الطائعين، هاهو على أعتاب الأمتار الأخيرة من عمره، هذا العام، بعد أن ملأ حياتنا بهجة وفرحة وإيمانيات قلما نجدها طوال أيام السنة، واجتماعيات نادرا ما نجدها بين الناس فى الأيام العادية، وكأنه كتب على هذا الشهر أن يكون مقياسا لحياتنا الاجتماعية، وخاصة تلك المتصلة بعيادة الأقارب والمرضى، والتى نهملها دائما.. ولكن تبقى عيادة الفقير هى التى نحتاج من الجميع أن تستمر لبقية العام دون انقطاع، فالفقير هو الفقير فى بقية العام، وهو الذى لا يجد قوت يومه فى رمضان وفى غيره من الشهور.. إنه الذى يستحق أن تمتد له يد العون لمساعدته على غلاء المعيشة والظروف الصعبة التى يحيا فيها.. وإنه لا يكفى أن نُعرِّض به على شاشات التلفاز طوال الشهر مستعطفين الأغنياء والمحسنين أن يساعدوا الفقراء لانتشالهم من الجهل والمرض.

أين ذهبت أخلاقيات المجتمع المصرى التى حصرها فى الشهر الكريم ؟؟ أتكون الأزمة الاقتصادية هى السبب ؟؟ أين دور المجتمع المدنى ؟؟ أين دور الدولة ؟؟

ربما يكون الجميع مسئولين عن أزمة الفقير فى هذا البلد.. لكن الذى أعرفه أن منظومة الدين والأخلاق قد تبدلت وأصبح التعاطى مع الدين يتم من وجهة الشكليات والمظاهر، دون النفاذ لجوهر الدين، الذى يعلى من أخلاقيات التعامل بين الناس، والتى توجد بيئة مناسبة لخلق مناخ عام من العمل الاجتماعى الجماعى الذى يساعد على مكافحة الفقر الاقتصادى داخل المجتمع قبل أن يطال الفقر الجانب الأخلاقى.

انتبهوا يا سادة، شهر رمضان شارف على الانتهاء، ومعه ستخف جذوة الإيمانيات الشكلية عند الكثيرين وأيضا ستخف جذوة العطاء والإحسان والصدقات بالضرورة لأنها مرتبطة بالحدث الرمضانى، وهذا ما نحذر منه.

الفقير يناديكم أن لا تكفوا يد عطائكم وإحسانكم ولا تتصوروا أنكم تقربتم إلى الله فى رمضان كفارة لبقية الشهور، ولا تتخيلوا أن الفقير يطلب منكم فضول أموالكم، بل يطالب بحقه الذى شرعه الله فى أموالكم « وفى أموالكم حق معلوم، للسائل والمحروم».

من أراد التقرب منكم إلى الله فليعلم أنه موجود يقبل التقرب إليه فى رمضان وفى غير رمضان،

ويفرح بعبادة المؤمنين الذين يعرفون حقه فى عباده الفقراء، الذين يكفونهم مذلة السؤال بعيدًا عن الرياء والنفاق الاجتماعى.

لا تجعلوا الفقراء يتضورون جوعًا ومذلة، أنقذوهم مما هم فيه، إنهم ينتظرونكم فى كل وقت، لا تجعلوهم يتحسرون على فراق رمضان لأنه سيتركهم فى العراء دون من مساعدة.

لذلك على رجال العمل العام ورجال الدين- الذين يشيعون جوًا من السعادة فى نفوس الفقراء عندما يرونهم لأنهم لا يتركوهم طوال العام- أن يكثفوا جهودهم أكثر ويقوموا بتوعية الناس بأهمية العطاء والخير للقضاء على الفقر، والعمل على إيجاد بيئة خصبة للأفكار الخيريه التى تساعد فى بناء مجتمع سليم بعيدًا عن الأحقاد.

آلام الجوع وآلام المرض ولسعات البرد فى العراء من جراء الفقر تستدعى منا أن نتكاتف لمسح دمعة طفل فقير جائع، رأى فى رمضان مأوى مؤقتًا ليعالج فيه أوجاعه، ولكنه لا ينسى أنه بعد أيام سيعلن التلفاز قرب نهاية الشهر عبر أغنية « ولا لسه بدرى، بدرى يا شهر الصيام »، لتنسال دموعه غزيرة على أيام كريمة رأى الناس فيها كرامًا ودودين، وعلى أيام قادمة يعلم يقينًا أنها ستمر عليه كالدهور.

استمروا فى العطاء لأنه مردودٌ عليكم، فمساعداتكم ليست للفقير فقط ولكنها أيضا من أجل الوصول للمجتمع المثالى الذى يعرف فيه الفرد حقه على مجتمعه، ويعرف المجتمع حقه على الفرد، مجتمعٌ تشيع فيه روح المشاركة المجتمعية التى تنتنج مجتمعًا صحيحًا بعيدًا عن التعصب والغلو.

أعتقد أن المهمة ليست سهلة، ولكن لنضع أيدينا فى أيدى بعضنا، شيوخًا وشبابًا، رجالاً ونساءً، دولة ومجتمع مدنى، ولنبدأ الخطوة الأولى لبناء مجتمع من غير فقر، وعبر إشاعة جو من روح التسامح والمحبة وحب العمل الخيرى غير القابل للربح بيننا وبثه فى نفوس أولادنا الصغار وشبابنا، ولنعلن أننا بدأنا شهورًا رمضان جديدة من الخير والعطاء، ولن نسمح للفقير أن تنسال دموعه قط عند سماعه « ولا لسه بدرى بدرى يا شهر الصيام ».

المغناطيس الإسلامى

الاستراتيجيات إملاء جغرافيا وتاريخ، وقد تتغير السياسات المعبرة عنهما لتتلاءم مع متغيرات الظروف، لكن الاستراتيجية تعلم دارسيها أن الأهداف يمكن الاقتراب منها عن طريقين: اقتراب مباشر أو غير مباشر، مع بقاء الهدف فى الحالتين ظاهرا أمام عيون طالبيه حتى وإن أخذتهم التضاريس إلى الطرق الدائرية.. **محمد حسنين هيكل**.

هكذا كانت تلك طريقة تعامل « أمريكا « الاستراتيجية مع المنطقة العربية والإسلامية، اقتراب مباشر تارة واقتراب غير مباشر تارة أخرى، وذلك من أجل تحقيق استراتيجيتها العامة وبما يحقق مصالحها المباشرة دون النظر لمصالح الآخرين، وهى بسبيلها إلى تحقيق تلك الاستراتيجية فهى تتبع كل الأساليب الممكنة والقابلة للتحقق على أرض، حتى وإن استعملت أساليب يراها البعض أساليب جديدة، ولكنها فى الواقع أساليب قديمة بغطاء حديث، مثل استعمال الدين والتحالفات الدينية لتبرير سياسات بعينها لإقرار واقع سياسى وعسكرى مراد له التطبيق على الأرض.

فهى التى رأت أن « القومية العربية « فى خمسينيات القرن العشرين خطرا على مصالحها الاستراتيجية فسارعت إلى استدعاء الدين لمحاصرة تلك الدعاوى القومية التحررية والتى رأتها امتدادا وتمددا للنفوذ السوفييتى المناهض لها، وقد كان الدين هو الاستدعاء العاجل للحل الاستراتيجى، وهو ما ترجم بسياسة « المغناطيس الإسلامى « والقائلة بالعمل على إنشاء تحالف إسلامى مكون من السعودية وتركيا وباكستان لتكون نواة لمغناطيس عملاق يكون عامل جذب لكل الدول الإسلامية والتى تمثل حزاما حول الاتحاد السوفييتى من أجل العمل على محاصرة والقضاء عليه.

وهكذا جرى التحضير وأنشئت منظمة « التعاون الإسلامى « لتكون غطاء للمغناطيس بعد إخفاقه الأول فى مشروعه العسكرى فى « حلف بغداد « وتكون منظمة مناوئة للقومية العربية التى كانت آنذاك فى أوج مجدها.

وبعد أن سقطت القومية العربية على وقع هزيمة ١٩٦٧ وانحسار بريقها، وبعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣، فقد بدا أن هناك «تماهى سياسى» جديدا يرى فى أمريكا أنها القادرة والفاعلة وأن

بيدها وحدها حل قضايا المنطقة العربية بنسبة ٩٩ ٪، مما شجع أمريكا على تنفيذ سياستها الإسلامية لمحاصرة الاتحاد السوفيتى، وهو ما تحقق لها ولكن ليس علنا خوفا من رد فعل مباشر للروس.. وذلك بتشجيع العداء الاسلامى الروسى ومساندة الجهاديين فى أفغانستان، وتشجيع قيام « نادى السفارى « المكون أساسا من دول إسلامية للحد من النشاط السوفييتى المناهض لها فى إفريقيا.

ومع سقوط الاتحاد السوفييتى، والذى بدا إنتصارا أمريكيا فى استرتيجية « المغناطيس الإسلامى «، وعلى الرغم من الأعراض الجانبية لذاك الحل من موجات إرهابية كبيرة طالت العالم بأكمله، إلا أنه وفر لأمريكا غطاء سياسيا وعسكريا جعل منها إمبراطورية أحادية القطب فى عالم متلاطم.. ومع تسارع الأحداث والسنوات فقد بدا أن أمريكا وحدها لا تستطيع أن تحكم العالم بمفردها فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه مراكز قوى أخرى فى العالم، فكانت أن تبنت سياسة جديدة مناسبة لعالم متعدد الأقطاب لمحاصرة تلك القوى والتى رأتها أخطر على مصالحها دون غيرها وهى روسيا والصين.

فكانت أن استدعت « المغناطيس الإسلامى « مرة أخرى لتقديم مبررات لحصار جديد لروسيا والصين، وكيف يكون المبرر لاستدعاء المغناطيس وروسيا اليوم ليست تلك الدولة الملحدة الكافرة، وأمريكا المسيحية نفسها موجودة بجيوشها على أرض إسلامية، لذلك جرى تغيير أقطاب المغناطيس لتناسب الحدث وتم استغلال التدخل الروسى فى سوريا لمساعدة النظام السورى ضد الجماعات الإرهابية من أجل الترويج بفجاجة أن روسيا تقمع الحرية وتساعد نظاما فاشيا وتقف ضد طموح الشعب السورى.

ولكن يبدو أن هذا الترويج لم يلقى آذانا صاغية خصوصا بعد الاستعراض العسكرى الروسى بسلاحة المتقدم والذى أربك الحسابات الأمريكية والتى رأت أن الدخول فى صراع مسلح مع الروس هو النهاية، لذلك فجأة وبدون مقدمات تم الإعلان عن إنشاء « التحالف الإسلامى « بقيادة السعودية وتبرير وجوده محاربة الإرهاب للتدخل فى سوريا والعراق، ولكنه ذاك المغناطيس القديم الذى يريد مساعدة أمريكا فى استراتيجيتها التى تقوم على محاصرة روسيا والصين، وكذلك القضاء على المحاولات المصرية لإنشاء « القوة العربية المشتركة «.. التى تعلى من شان النظام العربى فى مواجهة إسرائيل.

ولكن هل ينجح هذا التحالف الإسلامى الجديد، خاصة مع انسحاب تركيا وباكستان وماليزيا منة ؟ الإجابة عند مستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق « زينجو بيرجنيسكى « فى حوار قديم مع جريدة « لانوفيل أوبسرفاتور قال « لننظر إلى الأحوال الإسلامية بدون تهييج، هنالك دين له احترامه وله أتباع يقدر عددهم بمليار ونصف المليار من الناس، لكن الدين لا يجمع هؤلاء سياسيا فى التحليل الأخير، ما الذى يجمع مسلما أصوليا من السعودية أو مسلما عسكريا من باكستان أو مسلما معتدلا من المغرب، أو مسلما متعلما من مصر أو مسلما قبليا من وسط آسيا ؟؟ لا شىء يجمع هؤلاء إطلاقا، لا يجمعهم إلا ما يجمع المسيحيين فى العالم وهو فى الواقع لا شىء»

جمهورية النبى

عندما وصلت لمكة المكرمة قرب صلاة الفجر وبعد رحلة شاقة لأداء مناسك العمرة، وعلى الرغم من التعب والإرهاق الشديدين لطول المسافة التى قطعتها للوصول لمكة المكرمة، فإن الدخول فى أداء المناسك أنسانى هذا الإرهاق وذُبت فى مجموعات بشرية لها هدف واحد، طاعة اللة ورجاء لعفوه وأملا فى دخول جنته، وبعد أن تحللت من إحرامى مع الساعات الأولى للصباح، حتى أسلمت نفسى للنوم العميق، وما أن استيقظت من نومى حتى وجدتنى وبعد انتهاء صلاة الظهر، أطوف حول المسجد الحرام من الخارج، محاولا البحث عن سؤال شغلنى منذ أن حطت قدماى أرض مكة، وهو كيف يمكن لأناس أن يعيشوا فى هذا الجو القائظ شديد الحرارة التى تغلى لها الأدمغة خارج ما وفرته التكنولوجيا من رفاهية المكيفات ؟ فما بالك بعهد بعثة الرسول الكريم (ص) ؟ وهكذا تداخلت الأحداث ما بين القديم والحديث، حتى بعدت المسافة بينى وبين المسجد وهنا وجدت مشهدا لآلة عملاقة تعمل بكامل طاقتها لتسوية طريق، وهذا الطريق صخرى وصلد جدا، ولفت نظرى أن أرض مكة فى معظمها كذلك.

هنا وجدت نفسى سارحا متخيلا ما تحمله النبى (ص) من مشقة التبليغ والدعوة إلى الله فى مثل هذه البيئة قاسية الطبيعة، وأدركت ساعتها أن تعذيب الصحابى الجليل بلال بن رباح لم يكن تعذيبا عاديا بل أشد قسوة مما نتصور فقد تحمل قسوة طبيعة لا ترحم وقسوة قلوب لا تعرف معنى الإنسانية.

وحينما رجعت من العمرة كانت هناك مفاهيم قد تغيرت او بسبيلها لإعادة التمحيص، خاصة مع ما وجدته عند عودتى عندما وجدت حفاوة ممن حولى لأننى أتممت العمرة ووجدتهم يسألوننى عن هدايا (مسبحة أو سجادة صلاة أو بعض من ماء زمزم) ولم يتطرق لأحد أن يسألنى عما حدث لى من تغير فى هذه الرحلة ؟ بل سمعت صوتا يقول لى « أنت اليوم مغفور لك الذنوب « فقلت شكرا يا سيدى على صك الغفران.

لكن الأسئلة أصبحت تتوالى على نفسى تحاصرنى طيلة أيام طويلة، هل مشهد الآلة العملاقة وتسوية الصخر محض صدفة؟ أم أنه إشارة إلى مشهد أكبر لآلة عقلية جبارة معطوبة لا تقدر على إزالة صخر التاريخ والفقه الذى علق بعقول المسلمين؟ والذى أنساهم مشهد النبى (ص) وصحبه الكرام وهم يكافحون الطبيعة القاسية والقلوب الأشد قسوة من أجل بناء إنسانية جمعاء،

وإنسان يعبد الله بقلبه وعقله، بعيدا عن ثقافة كهنة المعبد التى تجعل الناس عبيدا لهم بعيدا عن حرية الإنسان لدى النبى.

يبحثون عن صكوك غفران تعوضهم عن عجزهم على تغيير واقعهم.
« إن غاية النبى لم تكن تربية اللحى والحجاب والمساجد لتشير إلى الله، وإنما تربية قلوب تشير إلى الإنسان لأنه ليس الله هو مشكلة الوجود.. بل الإنسان هو مشكلته « هكذا يقرر عبد الرزاق الجبران فى كتابه» جمهورية النبى « والذى قرر أن مشكلة « أبو سفيان « و « أبو لهب « لم تكن فى تحطيم أصنامهم ولكن فى كيفية تقبل المساواة مع العبيد فى وحدة إنسانية كبيرة تضم الجميع، فى كنف جمهورية النبى التى تعلى من القيم الإنسانية التى تجعل الإنسان حرا بعيدا عن سلطة الحاكم والكاهن، وأن الطريق إلى الله واضح المعالم فلا تتركوه وأن « الدين ليس إقامة الصلاة فى المعبد لأن الدين هو أن تقيم إنسانا بين الناس» « وأن الدين ليس هو أن تتعلم العبودية فى المعبد، ولكن هو أن تتعلم الحرية «.

جمهورية النبى هى جمهورية الحب والإخاء والمساواة، جمهورية العدل ورفع الظلم عن المظلومين، جمهورية ليست طوعا فى يد الحكام والكهنة، دولة آلات العقول الجبارة والقلوب النقية التى تعبد صخور التخلف والجهل والتعصب والإرهاب، دولة الثورة على الموروث لأنها جمهورية مجددة غايتها بناء الإنسان بعيدا عن عبودية صكوك الغفران قديما وحديثا، ليست جمهورية من دخل على فاطمة بنت الحسين بعد معركة كربلاء فى خيمتها وبعد مقتل أبيها وهى صغيرة محاولا سرقة خلخال من رجليها وهو يبكى،

فقالت له: ما يبكيك يا عدو الله.
فقال: كيف لا أبكى وأنا أسلب أبنة رسول الله
فقالت له: لا تسلبنى
فقال: أخاف أن يجيء أحدا غيرى فيأخذه
أى ليست من يتشدق ويبكى تدينا ولم يراع إلا ولا ذمة فى الناس، إنها جمهورية الضمير الإنسانى التى تركها لنا النبى محمد (ص) ميراثا وعهدا بيننا وبينه أمام الله.

هكذا كان نبيكم داعية إلى جمهورية إنسانية كبرى تضم بين طياتها من يريدون الوصول إلى الله من خلال إنسانيتهم وليس من خلال عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، وليس عبر توزيع

صكوك غفران من الحكام والكهنة.. فماذا تبقى من جمهوريته بينكم ونحن نحتفل بذكرى مولده ؟ ألستم معى أن آلات الإنسانية الجبارة التى أوجدتها جمهورية النبى قد تحطمت على صخور الجهل والتخلف الإرهاب وعبودية الحاكم والكاهن؟ ألستم معى أننا تخلينا عن الإنسان واستمرأنا صكوك الغفران؟

تذكروا أن ذكرى نبيكم تستدعى أن ترجعوا إلى إنسانيتكم، وإلى جمهورية النبى فهى الطريق إلى الله.

موسى نبى . . يوسف نبى

قال تعالى « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون « (آية ١١١.. يوسف).

رغم أن المخاطب بهذه الآية الكريمة هم قريش قوم سيدنا محمد (ص) الذين خاطبهم الله تعالى بأنأ قادر على إظهار نبيه من بينهم كما أظهر يوسف رغم المحن، وعلى الرغم من سياق الآية أن العبرة مخصصة للمخاطب إلا أنها عامة لذوى الألباب من البشر، ولذلك فإن دلالات الآية ومقصدها يجب أن يكون أولى بها وفى مقدمة الصفوف المصريون الذين كانوا أبطال أعظم قصص قرآنى، والذين ترك هم الله تعالى فى القصص القرآنى عبرا وليس عبرة واحدة فقد كانت مصر موطنا لأكبر حدثين تاريخيين تعدا حدود مصر إلى العالم ليكونا بمثابة عبرة للبشر وهما بعثة سيدنا موسى إلى فرعون، لينقذ قومه من براثن آل فرعون وطغيانهم، ونجاة سيدنا يوسف من أيدى إخوته ليكون أمينا على خزائن مصر كلها.

وعلى الرغم من الآيات الكثيرة والدلالات الدينية لكلا القصتين، إلا أنة عند نزع السياق الدينى للقصتين سنجد أننا أمام اثنين من أنبياء الله قد كانت قصتهما عبارة عن نزاع بين نبى وفرعون فى الأولى، وبين تعاون بين نبى وملك فى الثانية، أى أننا نتكلم عن قصتين دارت أحداثهما عند هرم السلطة فى مصر، قصة لها بعد سياسى وأخرى لها بُعد اقتصادى.

فسيدنا موسى أرسل إلى فرعون لكى ينقذ قومه من فرعون وجبروته، وعلى الرغم من الآيات الربانية إلا أن فرعون تجبر وأصر على اضطهاد قوم موسى وإذلالهم مستغلا قوته وبطشه وسيطرته على شعبه الذى أطاعه، والذين لم يرد الله أن يهلكهم بعامة، وعاقبهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم لتكون آيات مفصلات ومع ذلك « استكبروا وكانوا قوما مجرمين «.
هنا انسد أفق الحل السياسى القائم على الحوار الملىء بالمعجزات الربانيه، فأهلك الله فرعون وجنوده وأنقذ قوم موسى « ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين «.

وعلى الرغم من نجاة النبى موسى وقومه من فرعون وجنوده إلا أن المصريين لم يتذكروا من

تلك القصة إلا غرق فرعون لتجبره وتجرؤه على الله وفى المقابل لم يتذكروا العذاب الذى نزل بآبائهم عندما سمعوا كلام فرعون ولم يستجيبوا للحق فى إشارة لا تخطئها العين فى أن المصريين لم يتغيروا فى تعاطيهم مع الحاكم على الرغم من الآيات والأديان التى دخلت مصر بعد ذلك.

فالعلاقة لم تتغير الملوك تتغير والشعب واحد.. أمر ثم طاعة

فى المقابل نجد حوارا آخر بين النبى يوسف وملك مصر وبعد أن نتخطى الجانب الإعجازى والإيمانى للقصة نجد أنفسنا أمام ملك يستعين بسيدنا يوسف لتجاوز أزمة اقتصادية وجودية تلوح فى الأفق نتيجة جفاف النيل، ويعينه أمينا على خزائن مصر، فكانت خطة ما نسميها فى الوقت الحاضر العمل والادخار، والتى قامت على زراعة سبع سنين بدأب وادخار ما يستطيع الشعب أن يدخره حتى ما إن جاءت السبع العجاف استطاعت مصر أن تتجاوز أزمتها الاقتصادية، وتلك الخطة التى أصبحت كأول تنظيم اقتصادى تعلم منه العالم فيما بعد كانت لها دلالاتها أيضا حيث تكاتف الحكم مع أهل الخبرة وجموع الشعب وفق خطة مدروسة وعملية من أجل الخروج من أزمة اقتصادية كادت تودى بآلاف الأرواح بسبب المجاعات لو قدر لها أن تحدث.. ومع ذلك لم يتذكر المصريون من تلك القصة إلا جحود إخوة يوسف وامرأة العزيز والسبع السمان والسبع العجاف وتركوا دلالات العمل والادخار فى القصة.

ولكن بعد ثورة ٢٥ يناير وما أعقبها فى ٣٠|٦ هل حدث للمصريين تغيير يتسق مع العبرة المستمدة من السياق القرآنى؟ أعتقد أن التريث فى الإجابة وعدم إصدار الأحكام المطلقة خاصة مع ما تمر به مصر فى ذلك المنعطف التاريخى هو مطلب ضرورى، حيث إن الحكم على المصريين فى تلك اللحظة من ناحية التعاطى السياسى أو الاقتصادى مع رأس السلطة لن يكون منصفا لشعب يريد أن يكون مشاركا فى السلطة والثروة.

ولكنه خرج للتو من مرحلة عصيبة شابهت تقريبا كل الفترات السابقة فى تاريخه إلا فيما ندر حيث التفرد بالسلطة والثروة والشعب خارج السياقين، أما الآن فالشعب مطالب بأن يتمسك بحقوقه السياسية والاقتصادية وأن يكون شريكا فيهما، بل متحكما فيهما وعليه أن يتذكر جيدا أن عصر الأنبياء انتهى وبقيت العبر الربانية قائمة وأنه هو المطالب بالعمل ولن تتدخل السماء بالمعجزات من أجل شعب خبر المعجزة وخبر دلالاتها.

إذا كان «موسى» نبيا و» يوسف» نبيا، فإنهما وعلى الرغم من البعثة الربانية إلا أنهما تركا إرثا

سياسيا واقتصاديا علما من خلاله المصريين أن التعاطى مع السياسة يجب أن يحكمه العقل والإيمان في إطار المشاركة السياسية لا سياسة الأوامر والطاعة حتى لا نجد أنفسنا أمام الطوفان، وأن التكاتف بين عناصر النظام الحاكم والخبرة وجموع الشعب ستفضى حتما إلى رخاء اقتصادي.

هل ما أطلبه كثير، أعيدوا قراءة قصتى سيدنا موسى وسيدنا يوسف بطريقة أخرى لعل وعسى.

محمد نبى . عيسى نبى

قال تعالى « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ « (آية ٦٦. التحريم).

هكذا هو حال القلة من المؤمنين الذين آمنوا بالله من المصريين والذين تم تعذيبهم والتنكيل بهم من قبل فرعون وزبانيته، وسط محيط هادر من المصريين المتماهين مع فرعون وعمله الذين آثروا الدنيا على الآخرة، لهذا ليس من المستغرب أن نسمع عن وأد أى محاولة فى طريق التوحيد الإلهى من قبل الفراعنة والتى كانت تقابل بعنف ووحشية ليس لها مثيل، مما أورث المصريين الخنوع والخوف.

لهذا ليس من المستغرب أن يكون تعليق صديقى عزيز على مقالى السابق « موسى نبى.. عيسى نبى « بتذكيرى بملاحظة عبارة عن تساؤل مفاده « لماذا كان المرسلون لحاكم مصر دائما من غير المصريين؟؟ « وهو ما أجبت عنه فى حينها أن السبب يرجع إلى خضوع المصريين الكامل طوال تاريخهم للفرعون دون مقاومة لذلك كان التذكير من الخارج.

لهذا يبقى التساؤل: لماذا تقبل المصريون الدخول فى دين جديد جاء من وراء الحدود؟

الإجابة بسيطة.. هى قاعدة حرية الاختيار.. التى لم تترسخ إلا بعد سقوط ونهاية الإمبراطورية الفرعونية وهو ما أوجد مساحة من الاختيار جعلت المصريين قادرين على توسيع قاعدة القلة المؤمنة على حساب الأكثرية التى كانت تهاب الفرعون وجنوده، حتى أصبحت الأغلبية مسيحية ودافعت عن إيمانها وتحملت الاضطهاد والقتل والتشريد على يد محتل غاصب لبلادهم رأى أن يفعل بهم مثل فعل الفراعنة، وهو ما لم يسمح به المصريون عبر المقاومة المستمرة فكان أن انتزعوا الحق الوحيد فى حياتهم ألا وهو « حرية العقيدة « لأول مرة بتاريخهم، وهو ما تكرر مرة أخرى عندما طرق الإسلام أبواب مصر فكان الاختبار الثانى لحرية العقيدة والذى بموجبه تحولت مصر من أكثرية مسيحية إلى أكثرية مسلمة، ويا للعجب فى فترة زمنية تقارب تقريبًا الفترة التى تحولت فيها مصر إلى أكثرية مسيحية فى الماضى.

إنها حرية العقيدة التى جاء بها « محمد النبى « و» عيسى النبى «، إنها حرية « لكم دينكم ولى دين « إنها حرية « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر».. حرية اختيار أحسن المصريون لها وأكرموا وفادتها ودافعوا عنها، حتى سطر التاريخ حروفا من النور لهم دفاعا عن

العقيدة الإسلامية والمسيحية فى تناغم عجيب وصل إلى أن دفاعهم عن حرية العقيدة أصبح مثالا لوحدتهم الوطنية والتى أصبحت مع مرور الزمن صمام أمان للمجتمع ككل.

إذا فماذا حدث لتعاليم محمد النبى وعيسى النبى، حتى نسمع بين الحين والآخر عن مشاحنات وصدامات بين منتسبى كلا الديانتين؟ وما هو التغير الذى حدث حتى نصل إلى هذا الحد بعد أن كافح الأجداد لنيل حرية الاختيار العقائدى؟

إنه التطرف الأعمى الذى قتل الفيلسوفة « هيباتيا « على يد المتطرفين دينيا فى الإسكندرية قديما، وهو الذى قام بتعرية « سعاد « حديثا.. إنه الآفة التى أصابت أتباع الديانتين.

إنه الذى اقتحم مكتبة الإسكندرية وهدم التماثيل والرموز الفنية بدعوى انتمائها للتراث الوثنى قديما وهو من يحرق مكتسبات الحضارة الإنسانية حديثًا.. والذى فى مقدوره أن يسيل أنهارًا من الدماء بين المصريين.

إن المصريين الحاليين يجب أن يعوا أن تعاليم محمد النبى وعيسى النبى كانت اختيارا حرا لأجدادهم وكفاحا كبيرا على مدار آلاف السنين لنيل حرية العقيدة، والتى يجب ألا يسلموها إلى التطرف، حتى وإن كانت أسباب الصدام مشروعة فى حالات بعينها، لأن ميراث الأجداد فى حرية الاختيار والذين سالت دماؤهم غزيرة فى سبيلها أحق أن تصان.

نازعوا فيها كل الدول والحكام الذين احتلوا مصر ولم يسلموها لهم، وبقيت مصر عصية على التفرقة كما قال « كرومر « المحتل الإنجليزى « لا تستطيع التفرقة بين المسلم والمسيحى إلا إذا دخل المسلم المسجد والمسيحى الكنيسة «.

تلك هى مصر التى اختارت تعاليم محمد النبى وعيسى النبى بإرادتها الحرة ودافعت من أجلها.. والتى تستطيع أن تدحر قوى التطرف بإعمال القانون على الجميع دون تفرقة.

تعاليم (محمد النبى وعيسى النبى) يستطيع المصريون دون غيرهم أن يرجعوا لها بريقها، لأنهم الوحيدون الذين يعلمون مدى الألم الذى تجرعوه فى سبيل نيل حرية الاختيار قديما، وأن وحدتهم الوطنية ليست أحضانا وقبلات فى أعياد ومناسبات ومصالحات.

إن اختيار الأجداد لن يحميه إلا القانون، قانون الاختيار الحر المستمد من آلام وعذابات الأجداد نحميه بتفعيل القانون المادى ونحاسب من أخطأ دون تفرقة.

الفصل السابع

نقد أدبي

رؤيةٌ نقديةٌ

كتاب « العشقُ على طريقتى . . بين الدين المُنزَّل والدين المُبدَّل»

مقدمة

كثيرةٌ جدًا هى مُخرجات المطابع ودور النشر من المطبوعات والكتب المختلفة، لكن قليلٌ منها ما يثيرك للاشتباك معها.. فمساحة الإبداع أصبحت محدودة، والسطحية بادية بين مفرداتها.. ووسط هذا الواقع المؤلم للواقع الإبداعى، أجدنى أتلقى كتاباً هدية، يصحبه إهداءٌ رقيقٌ من كاتبه الأستاذ/ محمد جاد هزاع، تحت عنوان «العشق على طريقتى.. بين الدين المنزل والدين المبدل «.

يُعد الكتاب أول إبداعاته الفكرية، على الرغم من كتاباته الصحفية الكثيرة، وقد كنت من الذين نظموا ندوتين؛ لعرض مُسودات الكتاب، قبل طرحه للطباعة ومن ثَمَّ للجمهور.. وقد أثارت المسودات أسئلة كثيرة، وجدنا بعضها عند الكاتب، وسكت عن الأخرى؛ ربما لظنه أن الإجابة عنها تُعد إخلالًا وسبقًا، ما يفقد الكتاب رونقه.

وبقيت الأسئلة معلقة حتى ظهر الكتاب على أرفف المكتبات، أطلَّت الأسئلة من جديد، ولكن الإجابة بين طيات الكتاب أثارت قواعد الاشتباك فى نفسى، وأحسستُ أن الكاتب أطلق قذيفته ومضى، وتركنا نبحث عن إجابات فى خضم كبير من الأفكار والفلسفات المختلفة، فى «وجبة» يصعب التوفيق بين مكوناتها، فما بالك بمحاولة وضعها بمصطلح يعرف بـــ»الطريق الثالث»؟؟، والذى يبحث عن ملاذات آمنة؛ من خلال التوفيق بين مكونات فكرية مختلفة.

فى الندوة الأولى، سألتُ الكاتب: ما طبيعة الكتاب؟ فأجاب: عن التصوف.. فقلتُ: التصوف إما فلسفى أودينى؟ فأجاب: إنه طريق ثالث ؟؟؟ وفى الندوة الثانية ، ومع احتدام النقاش.. سألته: ما علاقة هذا الكتاب «بالكفر» ؟ فسكت الكاتب.. فهمَمْتُ بالاستفسار، فضحك ضحكة، فهمت منها أن الإجابة مؤجلة؛ لما بعد صدور الكتاب.

وها قد صدر الكتاب، ولكن الإجابة عن السؤالين قد فتحت مساحة ليست باهينة؛ وذلك

لطبيعة ما ذهب إليه الكاتب، من محاولة التوفيق بين فعلين بشريين متضادين، وإن أراد الكاتب أن يوحى إلينا أنهما يوصلان للهدف نفسه، وهما مقام العشق الصوفى، ذاك المقام الروحانى، وقواعد الاشتباك الدنيوية التى تثيرها ما عرف اصطلاحًا بالفلسفة الوجودية الإسلامية.

وهنا أصبح الاشتباك لازمًا لمحاولة الفهم، والبحث عن إجابات لأسئلة معلقة، تطال التاريخ والحاضر والمستقبل.

تمهيدٌ

الكتاب جاء كبيرًا نسبيًا؛ لكونه أول أعمال الكاتب، فهو يقارب الخمسمائة صفحة، وقد أراد الكاتب أن يكون غلاف الكتاب مُوحيًا لما يحويه بين دفتيه؛ فاختار لوحة فنية مبدعة، تعبر عن تجلِّيات صوفية، لا تُخطئها العين، ولكنها لامست الشق الأول من عنوان الكتاب «العشق على طريقتى»، ولم تقترب من النصف الآخرمن العنوان « بين الدين المنزل والدين المبدل «.. ويبدو أن الكاتب أرادها كذلك؛ لأنه عند قراءة الكتاب كاملًا نجد أن حظوظ الاشتباك الأرضى بين الدين المنزل والدين المبدل ليست كبيرة، ولا تمثل الهدف النهائى من الكتاب بكلياته.

..والكتاب يقع فى جزأين رئيسين هما:–

١– الضفة الأخرى: «سَرديةٌ بلا تعريف» وهى تعتبر مقدمة، لكنها ليست تقليدية؛ لكونها تحتل مساحة كبيرة من الكتاب، وفيها يشرح الكاتب– فى سياق تاريخه الشخصى– علاقته بالتصوف، التى أرادها بداية خارجة عن السياق العادى فى الاتصال بالطرق الصوفية، بل أرادها علاقة نبتت على غير موعد؛ وكأنها اختيارٌ رباني لشخصه؛ وذلك من خلال اتصاله بشيخه، الذى التصق به كثيرًا؛ للدرجة التى جعلته ملاصقًا له فى مصر والسفر إليه خارج مصر، أومن خلال الاتصال الروحانى الذى أوجد له تأصيلاً ماديًا بواقع ملموس؛ من خلال مخاطبة شيخه، وهما على أبعاد بعيدة. وكذلك التطرق للبشارات، التى وجدها تقف فى طريقه؛ لتنبئه عن سلوكه؛ ومدى استقامته على الطريق المستقيم. وما بين كثرة المصطلحات الصوفية كـــ» الحال، والمقام، والتجلى، والعشق.... إلخ «.

فجأة وفى مَزج بديع، يصل الكاتب الحالة الصوفية بالحالة الأرضية، من خلال ثورة ٢٥ يناير، ويظهر لنا أن تلك « الثورة– المؤامرة» هى أحد التجليات والنبوءات، التى عرفها من شيخه، وكيفية صعود أبطال الدين المبدل «التيار الدينى»، وامتلاكهم السلطة بقيادة «الأحول»، الذى

سيعمد إلى نفع أهله وعشيرته، لا نفع الناس كلهم، وهذا سيكون سبب سقوطهم، وهوما حدث فى نهاية المطاف.

وفى نهاية القسم الأول من الكتاب، بدا لنا أن الكاتب يريد أن يكون على الضفة الأخرى، من الواقع الحادث، فى محاولة فلسفية صوفية.. تجعله خارج السياق العام، لما يدور خارج محيطه، بل ومحكمًا له، فى برهان حقيقى على أن هناك حاجزًا فلسفيًا يمنعه من الارتقاء الروحى، ربما لانشغاله بما حدث أو حادث، أو محاولة جريئة؛ لروحنة الحادث نفسه، ووصله بالحالة الصوفية؛ للتخلص مما علق به من آثام وشرور.

٢- خلف الجبل: « نصوص بلا تصنيف»، وهذا الجزء يعتبر الأكبر؛ حيث يحتل أكثر من ثُلثى الكتاب، وهو ينقسم إلى ثلاثة عناوين رئيسة:

« فلما تجلى.. وهو يحاوره».. «وما ينبغى له، منه، به، فيه».. « كأنه هو» له، لى، لكم «. والعناوين مقسمة إلى نصوص مرقمة، ظاهرها أشعار على نمط الشعر الحديث، لكن الكاتب أرادها تحمل المعنيين، معنى للخاصة من الصوفية، الذين يقرأون بقلوبهم، أصحاب مقام العشق.. ومعنى للعامة ممن يبحثون على المعانى الظاهرية، وتشدهم كلمات الحب ومعاني الجمال بين السطور.

وهى عبارة عن حوارات بين الكاتب وشيخه و» الذات «.. وفى هذا الجزء، حقق ما تكلم به الأستاذ/ يوسف زيدان، عندما قال « حلَّق الصوفيون بأجنحة المحبة والعشق حتى وصلوا إلى آفاق مستحيلة، وبلغوا منتهى المنتهى، وقد تجلى ذلك فى عبارات الصوفيين النثرية و كما ظهر فى الشعر الصوفى « ولكن كما أراد أن يكون فى الجزء الأول على الضفة الأخرى، أراد فى الثانى أن يكون خلف الجبل بعيدًا عن أعين الناس، فى محاولة روحية بحتة، للبحث عن إجابات لما حدث وماهو حادث.

وهذه محاولة جريئة وحديثة؛ لإعادة إنتاج ما ذهب إليه من سبقوه من المصلحين، الذين رأوا فى الحالة الدينية وسيلة ناجعة للإصلاح، بعيدًا عن أصحاب الدين المبدل، الذين أفرد لهم الكاتب نصين متتابعين بعنوان « الدين النقيض ١، ٢ «.

وما بين الضفة الأخرى، وخلف الجبل، يتبين لنا أن الكاتب يعانى أزمة حقيقية، فى إعادة طرح الصراع الفلسفى الدينى والتصوف، وكذلك محاولة مزجهما للخروج بحل وسط؛ يجمع بينهما من أجل الوصول إلى الحقيقة؛ وطريق جديد يجد فيه الكاتب الحل الناجع لأزمة المجتمع الإسلامى.

البحث عن الإجابة

كنا قد طرحنا آنفا، وقلنا إن الكاتب يتطرق إلى محاولة جديدة، وجريئة لمحاولة إيجاد طريق ثالث من أجل الوصول إلى حلول عصرية وجريئة للواقع الدينى المأزوم فى العالم الإسلامى، وهوبذلك قد يكون أجاب عن سؤالى الأول الذى طرحته عليه سابقًا عن ماهية الكتاب وتوجهاته؟ لكن يبدو أن طريقه الثالث لن يمر بسهولة، دون الإجابة عن السؤال الثانى، وهو: ما علاقة ما يحويه الكتاب من الكفر؟؟.

وهنا يصبح تفكيك عنوان الكتاب، هو المفتاح الحقيقى للإجابة عن السؤالين معًا كالتالى :

١- الكاتب فى الشق الثانى من العنوان « بين الدين المبدل والدين المنزل « ينحى بنفسه نحو ما عُرف اصطلاحًا بالفلسفة الوجودية الإسلامية، والتى يرى فيها الحل؛ للوقوف فى وجه التطرف ومحتكرى الدين، وهى مدرسة « أرادت أن تكتشف معنى الوجود الإنسانى؛ كى تُعلم الإنسان إنسانيته أو وجوده الحقيقى أو كيف يحقق وجوده أو وجود الله فيه.

ومن أعلام هذه المدرسة، د.محمد إقبال المجددى، الشاعر العظيم، والملقب برائد تلك المدرسة، والذى قال « أيها الناس، إن مشكلاتكم التى تضجون منها، حلها بيدى، وهذا هو المفتاح «المصحف»، فما عليكم إلا أن تنصرفوا عليه، ثم تستعملوه على وجهه « وهوبذلك يضع الدين بوجهه الصحيح حلاً لمشكلات الناس؛ بعيدًا عن مقدسى العبادات ومتطرفى الأفكار.

وهذه المدرسة ترى أن ما تدعو إليه لم تحققه إلا الصوفية، فى كثير مما تدعو إليه، وهو ما يُلخصه أبرز رواد تلك المدرسة الحاليين عبدالرزاق الجبران فى مقولة « الحقيقة ليست بعيدة.. الأسماء تُبعدها ».

وهذه المدرسة فى حالة صدام دائم مع محيطها من النصوصيين، ومحتكرى الدين، لذلك نرى أنصارها مطاردين ومنفيين، وفى حالة حراب دائم على جميع الأصعدة.. رافعين لافتة إصلاحية كبيرة عنوانها « أردنا أن نصلى خارج المعبد، فلم يقبلوا صلاتنا»، ولكن هيهات، التكفير هم بالمرصاد.

٢- الجزء الأول من العنوان « العشق على طريقتى «.. وحالة العشق هذه هى حالة مختلف عليها، فهناك من الصوفية أنفسهم من ينكرها، ومنهم من يرى فيها إحياءً لعقيدة الحلول الفاسدة.

وهنا تكون إجابة سلطان العاشقين، روزبهان النقلى، الملقب بـ»الشطاح» هى الفاصلة، عندما يقول « ولما أراد -تعالى- أن يفتح كنز الذات، بمفتاح الصفات، تجلى على أرواح العارفين، بجمال العشق، وظهر هم بصفات خاصة، وأنهم حصَّلوا فى كل صفة لباسًا، فمن العلم علمًا، ومن القدرة قدرة، ومن السمع سمعًا، ومن البصر بصرًا، ومن الكلام كلامًا، ومن الإرادة إرادة،

ومن الحياة حياة، ومن الجمال جمالًا، ومن العظمة عظمة، ومن البقاء بقاء، ومن المحبة محبة، ومن العشق عشقًا.

كانت كل هذه « هو» فبرز «هو» فيهم، وأثرت الصفات فيهم، والصفة قائمة بالذات، فأصبحت صفتهم قائمة من أثر ذلك، ولا يوجد من الحلول شيء في هذا العالم : العبد عبد، والرب رب.

ولكن هل تنفى تلك الإجابة لروزبهان النقلى، عن أصحاب مقامات العشق شُبهة التكفير؟، أعتقد أن الإجابة الصحيحة لا ، لكن كلا يمضى في طريقه. وكما قال سلطان العاشقين: « العشق سيف يقطع رأس الحدوث من العاشق، وهو ذروة قاعدة الصفات، فما وصلها روح العاشق إلا واستسلمت للعشق، وكل من صار معشوقًا للحق وعاشقًا للحق لا يستطيع النزول من تلك الذروة، ويصير في العشق متحدًا بالعشق «.

**الخاتمة

إن قراءة الكتاب قراءةٌ متأنيةٌ، ملمة بقواعد المصطلح الصوفى ومقتضيات العمل به، ستجعل من السهل الوصول للحقيقة التى يريد الكاتب أن يصل بها بمن يقرأ كتابه، الوصول إليها دون معاناة حقيقية.

والكتاب في حد ذاته محاولة جريئة؛ لمزج الفلسفة الوجودية، بعد أسلمتها ووضعها في إطار صوفى، باحثًا عن طريق ثالث، لصد الهجمات عن الدين من أعدائه الخارجين، ومحتكرى الدين والتكفيريين في الداخل، ولكن في الواقع أعتقد أنها محاولة لن يُكتب لها النجاح؛ بسبب واقع مأزوم نعيشه، أوربما لعدم تمكن الكاتب من طرحها عمليًا، وإطلاعنا على تجارب حية لإمكانية التنبؤ بنتائجها؛ على أرض الواقع.

ويتبقى أن نقول، إن الكتاب بمثابة حجر كبير، أُلقى في مياه راكدة، أعتقد أنه سيثير جدلًا كبيرًا، وأكاد أشفق على الكاتب، مما سيجده في طريقه، في محاولة إثبات أن ما ذهب إليه، هو الطريق الصحيح لتصحيح المفاهيم.

دينُ الحُب فى زمن الحَرب
سردية راقص التنورة

-١-

« هل يأتى زمنٌ على الناس يسقط فيه حرف (الراء) من كلمة الحرب، ليعيش الإنسانُ على وجه هذا الكوكب زمن الحب؟.. وإذا استحال ذلك، فهل من الممكن أن تكون الأغلبية جيشًا للحب يُحاصر القلة التى لا تعرف كيف تعيش إلا فى أجواء الحرب؟.. ربما يكون «دينُ الحُب فى زمن الحرب» خطوةً على الطريق.

استهلال و»مقدمة قصيرة جدًا « كما عنونها وأرادها الكاتب « محمد جاد هزاع « فى الجزء الثانى من ثلاثيته الإبداعيةْ والتى صُدرت تحت عنوان « دينُ الحُب فى زمن الحَرب.. يوميات شاهد وشهيد «.

ومن خلالها يعطى مسارًا محددًا لطبيعة ما يحويه الجزء الثانى من ثلاثيته، وحصره فى إطار ثنائية الصراع الأبدى بين الحق والباطل، الخير والشر، أو ما أراد صكه من مصطلح دين الحب فى زمن الحرب، ليعطى مساحة أوسع وأشمل هذا الصراع، وهو ما يعطى معنى فلسفيًا صوفيًا، وبُعدًا إنسانيًا لماهية الصراع الأبدى، بعيدًا عن عوالم لا ترى فى هذا الصراع، غير البعد المادى، مجرد دماء تسيل، تشعل صراعًا، سرعان ما يفور، حتى يهدأ، ثم يعيد الكرة مرة أخرى، وهذا ما لم يرده الكاتب.

حيث إنه يُعطى للبواعث الإنسانية بُعدًا ظاهرًا فى الصراع، وهو يؤكد القيمة الإنسانية، ويجعلها حاكمة للصراع الإنسانى، وعلى أن الصراع لا ينتج غير الدماء والخراب، عبر الدعوة لأن يُسقط جميع الناس حرف «الراء» من كلمة «الحرب «، لتتحول الكلمة والفعل إلى « الحب «.

ومع استحالة حدوث ذلك – كما قرر هو بنفسه– فإنه فى الوقت ذاته، حول حُلمه بذلك التعديل، إلى أمنية رآها ممكنة، وهى أن تكون الأغلبية جيشًا للحب يحاصر القلة، التى لا تعرف كيف تعيش إلا فى أجواء الحرب، وهى أمنية تلاحق إهداءه فى بداية الكتاب وتؤكدها، حيث أهدى كتابة إلى القلة « أبناء النور» و»نقاط الضوء من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين وخلقه الطائعين»، و» إلى الحسن والحسين وذرياتهما»، فى مواجهة الكثرة من «جيوش الظلام» .

وهوما يُغرى بقراءة الكتاب، والبحث فى معانى المقدمة بين ثناياه عما يؤيدها، ويُغرى بالانضمام لدين الحب، لتعضيد قوى النور، فى مواجهة جيوش الظلام العاتية.. وحافزًا تدفعه روح إغرائية للاشتباك مع كاتب يحمل رؤية مجددة للصراع، يدافع عنها، ويتمترس خلف ثوابتها، ومعتقداتها، شاهرًا فى وجه الجميع سيفًا باترًا محاولًا اجتثاث جذور الإرهاب والتطرف عبر الهداية والدعوة إلى دين الحب على الطريقة الصوفية.

–٢–

الكتاب يقع فى ثلثمائة واثنتين صفحة، وهوأقل بالطبع من الجزء الأول من الثلاثية « العشق على طريقتى.. بين الدين المنزل والدين المبدل « بنحو مائتي صفحة، وليس هذا فقط هوالاختلاف الظاهر بينهما، بل هناك خلاف فى طبيعة التناول، ذات الأرضية الصوفية الواحدة، فقد كان الشق الفلسفى فى الجزء الأول حاضرًا وبقوة، حتى إنه أثار غبارًا كثيرًا، ونقدًا طال الفكرة، عكس ما سنراه فى الجزء الثانى.

و كذلك هناك اختلاف أراه ارتقاء من الكاتب فى مستوى الصراع ضد «جيوش الظلام «، حيث كان يصف تلك الجيوش فى الجزء الأول بأصحاب « الدين المبدل «، الذى لا يُخرج ها من ربقة الدين، ولكنه فى الجزء الثانى يصفهم بأصحاب « الدين النقيض « الذى يوجب الخروج من الدين، وهو هنا يبدو أن لديه أسبابًا وجيهة، طرأت عليه بالتأكيد فى نطاق فترة زمنية ليست كبيرة فى عمر التطور ليتحول «المبدل» إلى « نقيض.. ليصبح حكمة باترًا على تلك الجيوش.

–٣–

الغلاف

هوأكثر ما يعبر عما تحويه دفتا الكتاب المراد قراءته، وهذا ما اختلفت فيه مع الكاتب فى الجزء الأول، حيث رأيت أن غلافه جاء غير معبر بشكل كبير عما احتواه من رؤية فلسفية عميقة، واشتباك مع الآخر فى الوقت نفسه.

لكن هذا الجزء؛ جاء الغلاف معبرًا عما يحويه الكتاب فهو يطالعنا بصورة «راقص المولوية « وهو نوع من الرقص الصوفى، عند متبعى الطريقة الصوفية، ويكون بالدوران حول النفس، والتأمل الذى يقوم به من يسمون «الدروايش»؛ بهدف الوصول لمرحلة الكمال، وهويتبع طريقة

« المولوية « التى أنشأها « جلال الدين الرومى « فى مدينة « قونية « التركية.

وبقدر ما يعبر الراقص عن حالة صوفية روحية، تبحث عن الكمال عبر الفناء فى الذات، فإن ملابسه تدفعه إلى وصوله إلى تلك الحالة، حيث إن اللون الأبيض للزى يرمز لكفن الميت، والأسود للقبر، والطاقية اللباد المميزة لشاهد القبر، وهو بذلك يكون متسقًا مع يرتله من أناشيد وأذكار، تعبر عن فنائه وانتقاله من حالة وجودية إلى حالة روحانية، تُعلى من النفس والروح.

ولكن كما فى غلاف الكتاب الأول؛ فعندما اقتبس الكاتب لوحة فنية، لفنان عراقى، يبدو أنه لم يقرأ الكتاب قبل كتابته، فقد وقع فى شرك بسيط لا يخل بالمعنى المقصود، وهو اختلاف الصورة، التى تعبر فى الجزء الأول عن تجربة صوفية مختلفة، كالحالة العراقية، وهو ما تكرر فى الحالة الثانية، فعلى الرغم من كون صورة الغلاف معبرة إلى حد كبير، إلا أنها تعبرعن تجربة مختلفة، وهى التجربة التركية، عكس حالة الكاتب فى الجزأين؛ حيث إنه غارق فى مصريته إلى حد الاختلاف مع المدرستين، رغم إعجابه الشديد بهما.

وهوما جعل صورة الغلاف قريبة جدًا للمعنى، ولكن لا تلامس واقعه، حيث إنه كان الأجدر بالكاتب أن يستعين بصورة «راقص التنورة « المصرى، التى يعبر بها عن « رقصة التنورة « المصرية، وهى الجزء « الممصر» من رقصة المولوية، ورغم التشابة الكبير فى الحركات والسكنات، إلا أن التنورة المصرية التى تعشق الحياة لها خصوصيتها، حيث الألوان الزاهية التى لا تخطئها العين، التى تريد الحياة والفناء فى الذات فى آن واحد، عقيدة إيزيس وأوزوريس ترى فى الخلود حياة أبدية، يمكن أن تتحقق على الأرض،

لذلك نرى الكاتب يرقص بالتنورة فاتحًا عينيه رافضًا الرقص المولوى المغمض العينين طيلة تسبيحه، بل يغمض عينيه فقط فى حالات خاصة، وذلك للبحث عن إجابات خاصة، وفى وقت معين.

–٤–

الكتاب

لا يحوى فهرساً محدداً يمكن الحكم من خلاله على أجزاء الكتاب المختلفة، والكتاب أيضا ليس رواية بالمعنى الحرفى، ولكن الكاتب أراد كتابه كحوار دون شطآن بينه وبين الآخر النقيض، ربما كان ذلك مقدمة أرادها للجزء الثالث من الثلاثي، بل أرادها « سردية بلا تعريف .. ونصوص بلا تصنيف «، وذلك ربما تحررًا من أثقال الجزء الأول الذى جاء فلسفيًا وربما تكون رؤية للكاتب أن يكون كتابه فى مستوى فكرى مناسب لمساحة من الناس أرادها كبيرة لوصول فكرته مبسطة وخالية من العوائق الفلسفية.

– ٥ –

على الرغم من المشهد الاستهلالى لبداية متن الكتاب، الذى دارت أحداثه بين الكاتب وشيوخه الكرام بين جنبات المسجد الحسينى فى القاهرة، وعلى الرغم من أن الكاتب تلقى بشارة كتابه الجديد من قبل شيخه فى أثناء قراءة (ديوان العشق الإلهى)، والذى وجه كلامه له قائلا « أدين بدين الحب ..... فلربما يكون ذلك هو عنوان (كتابك الجديد) « .. إلا أن الكاتب ينقلنا سريعًا من حالة المشهد الحسينى الروحانية المولوية فى حضرة مشايخه، إلى حالة التنورة المصرية المليئة بالأحداث المتصلة بالحياة والخلود المليئة بالألوان والحركة، التى تفتح طريقا بين الحياة الآنية وحياة الخلود فى جو روحانى يتسق مع ما يعنيه الانتقال المكانى الجديد إلى « سيناء «، حيث التقاء الأديان « وطريّق الصحابه والتابعين « « وربما لأنها شهدت تضحيات الآلاف من الشهداء «

والكاتب حكاء بارع، راصد ماهر تفاصيل المشهد العام فى مصر كلها، هو يجعل الرحلة إلى سيناء من بدايتها لنهايتها رصدًا لحالة جنونية أصابت مصر منذ الأحداث التى تلت الخروج على أتباع تيار الإسلام السياسى فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣، حيث انطلاق موجة عاتية من الإرهاب الأسود رآها ووصفها الكاتب على أنها ليست موقوفة على توصيف سابق لأنصار هذا الإرهاب من أنهم أصحاب « دين مبدل « فقط ، بل إن الأحداث التى رآها والتى أرخها بين جنبات الكتاب ورأى مجريات الأمور على أرض سيناء وما استتبعها من إجراءات أمنية استوجبت توقف الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى هذا الجزء العزيز من الوطن، استوجبت منه أن يطلق عليهم توصيفا أكثر قسوة من أنهم أصحاب « دين نقيض « وهو ما يوجب خروجهم من ربقة الدين الإسلامى، فى مفارقة غريبة على شخصية الكاتب الظاهرة فى كتاباته حيث إنه ينكر أسلوب التكفير الذى يتبناه أصحاب الفكر التكفيرى حاملى السلاح، وفى الوقت نفسه يصك مصطلحا ربما يصل بالكاتب لمساحه توجب عليه الدفاع عن مصطلحه فى مواجهة رافضى الإقصاء من المدافعين عن حرية الاعتقاد.

وعلى الرغم من التوصيف الروحانى والمكانى للأحداث، والمشهد العام لمصر ولسيناء، إلا أن راقص التنورة يأبى إلا أن يغمض عينيه ليسبح كما الكواكب فى الفضاء الكونى والروحى للبحث عن إجابات لمشهد بدا عصيا عن الحل البشرى البحت، أو كما أرجعها الكاتب العودة إلى أصول الدين السبعة « الحياة والحرية والمعرفة والكرامة، ثم التوحيد والرسالة والآخرة»، إلا أنه يرجع ذلك كله إلى « أصل الأصول» وهو» الحب»، لذلك نجد أن انتقاله الروحى والمكانى بين شيخه» محمد العرايشى»، ومضيفيه غير المصريين عرب وأجانب، وبين أسرة من

قبل أصحاب « الدين النقيض «، ورغم النصوص الصوفية الكثيرة التى تملأ جنبات الكتاب، و كذلك تأكيد الكاتب على سلامة رؤية تجاه أصحاب فكر الخوارج، إلا أن الكاتب من خلال الكتاب وأحداثه يؤ كد أن البحث عن الحياة والحرية والمعرفة والكرامة كأسلوب للارتقاء الدنيوى اللازم، والتوحيد والرسالة والآخرة كوسيلة للارتقاء الأخروى الضرورى، إلا أن ذلك يصطدم دائما بحائط الكراهية والتدمير والإرهاب ما يمنعه من الالتقاء بأصل الأصول وهو الحب، القادر وحده على هزيمة الإرهاب والتطرف، فى لمسة صوفية لا تخلو من صفاء روحى جانبه اختيار سيناء كمكان مناسب لأحداث الكتاب.

– ٦ –

على الرغم من أن الكتاب خالٍ من التعقيدات اللغوية والفلسفية، إلا أن الكاتب مثير فى تناوله الأحداث و كذلك جرأته على الوقوف فى وجه تيار عاتٍ من منتقديه من أنصار « الدين النقيض « ، وربما تكون نصيحة شيخه هى التى أهمته هذه الجرأة والتى تصلح ختامًا لتعليقى على الكتاب .:.

« إنهم يا ولدى يسيرون عكس المعنى الحق للطاعة والاتباع والرضا، يريدون تجميد البحر الذى يمده من بعده سبعة أبحر، إلى سبعمائة، إلى أضعاف مضاعفة، إنهم يريدون تحويل البحر الممدود دائما أبدًا، من صاحب المد إلى جبال من الثلج يدفن تحتها معنى « الخلافة الإنسانية» نفسها، تلك الخلافة التى أقر الله أنها خلاقة، بجلى اسم الله عليها ، حيث قال « فتبارك الله أحسن الخالقين»، وهذا سرها، إنهم يعطلون مراد الله من خلقه فالله لا يزال يخلق، وخلفاؤه لا يزالون يخلقون، إنهم لا يريدون خلقا جديدا أبدا، لا من الله ولا من خلفائه، بينما النص متسعٌ ويتسع على الدوام، كالإنسان و كالكون «.. وإنا لموسعون « .. هذا دين نقيض، هذا دين أصنام وأوثان قدت من صخر اسمه « النص « الجامد ذى المستوى الدلالى الواحد القديم.

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

رحلة الدم
رؤية شخصية للتاريخ

مقدمة

لا زلت أؤمن بأن الرواية العربية تنقسم إلى نوعين لا ثالث لهما- من وجهة نظرى.
نوع يثرى الفكر ويثير فى النفس روح التحدى للاشتباك معه ومن ثم الوصول لمرحلة الاستمتاع العقلى، ونوع لا يعدو كونه مجرد أوراق مطبوعة لا تعدو كونها مجففا لروح الإبداع تجعل النفس تعانى جفافا فكريا عميقا ، وهذا الجفاف الفكرى غير مغرٍ بالاشتباك معه فى معركة فكرية على الرغم من أعداده التى لا تعد ولا تحصى .
ومما لا شك فيه أن المكتبة العربية وخاصة المصرية تعانى بشدة من سيطرة مجففات الفكر والإبداع وخاصة منذ نهاية الربع الأخير من القرن العشرين والمستمر معنا وقد قاربنا على نهاية الربع الأول من القرن الواحد والعشرين.
ولذلك تبقى الروايات الإبداعية كوميض ضوء وسط ظلام دامس يغطى كامل المساحة الفكرية العربية والمصرية التى سيطرت عليها العقلية الصحراوية فى التفكير.
ورواية « رحلة الدم « للكاتب الصحفى « إبراهيم عيسى « هى من ذاك النوع الإبداعى الذى يثرى الفكر ويثير مواطن الشغب داخل العقل المحفزة للاشتباك مع الكاتب وروايته، خاصة أن تلك الرواية تعتمد على منطق لم تألفه العقلية المصرية الحالية والتى ولدت فى سبعينيات القرن العشرين وما تلاها والتى ولدت وترعرت فى ظل تنامى التأثير الصحراوى على الثقافة المصرية، وهى تعتمد على قراءة للتاريخ من وجهة نظر أدبية، أو ما نستطيع أن نطلق عليه تحويل النص التاريخى إلى نص أدبى وهو عمل مرهق يتطلب ثقافة عالية ومقدرة كبيرة على « الحكى « بأسلوب سلس وممتع وهو ما يتمتع وتفرد به كاتب الرواية.
وبغض النظر عما يحويه هذا النص الأدبى من عناصر تشويق وإثارة، إلا أنه لا بد من الاشتباك معة لأن رؤية الكاتب الشخصية لتاريخ العنف رؤية مجتزئة ومحددة بشدة لفترة تاريخية بعينها وهو ما جعل من الرواية نصا يغرى بالاشتباك وربما يصبح كاتبها هدفا لنيران اشتباك من نوع آخر مع أصحاب « الفكر التجفيفى».

تمهيد

الرواية تقع فى نحو ٧٠٨ صفحات من القطع المتوسط ، وهى رواية بالقطع كبيرة، خاصة على عقلية جمعية ألفت عدم القراءة لهذا النوع من الروايات الكبير نسبيا وربما البسيط منها وسط تراكم ركام من التراجع الفكرى والثقافى الذى يغلف المشهد العام للحياة الثقافية المصرية.

الغلاف

من الأمثلة الشعبية الشائعة فى مصر مثل « يعرف الجواب من عنوانه « للدلالة على أن الصياغة الجيدة والتعبيرات والدلالات المباشرة والصور المعبرة لها قدرة على إيصال المعنى قبل أن تدخل لمتن الخطاب أو النص، وهو ما فعلته صورة غلاف الرواية،سيف مغروس فى الأرض مغطى باللون الأحمر القانى يتصدر الصورة مع خلفية لمبان حضارية شاهقة مع عنوان كبير « رحلة الدم « تحته عنوان أصغر توضيحى بعنوان « القتلة الأوائل « ، وكأن الكاتب يخبرنا بأن جذور الإرهاب والتطرف ما هى إلا بذور ولبنات ملاصقة تنشأ منذ البدايات الأولى لنشوء أى حضارة ويصبح الحكم على قدرتها على النمو أو الضمور هو قدرة البناء الحضارى على استيعاب الاختلافات وصولا لمرحلة الإبداع التى تجعل من التطرف كــــ « فيروس « حاصرة الدواء وجعله خاملا لفترات طويلة، ولا يستطيع هذا « الفيروس « أن ينشط إلا عندما يعتل الجسد الحضارى وتخبو روح الإبداع .

والكاتب موفق إلى درجة كبيرة فى اختيار الصورة خاصة وأنه اختار البدايات الأولى للحضارة الإسلامية بالتوازى مع بروز مظاهر التطرف والشقاق مع مقتل الإمام « على بن أبى طالب « فيما عرف بفترة « الفتنة الكبرى « والتى نشأ بعدها بناء حضارى شامخ بداخله بذور تطرف طال البناء نفسه قبل أن يطول غيره.

متن الرواية

قبل الدخول لصلب الرواية ينبهنا الكاتب إلى أن « جميع شخصيات هذه الرواية حقيقية، وكل أحداثها تستند إلى وقائع وردت فى المراجع التاريخية « ثم عدد تلك المراجع بمسمياتها ..

الرواية تبدأ بمشهد درامى دموى وهو مشهد مقتل الإمام على بن أبى طالب على يد قاتله « عبد الرحمن بن ملجم « وسط صيحات البشر المتجمعين « لقد قتل أمير المؤمنين ! هذا اللعين

قتل على بن أبى طالب «

ومن هذا المشهد الدرامى المتصاعد وصولا لمشهد دموى فاجع غير مجرى التاريخ الحضارى الإسلامى نرى الكاتب وقد رجع فجأة إلى « عشرين سنة ماضية « لمحاولة فهم من أين نشأ هذا التطرف خاصة مع البدايات الرائعة الربانية للدين الإسلامى والذى لا يمت لهذا التطرف بصلة.

وقد رحل الكاتب إلى الخلف مع البدايات الأولى لظهور « عبدالرحمن بن ملجم « من أوائل المتطرفين فى الحضارة الإسلامية والذى كان مولى للصحابى الجليل « معاذ بن جبل « إمام العلماء، المبعوث من قبل الرسول (ص) لليمن لتعليم الناس أمور دينهم الجديد، ومتولى اليمن بعد ذلك من قبل خليفته أبو بكر الصديق، أى أنه آمن بالرسالة المحمدية، ولم يرَ النبى أو يصاحبه ولم يدخل المدينة إلا بصحبة وليه معاذ بن جبل فى فترة حكم الخليفة « عمر بن الخطاب « وبعد أن أعتقهة معاذ بن جبل نتيجة خلاف بين الخليفة عمر ومعاذ على خلفية سياسة الإمام العادل « من أين لك هذا ؟ « الشهيرة.

ولسبب ذكره الكاتب فى الرواية ظهر « ابن ملجم « فى مصر مبعوثا من قبل الخليفة لجيش « عمرو بن العاص « فى مصر « ليعلم الجنود دينهم وليتلو عليهم القرآن ويحفظه لهم « مع توصية ببناء بيت له بجوار الجامع الذى سيبنى للمسلمين فى مصر حتى يسعى له الناس ويسمعوا منه ويتعلموا القرآن «.

ومع تصاعد أحداث الرواية بشخوصها وأحداثها، نصل إلى فتح مصر من قبل عمرو بن العاص بمساعدة سلبية، من « أقباط مصر « معتنقى المسيحية على مذهب مخالف لمذهب المحتل الرومانى، الذى سلبهم الأرض وجعلهم عبيدا فى أرضهم، والذى لم يكتفِ بهذا فقط، بل أراد فرض مذهبه « الخلقيدونى « فى الاعتقاد المسيحى عليهم تحت ذريعة توحيد الاعتقاد المسيحى فى الإمبراطورية الرومانية، وهو ما قوبل برفض كنسى وشعبى سرعان ما تحول إلى اضطهاد الرومان للمصريين اضطهادا شديدا مما جعل البطريرك « بنيامين « كبير القبط ورأس كنيسة الإسكندرية يفر ويهرب من هذا الاضطهاد إلى فيافى الصحراء متنقلا بين دروبها.

ومع اكتمال الفتح.. يظهر « ابن ملجم « ظهورا متقطعا فى الرواية ولكنه يشى عن عقلية متحجرة نصوصية لها فهوم وآراء غريبة فى وقتها، مثل:

سؤاله لـــــ « مسلمة بن مخلد « الصحابى الجليل : لقد تابعتك مع صحبك منذ جئتم ، ولم أعرف لماذا عدكم ابن الخطاب واحدكم بألف ، فهل تحنو على أخيك بالإجابة ؟ ثم أضاف : أين التسعمائة والتسعة والتسعون رجلا الآخرون فيكم ؟ « وهو ما استدعى ضحك مسلمة بن مخلد وتركة ومشى».

وكذلك تبرُّمه وشكايته الدائمة من أن أحدًا لا يريد أن يتعلم القرآن أو يسمعه هو ما رد به عليه الصحابى الجليل « عبد الرحمن بن عديس « قائلا : «كل واحد هنا يؤدى دوره، القرآن الذى تملك حفظه فى قلبك لا يملك أن يرفع سيفا ليقاتل، والسيف الذى يمتلكه غيرك لا يقدر على تلاوة سورة ، اتل أنت ويحاربون هم».

ومفهومه للصحابة نتيجة لملازمته « معاذ بن جبل « يصل إلى مرتبة القداسة، وذلك عندما يقول:» ومن يصح إن لم يصح الصحابة؟ فيرد عليه من أحد الصحابة « يصح الصحيح صاحبًا كان أو مصحوبًا».

ورفضه موالاة الأقباط لأنه لا يصح التحالف مع الكافرين فى الحرب.

وأذانه فى داخل كنيسة الإسكندرية بعد فتحها ووسط الاحتفال برجوع البطريرك «بنيامين» إلى الكنيسة وسط ذهول الحاضرين الذين لم يكونوا يعلموا من اللغة العربية شيئا، وهو ما لفت انتباهه إليه «صالح القبطى» المسلم الذى منعه من الصلاة بعد أن أكمل الأذان، لأن هذا ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب فى كنيسة القيامة فى الشام.

وتشبثه بمصحفه الذى قرأه عن معاذ بن جبل وبالقراءات الخاصة به وهو ما سبب له مشاكل ومشادات بسبب تشبثه بما حفظه فقط، وهو ما كانت صدمته عظيمة عندما انتزعه منه رجال والى مصر الجديد عبدالله بن أبى السرح بعد رحيل عمرو بن العاص، وحرقهم نسخته من القرآن بأمر من الخليفة عثمان بن عفان الذى أمر بجمع القرآن وحرق كل النسخ المخالفة لهذا الجمع.

كل هذا يرصده الكاتب وسط تصاعد روح الثورة فى مصر على حكم الخليفة عثمان بن عفان على يد محمد بن أبى حذيفة، ومحمد بن أبى بكر وبمساعدة صحابة كبار لم يخرجوا من مصر وعاصمتها الفسطاط، منذ وطئت أقدامهم مصر، ومع تصاعد الأحداث وسخونتها نتيجة الأسباب التى عددها الثائرون للثورة على الخليفة، التى كان العامل الأبرز فيها هو محاباته أقاربه واستئثارهم بالمناصب والأموال دون غيرهم، وصلت الأحداث إلى مستواها الأعلى، بأن قام الثائرون بقيادة محمد بن أبى حذيفة بخلع ابن أبى السرح وتولى الولاية، هذا فى الوقت الذى انتقلت أحداث الرواية إلى « المدينة « عاصمة الخلافة مع ذهاب جموع من الثائرين بجموع أطلق عليها الكاتب لقب « المصريون «، ربما تمييزًا لهم عن وفود وفدت إلى المدينة من ولايات أخرى كالكوفة مثلا للغرض نفسه، لأن قادة الثوار العرب وأحداث الرواية لا يشيان بأن الثائرين مصريون أقباط بالأساس، لأنهم لم يدخلوا الإسلام بأعداد تسمح لهم بالثورة، ولا تغير لسانهم

إلى العربية، لعرض مطالبهم ولو بقوة السيف.

وعلى الرغم من انتقالات الكاتب بين مدينة الخلافة وبين الفسطاط عاصمة مصر آنذاك كثيرًا لربط الأحداث، وإظهار مدى اتساع هوة الخلاف بين الخليفة عثمان وبين منتقديه وتلاقي بين ثوار الفسطاط والمدينة فى الأفكار « تكفير الخليفة عثمان « والمطالب « عزل الخليفة وأقاربه من الولاة».. كل هذا وابن ملجم مشارك ومنتقل إلى المدينة للتخلص من الخليفة الكافر والتى تلاقت دعاوى التكفير مع عقليته الجامدة.

وعلى الرغم من محاولة الكاتب إيجاد نوع من « التأوهات والغنج والشخير والنخير « فى لقاءات جنسية بين « حبى « وزوجها « عبيد «، ربما لتخفيف حدة الأحداث وإعطاء الرواية بعدا تشويقيا آخر– وأنا أرى أنه لم يكن موفقا فيها لأنها لم تكن مؤثرة فى سير الأحداث مثل وضع رقصه فى فيلم لم تكن بالأساس فيه–

إلا أن هذا لم يخفف من حدة التأثير المتصاعد للأحداث ومقتل الخليفة عثمان وتمزيق جثته بعد أن انسد أفق الحوار بينة وبين الثائرين بسبب تعنت « مروان بن الحكم « الذى بسببه ثارت ثائرة الثائرين على الخليفة.

ووسط هذا التصاعد فى الأحداث الدرامية ومقتل الخليفة الذي عده الثوار كافرا ويجب خلعه ومن ضمنهم ابن ملجم، تم الإجماع بين الثائرين على اختيار الإمام على بن أبى طالب خليفة جديداً، وكما بدأ الكاتب الرواية بمشهد قتل أراد أن ينهيها بمشهد تنبأ بتعابير وجه الإمام «على « عندما يقوم بالسلام على جموع مهنئيه بالخلافة ومن ضمنهم ابن ملجم وكأنه يستشرف زمنا جديد:

« ابن ملجم : يا أمير المؤمنين ارم بنا حيث شئت لترى منا ما يسرك.

التفت الجميع الى ابن ملجم وقد تقدمهم أخيرا ليقف أمام على ، وقد اندفع ليلمس كف الإمام فيبايعه لكن يد على بعدت، رجعت، جفلت، وانسحبت وانقبضت وارتدت إلى صدره فضربت صدمة المفاجأة قلب ابن ملجم الذى اضطرب حماسه فزاد اندفاعه نحو على ليطبق على يديه.

رفع ابن أبى طالب عينيه نحوه فرأى ابن ملجم هذه النظرة من على، هل رآها غيره؟ هل لاحظها غيرهم؟ هل فهمها واحد منهم؟ هل سمعوا ما سمعه على أم أنه تخيله أو توهمه؟ أكان على وقد رماه بهذه النظرة التى فلقته يردد ويتمتم ويدمدم : إنا لله وإنا إليه راجعون.

** الخاتمة

الرواية بها إشكالية أساسية وهى تشبث الكاتب برؤيته الشخصية للتاريخ واجتزاء فترة الفتنة

الكبرى فى الحالة المصرية والتركيز عليها ، وأعتقد أن هذا سبب أراده الكاتب، وهو كبر حجم الخراج المصرى، وبالتالى الأهمية النسبية للثائرين على الخليفة، ولكن هناك سبب خفى أراده الكاتب، ولم يعبر عنه وإن أورده بطريقة جديدة، عندما كتب فى آخر سطور الرواية « أبريل ٢٠١٣-مارس٢٠١٦ « ربما لتفادى الصدام مع أفكار وشخوص بعينهم ، حيث إن تلك الفترة التى كتبت فيها الرواية ممتدة من قبل سقوط حكم الإخوان المسلمين بثلاثة أشهر مرورا بأحداث ٣٠|يونيو، وتولى عدلى منصور الحكم الانتقالى، ثم الرئيس الحالى» عبدالفتاح السيسى « وهو سبب نجده مبعثرا بين ثنايا الرواية ، مثل التركيز على أن الأقباط ليس بينهم تطرف، وأن التطرف نابع من أفكار واردة من الخارج، وهو بذلك يعطينا إحساسا جازما بأن تلك الرواية كتبت ثم أعيد ترتيبها وصياغتها أكثر من مرة لتماشى واقع ما بعد أحداث ٣٠| يونيو ٢٠١٣.

ولكن تبقى الرواية كبناء متكامل تستحق القراءة أكثر من مرة، وأترك مساحة الاتفاق والخلاف لغيرى، فالرواية حُبلى بالاشكاليات خاصة مع أصحاب الفكر الذى تستهدفه الرواية.

رءوف علوان . . حوار مع شاب

سعيد مهران محاصر بقوات البوليس، ويسمع صوتا فى مكبر الصوت :
الصوت: سلم وأعدك أنك ستعامل بإنسانية.
فقال: إنسانية رءوف ونبوية وعليش والكلاب
الصوت: اختر بين الموت وبين الوقوف أمام العدالة.
فصرخ بازدراء: العدالة يا كلاب

إنه سعيد اللص الذى تحول على يد الكاتب الكبير» نجيب محفوظ « إلى أيقونة حاكم من خلالها مجتمع ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ والتغير الذى طرأ عليه، وعلى الرغم من قراءتى للرواية ومشاهدة العمل الفنى الذى يحمل نفس اسم الرواية، إلا أنه لم يدر بخلدى أبدا أنها دائما مرتبطة بأحداث تعقب الثورات وتغيير الأنظمة.

ولكن بعد ثورة ٢٥ يناير وعلى بعد أيام من إكمال عامها الخامس، وجدت أن الرواية حاضرة وبقوة بشخوصها وأحداثها وكأنها تحكى واقعا معاشا، وليس خيال أديب مبدع . ولعل العلاقة الخاصة بين « سعيد مهران « اللص و « رءوف علوان « المثقف هى أروع تجسيد لما حدث بعد ثورة ٢٥ يناير، فــ «سعيد مهران» كان يرى فى « رءوف علوان « أستاذه رغم تقارب السن، ولِمَ لا؟ وهو الذى أنقذه فى أول سرقة له، وهو الذى أعطاه النصيحة الأولى التى تدل على رجل يحمل قيما ثورية تكره مجتمع ما قبل يوليو ٥٢، عندما قال:
ـ هل امتدت يدك إلى السرقة حقا يا سعيد؟.. برافوا.. كى يتخفف المغتصبون من بعض ذنوبهم.. إنه عمل مشروع.. لا تشك فى ذلك، أليس عدلا أن ما يؤخذ بالسرقة فالبسرقة يجب أن يسترد؟

وكان هو الذى أغراه بأن يقرأ وبأن يتدرب على استخدام السلاح.

ويوما قال له: سرقات فردية لا قيمة لها، لابد من تنظيم فى هذا الوطن لا يستغنى فيه الفتى عن « المسدس والكتاب « المسدس يتكفل بالماضى والكتاب للمستقبل، تدرب واقرأ..
وبعد أن خرج « سعيد مهران « من السجن ـ والذى اعتبره الكاتب بداية ما بعد الثورة ـ

وجد أن كل شيء تغير وأن الخيانة الشخصية لة بلغت حدا لا يقبل إلا لغة الرصاص، فلجأ إلى أستاذة «رءوف « فوجد أن الحال قد تغير معه أيضا وتحول من ناقم على الأغنياء إلى ناقم على الفقراء، ولم يجد سعيد فرقا كبيرا بين خيانة « نبوية وعليش « له وبين خيانة « رءوف علوان « لمبادئه وللوطن، هنا قرر سعيد أن يثور ويحاول أن يعيد التوازن المفقود فى منظومة ما بعد الثورة على طريقته وبأسلوبه، وعلى الرغم من عدم قضائه على ثالوث (نبوية-عليش-علوان) وسقوط ضحايا له من الأبرياء، وهجوم « رءوف علوان « علية فى جريدته الخاصة، إلا أن الناس البسطاء تعاطفوا معه، حتى إن « نور» صديقته قالت له:

الناس يتحدثون عنك وكأنك عنترة

سعيد: أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم، ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب

وعلى الرغم من موت « سعيد مهران « برصاص البوليس فى نهاية الرواية، وربما إعلانا من كاتب الرواية، أن نموذج (نبوية-عليش-علوان) هو نموذج سائد، وأن نموذج « سعيد « هو نموذج طارئ وغير سائد، إلا أن « سعيد مهران « مات قبل ذلك عندما تحولت الخيانة من الشخصية إلى خيانة الوطن، عبر إشاعة جو من القيم الفاسدة ومحاولة كتم الأنفاس، وأن « رءوف علوان « نموذج مكرر وليس عارضا فى حياة الشعوب، وأن الثورة فى سبيلها لتحقيق أهدافها لن تجد لها سبيلا إلا بالقضاء على نموذج رءوف علوان.

كان هذا جزءا من حوار طويل مع « محمود العوضى « شاب نابه مثقف لا زال فى بداياته الأولى، ولكنه يحمل عقلا راجحا، يذكرنى ببعض من ذكريات الشباب، الذى يعتقد اعتقادا لا يقبل الشك أن نموذج « رءوف علوان « هو النموذج السائد بعد ثورة ٢٥ يناير، وعلى الرغم من نقاشنا الطويل إلا أننى لم أستطع أن أقنعه بأن هذا النموذج ليس ولا يجب أن يسود، إلا أننى فى نهاية الحديث وبعد أن استأذن ومشى، وجدتنى أحادث نفسى قائلا: لِمَ انت مقتنع أن رءوف علوان هو النموذج السائد حاليا، فلما كنت تقتنعة بالعكس؟ أو تقلل من أهمية سيادة هذا النموذج؟

فرددت على نفسى قائلا: حتى لا يتحول شاب قادم إلى المستقبل إلى سعيد مهران أخر، لن يجنى من يأسة إلا رصاصات تخترق جسده بدلا من رءوف علوان..

وإلى حوارات أخرى...

مصطفى عجوة . . وحمادة الأصفر

«المبادئ تُخاطب الضمير والحقائق تصنع الحياة»..عبارة وردت فى تقرير أحد السفراء الأمريكان إلى إدارته.. لا أدرى لماذا استرعت انتباهى هذه العبارة؟، هل لأنها تعبر عن الحقيقة البشرية، أم أنها تعتبر تجنيا فاضحا على المبادئ واعتبارها مجرد فلسفات تسكن وخزات الضمير، بينما الحقائق تفعل فعلها فى حياة البشر.

وبينما أنا أسبح فى هذه الحيرة بين المبادئ والحقائق، فإذا بى أصبح أسيرًا لرواية رائعة للأديب الكبير محمد فريد أبو حديد ـ أنا الشعب .

فهاهو الاستاذ سيد ابن الطبقة الوسطى الذى يكافح بعد وفاة والده من أجل الحياة، حيث يعمل عند أحد الوجهاء متفانيا معتقدا وهمًا أن الحياة إخلاص وعمل، متوهما فى البشر من حوله أنهم ينظرون إلى الحياة مثله، متصورا أن محاولة الوقوف مع العمال فى مطالبهم ستمنع عن صاحب عملة الأذى وتودى به إلى الشكر على فعلته –هيهات–.

ولكن تأبى الحياة إلا أن تعلمه أن ما تصوره خطأ.. فهاهو يصطدم بنموذجين بشريين جعلاه يعيد صياغة ما ذهب إليه فى حياته.

الأول مصطفى عجوة– رمز الكذب والخبث والقسوة – وهو من الذين لا يتورعون عن إيذاء وإقصاء الشرفاء من أجل الالتصاق بأصحاب الجاه والسلطان، والذى كان سببا فى فصلة من العمل.

الثانى حمادة الأصفر – نموذج للعبيد الذين يتميزون بالمكر والخبث، والذى لا يعرفون الحرية ولا يتحمسون لها ولا يجاهدون من أجلها، بل يؤجر نفسه وخبرته الواسعة والعميقة بالبشر، من أجل من يدفع أكثر من السادة الذين يريدون السيطرة على الشعب المقهور.

هنا أدرك الأستاذ سيد أن الثورة الشعبية هى الطريق الوحيد للتخلص من العفن الذى أصاب المجتمع من اتحاد أصحاب السلطة وأبناء الإماء وتجار الأعراض ووسطاء الخيانة والدنس، لكن يأتيه صوت عاقل من بعيد يخبره ـ أن الثورة الشعبية تدمر ولا تفكر، ولو فرضنا أن الثورة نجحت فإنها لن تجد الشعب الذى يحسن الاستفادة منها، وقد نرضى عن الثورة التى تدمر إذا جنينا من ورائها خيرا، ولكن الثورة التى لا يستفاد منها لا تكون إلا شرا محضا.

وهنا لا أدرى عندما انتهيت من قراءة الرواية، أرانى أسترجع المشهد المصرى بالكامل من بعد ٢٥ يناير حتى الآن، وأقف مشدوها فاغر الفم من تطابق الرواية مع الأحداث، فهاهم أبناء الطبقة الوسطى وهم طليعة الثورة الحالمين بزمن جديد يقومون بثورة شعبية بديعة أبهرت العالم، ولكن يأبى أبناء اللصوص وتجار الأعراض ووسطاء الخيانة إلا أن يقفوا حائلا دون تحقيق الحلم بالتغيير.

ولما كانت الثورة شعبية وليس لها قائد،هنا فقط برزت معركة حامية الوطيس، تدور رحاها بين الشعب المقهور وبين أمثال مصطفى عجوة وحمادة الأصفر من النخبة الفاسدة ووكلائهم على كل المستويات، من أجل تحقيق المطالب بالحرية والحياة الكريمة.

حتى تعلق الشعب بشخص الفريق السيسى أملا فى الخلاص، وهو ليس مشهدا للخلاص بقدر أنها أزمة شعب.

لذلك يا سيادة الفريق يجب أن تعلم أن الذين يركعون تحت قدميك ليشكروك على عطائك لا يحملون لك غير الرهبة، لذلك حرر قلوبهم من أسر الإحسان لك واجعلهم وقودا لزمن جديد يعاد فيه صياغة علاقة صحيحة بين الحاكم ومحكومية.. وتذكر دائما أن مصطفى عجوة وحمادة الاصفر ليسا شخاصين يقتص منهما، بل هم نتاج سياسات فاشلة إقصائية لكل أمل فى التغيير.

لا أخفيكم سرا أنى أتوجس خيفة من قادم الأيام وأنى أرى أشباه مصطفى عجوة وحمادة الأصفر يمرحون بيننا هذه الأيام كالكلاب الضالة.

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com

ياسر رافع

عزيزي القارئ..

بَعدما مارسْتُ فعلَ الكتابة، والاختلاطَ بالشَّباب؛ أستطيعُ أن أجيبَ عن سؤال «هل نحن جيلٌ مظلومٌ؟».. بأننا لسنا جيلًا مظلومًا، بل جيلًا ظلمَ نفسَه؛ كغيره ممَّن سبقُوه؛ إذ لم يُمارسوا فعل المقاومة إلى النهاية، وآثروا الركونَ؛ في وجه سُلطةٍ غاشمةٍ؛ ولم يستخْدمُوا قدراتِهم الذاتية المتعددة، وأهمها: فعل الكتابة، واستخدامِ أدوات المستقبل؛ للتواصل مع الشباب الحائر، الباحثين عمَّن يُرشدهم؛ ويأخذ بأيديهم.

لذا؛ أرجُو أن تكونَ هذه المقالاتُ، فيها من القدر الكافى؛ للتواصل مع الشباب والمستقبل، على قدر استطاعتى، وإيمانى بأننى إذا لم يتوافر لِى الوقتُ الكافى؛ لكى يكون لى مكانٌ فى الماضى؛ ووقتٌ كافٍ للحاق بالمستقبل.. فعلى الأقل يكون لى صوتٌ مسموعٌ يجد صَدى، وآذانًا صَاغيةً؛ لعلَّ وعسى، تجسر ولو جزءًا بسيطًا من الهُوَّة بين الأجيال.

Ketab4Pdf
ketab4pdf.blogspot.com